فيصل حوراني

دروب المنفى 3

زمن الأسئلة

شهادة





زمن الأسئلة

دروب المنفى - ٣

فيصـــــل حـــوراني

زمن الأسئلة

دروب المنفى - ٣

رقم الاجازة : ١٩٩٨/٩/١٢٩٥
رقم الايداع : ١٩٩٨/٨/١٣٥٦
٤٣٢ صفحة
الطبعة الاولى - ١٩٩٩

ISBN 9957-14-006-X (ردمك)

دار سندباد للنشر: شارع مكة، قرب بنك الاسكان، عمارة رقم ٣٩، الطابق الثالث.
تلفون: ٥٥٢٣١١٢(٦-٩٦٢) - فاكس ٥٥٢٣١١٨(٦-٩٦٢) ص.ب: ٩١٠٢٨٩ عمان ١١١٩١ الاردن

فيصل حوراني

زمن الأسئلة

دروب المنفى - ٣

شهادة

دار سندباد للنشر
عمان - الاردن
١٩٩٩

١ على طريق البطيحة، القنيطرة وناسها

مرة أخرى ، كما كان الأمر حين عملت في فيق ، صارت القنيطرة المحطة التي يجب ان أتوقف فيها ، في الطريق بين دمشق ومكان عملي الجديد ، ليس لأن طبيعة المواصلات المتيسرة تفرض هذا التوقف ، فحسب ، بل لأن إدارة منطقة «الأونروا» التي اتبع لها تقوم في هذه البلدة . لقد أقامت الأونروا نظاماً ادارياً خاصاً بها ، فوزعت ساحات عملها في سورية على مناطق ، وجعلت لكل منطقة إدارة تضم مديراً وبضعة رؤساء للأقسام . ولم تكن تقسيمات الاونروا الادارية تتطابق ، بالضرورة ، مع التقسيمات الادارية السورية ، ذلك ان حجوم توزع اللاجئين الفلسطينيين في البلاد هي التي أملت طبيعة تلك التقسيمات . فالبطيحة التي عينت لأعلّم في مدرستها ، كانت ، حين يتعلق الامر بالاونروا تابعة لمنطقة القنيطرة . أما حين يتعلق الامر بالتقسيمات الإدارية السورية ، فكانت البطيحة تابعة لقضاء فيق . وكان هذا القضاء جزءاً من محافظة حوران التي تقوم إدارتها في درعا .

وصلت إلى القنيطرة في ضحى يوم حجبت غيومه الشمس . وكانت الريح التي تهب على البلدة من ناحية جبل الشيخ المكسوّ بالثلج تحبس السكان في الأماكن الدافئة ، فلا يظهر في الشوارع إلا الذين ترغمهم الضرورة على مجابهة الريح . وكان هؤلاء خليطاً من أهل البلدة الاصليين والعسكريين والزوّار الوافدين ، وكان بالإمكان تمييزهم باختلاف الأردية التي يتلفحون بها اتقاء للبرد : الاهالي بالمعاطف قاتمة الألوان ، والجنود بالمعاطف الخضراء وازرارها النحاسية ، والزوار من الفلاحين الميسورين بالعباءات الصوفية ومن الفلاحين الفقراء بشتى الاسمال . وبالرغم من أني جئت بغير معطف وأن آلام المفاصل دهمتني ، فقد كنت سعيداً أتم السعادة . وقد لاحظت كم اختلفت مشاعري ، في هذه المرة ، عن مشاعري في أي مرة سابقة . وكان من السهل أن أحزر السبب ، إذ إن تلك كانت المرّة الأولى التي أجيء فيها إلى القنيطرة بإرادتي المحضة وأنا متجه نحو المستقبل الذي اخترته بنفسي ولم يرسمه لي الآخرون .

لم يكن النزول في الفنادق أمراً شائعاً في مثل هذه البلدة التي لم تبتعد عن طبيعتها القروية بالرغم من اتساع حجمها . بل أظن أن القنيطرة كلها لم يكن فيها فندق واحد . وهكذا قصدت أصدقاء لي سبق أن تعرّفت عليهم في دمشق لأقيم عندهم حتى أفرغ من استكمال ترتيبات عملي قبل التوجه إلى البطيحة . وكان هؤلاء الأصدقاء قد دعوني مسبقاً للإقامة في دارهم ، فتوجهت إليها فور وصولي ، وتمتعت ، كما لم اتمتع من قبل ، بحفاوتهم ومودتهم وكرم ضيافتهم .

كان ربّ الدار التي قصدتها هو السيد محمد لطفي ابن الحاج موسى الكبير الحسني الجزائري ، أقدمه لك بهذا الاسم الطويل الذي يضعه هو على بطاقة الزيارة العائدة له ، لأن الاسم يحمل الدلالة القاطعة على عراقة نسبه وحسبه ، ولأنه هو نفسه حريص على أن يعرف الآخرون هذه العراقة . ومحمد لطفي هو الاسم الأول للرجل ، والحاج موسى هو أبوه ، وقد أضيف لقب الكبير إلى الحاج تمييزاً له عن آخرين من سلالته حملوا هم ، ايضاً ، اسم موسى . أما الحسني فهو لقب الأسرة ، وهو يوحي

بانتمائها إلى الحسن بن علي بن أبي طالب ، حفيد النبي محمد . وأما الجزائري فهو اللقب الذي اضيف إلى الألقاب الأخرى ليدل على أن الأسرة منحدرة من أصل جزائري . والحقيقة ان الأسرة صاحبة الألقاب العديدة المتصلة هي واحدة من الأسر التي قدمت إلى سورية مع الأمير الجزائري عبد القادر عندما نفى الفرنسيون هذا الأمير من بلده وألجأوه إلى العيش في دمشق في اواسط القرن الماضي . ويبدو أن لهذه الاسرة صلة قرابة باسرة الأمير الذي قاد المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي لبلاده ، وأن ناس الأسرة كانوا بين الذين انخرطوا في المقاومة تحت قيادة الأمير الباسل ، فلما انهزمت المقاومة اضطروا للرحيل معه إلى المنفى . وفي سورية التي كانت تابعة ، آنذاك ، للامبراطورية العثمانية ، امتلكت الاسرة أرضاً زراعية فسيحة قائمة عند الحدود مع فلسطين على ضفتي نهر الاردن بين جسر بنات يعقوب والدريجات . كانت للاسرة دار كبيرة . توشك ان تكون قصراً قرب الجسر ، مما جعلها على صلة بفلسطين مثلما هي على صلة بسورية . وفي ظل العز الذي يوفره الحسب والنسب وملكية الارض والماضي المجيد ، نشأ محمد لطفي حين لم تكن هناك حدود تفصل البلدين الجارين . ولما تعرضت سورية للاحتلال الفرنسي وفلسطين للاحتلال البريطاني ، وجد محمد لطفي نفسه ، وهو بعد فتى ، منخرطاً في نشاط المجاهدين الفلسطينيين وعرف بينهم بكنية «ابو صبحي» ثم صارت للرجل كنية أخرى هي «ابو وليد» نسبة إلى اسم ابنه البكر . وهكذا صار الرجل نفسه هو ابا وليد عند أهله واقربائه وأصدقائه الأدنين ، وأبا صبحي عند معارفه . وسوف أدعوه هنا بالكنية الأولى .

تمتع أبو وليد بالوجاهة التي كسبها بالوراثة وعززها بجهده الخاص ، وألف ان يتصرف بصفته وجيهاً . وعندما قامت إسرائيل ، خسرت الأسرة ذلك الجزء من أرضها القائم على الضفة الفلسطينية للنهر ، وبقي لها الدار الكبيرة والارض التي على الضفة السورية . لكن تحول المنطقة إلى جبهة عسكرية ووقوع الدريجات على الخط الأول لهذه الجبهة أفقد الأسرة ، أولاً بأول ، ما كان قد بقي بحوزتها من أرض ، وذلك مع تطور حاجات الجيش

السوري لاقامة المواقع والمنشآت العسكرية . في هذا الوقت ، كان الحاج موسى الكبير قد توفي ، فتولى أبو وليد ، بوصفه الابن الأكبر ، رعاية الأسرة ومسؤولياتها وآل إليه ما كان قد بقي للأب من نفوذ . ومنذ ذلك الوقت ، بدأ أبو وليد تلك السلسلة الطويلة من المراجعات في دوائر الدولة ومؤسساتها العسكرية على أمل أن يظفر بشيء من التعويض المالي عن الأرض التي يستخدمها الجيش . وكان الرجل يدعم هذه المراجعات بالمبالغة في إكرام أي مسؤول أو ضابط له صلة بموضوع التعويضات . وبمضي الوقت ، صار أبو وليد معروفاً لدى المسؤولين والضباط الكثيرين الذين تعاقبوا على الخدمة في المنطقة أو كانوا في مواقع المسؤولية في العاصمة ؛ مر هؤلاء جميعاً على موائده الباذخة ، وتمتعوا بهداياه السخية ، واستمعوا إلى شكاواه المتصلة . وحصل أبو وليد على وعود متعاقبة ، فبقى أمله بالظفر بالتعويض قائماً ، لكنه لم يحصل على مال . ثم جاء وقت فقدت الاسرة فيه الدار الكبيرة ذاتها . وقع هذا في عهد ديكتاتورية أديب الشيشكلي . والمعروف أن الديكتاتور كان يرسل إلى الجبهة الضباط المشكوك بولائهم فيؤمن بذلك ابعادهم عن مركز النشاط السياسي في العاصمة ويتسنى له تكبيل حركتهم بالواجبات الكثيرة التي تقتضيها الخدمة في مواجهة العدو ، كما يتسنى له إحكام المراقبة عليهم . وفي واحدة من الولائم التي كان أبو وليد يقيمها للضباط ، حضر من هؤلاء جمع كبير ، ووجد فيه كثيرون من ذوي الرتب العالية . جرى الأمر بالصدفة ، غير أن السلطة المسكونة بالهواجس ارتابت وتوجست شراً فصدرت الاوامر للشرطة العسكرية فداهمت هذه الدار الكبيرة وعاثت فيها فساداً . وانتهى الأمر بأن اقتادت الشرطة أبا وليد وشقيقه الحاج نصوح إلى سجن المزة في دمشق حيث اخضعا لتحقيقات مطولة ثم إلى السجن المعزول في تدمر . وعندما أفلحت الوساطات العديدة في اقناع الديكتاتور بالافراج عن الأخوين ، اقترن الإفراج عنهما بمنع الأسرة من السكن في دارها عند خط الهدنة . وقتها ، آثر الحاج نصوح ان ينأى بسكنه عن أخيه ، فسكن في دار مستقلة في القنيطرة مع زوجته وأبنائه ، وسكن ابو وليد في

دار أخرى ، وانفرط عقد الأسرة الكبيرة ، وواجهت المصير ذاته الذي واجهه اللاجئون الفلسطينيون ، واستفادت من فلسطينيتها فسجل أفرادها في عداد هؤلاء اللاجئين وصار لهم الحق في الحصول على المعونات التي تقدمها الاونروا وغيرها .

وحين آل مصير الاسرة إلى هذا الوضع ، وجد بين معارفها العديد من اناس حملهم الوفاء على العمل لمساعدتها . وقد توسط بعض هؤلاء لدى المؤسسة العامة للاجئين الفلسطينيين فوظفت المؤسسة أبا وليد وأخاه الحاج نصوح للعمل في فرعها في القنيطرة ، فصار ابو وليد رئيساً للفرع وصار أخوه معاوناً له ، دون ان يكون معهما موظف ثالث . هذا الوضع عاد على ابي وليد براتب الوظيفة ومكنه من إسكان أسرته في الدار التي استؤجرت لتكون مقراً للفرع . وما كان أبو وليد من الناس الذين يعرفون عمل الدواوين ولا كان مؤهلاً لاتقانه ، فتولى الحاج نصوح عمل الفرع كله ، فيما انصرف أبو وليد الى شؤون الوجاهة ومستلزماتها ومتابعة المراجعات بشأن التعويضات الموعودة عن الارض .

عرفت هذا الرجل بعد تعرفي على ابنه البكر وليد الذي يصغرني بسنة او اثنتين ، وهو ابن خالة صبحي عرب ، زميلنا في تنظيم عرب فلسطين ، وصديقه . وقد جاء صبحي بوليد إلى التنظيم ، فكان وليد يعاوننا في المهام التي نقوم بها حين يكون هو في زيارة منزل خالته في دمشق . وقد قدمني وليد وصبحي ، معاً ، للرجل الوجيه وزكياني لديه . كان ابو وليد يقيم هو الآخر في منزل صبحي كلما حملته مشاغله على المجيء إلى دمشق ، فكنا نلتقي . وعندما عرف أبو وليد اني ذاهب للعمل في البطيحة ، أصر على أن امكث في ضيافته في القنيطرة ما احتاج عملي إلى البقاء ، فيها ، ودعا إلى أن أعد داره داراً لي فلا اتردد في المجيء إليها في أي وقت أشاء .

طلبت من وليد ، المبتهج بقدومي إلى دارهم ، أن يصحبني إلى ادارة الأونروا كي اقدم نفسي إلى رؤساء عملي . غير أن أبا وليد المنصرف إلى

اعداد القهوة ، وقد سمع حديثي مع ابنه ، اراد ان يريحني من هذه المهمة ، ولعله اراد ، ايضاً ، أن يدلل على مقدار وجاهته ، فاعترض على ذهابي : «سأجيء بهم إليك» . ثم قام ابو وليد إلى حجرة المكتب حيث أجرى مكالمة تليفونية ، وعاد ليبلغ إلي أن مفتش التعليم ، الأستاذ قاسم حمد ، سيكون معنا على الغداء . وأراد أبو وليد أن يجعل الأمر قاعدة ، فقال بنبرة من يفترض أني سأطيعه : «لا تذهب إلى أي منهم في مكتبه ، وحين تحتاج إلى مقابلة أي منهم ما عليك إلا ان تخبرني» . والحقيقة اني قدرت اريحية الرجل الكريم ، ولكن شيئاً ما أثار حذري ، ولم استرح لهذا الاسلوب ، فأنا ، بعد ، موظف مبتدىء ولا يحق لي أن اتعالى على رؤسائي . ولكني لم أجرؤ على كشف مشاعري أمام المضّيف الذي بدا سعيداً بقبولي لرعايته لي . ولما خلوت بوليد ، فاتحته بما يشغل بالي ، وحسناً فعلت ، فقد اتضح أن وليداً لا يوافق هو الآخر ، على أسلوب أبيه ، وهو يخشى أن يؤدي الأمر إلى إثارة حساسية المفتش ضدي . وانتهينا ، وليد وأنا ، إلى اتفاق ، فغادرنا الدار بحجة القيام بجولة في البلدة قبل الغداء ، وتوجهنا إلى مقر الأونروا .

وهنا ، تركني وليد لمشاغلي ، على أن يعود إلي كي يصحبني إلى دارهم .

استقبلني الأستاذ قاسم حمد بابتسامة بدت لي مدروسة ، فلا هي مرحبة ولا هي مجافية ، وقام نصف قومة ومد لي يداً نصف مسترخية ونصف مشدودة . كنت أعرف شيئاً عن هذا الرجل دون أن اتعرف عليه شخصياً ، فقد كان على صلة بخالي نافذ وكان الخال كثيراً ما يتحدث عنه . والأستاذ قاسم كان من الشبّان الفلسطينيين الذين اجتذبتهم دعوة الشيخ تقي الدين النبهاني إلى تأسيس «حزب التحرير» . ولعلك ما تزال تتذكر أن خالي نافذ انجذب إلى هذه الدعوة لبعض الوقت ، وكان هذا هو الوقت الذي نشأت فيه الصلة بينه وبين المفتش .

وكان الأستاذ قاسم يعرف ، بدوره ، شيئاً عني ، يعرفه من الخال ومن الحكايات الدائرة عن مشاغباتي في الاسرة ، فلم يكن غريباً ، إذاً ، ان

يتلقاني بتحفظ . وعندما شرعت في الحديث عن العمل مع الاستاذ قاسم ، ألمح هو إلى عدم ارتياحه إلى تدخل أبي وليد في العلاقة بيننا ، وقال إنه توقع أن أجيء إلى مقره قبل أن أذهب إلى دار الصديق .

ثم صارحني المفتش بأن ما يعرفه عني قد يشجعه على الثقة بكفاءتي لكنه لا يشجع على الثقة بأني سأسلك دائماً السلوك الصحيح ، وذكرني بأننا نعمل في منطقة عسكرية يخضع فيها سلوك الناس كلهم للمراقبة وهذا ما يتوجب عليّ أن أراعيه .

ونوه المفتش ، بعد ذلك ، بأن ماظفرت به يعد وضعاً طيباً بالنسبة لمبتدىء مثلي ، وقال إن وظيفة المعلم ليست شيئاً قليلاً بالنسبة لشاب في الثامنة عشرة وأن الراتب الذي تقدمه الأونروا ، وهو راتب يفوق ما تقدمه الحكومة ، يبلغ ٢٢٠ ليرة ، وهذا مبلغ معتبر . وتبسط الرجل الذي استحسن اصغائي اليه في الحديث عن الحياة في البطيحة ، فقال إنها ليست مُكْلِفة وإني مهما أسرفت في الإنفاق ، فلن آتي إلا على جزء من الراتب . وعن المدرسة ، قال المفتش إن ملاكها الرسمي يضم ثلاثة معلمين ، وقد سبقني اليها اثنان ، احدهما هو المدير ، ثم أضاف أنه يبذل جهده كي يضيف إلى المدرسة معلماً رابعاً ، ذلك لأن في المدرسة خمسة صفوف ولن يلبث أن يضافُ إليها صف سادس .

بعد المفتش ، استقبلني مدير المنطقة ، وهو صدقي الطبري ، أو صدقي بك كما يناديه من يحفّون به . كنت قد سمعت عن الرجل قبل أن القاه ، فقد كان ، قبل الهجرة ، واحداً من زعماء بلدة طبريا المعدودين ورئيساً للجنة القومية فيها ، وهو من الموالين لزعامة الحاج أمين . وبقي الرجل بعد الهجرة حريصاً على مظاهر الوجاهة التي ألِفها . وفي يقيني أن هذا الرجل المتعلم من أبناء الأسرة الفلسطينية المتنفَذة كان في عمله في المنطقة حريصاً على المظاهر والامتيازات المرتبطة بمنصبه أكثر من حرصه على حسن الإدارة . فكان يكفي أن يجامل المرؤوسون المدير ويظهروا له اللياقات الملائمة ثم يتولوا هم تصريف الامور وفق ما يرغبون فيه . وعندما ادخلت

عليه ، ظن الرجل ، على ما يبدو ، أني واحد من الموظفين في مكتبه ، ولا بد أنه ، هو الذي يضع نظارة مزدوجة تشي بضعف بصره ، لم يتبين ملامحي ، وقد هتف ، بنزق يشي بضيق صدر مزمن : « أين هو هذا المعلم الجديد ، ما اسمه ، الحوراني» ، نطق باسمي بعد أن قرأه في ملف مفتوح أمامه .

فقلت ، منتقياً أشد النبرات تأدباً : « أنا هو ، أنا فيصل الحوراني» . ولعل الرجل فوجىء ، فهتف : « كيف؟ انت ، من أدخلك؟ كيف تدخل وحدك؟» . هنا تكلم الأستاذ قاسم الذي كان قد سبقني في الدخول وجلس على كنبة بمواجهة رئيسه : « أنا الذي جئت به ، جاء ليحيّي ويتقبل توجيهاتكم» . وتوقعت أن يدعوني المدير إلى الجلوس غير أنه بدا كمن نسي وجودي . فقد بحثت عدسات نظارته المزدوجة عن الأستاذ قاسم فلما وقعت عليه ، هتف الرجل : « أية توجيهات! من الذي تحدّث عن توجيهات؟ أردت أن أعرف إن كان هذا الولد هو حقاً ابن عبد المجيد الحوراني ، وكيف يكون ابن هذا الرجل الطيب بعثياً؟» فاجأتني فجاجة الملاحظة ، وأدركت اني بازاء رجل من الوزن الخفيف ، لا يستحق المهابة التي تقترن بسمعته ، فبهت انبهاري في حضرته ووجدتني ارد بنبرة متحدية : «عبد المجيد جدّي ، أما عن البعث ، فمعظم أبناء جيلي صار بعثياً» . هنا ، بحثت العدسات عنّي ، وقال الرجل وهو يوجه سبابته الطويلة نحوي : «ما قيل لي ، إذن ، صحيح ، فعليك أن تسمع ، نحن ، هنا ، لا نريد مشاكل ، السياسة للمدن ، البعث وغيره ، في القرية الحدودية عليك واجب التعليم ولا شيء غيره!» . فقلت ، مقدراً أني لو صمتّ فسأخرج من الحوار مغلوباً : « ماذا عن العمل من أجل فلسطين؟» . فبدا أن المدير الذي التقط جرس العبارة لم يفهم معناها ولم يميّز من كلماتها إلا اسم فلسطين . ومثله مثل ضعيفي السمع ، جميعاً ، لم يشأ صدقي بك أن يقرّ بقصور سمعه ، بل قدّر معنى ما سمعه على هواه وتحدث على هذا الأساس : «البعثيون يعملون من أجل فلسطين؟! بعثيوك هؤلاء! اسمع ، عمري ستون سنة وقد تعلمت شيئاً واحداً : لن يحرر فلسطين إلا ابناؤها ،

وهؤلاء لن يحرروها اذا لم يتعلموا» . وكان من شأن هذا القول ان يجرنا إلى جدل طويل ويوتر جو المقابلة . ويبدو ان الاستاذ قاسم توجس شيئاً من هذا واراد ان يقطع سبيل الجدل غير المرضي ، فقد وقف وتوجه ناحية المدير وقال بنبرة متئدة : «الاستاذ فيصل لم يتحدث عن البعثيين» . واستخلص صدقي بك ما رغب فيه ، فقال مدهوشاً : «إذن ، فقد كان ما قيل لي عنه خطأ !» . ولم يشأ الأستاذ قاسم أن يصحح انطباع المدير هذا ، فابتسم ، ودفعني ناحية الباب ، فيما كان المدير يهتف : « لا تؤاخذني يا ابني ، أعرف ان عبد المجيد رجل طيب» .

وعندما جاء وليد لاصطحابي واستأذنت المفتش بالانصراف على أن نلتقي على الغداء ، افتر ثغر الأستاذ قاسم عن ابتسامة فيها شيء من المودة . نفعت الزيارة ، إذن ، وكان وليد على حق . ثم جاء المفتش إلى الغداء وكان مزاجه طيباً . وأراد أبو وليد أن يؤكد حمايته لي بحضور رئيسي فقال : « فيصل ، عندي ، في منزلة وليد» ، فرد الأستاذ قاسم وهو يبتسم ، مظهراً تسامحه : « وليد وفيصل ، كلاهما ، عزيزان عليّ مثلما هما عزيزان عليك» . وفي اليوم التالي ، زرت المفتش ، مرة أخرى ، وأصغيت إلى توجيهاته التي تبسط في عرضها هذه المرة ، ولم يفتني ان الاحظ كيف أن نبرته لانت وأنه عرض التوجيهات بصيغة نصائح يقدمها الخبير للمبتدىء . وقد سلّمني الأستاذ قاسم ما يلزم من الاوراق وتمنى لي التوفيق في العمل والإقامة الطيبة في البطيحة .

أردت أن اغادر القنيطرة في اليوم ذاته ، إلا أن وليد نصحني بالبقاء ، وقال إنهم ينتظرون زواراً مهمين على العشاء ، ورأى أن من المفيد لي التعرف عليهم . وتشبث أبو وليد ببقائي ليلة أخرى ، وقال إنه وعد الزوار المرتقبين بتعريفهم عليّ وقد شاقهم ذلك . وساق ابو وليد حجة أخرى ، فغداً هو يوم الجمعة فلا حاجة بي إلى استعجال السفر إلى البطيحة .

وبانتظار حلول المساء ، تجولت في البلدة بصحبة وليد . كانت تلك هي المرة الأولى التي اتفرج فيها على بلدة سبق أن مررت بها قبل ذلك مرات

كثيرة مرور العابرين . والحقيقة أن القنيطرة كانت في تلك السنة من سنوات الخمسينات الأخيرة قرية آخذه في التحوّل إلى بلدة . فبعد أن بنيت الجبهة العسكرية السورية المواجهة لحدود فلسطين حيث قامت اسرائيل ، ازدادت أهمية القنيطرة لأنها صارت مقراً لقيادة الجبهة وقد آوت إليها أعداداً كبيرة من العسكريين وأسرهم . فاجتذب هذا التوسع كثيرين من ممتهني الخدمات التي اقتضتها زيادة السكان . توسعت الأحياء القديمة التي يتجاور فيها مواطنون عرب وشركس ، ونشأت أحياء جديدة ، واتسع السوق وامتدت حوانيته على اكثر من شارع . وكان العسكريون من مختلف الرتب يشكلون نسبة كبيرة ممن تقع العين عليهم في شوارع البلدة . وكان المدنيون الوافدون من انحاء سورية المختلفة يلونون المشهد بأزيائهم العديدة المتمايزة . أما سكان البلدة الأصليون ، فقد شكّل الشركس نسبة كبيرة منهم ، وكنت تميز هؤلاء بسحنهم الخاصة وشعورهم الشقراء وخليط الأزياء الشركسية والعربية ، المدينية والريفية ، التي يلبسونها والنظرات الثاقبة التي يصوبونها إلى هذه الناحية أو تلك أو إلى هذا الغريب أو ذاك .

وقد أخذني وليد لزيارة جيران لهم من الشركس في دار يصلها بدار أسرته فضاء غير مسوّر . وكان في الدار التي زرناها شبّان وشابات ، بعضهم من أهل الدار وبعضهم الآخر من زوارها . وقد لفت نظري أن هؤلاء جميعهم استقبلونا دون تكّلف ، وأدركت أنهم يمحضون وليد وداً خاصاً ، وانسحب الأمر علي ، انا ضيفه وصديقه . واتضح أن الشبان التقوا للسهر كما اعتادوا أن يفعلوا كل يوم خميس ، وقد نشّط وصولنا رغبتهم في السهر . ثم لم يلبث ان انتقل الجميع إلى الفضاء المجاور للدار فأوقدوا ناراً وتحلّقوا حولها . ثم اخذ واحد من الزّوار بالعزف على الاكورديون ورافقه آخر على آلة تشبه الشبابة ، وانداح اللحن الراقص في الفضاء ، فتوالى الشبان والشابات على الرقص فادوا رقصات فردية وثنائية وجماعية . كل هذا وانا مأخوذ برشاقة الراقصين ومتانة الحركات ودقة انسيابها مثلما انا مأخوذ ببساطة العلاقات التي تجمع الذكور والاناث . وقد لفت نظري أن واحدة من بنات الدار راقصت عدداً من الشبان وظلت ، خلال ذلك ، ترسل إلى

وليد نظرات خاصة . وسألت صاحبي عن مدى صلته بهذه الفتاة فجمجم بكلمات جلّلها الحياء ولم يَبُحْ بشيء محدد . ووددت لو أبقى مع هؤلاء السامرين ، الذين انتقلوا ثانية إلى داخل الدار ، مع حلول الظّلام ، بقية الليل ، بل إني قلت لوليد إن ساعة مع هؤلاء الشبان المرحين أفضل ، دون شك ، من العشاء الفاخر الذي ينتظرنا والضيوف المهمّين الذين بُشرت بلقائهم ، وتوقعت ان يتشجع وليد فيتدبر الأمر بحيث نعفى من هذا العشاء . لكن وليد اكتفى بأن أيد رأيي مع اصراره على أن الواجب واجب . وكان لا مفرّ من ترك الجماعة المنشرحة والالتحاق بالدار .

كان الذين عدّهم مضيفي زواراً مهمين ثلاثة شبان يرتدون ملابس الضباط ويعلّق الواحد منهم ثلاث نجوم على كل من كتفيه . وقد قدمني ابو وليد للرؤساء الثلاثة ، أو النقباء كما سيسمون فيما بعد ، مشدداً على صفة الفلسطيني التي ألحقها باسمي . وشرح أبو وليد لضيوفه أصلي ونسبي وسمى البلد الذي جئت منه من فلسطين . ولما حدثّني أبو وليد عن ضيوفه ، فعل الشيء ذاته بالنسبة لكل واحد منهم ، ثم تساءل : «الم تسمع بالضباط الفلسطينيين في الجبهة السورية؟» .

إن لهؤلاء الضباط قصة يجدر بي أن أرويها لك . بدأت القصة في عام ١٩٤٧ ، وكانت سورية قد ظفرت باستقلالها وتخلصت من الاحتلال الفرنسي وشرعت في تعريب جيشها ، بينما كانت فلسطين أسيرة الاضطرابات . في ذلك الوقت ، رأت القيادة الوطنية الفلسطينية المتطلعة إلى الظفر باستقلال البلاد أن تُهيىء الكادر العسكري المتعلم الذي سيشكل نواة الجيش الوطني في المستقبل . وبين أشياء أخرى تمت في هذا السياق ، انتقت القيادة ما بين ستين وسبعين شاباً من الذين أنهوا الدراسة الثانوية وارسلتهم ليدرسوا العلوم العسكرية في كلية الضباط في سورية . وكان هؤلاء ما يزالون في مراحل الدراسة الأولى في الكلية ، في الدورة الشهيرة التي ضمت هذا العدد الكبير من أبناء فلسطين ، حين تجددت الاشتباكات بين العرب والبريطانيين واليهود في فلسطين في أواخر عام ١٩٤٧ ، بعد إقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة خطة تقسيم البلاد ورفض

العرب لهذه الخطة . ولما تشكل جيش الانقاذ بإشراف جامعة الدول العربية لمساعدة عرب فلسطين في الدفاع عن وطنهم المهدد ، أرتأى ذوو الشأن أن ينضم طلاب الدورة الفلسطينيون إلى هذا الجيش ، فجرى تكثيف الدروس والتدريبات في الدورة وتخرج هؤلاء وهم يحملون رتبة مرشح ضابط والحقوا ، بهذه الصفة ، بالوحدات المختلفة التي تشكل منها الجيش . وأنت تعرف ما آلت إليه الأمور بعد ذلك ، فقد انتهى كل شيء دون تحقيق الحلم الفلسطيني بالاستقلال ، وانهار جيش الانقاذ وتشرد معظم الفلسطينيين بعيداً عن مناطقهم التي أقيمت فوقها دولة اسرائيل ، وغابت امكانية إنشاء جيش فلسطيني فانتفت الحاجة التي جاءت بهؤلاء الشبان إلى الكلية العسكرية .

وبعد أخذ ورد بشأن مصير الضباط هؤلاء ، تقررت إعادتهم إلى الكلية لاستكمال الدورة التي بدأوها . وتخرج هؤلاء في الكلية فحمل كل منهم رتبة ملازم ثان . ودرست الحكومة السورية أمر هؤلاء الضباط وتفحصت احتمالات عدة لتقرير مصيرهم ، وانتهى الأمر بأن منحتهم سورية ، بصورة استثنائية ، الجنسية السورية كي يتسنى لهم أن يخدموا في جيشها الذي لم تكن الأنظمة تبيح لغير السوريين أن يخدموا فيه . وهكذا حمل هؤلاء الضباط جنسية غير فلسطينية ، إلا انهم ظلوا فلسطينيي النزعة والسلوك والتوجه . وشكل هؤلاء ، في الجيش السوري ، منذ توزعهم على وحداته ، كتلة متميزة اشتهرت باسم كتلة الضباط الفلسطينيين . وقد حظي ضباط هذه الكتلة برعاية دؤوبة من الضابط الذي كان قائداً لدورتهم في الكلية والذي أتاحت له التطورات السياسية في البلاد أن يلعب دوراً مهماً في الحياة الوطنية . هذا الضابط هو عفيف البزرة ، وقد لمع اسمه أول ما لمع في منتصف الخمسينات وتميز بدوره الفعّال في المحاكمة التي تعّرض لها عدد من السياسيين اليمينيين ممن اتهموا بالعمالة للاستعمار ، ثم صار رئيساً للاركان العامة للجيش . كان البزرة معجباً بحماس ضباطه الفلسطينيين وكفاءتهم ، وقد وجد ، وهو المناصر للشيوعية ، في هؤلاء الضباط ما يحمله على الاهتمام بهم واجتذابهم إلى الصف التقدمي الآخذ بالتشكيل في

الجيش ، واختيار الملائمين منهم للحزب الشيوعي . أما هؤلاء الضباط فقد وجدوا في البزرة قائداً حامياً ومتفهماً ، وقد ساعدهم تقدمه في الرتب وسلّم المسؤوليات العامة على تعزيز وضعهم في الجيش والظفر بالمواقع التي يتوخونها ، والحقيقة أن أغلبهم اختار العمل في الوحدات الناشطة ، فكان منهم مهندسون متميزون وطبوغرافيون أكفياء ، وقاد كثيرون منهم السرايا ثم الكتائب المرابطة في الجبهة وخصوصاً منها تلك القريبة من خطوط المواجهة مع إسرائيل . وعندما تعرفت على ضيوف أبي وليد ، كان ضباط الدورة قد صاروا لتوهم رؤساء ، أو نقباء ، فاقتربوا من المنزلة التي سيعتبرون بعدها من الضباط القادة .

أول الثلاثة الذين لقيتهم ذلك المساء عند ابي وليد ، كان محمد الشاعر . وقد تولى محمد الشاعر ، وهو ما يزال ملازماً أول ، مسؤولية كبيرة تضع تحت إمرته ألوف العسكريين والمدنيين ، من الضباط وضباط الصف والجنود ، ومن المهندسين والمراقبين والمهنيين والعمال . كان هذا الشاب يتولى قيادة فرع الانشاءات العسكرية في الجبهة ، وهو الفرع الذي تعدّ ميزانيته السنوية بعشرات الملايين من الليرات ويتولى إقامة كل ما تتطلب حاجات الجبهة بناءه من تحصينات ومنشآت إدارية وجسور وطرق وغيرها . وثاني الثلاثة كان عبد العزيز الوجيه ، وهو الذي كان يتولى قيادة المقاومة الشعبية ، أو الجيش الشعبي ، في الجبهة . والمقاومة الشعبية وحدات أنشئت في قرى المنطقة وبلداتها كلها وخصوصاً تلك الواقعة بمحاذاة الحدود ، وهي تضم متطوعين من السكان المدنيين ، أو هي تضم القادرين على حمل السلاح من السكان المدنيين ، كلهم أو معظمهم . وهؤلاء يتلقون تدريبات أولية ، ثم توكل اليهم مهام مساعدة للجيش يؤدونها دون أن يحملهم أداؤها على الانقطاع عن أعمالهم المدنية المعتادة ودون أن يتقاضوا أجراً عليها . والثالث كان عرب عرب ، وهو قريب بعيد لصديقنا صبحي عرب ، وكان يتولى ، آنذاك ، قيادة سرية تقوم مواقعها على حافة النهر على الخط الأول ، عند جسر بنات يعقوب ، وتتبع لقيادة اللواء الذي يدافع عن المنطقة الوسطى في الجبهة ومقرها في قرية العليقة .

وكان الثلاثة ، في لقائي الأول هذا بهم ، مشغولين بمسألة وحدة سورية ومصر التي كان موعد اتمامها يقترب . وقد بدا الثلاثة حريصين على أن يسمعوا من شاب فلسطيني مثلي ، لابد أن يكون مضيفي قد بالغ أمامهم في وصف انخراطه في الشأن السياسي ، رأيه في هذه الوحدة وتوقعاته بشأن تأثيراتها المرتقبة على مستقبل قضية فلسطين .

والواقع أني قلت رأيي ، وقد انطلقت من واقع حماسي للوحدة وافتتاني بها . بل إني سمحت لنفسي بأن أتفصحن أمام هؤلاء العسكريين فأتحدث عن البعد الاستراتيجي لوحدة مصر وسورية وتأثيرها على اسرائيل .

وقد نوهت بالكماشة ، أو بكسّارة البندق ، التي ستمسك باسرائيل من شمالها وجنوبها وقوة الفكين المصري والسوري اللذين سيحدّان من قدرة الدولة العدوّة على الحركة إن لم يقضيا عليها . ثم تفصحنت أكثر من هذا ، فتحدثت عن الهدير الثوري المنبعث من المحيط إلى الخليج الذي لن يلبث أن يفرض على حكام البلدان العربية الأخرى الانضمام إلى الوحدة ، حتى اذا تم هذا وقامت دولة العرب العملاقة ، لن يبقى لإسرائيل أي مستقبل في المنطقة . وأمعنت في الحديث ، فتكلمت عن ملايين الفقراء الذين نسبت إليهم أنهم يحلمون بتحقيق الاشتراكية ، ويرون أن أوان تحققها قد حان بقيام الوحدة العربية . بكلمات أخرى ، قلت ما كان أمثالي يقولونه في ذلك الوقت ، وتفننت في عرضه بمقدار ما أسعفتني مقدرتي وأملته عليّ الرغبة في المباهاة بفصاحتي .

وقد أدهشني أن زوار الدار استمعوا إليّ بانتباه شديد ، لكن نظراتهم التي احاطت بي لم تنم عن الحماس لأقوالي . وعندما تحدث هؤلاء ، بعد أن فرغت أنا ، عرضوا لنقاط لم تخطر على بالي . فقد تساءل الشاعر عما اذا كنا نعرف ، حقاً ، كيف يعامل المصريون الفلسطينيين في قطاع غزة . ولما استحوذ السؤال على الانتباه ، أضاف الضابط ، بنبرة شاكية ، ان ما نسمعه عن تصرفات المصريين في القطاع لايشجع على الأمل بأن يتحسن وضع الفلسطينيين في دولة يكون لمصر اليد الطولى في تقرير سياستها . وأثار عبد

العزيز الوجيه موضوع الأحزاب والعمل الحزبي والديمقراطية ، وقال إن مصر ألغت الأحزاب وحظرت النشاط السياسي الديمقراطي ولن يلبث أن يحدث في سورية الأمر ذاته فيفقد هذا البلد تجربته المتقدمة في الديمقراطية .

واظهر عرب عرب شكه في أن تمر الأمور بسلام بالنسبة للضباط الفلسطينيين في الجيش السوري مع قيام الوحدة ، وتوقع ان لا يحتمل المصريون وجود هذا العدد الكبير من الضباط الفلسطينيين ، وذكر ان الجيش المصري لا يضم فلسطينياً واحداً ، وأتى على ذكر تجربة الفدائيين الفلسطينيين الشهيرة في قطاع غزة ، فقال إن هؤلاء الأبطال يعاملون هناك معاملة المخبرين ، وروى كيف أن الوحدة العسكرية التي تضمهم هي وحدة ملحقة بالمخابرات وجميع ضباطها وضباط صفها هم من المصريين ، وجزم بأن ليس بين الفلسطينيين العاملين لهذه الوحدة شخص واحد يحمل رتبة عسكرية من اي نوع .

ما كان هؤلاء الضباط الثلاثة ضد الوحدة ذاتها ، لكنهم أظهروا مخاوفهم من بعض نتائجها وركزوا الحديث على هذه المخاوف . وقد سكب الحديث ماء بارداً على حماستي ، لكنه لم يطفئها . وساءني موقف هؤلاء الضباط فاحتسبتهم في عداد ضيقي الأفق الذين يركزون الأنظار على صغائر الامور ويهملون جليلها ، إلا أني بالرغم من ذلك ، لم انفر منهم ، ولم أحمل أيّ مشاعر سلبية إزاءهم . وإذا كانت الملاحظات التي ساقها الثلاثة قد اخترقت يقيني بشأن عظمة الوحدة فإنها لم تحدث فيه شرخاً .

وكانت تلك ، على أي حال ، هي المرة الأولى التي ألتقي فيها ناساً لا يؤيدون الوحدة بالطول والعرض ، فوجدت الأمر مثيراً للاهتمام . خصوصاً أنه أتاح لي فرصة المجادلة . وحمدت لمضيفي استبقاءه لي . واظهرت رغبتي في تكرار لقاءاتي بهؤلاء الضباط ، وأظهروا هم الرغبة ذاتها . وحين شارك أبو وليد في الحوار ، اختار المسألة التي تشغله أكثر من أي شأن آخر ، فتحدث عن مشكلته المزمنة مع الجيش والتعويض الذي يطالب به لقاء استخدام أرضه . واتضح أن الرجل ، الذي طالت شكواه دون أن يجد من

يستجيب لها ، انما يعوّل على الوحدة لتحل مشكلته . وكان للرجل منطقه الطريف . فسورية قد تعاقب عليها حكام ظالمون لا يؤدون للناس حقوقهم ، أو حكام مولعون بالديمقراطية وتائهون في مساربها الرخوة فهم لا يعرفون كيف يمكن اداء هذه الحقوق . أما مصر فيحكمها رجل واحد ، حازم ومقتدر . وما على أصحاب الحقوق إلا أن يتوجهوا إلى هذا الرجل ، فمع حاكم مثله لا تتعطل مصالح الناس ولا تضيع معاملاتهم في الدوائر العديدة ، لانه يملك أن يقول لا أو نعم ولا يتردد في قولها ، ومن المؤكد أن هذا الحاكم سوف يستجيب لشكوى أبي وليد المحقة . لقد رتب أبو وليد أمره على أن يتوجه بشكواه مباشرة إلى الرئيس عبد الناصر فور إعلان الوحدة . وبدا الرجل واثقاً من أن هذا « العادل المستبد» كما سماه سوف يفي بحقوقه كاملة .

استمع زوار الدار للمضيف دون أن يعلقوا على كلامه ، ولا بد أنهم كانوا مطلعين على تفاصيل المشكلة التي رويت لهم أكثر من مرة . ولما سأل أبو وليد جلساءه عن رأيهم في توقعاته ، قال محمد الشاعر : «من يدري ، قد تظفر بهذه التعويضات ، على يد الرئيس ، أليس بحاجة لأن يعزز شعبيته» . وبالرغم من العبارات التي توحي بالتفاؤل ، فقد خلت ، نبرة الشاعر من أي تفاؤل . ولاحظ أبو وليد هذا ، وغاظه أن لا يجاريه ضيفه في آماله ، ولم يفوّت الملاحظة بل غمز من قناة الضباط ، ألم يعده كل منهم بالمساعدة دون أن يحقق له شيئاً ؟ الم يوسطهم لدى رئيس الأركان ، صديقهم عفيف البزرة ويتلقى وعوده عبرهم دون فائدة؟ تحدث أبو وليد ، فذكر هذا كله ، وذكر تفاصيل أخرى عن المشكلة ، وحملت روايته رنة العتب . والتقط الثلاثة ما رمى اليه أبو وليد ، ولما كانوا قد اكلوا للتو من زاده ، بدا أنهم خجلوا منه فكفوا عن مناكفته . وثقل جو الجلسة ، فتعللت بالتعب وألم المفاصل واستاذنت بالانصراف . ولما جمعتني مع وليد الحجرة التي ينام فيها كلانا ، أطلق الشاب لسانه ، وهو الذي التزم الصمت في حضور ابيه طيلة السهرة .

كانت علاقة وليد مع أبيه معقّدة ، فهو يحبه دون شك ويقدر مكانته

في المجتمع ويعتز بتاريخه في الجهاد . لكن وليد لم يكن راضياً عن بعض اوجه سلوك الأب ، خصوصاً عن تمحكه بالعسكريين ومحاولاته الدائبة لاجتذابهم . وكان وليد ، إلى هذا ، يعد نفسه واحداً من عرب فلسطين ويجد نفسه اقرب إلي انا من ابن خالته صبحي ، فضلاً عن أنه كان ، مثلي ، متحمساً لحزب البعث . أما الأب فكان ، بوصفه شخصاً محافظاً ، أميل إلى تأييد الأحزاب والشخصيات التقليدية ، وإن بدا عليه الميل إلى البعث والتقدميين الآخرين في الفترة الأخيرة التي زاد فيها عدد هؤلاء بين ضباط الجبهة . وأراد وليد ، في تلك الليلة ، أن يزيدني معرفة بشأن الضباط الذين التقيتهم ، فجزم بأنهم شيوعيون من جماعة البزرة ووصفهم بأنهم رجال شجعان يملأون العين ونزيهون لا تطالهم أيّ شكوك ، لكنه أخذ عليهم سلبيتهم بإزاء موضوع الوحدة . وذكر لي وليد ما عدّه سراً عن سبب اهتمام أبيه بهؤلاء الضباط . ذلك أن الأب عرف أن عفيف البزرة مرشح لتولي منصب القائد العام للجيش السوري ، وابو وليد يعتقد أن هؤلاء الضباط قادرون على التأثير على قرار القائد بشأن التعويضات ، والأب يسرف في إكرامهم أملاً في ان يحرك نخوتهم لمساعدته . وقد لاحظت ان وليد يتبسط في عرض ما يعده خفايا واسراراً بما يتجاوز اهتمامي انا بموضوع التعويض . وأدركت أن هذا الفتى الذي تستضيفني داره لأول مرة يريد ، بذلك ، أن يشعرني بثقته بي ويقربني من شؤونه الخاصة ، وهو الذي ألف أن يجيء الضيوف إلى الدار بدافع الاهتمام بأبيه وليس به . والحقيقة أني بت تلك الليلة وأنا أشعر أني صرت أقرب إلى هذه الأسرة مما كنت سابقاً ، وأن الصداقة التي تربطني بوليد قد توطدت ، وحرصت على أن يعرف وليد هذا ، فبدا عليه الارتياح ، وتمنّى لي ليلة طيبة ، ونام نوماً عميقاً .

في الصباح ، صحا وليد قبلي ثم ايقظني بدعوى أن الوالد أعدّ القهوة منذ بعض الوقت وطال انتظاره ليشربها معي . وصحبني وليد إلى حيث ينتظرنا أبوه وقهوته التي ملأت رائحتها الفواحة بعطر الهال أرجاء الدار كلها . كان أبو وليد يلتف بعباءة منزلية ويضع على رأسه طاقية صوفية

ويعالج موقد الفحم وابريق القهوة الطافح الموضوع أمامه على المنقل . كان الرجل قد فرغ لتوّه من إعداد النرجيلة ، وقد استقبلني مهللاً واختار لي قعدة مريحة ، ثم اختار فحمة متقدة توج بها رأس النرجيلة وراح يشفط انفاساً متوالية تزيد الفحمة اتقاداً ويطمئن إلى تمام متعته الصباحية بالتدخين . وقدم الرجل لي فنجاناً طافحاً بالشراب الزكي ، وأكد ، مفاخراً : «قهوة لا تشرب مثلها إلا اذا صنعها عمك أبو وليد » . وأثنيت على القهوة ، فطاب لمضيفي هذا الثناء ، وأمر بإحضار مائدة الفطور . ومع الطعام ، أدار أبو وليد الحديث الذي بدا لي أنه استدعاني ليسمعني إياه قبل توجهي إلى مقر عملي الجديد .

أراد أبو وليد أن يزيدني معرفة بالمنطقة التي أتجه اليها ، وقد مهد للحديث بقوله : «نحن ، كما تعرف ، من الدريجات ، سكنا فلسطين وسورية ، وأهل البطيحة جيران لنا ، وكذلك الذين لجأوا اليها من الفلسطينيين ، نحن نعرف هؤلاء معرفة تامة» . بسط حديث أبي وليد أمامي صورة تكاد تكون تامة التفصيل للمنطقة . فكلمة البطيحة تسمية تطلق على منطقة بكاملها ، أو قل : على سهل فسيح في الغور يمتد بين الشاطىء الشرقي لبحيرة طبرية والمرتفعات التي تقابله على الجانب السوري للبحيرة . هذا السهل الذي يشقه نهر الأردن في انحداره إلى البحيرة تتناثر فوقه بضع عشرة قرية ، واحدة منها فقط ، وهي أوسطها ، تحمل ، أيضاً ، اسم البطيحة . والسهل كله ، بقراه العديدة ومروجه الخصبة ، يملكه شخص واحد هو فؤاد اليوسف ، أو فؤاد بك كما سماه ابو وليد ، وهو آغا كردي ورث السهل عن ابيه . وقد حرص ابو وليد على القول بأنه يعرف فؤاد بك معرفة شخصية وإن خلا حديثه عن الرجل مما يوحي بأنهما صديقان ، بل ان نبرة الحديث حملت الي تحذيراً مبطناً من شخصية مالك البطيحة : «فؤاد بك معتاد على أن يضع الدولة في جيبه ، الموظفين ، والدرك في البطيحة ، ورؤساءهم في فيق ودرعا ، وناس العاصمة ، يده في حلاقيمهم . ولعلك تظن أن الأمور تبدلت ، ولك أن تظن ، أما أنا فرأيي أن لا مصلحة لك في معاندة هذا البك» . وعن سكان

البطيحة ، قال أبو وليد ان هؤلاء لا شيء ، فهم مغلوبون على أمرهم وقد فوضوا أمرهم كله للبك وأزلامه . وأوضح حديث أبي وليد أن سكان المنطقة السوريين موزعون على عدد من العشائر الصغيرة ، وقد فقد هؤلاء الكثير من التقاليد العشائرية الاصيلة ، دون ان يصيروا فلاحين حقيقيين ، فهم ضائعون بين هذه الصفة وتلك . وأما اللاجئون الفلسطينيون إلى المنطقة فقد انحدروا من عشيرتين كانتا تقيمان على الضفة الأخرى من النهر : عشيرة الشمالنة ، وهذه عدد أفرادها كبير نسبياً إلا انهم قليلو الحيل ، كانوا زراعاً قبل اللجوء ، يفلحون أرضاً يملكونها ، فصاروا بعد اللجوء زراعاً في أرض البك ، فانكسرت شوكتهم ؛ والثانية عشيرة القديرين ، وهي عشيرة صغيرة لا تعد باكثر من بضعة عشر بيتاً ، وقد كان أبناؤها ، قبل اللجوء ، مربي أبقار واشتهروا بالجرأة والإقدام ، وتوزعوا بعد اللجوء بين تربية الأبقار والزراعة وخدمة الجيش ، فكانت لهم شوكة لم تنكسر بعد ، إلا أن فيهم حذراً متاصلاً ضد الغرباء ، وليس من السهل الاختلاط بهم . وقدم ابو وليد ملاحظة ثاقبة ، وقال إني سأكتشف أن حال اللاجئين الفلسطينيين في المنطقة أفضل من حال أهلها الأصليين ، فاللاجئون يفلحون أرض المالك ويحصلون على نصيبهم من منتوجها ، كغيرهم ، ويصيدون السمك من النهر والبحيرة ، كغيرهم ، أيضاً ، ويحصلون ، بالإضافة إلى ذلك ، على المعونات والخدمات التي توفرها الاونروا للاجئين . وضرب أبو وليد مثلاً بالمدرسة ، فقال إن الأونروا افتتحت مدرسة انتظم العمل فيها منذ سنوات دون انقطاع فضمت كل من توجهوا إليها من ابناء اللاجئين . أما الأهالي فقد فتحت لهم الحكومة مدرسة لكن العمل فيها لم ينتظم في أي وقت من الأوقات حتى يمكن القول إنها غير موجودة . والاهالي الذين يرغبون في تعليم ابنائهم يتوجهون إلى مدرسة الاونروا . ثم حذرني ابو وليد من طبيعة المنطقة غير الملائمة للصحة ، فقد استوطن البعوض في هذا الغور الدافىء ذي المياه الكثيرة ، فاستوطنت فيه الملاريا . وقال أبو وليد إن جهوداً كثيرة قد بذلت للتخلص من البعوض ، غير أن العمل ما يزال في بدايته ، وعليّ أن احتاط للأمر

فأتزود مسبقاً بالأدوية التي تعالج الملاريا . وقد نصحني أبو وليد بأن اكثر من أكل البصل الطازج فأدخله في وجباتي كلها ، وقال إن البصل وقاية مضمونة من الملاريا .

وكأنما شعر أبو وليد بأنه أفرط في رسم صورة سوداء للمنطقة ، فشاء أن يعدّلها ، اذ انه لم يلبث ان ابتسم ، كاشفاً عن السنّين الذهبيين اللذين يضفيان على وجهه إشراقة طيبة ، وقال إنه أخّر المعلومات المشجعة الى نهاية الحديث . فاستبقته وقلت : «تقصد السمك؟!» . فقال ، غير مفاجأ : «السمك واحد من هذه الاشياء ، افخر انواع السمك ، المشط ، له مذاق لا تجد ازكى منه في أي مكان في العالم ، باركه الله منذ الازل ، وأطعم عيسى المسيح أنصاره منه ، وهناك الخضار ، خضار الغور التي تنضج في موسم مبكر ، والموز ، والصبّار ، والتين» . وقبل ان يختتم الحديث عن البطيحة ، قال ابو وليد ، بما ينبىء بأنه يزيل الكلفة بيننا : «هذه الطيبات كلّها ، لن أسامحك إذا أكلت منها وحدك وحرمتنا منها!» ، ثم ضحك .

في ذلك اليوم ، تعرّفت على أول من عرفت من المقيمين في البطيحة . لم يكن هذا بدوياً من أهلها ولا بدوياً من اللاجئين إليها ، بل كان من بلدة صفد ، بالذات . لم اختر أن يكون هو أول من أعرف ، بل وضعته الظروف في طريقي ، اسمه عوني ، وهو الابن الثاني أو الثالث لأسرة صفدية من آل شرشرة ربطتها بالبطيحة علاقات عمل قبل اللجوء . فلما ارغم اهل صفد على مغادرة بلدتهم في عام ١٩٤٨ ، استقرب آل شرشرة هؤلاء المشوار واجتذبهم ما كان لهم في الغور من مصالح ، فلجأوا الى البطيحة واستقروا فيها . وقد تنوعت الاعمال التي مارسها ابناء الأسرة بعد اللجوء ، فالاب وابنها الاكبر عملا في التجارة وخصوصاً تجارة الغنم والطحين ، والابن الآخر انصرف الى تربية الخيول ، أما عوني فقد اشترت الأسرة له شاحنة متوسطة الحجم ، فكان يستخدمها في نقل البضائع والرّكاب بين القنيطرة والبطيحة ، وكانت هي واسطة النقل الوحيدة المتوفرة ، ولذا توجب علي استخدامها .

تعرفت على عوني أمام شاحنته عندما توجهت إليها في موقفها قرب سوق البلدة. وكان عوني قد جلب ما يخصّه هو وأسرته من بضائع ونضّدها في جانب صندوق الشاحنة ووقف ينتظر أن تستكمل الشاحنة حمولتها اليومية من البضائع والركاب. وجدتني بإزاء شاب يطفح بالحيوية ولا تفارق الابتسامة ثغره. رحب عوني بي، ثم كرر الترحيب حين أبلغ وليد إليه أني فلسطيني وأن لي أصدقاء عديدين من أهل صفد. وتناول عوني حقيبتي فوضعها مع اشيائه في الصندوق، ثم دعانا، وليد وأنا، لنشرب القهوة. فجلسنا في مقهى رصيف مجاور ورحنا نتبادل الحديث. وكشف حديث عوني عن معرفة تامة بأحوال البطيحة وناسها واستعداد كامل لمساعدتي. كان عوني من هذه الناحية كنزاً حقيقياً، وكان هو يدرك ذلك ويعرف مقدار أهميته لغريب مثلي. وقد عرض عوني صداقته بصورة مباشرة ليس فيها تكلف: «ستحتاجني، فان كنت ممن لا يتكبرون على خلق الله، فستجدني صديقاً يعرف كيف يخدم أصدقاءه. والحقيقة أن عوني قدم أولى خدماته لي على الفور، فقد أجلسني بجانبه في حجرة القيادة فحماني من التطوح في الصندوق في طقس تقترب درجة الحرارة فيه من الصفر.

وعندما توقفنا عند أول نقاط المراقبة، تولّى عوني بنفسه عرض أوراقي على الشرطة العسكرية وزكّاني عندهم. ثم حملتني شاحنة عوني إلى المكان الذي قدر لي ان أعيش فيه.

٣ الأعياد والربيع يبددان كآبة الشهور الأولى

كان الحال في البطيحة حين حللت بها نهاية العام ١٩٥٧ أسوأ من كل ما ذكر لي عنها ؛ صحيح أني ولدت وامضيت سنوات عمري الأولى في قرية ، وأني عندما انتقلت إلى المدينة لم اعش في قصر ، غير أن ظروف الحياة التي عاينتها في البطيحة كانت أدنى من كل ما عرفت قبل ذلك .

بدأت متاعبي مع العيش في هذه المنطقة منذ وصولي اليها . فالطريق التي تنحدر من المرتفعات إلى قاع السهل لم تكن ، غير معبدة أو غير مستوية فحسب ، بل كانت ، ايضاً ، ضيقة ومتعرجة ، مزروعة بالحفر والمطبات ، وقد حفرت دواليب السيارات التي تعبرها أخدودين على جانبيها وملأ الوحل هذين الاخدودين وشكلت كتل الطين حاجزاً مرتفعاً يفصل بينهما . وهكذا ، انحدرت بنا شاحنة عوني وهي تترجرج ذات اليمين وذات اليسار ، وتهتز مرتفعة إلى أعلى تارة وهابطة إلى أسفل تارة أخرى ، كأننا في خضاضة لا تكف عن الحركة . أما الطرق التي تصل بين القرى ، متفرعة من الطريق الرئيسي ، أو بين الدور والاخصاص وبيوت الشعر في القرية الواحدة فلك ان تتحدث عن سوئها ولا حرج . وعندما

انزلني عوني عند نقطة بعينها واشار إلى حيث يمكن ان اتجه ، كان علي ان اعبر درباً للمشاة ميزته عن الأرض التي يشقها ليونة الوحل الذي يملأه . كما كان عليّ ان أعبر هذا الدرب وأنا أشيل حقيبتي . وما أن بدأت خطواتي الأولى حتى غاص حذاءاي في وحل الدرب ، وشق عليّ أن أسحبهما لأتابع السير ، فصار لابد من خلعهما وتشمير البنطلون .

كان الهدف الذي أشار عوني إليه هو المدرسة . وقد قامت هذه على ظهر وهدة ، تكاد تكون تلاً ، غير بعيد عن طريق السيارات . وكان عوني قد أفهمني أن المعلمين اللذين جاءا هذا العام قبلي يقيمان في المدرسة وما علّي إلا أن انضم اليهما . وما سمي مدرسة لم يكن سوى أربع حجرات متلاصقة مبنية من الطين والحجارة السوداء غير المسواة وأمامها باحة على شكل شريط مواز للحجرات ، لم يسمح انحدار التل في تلك الناحية بأن تكون فسيحة . والمدرسة تتوسط دور القرية التي تحمل اسم «تل الأعور» وفق التسمية التي يتداولها الناس ، أو التل الأعور وفق التسمية المدرجة في السجلات الرسمية . والدور قريبة من المدرسة قرباً يبيح للأهالي أن يعاينوا ويسمعوا ما يدور في حجرات الدراسة وسكن المعلمين ، مثلما يبيح للتلاميذ والمعلمين أن يتابعوا ما يجري في الدور .

وعندما وصلت إلى هذا المكان ، كانت تنتظرني مفاجأة ، فالمعلم الذي استقبلني كان زكريا محي الدين ، وهو ابن عم الصديق فايز ، فهو ، اذن من صفد ، أيضاً . وانا أعرف زكريا منذ أيام الدراسة معرفة لم تتطور إلى صداقة وذلك بسبب تباين الطباع والاهتمامات ، ويعرف هو الكثير عني ، ما سمعه من ابن عمه وما كان شائعاً بين زملاء الدراسة من أحوالي المضطربة . كان زكريا في المدرسة من النوع الذي لا يعرف سوى الانصراف إلى الدراسة فلا يهتم بشيء آخر ولا يرى إلا في المدرسة أو في المنزل أو على الطريق بينهما . وكان هذا الابن المطيع لأسرة محافظة يأبى المساهمة في اي نشاط عام ، سياسياً كان أو اجتماعياً أو حتى رياضياً . وكان زكريا يأخذ علي ، وعلى امثالي ، اهتمامنا بالسياسة ويستنكر اشتراكنا في نشاطاتها ويتجنب الاحتكاك بنا أو إقامة أيّ صلة معنا ، ولو لم أكن

صديقاً لابن عمه لتجنب ، على الأغلب ، أن يبادلني التحية . وها أنا أجد أن هذا الشاب المسكون بالوجل بإزاء الحياة العامة سبقني إلى المدرسة التي سأُعلّم فيها ، واكتشف أنه هو الذي عّين مديراً لها . فأيّ سفاجأة ، وأي حظ هذا الذي طالعني لحظة وصولي !

فوجئ زكريا ، هو الآخر ، بظهوري أمامه ، ولاشك في أنه كان يفضل مجيء معلّم سواي ممن يعدهم من غير أصحاب المشاكل . استقبلني زكريا بأدب مشوب بكثير من التهيّب ، وأظهر استعداده لتقديم ما أحتاج إليه من عون ، وكان استعداده هذا صادقاً فهو يخشاني ويظن ، بسبب ذلك ، أن استرضائي انفع له من إثارة حنقي . ثم لم يلبث أن جاء المعلم الآخر وهو محمد حجو من «لوبيه» ، قدّم نفسه لي بهذا الاسم وهذه النسبة ، بنبرة مجلجلة ، ثم أضاف : «انا عند البعض أبو هاشم وعند الآخرين أبو أحمد ، ولك أن تدعوني بأي من الكنيتين» . قال المعلم الذي يكبرني في السن هذا كله بشأن اسمه ثم ابتسم ابتسامة عريضة ، ربما لطرافة أن تكون له كنيتان ، او ليحثني على أن اسأل عن السبب . فلّما بقيت صامتاً بإزاء كل هذه الجلجلة ، ولما لم يكن هو راغباً ، على ما يبدو ، في قطع الحديث ، لم يجد أفضل من أن يكرر الترحيب بي ويعاود هزّ يدي التي احتفظ بها في يده منذ مددتها لمصافحته . ولوقف هذا الصخب الذي لا يتفق مع الحال الذي كنت عليه ، اضطررت إلى أن أسحب يدي من يد محدثي ، فهتف بآخر ترحيباته : «شرّفت؟!» ثم صمت .

كان زكريا وأبو هاشم قد التحقا بالمدرسة منذ بداية العام الدراسي ، أي قبل وصولي بما يزيد عن ثلاثة أشهر ، وقطعا الأمل في أن يضاف إليها المعلم الثالث الموعود . وقد رتب الاثنان أمورهما على هذا الأساس ، فوزّعا الصفوف الخمسة على ثلاث حجرات وتقاسما أعباء التعليم فيها ، واتخذا من الحجرة الرابعة التي هي أصغر الحجرات ، والتي تستخدم مقراً للإدارة ، مكان إقامة لهما . وهكذا كانت الحجرة مكتظة بما فيها ومن فيها قبل وصولي اليها مع اشيائي ؛ كان فيها مكتب الإدارة ، والكراسي ، والخزانة التي تضم السجلات ، والخزانة الأخرى التي تضم الأدوات المدرسية

ووسائل الإيضاح ، وكومات الكتب المدرسية والدفاتر وما شابه ذلك مما كادت الحجرة تطفح به . وكان هناك ، أيضاً ، كومة تضم فرشتين مطويتين تغطيهما حصيرة . وقد ألِف المعلمان أن يزيحا الأشياء التي تضمها الحجرة إلى هذه الناحية أو تلكَ ليستخلصا المساحة الضيقة التي ينامان عليها في الليل . وقد غاب أبو هاشم لحظات رجع بعدها وبصحبته امرأة تحمل فرشة عرفت أنه جلبها من منزل آذن المدرسة القريب لأنام عليها ، وأن المرأة هي زوجة الآذن .

كان من الجليّ أن اقامتي مع المعلمين اللذين سبقاني تعني مزاحمتهما على هذا المكان الضيق وتعنى ، بالتالي ، ازعاجهما وازعاج نفسي . وأردت أن أكون واضحاً ، فصارحت زميليٍ ، فور شروعنا بمناقشة موضوع إقامتي ، بأني أفضّل أن أجد سكناً مستقلاً أعيش فيه وحدي . هنا ، بانت على وجه زكريا حيرة واضحة ، وراحت عيناه تلوبان في المكان دون ان تركزا على شيء بعينه . أما أبو هاشم فبادر إلى الشرح ، دون ان تخلو نبرته من شيءٍ من الجلجلة أو تفتقر عباراته إلى التفاصح : «لن تجد في القرية كلها مكاناً تسكن فيه غير المدرسة . الناس هنا ليست لديهم حجرات فائضة ، وهم ، على كل حال ، لا يعرفون تأجير الحجرات» . واقتضى الامر أن انحشر في المساحة المستخلصة بصعوبة فأزحم جسدي زميليّ بجسدي وتزحم حوائجي حوائجهم . ولم يكن في المبنى كله مطبخ أو حمام أو بيت خلاء . فكان علينا ان نطبخ حيث يتيسر ، في الباحة أو في احدى زوايا حجرة الاقامة أو في واحدة من حجر الدراسة ، حسب الأحوال ، وان نستحم عند العتبة ليسهل تصريف الماء . اما قضاء الحاجة فكان علينا تدبره هنا أو هناك ، في الافضية ووسط الأجمات القريبة أو البعيدة .

وكان البابور ، أو البريموس ، الذي يتقد بالكاز ، أو الكيروسين ، هو الأداة الأكثر استخداماً من اجل الطبخ وتسخين الماء وإعداد القهوة أو الشاي . كما كان من الممكن استخدام الحطب حين تتعطل هذه الأداة أو يعزّ العثور على وقود لها . اما الإضاءة فكنا نستنفد من اجلها آخر دفقة من نور النهار فاذا حل الظلام فإن لمبة الكاز نمرة ٤ ، أو المصباح الذي يتقد فتيله

بالكيروسين ، كما يمكن أن نسمي اللمبة بالفصحى ، كانت تفي بالغرض في الاوقات العادية ، وإن بقي من الممكن دوماً استعارة لوكس في المناسبات الخاصة والتمتع بضوئه الباهر .

إلى هذين الزميلين ، كان في المدرسة آذن هو محمود المحمد ، وهو من عشيرة الشمالنة الفلسطينية التي حدثني ابو وليد عنها . وكانت دار محمود تقع ، كما سبق لك ان عرفت ، بجانب المدرسة . كان محمود شاباً لا يكبرني إلا بسنتين أو ثلاث ، وقد أتيح له شيء من التعليم الابتدائي ، فكان يفك الخط وقد أثرت فيه معاشرته للمعلمين الوافدين من المدن ، فتميز عن أقرانه من أبناء العشيرة باتخاذ الزي المديني وتدخين السجائر المعلبة ، بدل السجائر التي تُلفّ ، والتفنن بمقدار ما تسعفه الظروف في اتباع آداب السلوك المدينية ، ايضاً . في ما عدا ذلك ، بقي محمود ابن بيئته ، نصف بدوي ، ونصف فلاح . من ذلك ، مثلاً ، أن محمود ، وهو الذي يقدم نفسه على انه موظف ، كان ، مثله في هذا مثل ذكور الفلاحين والبدو ، يعد الاعمال التي تتطلبها وظيفته ، كالتنظيف وجلب الماء والسعي في خدمة المعلمين ، من الأعمال المنحطة التي لا تليق بالذكور ، فكان يتعفف عن أدائها . واذ كان لابد من قضاء مثل هذه الاعمال ، فقد كلّف محمود نساء أسرته بتنظيف المدرسة وإعداد الخبز للمعلمين ، وكلف امرأة فقيرة من نساء العشيرة الأخريات بجلب الماء ، وكان يدفع لها مقابل ذلك من راتبه . بالرغم من هذا التعفف الذي لم تتأثر به أحوال المدرسة ، لم يكن محمود يخلو من مزايا مفيدة . وقد كان هو ، على كل حال ، الحلاّل المقتدر للمشاكل التي قد تنشأ بين المدرسة والأهالي ، وكانت له في هذا جولات كثيرة ناجحة استفادت منها المدرسة ، واستفاد هو منها في تعزيز وجاهته .

وقد انضاف إلى علمي ، مما له صلة بمحمود ، أن اتفاقات الهدنة بين سورية وإسرائيل عدت شريط الارض الواقع على ضفة النهر الأخرى المقابلة للبطيحة منطقة مجردة ، ومعنى هذا أن ابناء عشيرة الشمالنة الذين هُجِّروا من هذه الأرض احتفظوا بحق التردد عليها وفلاحتها . وفي مواسم

العمل في الارض ، كان هؤلاء يذهبون إلى حقولهم عبر النهر في الصباح فيقومون بما يتطلبه العمل من حرث أو زرع أو تعشيب أو سقاية أو جني المحصول ، ثم يعودون قبل حلول الظلام . وكان محمود قد ورث عن أبيه المتوفى حقلاً في تلك الناحية ، فكان يتردد عليه في أوقات الذروة من كل موسم ، لا ليعمل بيديه ، بل ليشرف على ما يقوم به افراد أسرته أو من يستأجره لمساعدتهم . ومحمود هذا كان الابن الذكر الوحيد في الأسرة التي مات ربها صغيراً . وقد نشأ في رعاية أم مقتدرة ومعتزة بنفسها . ترمّلت أم محمود وهي شابّة ، وأبت أن تتزوج ثانية ، وآثرت ان تنصرف لرعاية ابنها وبناتها الثلاث . وكان من شأن أم كهذه الأم ان تنمي في محمود حس الكرامة والاعتزاز بالنفس ووجهته ليسلك مسلك الرجال منذ سن مبكرة . أما البنات فقد عجلت الام في تزويجهن ، فتزوجت الأولى قريباً لها ، وتزوجت الثانية عريفاً من سرية الخيّالة العسكرية المرابطة في البطيحة ، وبقيت أصغر البنات مع الأسرة بانتظار زيجة ملائمة .

وكان المعلمان اللذان سبقاني ، مثلهما في هذا مثل الذين سبقوهما ، قد ألفا أن يوكلا إلى محمود أشغالاً كثيرة غير أشغال الآذن التي يتعفف عن القيام بها ، وكان من شأن هذا الأمر أن يعزز المكانة التي يتوخاها الشاب لنفسه ويزيد دالته على المعلمين . فإلى دوره حلّالاً للمشاكل ، كان محمود هو الوسيط المعتمد في أية علاقة من أي نوع تقوم بين المعلمين والأهالي أو بينهم وبين أفراد الدرك أو الجيش أو ناس البك مالك الأرض . ومحمود هو الذي يدبر للمعلمين أمور معيشتهم وسفرهم ، وهو الذي يشرف على احدى حجرات التدريس الثلاث ويشاغل تلاميذها حين ينشغل المعلمان في الحجرتين الأخريين .

والحقيقة أني أملت ، وقد ضقت بالسكن في الحجرة الصغيرة ، في أن يساعدني محمود على ايجاد سكن أفضل ، وعندما أثرت المسألة معه أخذ يراوغ في الاجابة فيما راحت عيناه تقيسانني قياساً دقيقاً . ولما واجهت الآذن بسؤال مباشر عن إمكانية السكن خارج المدرسة ،لم يزد على أن ردد ما قاله المعلمان قبله ، وان فعل ذلك بنبرة بدت لي ، انا المتلهف إلى أيّ

بارقة أمل ، حمالة أوجه ، فحثثته على الإفصاح عمّا بنفسه ، فزاغ ثانية : «لا شيء ، أي شيء ممكن إلا هذا ، إنهم هنا ، بعيداً عنك ، بدو لا يعرفون مصلحتهم» . غير أن هذا القول ، مع ما ينطوي عليه من تأكيد ، لم يبدد إحساسي بأن الشاب المزدهي بتفوقه على البدو ما يزال يخفي عني شيئاً ، فامعنت في اعتصاره : «ألا يوجد في المنطقة غرباء ، غيرنا ، فأين يسكنون؟» . عند هذا السؤال ، اقترب محمود من بق حصاته : «رجال الدرك يقيمون في الدار التي بناها البك لهم . والعسكر لهم مبتنى السرية والخيام . وحين يجيء رجال الحكومة إلى المنطقة فإنهم ينزلون في سرايا البك» ، فعاجلت محدّثي : «لا أظن أنك تقترح علي أن أسكن في معية صاحب السرايا؟» ، فجاء رده اسرع من سؤالي : «لم اقصد هذا ، لم اقصد هذا أبداً ، ثم إنكم موظفو أونروا وليس حكومة» .

هنا طرحت آخر اسئلتي ، وأنا اظن أن جعبة الشاب قد فرغت : «فما الذي تقترحه ، إذن ، إن كان لديك اي جديد؟» ، وهنا بالذات ، وصل محمود الى ما كان يرمي اليه منذ أثار فضولي : «عندنا دار فارغة هي دار عمي ، فيها حجرتان ، لكن الدار لها قصة» .

واتضح أن العم الذي يتحدث محمود عن داره كان قد ابعد عن المنطقة بقرار من المخابرات العسكرية . تلقت المخابرات تقريراً يفيد بان عم محمود ، هذا ، يبيع البيض للإسرائيليين عندما يعبر النهر الى أرضه في الضفة الأخرى ، فاتهمته بالتعامل مع العدو وأمرته بمغادرة منطقة الجبهة واقفلت داره . وقد ظن محمود حين تحقق من قوة رغبتي في الحصول على سكن مستقل ، أنني قد استخدم مكانتي لدى قائد السرية الذي وصفه بأنه عجوز طيب فيأذن لي بالإقامة في الدار ، وبهذا تصان الدار ويحظى العم المبعد بأجرتها .

هذا الاقتراح وغيره من الأسباب حملني الى التعجيل في التعرف على قائد السرية . كان العسكر هنا هم الأسياد الجدد ، انتزعوا هذه المكانة التي كانت قبلهم للدرك ، منذ تحولت البطيحة الى منطقة عسكرية بعد الحرب

الاولى مع اسرائيل . والسرايا التي ألفت تقليدياً ان تحتضن الدرك راحت ترتب امورها لاحتضان العسكر وتطوّر خبراتها لتتمكن من النجاح ، وللعسكر ، بما أنهم كلهم اسياد ، مراتب ومقامات متفاوتة في نظر الاهالي الذي يبهرهم مجرد رؤية اللباس الاخضر ، وصاحب أعلى العسكر مرتبة ، وأعزهم بالتالي مقاماً ، هو قائد السرية حامل النجوم الثلاث البرّاقة .

اجهل حتى الآن السبب الذي جعل الجيش يختار النجوم وليس أي شيء آخر ، للدلالة على مراتب الضباط فيه ، ولكنني صرت ، بعد تعاملي الطويل مع ضباط من شتى الأصناف ، أدرك أن هذا الاختيار لم يكن من غير مغزى ، فرفعة النجمة هي علامة ترفع الضباط ، وعزلتها هي إشارة الى عزلتهم عن المدنيين . سعيت عدة مرات لمقابلة قائد السرية ، كنت أذهب الى مقر القيادة غير البعيد عن مدرستنا فيلقاني أحد معاونيه ، وأطلب المقابلة فلا أظفر الا بإجابة غامضة . ولجأت الى عوني الذي يعرف كل شيء في المنطقة ، فحكى لي الحكاية التي تفسر سر اعتزال قائد السرية واحتجابه عن رؤية الناس .

لم يكن النقيب سليم ضابطاً قبل عشر سنوات ، بل كان وكيل ضابط ، او مساعداً ، وفق التسمية الحديثة . وكان هذا المساعد حارساً مرافقاً للزعيم حسني الزعيم ، فلما قام الزعيم بانقلابه العسكري الشهير في آذار / مارس ١٩٤٩ وعيّن نفسه رئيساً للدولة السورية ، صار المساعد قائداً لحرسه الشخصي ، وتولّى الإشراف على حمايته وحماية منزله . ثم لما قرر العقيد سامي الحناوي الانقلاب على نظام الزعيم ، فاوض قائد الحرس ولين ضميره بان وعده بنقله الى سلك الضباط ، وهكذا ، غض قائد الحرس النظر حين جاء عسكر الانقلاب الجديد الى منزل الزعيم في الليل واقتادوه الى حيث قتلوه ودفنوه . وبتفريطه بحياة وليّ نعمته ، صار المساعد ملازماً يحظى ببعض الامتيازات الإضافية وتمتع بها الى ان جاء من انقلب على الحناوي ذاته ففقد الملازم مصدر حظوته وإن بقيت له رتبة الضابط . ونال الملازم المنقول من سلك ضابط الصف الى سلك الضباط الترفيعات الروتينية التي يسمح النظام العسكري لأمثاله بالحصول عليها حتى بلغ

اعلاها وهي رتبة النقيب التي لا يجوز له ان يتخطاها . ومع التقلبات التي شهدها الجيش ، انتهى أمر النقيب الى هذه المنطقة الحدودية التي يصفها بالملعونة والتي يعاني فيها من وجع الضمير . وقد اسلم وجع الضمير والعزلة وسوء الأحوال قائد السرية الذي يقترب من سن التقاعد الى الكحول ، فهو لا يصحو من السكر الا ليلجأ اليه . روى عوني الحكاية ، ثم قال ان النقيب السكير يتجنب الاحتكاك بالمدنيين من الأهالي أما شؤون السرية فانه يوليها لمساعديه من الضباط الآخرين . ثم أظهر عوني شكه في أن يكون النقيب قد تعمد رفض مقابلتي انا المعلم المتمتع بمكانة خاصة ، وكان من رأي عوني اني اذا لم احظ بمقابلة النقيب حتى الآن فلأني لم أجيء اليه في اي من أوقات صحوه القليلة .

حملتني حكاية عوني عن النقيب سليم على أن ابدّل الأوقات التي أجيء فيها الى قيادة السرية فتمكنت في نهاية المطاف من أن أظفر باللقاء . كانت في وجه الضابط الذي استقبلني طيبة تنمّ عن السذاجة أكثر مما تنم عن سماحة النفس . اما جسد الضابط فكان فيه كل ما يتناقض مع منصبه بصفته قائداً لسرية من الخيالة ، فقد اكتنز الجسد حتى ترهل وتكور وسطه كرش رجراج يهتز حتى مع تردد أنفاس صاحبه . وأما الصوت الذي يخرج من فم تكاد الزوائد الشحمية تخفيه فكان يجيء أسيان فتختفي المعاني المحددة للعبارات ويحار سامعها في فهمها حتى لكأنه هو السكران وليس صاحب الصوت .

ولم يكن في هذا ما يحث على التفاؤل ، خصوصاً لأن قدرة الضابط على الاستماع بتركيز بدت هي الأخرى ضئيلة . بالرغم من ذلك ، أطلقت لساني في شرح المشكلة التي جئت من أجلها ، وانتقيت أسهل العبارات على الفهم ، وتفننت في تصوير عمق حاجتي أنا والمعلمين الآخرين للدار التي اقفلها الجيش . يومها ، تلقيت وعد قائد السرية بالتدخل لدى المخابرات كي تأذن لنا بالسكن في الدار . إلا أن الرجل المدمن نسي وعده . وكلما كررت المحاولة بعد ذلك ، كنت اتلقى الوعد ذاته ، ثم لا يلبث صاحبه أن ينساه .

كان هذا هو ما واجهته بشأن السكن . ولم يكن الأمر أقل صعوبة بالنسبة للطعام . فالسمك الذي منّيت به ما كان يصاد ، في النهر ولا في البحيرة ، في هذا الوقت من الشتاء . والخضار التي كنت منيت بها ، أيضاً ، لم تكن قد نبتت ، وهي ، حين تتوافر في المنطقة ، تظهر خلال موسم قصير يمتد بين أواخر شباط/ فبراير وأواخر نيسان / ابريل ولا يتجاوز منتصف أيار / مايو . وكل ما كان في المتناول من الاطعمة لايعدو البقول الجافة والمعلّبات ، مما تحويه الدكاكين القليلة الموجودة في القرى المتناثرة . والبيض الذي تجود به دجاجات الفلاحات يشح في الشتاء ، فيتطلب الامر بحثاً مضنياً عن فلاحة لديها منه فائض للبيع . وكان من المنطقي أن أطلب مساعدة عوني ليجلب لي ما يمكن جلبه من القنيطرة . غير ان هذا الحل لم يكن متيسراً كل يوم . ففي الشتاء ، حين يشتد المطر ، تسدّ الوحول الطريق فيتقطع سير الشاحنة عليها ويصير خطراً ، ويؤثر عوني المشاركة في الاعمال التي تديرها اسرته بدل التطوح على هذا الطريق . وبوجودي مع زميلين في حجرة واحدة ، ما كان في مقدوري أن أستقل بطعامي . والواقع أن زميليّ ، كليهما ، ما كانا على استعداد لمجاراتي في دفع النفقات التي يتطلبها جلب الطعام من القنيطرة . كان أبو هاشم راعي أسرة كبيرة تعيش في مخيّم اليرموك ، تضم زوجته والأولاد كما تضم والديه وأخوانه الصغار ، فكان عليه أن يُقتر في مصاريفه الى أقصى حد كي يوفر للأسرة ما يفي بحاجاتها . وقد وضع أبو هاشم في حسابه ان لا تزيد مصاريفه عن عشر ليرات . ولذا كان متساهلاً في شأن طعامه ، كما كان متساهلاً في قبول الهدايا التي ألف أولياء التلاميذ أن يجيئوا بها الى المعلمين . وكان زكريا شديد الدقة في اتباع توجيهات ابيه ؛ وقد رأى الأب في وجود ابنه في هذه المنطقة المفتقرة إلى ما يغري بصرف المال مناسبة لا بد من اقتناصها لحمل الابن على التوفير . كان الأب يفكر بمستقبل ابنه ، بتزويجه وشراء مسكن له وتأثيثه ، مما يحتاج الى مال كثير ، وقد حدد الأب للابن سقفاً لما يمكن ان يصرفه في البطيحة وهو لا يتجاوز كثيراً السقف الذي حدده أبو هاشم لنفسه . والحقيقة أن زكريا كان يدفعنا الى

حياة ضنكة ؛ فهو لا ينفق الكثير ، وهو في الوقت نفسه شديد التعفف ، لا يقبل هدايا أولياء الأمور ، ولا يحثهم على المجيء بها . ولا أبالغ حين أقول لك إن وجبات زكريا حتى الوقت الذي انضممت اليه فيه كانت تعتمد أساساً على البصل ، لقد سمع الشاب ما سمعته أنا عن تأثير البصل في مقاومة الملاريا فلاءم هذا حاله ، فصار يأكل البصل في وجباته الثلاث مع الخبز ، فاذا اضاف شيئاً إلى البصل فمما يحصل عليه صديقه ابو هاشم من الفلاحين .

صحيح ان انضمامي الى الحجرة والضغوط التي مارستها على الزميلين ادّت الى ادخال شيء من التحسين على الوجبات التي ألفوها . غير أن حدود التحسين حكمتها الظروف التي حدثتك عنها ، وقد صار من الممكن أن نشتري اللحم المعلب ، بين وقت وآخر ، إذ أن الحصول على اللحم الطازج كان مفتقداً في المنطقة التي ليس فيها قصّاب واحد ، كما صار من الممكن أن نحصل أيضاً على البطاطا التي يجلبها عوني لنا من القنيطرة ، وعلى البيض الذي حرصت على انتظام توريده لحجرتنا بإغواء عدد من الفلاحات بالسعر الزائد عن المألوف . كل هذا دون أن يفقد البصل حضوره الطاغي .

إن إلحاحي على تحسين طعامنا ، مع ضعف استجابة زميليّ ، اوقع على عاتقي مهمة الطبخ ، فصار إعداد ثلاث وجبات يومية من مسؤولياتي في السكن المشترك . ولك ان تتصور صعوبة المهمة بعد ان عرفت كم هي فقيرة ومحدودة المواد التي اعتمدت عليها لإنجازها . لقد عملت بهمة لكي أنوّع الوجبات ، إلا أن النجاح الذي تحقق جاء أدنى من جهودي . حرصت على أن يضم فطورنا الخبز والبيض والشاي المحلّى بالسكر ، وكان زكريا يصرّ على أن يضيف البصل الى الفطور ايضاً ، اما الغداء والعشاء فقد كنت انوّعهما بمقدار ما تسمح به المواد المتيسرة ، كنت أطبخ لحمة العلب مع البطاطا ، تارة ، ومع البصل تارة أخرى ، وحين تسعف الظروف كنت اضيف البيض الى هذا الخليط ، أو أجمع هذه الاصناف كلها في طبق واحد ، وكان يتسنى لي كسر الروتين حين يتطوّع أحد الناس فيبحث عن فلاحة تقبل

ان تبيعنا فرخة أو ديكاً . وقتها ، كانت وجبتنا تتحول الى احتفال .

والعمل في المدرسة كان هو الآخر صعباً من كل الوجوه . فقد اكتظت الحجرات الثلاث بتلاميذ الصفوف الخمسة ، وكان اللذان سبقاني قد خصصا واحدة من الحجرات للصف الأول الذي جاوز عدد تلاميذه الخمسين وأوكلا للآذن محمود أمر مشاغلته ، وخصصا حجرة واحدة لكل اثنين من الصفوف الاربعة الاخرى وتوزعا الاشراف عليهما . ولأني كنت القادم الأخير ، فقد ألقيت على عاتقي مسؤولية تعليم الصف الاول ، وكم كان الامر شاقاً على مبتدئ مثلي تنقصه المعرفة باساليب التعليم مثلما تنقصه الخبرة . ثم إن السيطرة على هذا العدد الكبير من الاولاد مع طراوة تجربتي في تعليم الصغار كانت فوق مقدرتي ، فصار علي ان الجأ الى الصياح والتقريع وشتى انواع العقوبات من اجل ان اضمن الهدوء وحده ، اما ايقاد نور الحرف وغرس مبادئ المعرفة في العقول الغضة فقد كان أصعب علي من اي شيء صعب آخر . وكان هذا كله يوترني ويسلمني في نهاية كل نهار مدرسي الى حالة لا توصف من الارهاق الجسدي والنفسي .

ولم يكن أي من زميلي اكثر مني خبرة لأستشيره ؛ فزكريا كان مبتدئاً مثلي ، لا تفارقه عصاه ولا يكفّ عن الزعيق على تلاميذه ؛ وابو هاشم كان قليل العناية باكتساب خبرات جديدة أو اتباع طرق التعليم الحديثة ، ولم يسبق له ، على اي حال ، أن درّس الصف الأول . وكان من رأي هذا الزميل الذي مارس التعليم لبضع سنوات قبلنا أن جيلنا نحن أفلح لانه تعلم بالشدة والضرب ، وأن التلاميذ الذين نعلمهم المنحدرين من هذا الوسط الفقير والمتخلفين لن يفلحوا ما لم نعاملهم بقسوة . وكنا جميعاً بازاء أولياء أمور لا يهتم معظمهم بالعملية التعليمية ولا يفهمها اي منهم . ألف هؤلاء أن يرسلوا صبيانهم الى المدرسة دون ان يهتموا بما يجري لهم فيها . وقد عنت المدرسة بالنسبة لأولياء الأمور مكاناً يلمّ الصغار فيستريح الكبار من عبثهم وصخبهم ، واذا اهتم أحد بما يحصله هؤلاء الصغار فاهتمامه يتركز على ان يتعلم الاولاد فك الحرف وأن يتيسر لهم بسبب ذلك ان

يدخلوا سلك الدرك او ان يصيروا ضباط صف في الجيش ، ولو توفرت اشغال كافية ينصرف إليها الأولاد في الحقول او رعي المواشي لما ارسل معظم الأهالي أولادهم الى المدرسة ، بل ان كثيرين من هؤلاء احجموا فعلاً عن تسجيل أولادهم في المدرسة ، لا لشيء الا لأنهم لم يجدوا في الامر ما يغويهم فآثروا ان يتركوا الاولاد على سجيتهم ليسرحوا في البراري او يوكلوا اليهم بعض الأعمال . أما الإناث فلم تكن المدرسة تضم اياً منهن . كان تعليم الاناث خارج تصوّر هذا المجتمع ، فالبنت ، حتى وهي طفلة خلقت للعمل في المنزل او الحقول ، او في خدمة الذكور والتخفيف عنهم ، مآل البنت هو منزل الزوج حيث تواصل العمل ذاته ويضاف اليه الحمل والولادة . والمدهش هنا ان الامر لم يكن أمر أخلاق محافظة تكبّل حرية الاناث او أمر معتقدات رجعية تمنع الاختلاط ، بل كان أبسط من ذلك وأدنى الى التفسير ، فما من أحد يجد أهمية للانشغال بتعليم الاناث في وسط لا يعول كثيراً على تعليم الذكور أنفسهم . لم ينتبه احد الى حقيقة ان التعليم هو المفتاح الى حياة جديدة متطورة ، والوسيلة لتحصيل الثقافة ، ولم يهتم أحد بهذا الذي تهتم به المجتمعات المتقدمة .

ومهما يكن من أمر فقد كان المعلم في المدرسة متروكاً لضميره وقدراته ، لا يحاسبه الأهالي إن اساء او أهمل ولا يفطن احد للثناء عليه ان أجاد وتفانى في العمل . ولم تكن لدى مفتش التعليم الذي تقع على عاتقه مسؤولية مراقبة العمل وتوجيه المعلمين الاوقات الكافية لأداء هذه المهمة على نحو فعّال . فالمفتش كان موزع الأوقات والجهود بين واجباته الإدارية الكثيرة في قسم التعليم والمدارس التابعة له في المنطقة والإشراف على المدارس الموزعة على خطوط مواصلات عدة ومعلميها الكثيرين . وكان قصارى ما يستطيع المفتش القيام به هو زيارة المدرسة الواحدة مرتين أو ثلاث مرات في السنة ، يجيء على عجل ويتعجل الانصراف ويقضي معظم وقت زيارته في مناقشة المشاكل والإجابة على الشكاوى . ويعرف المفتش أن هذه المنطقة النائية لا يجيء إليها إلا المعلمون المبتدئون أو الآخرون المعاقبون لسبب أو لغيره . وأنظمة الآونروا تهيىء للمعلم ألا يقيم

في البطيحة أكثر من سنة واحدة ، إذ إن من حق المعلم المرسل إلى هذه المنطقة وأمثالها أن يطلب الانتقال منها بعد سنته الأولى فيها ، وغالباً ما تسمح حركة الاستقالات والتعيينات الجديدة بالاستجابة لهذا الطلب . وقد كان من شأن المفتش أن يراعي هذا الوضع فلا يتصرف بصرامة مع أي معلم .

وقد نتج عن اهمال أولياء أمور التلاميذ ، وليونة المفتش ، وقلة خبرة المعلمين مع احساسهم بأنهم مؤقتون ، وربما رخاوة ضمائرهم ، وغير هذه من الأسباب ، أن ترسخت في نظر الأهالي صورة للمدرسة تجعلها أقرب إلى «الزريبة» التي لا يرجى الظفر فيها بالشيء الكثير . أما صورة المعلم عند هؤلاء فلم تكن أفضل كثيراً من هذا . وغالباً ما جاء إلى المدرسة معلمون لا يفهمون المجتمع الذي يعملون فيه ولا يهتمون بدراسته وفهمه ومراعاة تقاليده ، هؤلاء ركزوا جلّ اهتمامهم في قضاء السنة المقررة لهم ، أو السنتين ، بأقل النفقات وأضأل الأعباء ، دون أن يجتذبهم المحيط أو يتوخوا إقامة صلات حميمة مع ناسه . ونهج معظم المعلمين نهج رجال الدرك وموظفي الحكومة التقليديين ، فطمعوا بما بين أيدي الفلاح ، واستسهلوا استغلال تهيبه من الموظفين واستمرأوا التمتع بالعطايا التي يتوهم الفلاح أن من واجبه استرضاءهم بها . ضعفت الضمائر وهانت الكرامات فشكل السمك والخضار والبيض والدجاج أهدافاً يتوخى أصحاب الضمائر الضعيفة الحصول عليها من الفلاحين مجاناً حين يمكن ذلك وبأدنى الاسعار حين يتعذر النهب الصريح . وكان الفلاح يقدم أشياءه خانعاً ، بتأثير العادة التي تجعل للابسي البذلة المدينية حقوقاً على الفلاحين لا يعرف أحد وجه مشروعيتها ، وإن كان الجميع يلتزمون بأدائها ، أو بتأثير الخوف من أن يتعرض ابنه في المدرسة للعقاب أو يتعرض هو ذاته لفقدان المعونات الأخرى التي توفرها الاونروا له حين يغضب عليه معلمو الاونروا .

وقد أدى هذا السلوك إلى الهبوط بسمعة المعلم ، وألف الاهالي أن يصنفوا المعلم في مرتبة ادنى من مرتبة رقيب الدرك أو الجيش بما يكاد يساويه مع مرتبة الجندي أو الدركي . وها أنا اتذكر مرة كنت فيها في

ضيافة أحدهم ، وكنا كثيرين ، مدنيين وعسكريين . وأديرت القهوة ، دار بها صبّابها على الجالسين من اليمين إلى اليسار ، كالعادة . لكن الصبّاب حين بلغ موقعي تخطاني ، ليقدم الفنجان لرقيب يجلس بعدي ، ثم عاد إليّ . ولما رفضت ان اتناول الفنجان ، في إشارة احتجاج اردتها ان تكون صامتة لكن حازمة ، ظهرت الدهشة على وجوه الحاضرين جميعاً وبينهم مضيفنا ، فما من أحد منهم فطن إلى أن تقديم رقيب على معلم يشكل سبباً للاحتجاج .

شيء آخر نجم عن ضعف هيبة المعلمين في هذا المجتمع وتسبب في استخفاف الأهالي بهم . فالسكن في منطقة معرضة دائما للخطر ، مثل البطيحة ، كان من شأنه أن يقوي أهمية الجرأة والشجاعة في مواجهة الخطر ويضعها في المحل الاول من الاعتبار بين القيم السائدة . ويبدو أن عدداً من المعلمين ممن تعاقبوا على المدرسة لم ينتبه إلى ذلك ، أو لم يكن قادراً على التصرف على اساسه . هؤلاء لم يتطابق رد فعلهم ، حين يحل الظلام في السهل وتسكنه الهواجس أو حين تقع اشتباكات فعلية مع العدو الاسرائيلي ، مع مفهوم الاهالي عن الجرأة والشجاعة . وقد وجد من هؤلاء من ظهر عليه جبن سافر ، فتهيب الانتقال في الظلام أو ركبه الذعر في أوقات الاشتباك . فاستقر في ذهن الاهالي أن المعلم القادم من المدينة جبان ، يخيفه نباح كلب أو نعيق بومة أو أية نأمة تنبثق وسط هدأة الليل ويرعبه صوت الرصاص .

وكانت ردود الفعل هذه من أشد ما يعاب به الانسان في تلك المنطقة التي لا يجد أهلها الكثير مما يتباهون به فيبالغون بالتباهي بالقدرة على التماسك في وجه المخاطر . وكانت حكايات جبن المعلمين تتناقل بتلذذ شديد يعكس رغبة مستترة في التعويض عن سوء الحال . وكان خيال الفلاحين يضيف الكثير إلى الوقائع فيجد مادة ملائمة للتندر بهؤلاء المدينيين والتشنيع عليهم . وبلغ الامر حداً جعل سيئي النية والعابثين من الفلاحين ، وخصوصاً من فتيانهم ، يتعمدون التلهي بأعصاب المعلم وإثارة ذعره في العتمات . كان الواحد من هؤلاء يكمن مع أصحابه للمعلم في

غدواته أو روحاته أو قريباً من مكان سكنه ويأتي بحركات أو أصوات يتوخى منها إثارة الفزع ويتسلى أو يسلّي الاصحاب بما يصدر من ردود فعل خرعة أو بما يمكن تفسيره على هذا الأساس . ثم صار الامر تقليداً يتكرر بتواتر منتظم ، وخصوصاً حين يكون المعلم القادم جديداً فيثير الشهية للتمتع بما هو جديد . فعل بعضهم هذا مع زكريا عند قدومه ، فاخضعوه لامتحانات عديدة ومتنوعة ، فكف عن الخروج في الأماسي وخصوصاً المعتمة منها ، فصاروا يكمنون له قرب المدرسة ، خصوصاً حين يكون وحيداً في الحجرة . ولما اشتكى زكريا للمخاتير والوجهاء ، تلقى وعد هؤلاء بالمساعدة ، إلا أن شكواه لم تحقق شيئاً سوى البرهنة على أن لسوء سمعة المعلم ما يسوّغها .

أما أبو هاشم ، وهو الذي خبر حياة الريف وهو طفل في قريته الفلسطينية لوبيه ثم عاش في المخيّم ، فقد عرف كيف يواجه العابثين به فتجنبه العابثون .

وفي اليوم التالي لوصولي ، وكنت عائداً من أول مشوار لي في السهل ، والظلمة تخالط نور النهار المولي وتتغلب عليه ، تعرضت للامتحان الأول . فقد انتصب في وجهي ، فجأة ، ومن حيث لا أدري ، كلب مهتاج وراح ينبح وهو متحفز ، فاحتفظت باستقامة خطوي وهدوئي إلى أن تجاوزته . وأمعن الكلب في نباحه وتبعني وهو ينبح بأقصى قوته كأنه يستثيرني لأدخل العراك معه . فلما تابعت الخطو ، اقترب هو مني اكثر ، حتى صار بامكانه ان يلمس ثيابي بخطمه . هنا ، فقط ، التفت بغير جلبة وانتهرت الكلب ، فتوقف وصمت ، وتابعت السير . غير أن الكلب لم يلبث أن عاود النباح واقترب مني ثانية ، وتكررت المناورة ، انهره فيبتعد ثم يكرّ من جديد ، ومع تكرارها راحت عدوانية الكلب تشتد ، كل هذا دون ان يظهر في المحيط من يعاونني على صده . وقد استقر في ذهني اني اتعرض لامتحان مقصود فآليت على نفسي أن اجتازه بنجاح . واستنفرت ارادتي بكامل قوتها وسلحت نفسي بالحرص على حسن السمعة . واغتنمت لحظة كان الكلب يتهيأ فيها لكرة جديدة ، فالتقطت من الارض حجراً

يملأ الكفّ . ويبدو أن حركتي المباغتة جمدت حركة الكلب . وكانت تلك هي الوهلة التي استثمرتها لأرميه بالحجر بأشد ما أملك من قوة . ولحسن حظي ، أو قل ، ايضاً ، لدقة تصويبي ، أصاب الحجر صدر الكلب من ناحية قلبه فنبح نباحاً مسكوناً بالأنين وظل ينبح حتى ابتعدت عنه ، لكنه لم يعد إلى متابعتي . ويبدو أن حكاية اشتباكي مع الكلب قد دارت في المجالس فوصلت إلى مسامع الآذن . وقد نقل محمود ما جرى بعد رميتي الموفقة ، فقد كسرت الرمية ضلعاً من أضلاع الكلب ففكر صاحبه بالشكوى ، إلا أن الناس نصحوه بألا يَعْلَقَ في مشكلة مع معلم من نوع جديد .

بالإضافة إلى المنغصات الاخرى ، تناوشتني آلام المفاصل في هذا الغور المسكون بالرطوبة . كنت قد ألفت ، كما تعرف ، أن تداهمني نوبات الألم بين وقت وآخر فأعالجها بما يصفه طبيب الاونروا في دمشق من عقاقير أو أصبر عليها إلى أن تمر بغير علاج . أما هنا فقد ازداد تواتر النوبات حتى كادت تتحول إلى نوبة واحدة متصلة واشتد الالم إلى حدود غير مألوفة . وافتقدت الطبيب ، فليس في المنطقة كلها طبيب ، لا خاص ولا حكومي ولا تابع للأونروا . السرية ، وحدها ، كان فيها ممرض ، ومهمته ان يقوم بالاسعافات الاولية حين يتعرض عسكري للاصابة ، وهو يصرف للعسكر حبوب الكينا لمعالجة مرض الملاريا والحبوب القابضة أو المسهلة ، حسب الاحوال ، ثم لا تزيد قدراته عن صرف الحبوب المسكنة لمعالجة بقية الأمراض ، أياً كان نوعها أو درجة خطورتها . واذا ساءت حالة عسكري وصار لا بد من عرضه على طبيب ، فقد كان عليه إما ان ينتظر موعد زيارة طبيب اللواء الذي يجيء إلى البطيحة مرة كل اسبوعين أو أن ينتقل إلى عيادة اللواء في قرية العليقة على مبعدة عشرين كيلو متراً على طريق القنيطرة ، يحمله إلى العليقة حصان من أحصنة السرية أو تأخذه السيارة الوحيدة التي تملكها السرية حين تذهب من أجل إحضار التموين مرة كل بضعة أيام . وقد عرضت نفسي على الطبيب العسكري في إحدى زياراته للسرية ، وكان هذا امتيازاً وفرته لي مكانتي كمعلم وصلتي بضباط

السرية ، فافتى الطبيب بأن آلامي ناجمة عن هياجات عصبية ووصف لي حبوب «الفيتامين ب١» ، ونصحني باللجوء إلى المسكنات . فطابق في هذا كله وصف طبيب الاونروا في دمشق . قدمت لي الحبوب بعض المساعدة ، إلا أنها لم تقض على الألم قضاء مبرماً . ثم لجأت إلى طبيب الاونروا في القنيطرة ، وكان فلسطينياً قادماً من لبنان ، على شيء من الطيبة وخفة الدم ، وقد استمع إلى شكواي بأناة شديدة دون ان يدهشه شيء فيها ، ثم لم يزد على تأكيد التشخيص السابق والوصفات السابقة ، إلا بنصيحته لي بأن آخذ الفيتامين ب١ حقناً وليس حبوباً وأن أوطن نفسي على تعاطي المسكنات طيلة عمري . وبدأ الطبيب الجديد أكثر تبسطاً معي في الحديث من سابقيه ، فافهمني أن مرضي ليس له علاج ، وكل ما يستطيع الطبيب أن يفعله في حالتي هو المساعدة على تخفيف الألم . وظلت آلام المفاصل تتناوبني ، تخف أو تشتد ، وتعذبني معظم الوقت .

وبالاجمال ، بدت لي المنطقة ، في بداية إقامتي فيها ، كئيبة ومحبطة ، واتضح ان الحياة فيها ليست سهلة ، إلا أنها لم تخل مما يشدّ الانتباه ويستثير الفضول .

ثم إن هذا كله لم يلبث أن أخذ يتبدل . فالاعتياد ، وسيلة البشر في كل مكان وزمان لتليين النفور ، فعل فعله بمضيّ الوقت ، والربيع الذي يحل في الغور مبكراً أظهر وجهاً آخر للطبيعة مختلفاً عن وجهها الكالح في الشتاء وحمل العديد من التسهيلات والمباهج . فبحلول شهر شباط / فبراير ، ماجت الخضرة في السهل ، واكتسحت ألوان الزهور البرية قتامة المشهد وتميزت وسطه أزهار الدفلى بألوانها الصارخة ، وحملت النسائم المنعشة أزكى الروائح . وتبع ذلك كله العطاء المبكر لحقول الغور وجروده ، الخضار الطازجة بانواعها العديدة التي طرّت وجباتنا واكتسحت روتينها البغيض ، والفواكه ، والفطور ، والاعشاب البرية ، والسمك الذي فاضت به شطوط البحيرة والنهر ، حفافى ، وقشري ، ومشط ، ومرمور ، وبربوط . والوافدون العديدون إلى المنطقة ، ممن تجتذبهم خيرات الموسم وسهولة الحصول عليها ورخص اسعارها فيختلقون الاسباب للوفود اليها ويعودون

محملين بما تقدر دوابهم أو سياراتهم على نقله ، ضباط ، وموظفو حكومة ، وموظفو أونروا ، واصدقاء لهؤلاء ، يجيئوون فيلونون حياتنا بتسليات متنوعة ويخلفون وراءهم حكايات يطيب تداولها في السهرات المديدة ، وتجار وسماسرة وأعوان لهم عمروا سوق السمك الذي ينشط في قرية المسعدية على شاطىء البحيرة وملأوا سوق الخضار الذي ينتصب في الموسم في الفضاء الفسيح الممتد أمام السرايا .

غرقنا في النعم حتى كدنا نضيق بوفرتها ، غير أن تمتعي بهذه النعم ظل محكوماً بأمرين : حاجة زميلي في السكن إلى التقتير وقصر عمر موسم الخيرات . وبالرغم من هذا وذاك ، كان للموسم وقع الحلم اللذيذ الذي يعوّض عن سوء الواقع . وأنت تعرف أن الاحلام اللذيذة لا تدوم إلى الابد ، غير انها ، على قصرها ، تساعدنا على استساغة الحياة والتعلق بها وتنشّط فينا حس الترقب وتمكننا من الاحتفاظ بالأمل .

في غضون ذلك ، شرعت في إقامة علاقات مفيدة ، هنا وهناك ، في المنطقة .

كانت المدرسة موقعاً متميزاً في سفح تل الأعور قريباً من قمته بين دور القرية التي تحمل هذا الاسم . أما القمة ذاتها فكانت تشغلها نقطة مراقبة عسكرية أقيمت منذ بضع سنوات وتحولت ، بمضي الوقت ، إلى موقع ثابت ومحصّن . وكانت قرى عديدة أخرى تتصل بقرية تل الاعور أو تتناثر فوق المساحات القريبة والاخرى البعيدة عنها . فعلى الطريق المفضي إلى جهة النهر قامت قرية الطواحين التي تمتد بيوتها فتصلها بالمجرى . وعلى شاطىء البحيرة ، في مواجهة تلّنا ، بما لا يبعد عنه بأكثر من كيلو مترين ، تتجمع دور قرية المسعدية . وهاتان القريتان تتميزان بسمات خاصة بين قرى السهل ، فالطواحين هي المأوى الرئيس لصيادي النهر الذين يستخدمون الشباك الصغيرة والسنانير ، والمسعدية هي مأوى صيادي البحيرة الذين يستخدمون الشباك الكبيرة والأجراف والزوارق . وفي الاتجاه الآخر الذي يمتد بموازاة شاطىء البحيرة في عمق السهل ، تتوالى القرى الاخرى ،

البطيحة ، حيث تنتصب سرايا البيك ، والحسينية التي تقوم فيها مدرسة أخرى للأونروا ، والكرسي ، والدوكا التي تنتهي عندها مسؤولية سرية الخيالة ، ثم عين غيب التي يبدأ عندها خط الهدنة . وفي المساحات بين هذه القرى وعلى حوافها ، تتعدد عيون الماء ، والجداول ، والمسيلات ، والوديان ، والغدران ، وتتناثر أجمات البلوط والعليق والسرو وبيارات الموز والبرتقال والليمون ، وتبرق الحقول والمسارب بالالوان الزاهية كشقائق النعمان والدفلى والنرجس وشتى النباتات والزهور البرية .

هنا قد ينبغي أن انبهك إلى ان تسمية قرية قد تطلق في المنطقة على اماكن لها ، فعلاً ، سمات القرى ، وقد تطلق ، ايضاً ، على بضعة دور قامت لسبب أو آخر في مكان منعزل دون أن يزيد حجمها ، في واقع الامر ، عن حجم الحي الواحد في القرية .

كما قد ينبغي ان اذكرك بأن وجود القرى بأبنيتها الثابتة لم يلغ استخدام الأخصاص المصنوعة من عيدان القصب أو بيوت الشعر المنسوجة من صوف الماعز الغاء تاماً . فقد ظل من الممكن ان تقع العين على خص أو مجموعة أخصاص قائمة في هذا المكان أو ذاك ، بين دور القرية الواحدة ، أو في المساحات بين القرى ، أو في مواقع منعزلة في الحقول والجرود ، قرب المزارع أو وسط مناطق الرعي . وبقيت اسر كثيرة تؤثر استخدام بيوت الشعر وتنقل مواقعها حسب الاحوال ، أو تقتني بيوت الشعر إلى جانب ما تملكه من دور ثابتة .

على هذا الاطار الجغرافي ، توزع ناس المنطقة . وكان للولاء العشائري التأثير الحاسم في تقسيمهم بين ارجائه . صحيح أن هذا الولاء المتوارث منذ عصور قديمة قد فقد الكثير من مقوماته الاصلية ، إلا أنه لم يفقد ، بسبب ذلك ، كامل تأثيره . لقد بقى الناس ينسبون انفسهم ، في المقام الاول ، إلى العشيرة ويتمسكون بالإرث المشترك من عاداتها وعلائق ابنائها وامجادها الحقيقية أو المتوهمة أو المزعومة ويؤدون ما يفرضه الولاء للعشيرة من التزامات مادية ومعنوية . وصحيح ، ايضاً ، أن بعض متطلبات الحياة

العصرية والمفاهيم الحديثة المرتبطة بها كانت قد اخذت تخترق الولاء العشائري وتزعزع ثوابته . إلا أن تأثير هذه المتطلبات والمفاهيم كان ما يزال في بداياته . ولو تحدثنا ، مثلاً ، عن العشيرتين الفلسطينيتين اللتين لجأتا إلى المنطقة : الشمالنة والقديرين ، فنجد ان ظروف اللجوء وما نجم عنها من تفكيك للأواصر القديمة قد أوجدت شيئاً من الهموم والمشاغل المشتركة بين أبناء العشيرتين ، كلتيهما . غير أن ذلك لم يرق إلى مستوى الغاء الولاء العشائري أو طمس اولوياته . وكان هذا الولاء يفصح عن نفسه في اعتزال القديرين في السكن في ناحية منفصلة عن سكن الآخرين وفي ندرة التزاوج ، أو انعدامه حتى ذلك الوقت ، بين ابناء العشيرتين . كما كان هذا الولاء يفصح عن نفسه ، أيضاً ، بصورة اجلى ، عند وقوع المشاكل ، بما فيها ابسطها ، إذ ما كان أعجل ان يصطف ابناء كل عشيرة حول بعضهم في خندق يجابه خندق ابناء العشيرة الأخرى!

هذا المشهد الاجتماعي ، بثباته الذي يقاوم عوامل زعزعته ، كان يلونه الغرباء عن المنطقة ويؤثرون فيه . وهؤلاء الغرباء ، عسكريين ومدنيين ، ناس حكومة وناس اعمال من مختلف الدرجات ، صاروا كثيرين منذ ازداد الاهتمام بالمنطقة لتحولها إلى خط للمجابهة مع إسرائيل . وقد تزامن هذا التحول مع انتقال ملكية المنطقة بالإرث من عبد الرحمن اليوسف ، الآغا الاقطاعي التقليدي ، إلى ابنه فؤاد ، الاقطاعي الجديد . كان عبد الرحمن آغا مشبعاً ، هو نفسه ، بالقيم العشائرية العتيقة ، فكان من شأنه أن يساعد على توطيدها في المجتمع الذي يتحكم هو في مصدر رزقه ومصائر ناسه . ولم يكن هذا الآغا خبيراً بوسائل الزراعة الحديثة أو خفاياها ولا أمتلك الدافع إلى التطوير . كان الآغا يملك الارض وحده فكان ريع انتاجها ، أياً كانت درجة تطور أدوات هذا الانتاج واساليبه ، كافياً لاغراقه في النعيم الذي يتوخاه . أما ابنه فؤاد فكان واحداً من بضعة ورثة فوضوا إليه أمر إدارة الارض على أن يقتسموا معه ريعها . وكان فؤاد ذاته قد ظفر بالتعليم الجامعي وخبر ، وهو الذي يعيش في العاصمة ، حياة المدينة وأساليب الاستثمار المتطور فيها وانخرط في حياة البلاد السياسية فتوفرت له ، بهذا

كله ، دوافع كثيرة لتحسين وسائل إنتاج الأرض وأساليبه . ولم يكن يعني فؤاد من الشأن العشائري إلا الجانب الذي يمكنه من ابقاء فلاحيه على خط الطاعة . واتّسم سلوك الابن ازاء هذه المسألة بالتباين ، فهو ضد التماسك العشائري حين ينجم عنه أي تضامن من أي نوع في وجه سلطة السرايا ومصالحها ، وهو معه ، في الوقت ذاته ، حين يساعد على عزلة العشائر عن بعضها فيضعفها ويسهل رضوخها .

وحين بدأت بمد شبكة علاقاتي داخل الوسط المحيط ، كان لا بد من الاستعانة بمحمود ، وخصوصاً عندما تعلق الأمر بالتعرف على أولياء أمور التلاميذ . أما مع الوافدين من أصحاب الأعمال فقد سهل الأمر وجود عدد من آل الصرصور بينهم . كان هؤلاء أخوين وابن عم لهما عرفوا المنطقة قبل هجرتهم من صفد ، فلما حملتهم دروب المنافي إلى دمشق ووجب ان يبدأوا مما هو دون الصفر ، تذكروا المنطقة التي تتوفر فيها فرص استثمار سهلة لمن يملك الذكاء الملائم ويتحمل بؤس الإقامة فيها . وتصادف أن كان هؤلاء اعماماً لزميلنا في عرب فلسطين ، مازن الصرصور ، مما وفر لي السبب المناسب للمبادرة بالتعرف عليهم وجعلهم يحسنون استقبالي .

كان أول الثلاثة وأصغرهم في السن وأقربهم إلى نفسي هو أبو أحمد .

غادر هذا الصفدي بلده وهو شاب بعد أن ظفر بمقدار من التعليم المتوسط هيأه للاهتمام بالقراءة بالرغم من فقدان الصلة بين العمل الذي تيسر له وهذه القراءة . وكان الثاني هو أبو رمزي ، وهو الاخ الاكبر لأبي أحمد . هذان الأخوان افتتحا ، في محيط تل الأعور ، في البطيحة دكاناً يتبادلان العمل فيها ، وهي دكان توفر لزبائنها ما يحتاج اليه الريفي من مواد البقالة ، كما توفر الحوائج التي يستخدمها الفلاح والصياد في عملهما . وغالباً ما تبيع الدكان بضائعها للزبائن ديناً ، يرده الفلاح عندما يحصل على ما يربحه في نهاية موسم الخضار ، ويرده الصياد في نهاية موسم صيد السمك . ومع ان الأخوين شريكان في العمل ، متفاهمان أتم التفاهم بشأن العمل ، فإن شخصيتيهما اختلفتا في كل ما عدا ذلك .

كان ابو احمد أقرب الى روح العصر ، على شيء من التحرر الفكري ، وكان في تعامله مع الزبائن حِرفياً لا يميز تمييزاً كبيراً بين ذوي المراتب الاجتماعية المتفاوتة منهم ولا يَدخل عواطفه أو آراءه الشخصية في تعامله معهم . وكان هذا المولع بالمطالعة والحريص على التمتع بجمال الفلكلور الريفي قليل المحاباة للآخرين ، لا يتحامل على أحد دون سبب معقول ولا يجامل أحداً ، يصرّح بما في نفسه ، فيقبل ما يقبل أو يرفض ، دون التواء . وكان هذا الرجل يتوخى الاستقامة في التعامل مع زبائن يجهلون أفانين التجارة ولغة الحسابات التي تسجلها الدفاتر ، فلا يغش الناس ولا يستثمر جهلهم حتى حين يكون ذلك سهلاً . وإلى هذا ، كان أبو أحمد حريصاً على اقامة صلات اجتماعية بمحيطه خارج نطاق المصالح التي تترتب على العمل ، فهو يستقبل الاصدقاء في الدكان ويعقد مجالس للسمر والحوار والتبسط مع الناس ، وهو يزورهم في منازلهم ، يحمل اليهم ما يتيسر من الهدايا ويأكل من زادهم وينخرط في سمرهم . أما أبو رمزي فكان دكنجياً تقليدياً ، يضع نصب عينه هم الربح في المقام الأول ، يبش في وجه من يرى انه يستحق ذلك ويعبس في وجوه الآخرين . كان أبو رمزي ينطلق في سلوكه كله من اعتقاده بأن الناس مراتب متفاوته يعلو بعضهم بعضاً ويحق للأعلى ان يستثمر الادنى ، وكان مقتنعاً بأن المديني ، بالاجمال ، اكمل ، وأعلى مرتبة ، من الفلاح ، فكان يردد ، في كل مناسبة ، ان الله خلق الفلاح متعة للمديني ويتصرف على هذا الأساس . والشيء الوحيد الذي خفف سطوة أبي رمزي في مجال الفتك بزبائنه الفلاحين انه كان امياً وأن اخاه أبا احمد كان هو الموكل بمسك دفاتر الدكان وتسجيل حساباتها .

أما الثالث من آل صرصور فهو أبو عدنان . ولو عرفت الرجل الذي سأحدثك عنه ، كما عرفته أنا ، لأدركت انك إزاء آفة حقيقية تحل بالبطيحة وتستقر فيها عدة شهور كل سنة وتفتك بأرزاق فلاحيها الفقراء .

كان ابو عدنان ، حين عرفته ، رجلاً يتجه نحو الخمسين ، امياً لا يعرف قراءة أو كتابة ، ولكنه يتمتع بذاكرة فولاذية لا يغيب عنها حدث أو اسم أو رقم .

وكان الرجل وسيماً وسامة ظاهرة ، ذا شخصية قوية تجعل له بين الناس حضوراً طاغياً ، وكان ، إلى هذا ، جاد العزيمة ، لا يسمح لشيء ان يقف في طريقه . وقد أقام أبو عدنان صلات عمل ، هي أقرب العلاقات إلى الشراكة ، مع ممول كبير من تجار الخضار في سوق الهال في دمشق . هذه العلاقة بما وضعته بين يدي أبي عدنان من رأسمال جعلته هو وشريكه يحكمان السيطرة على تجارة الخضار في البطيحة .

يملأ التاجر الدمشقي كيس ابي عدنان بالمال ، ويجيء أبو عدنان ومعه الكيس إلى البطيحة ويمضي معظم وقته فيها ، يتفقد أحوال الفلاحين ويدفع لهم المال اللازم لتغطية حاجاتهم الضرورية ويحتسبه ديناً يتعهدون بدفعه من جني الموسم القادم فيوثق ارتباطهم به ، يحتاجه الجميع ويجرون وراءه من مكان إلى آخر طيله أشهر السنة ، يترجّون ويوسطون الوسطاء ، ويخنعون أمام الشروط التي يفرضها عليهم مقابل تسليفهم ما سيسترده منهم أضعافاً مضاعفة .

كان ابو عدنان يفعل هذا كل يوم فيوقع ضحايا جديدة في شباكه . وحين يحل المساء ، كان ابو عدنان يخرج من جيبه الدفتر الذي يحفظ كل ما فيه عن ظهر قلب دون أن يعرف قراءته ، ثم ينخى أي أحد يثق به ممن يتقنون الكتابة ليملي عليه وقائع يومه الجديدة ، فيحفظها الدفتر ويختزنها التاجر الأميّ في الذاكرة ، يتم ذلك ، ثم ينصرف إلى مباذله ، وغالباً ما تشتمل هذه المباذل ، كل ليلة على امرأة ما يعرف أبو عدنان أنها لا تستطيع ، لا هي ولا الذين يخصّونها ، مقاومة سطوته أو تحدّي قدرته على إذلال المحتاجين إليه . واذا أخذت بعين الاعتبار كثرة ما تطرأ للفلاح المفتقر الى المال من حاجات ، كأن يحتاج لمن يكفله لدى الدكان ، أو لشراء دابة ، أو اداة ، أو هدم ، أو لتزويج ابن أو بنت ، أو الوفاء بنذر ، أو السفر لمتابعة معاملة في دوائر الحكومة ، أو أداء غرامة ، أو الوفاء بأي استحقاق عادي أو طارىء ، فستدرك مدى نفوذ التاجر الذي يحمل كيس المال في جيب ودفتر الحسابات في جيب آخر ومدى قدرته على ارتهان ارادة الزبائن وكراماتهم وحصيلة كدّهم .

وحين يحل موسم عطاء الحقول ، وينتصب سوق الخضار التي ستحمل إلى دمشق أمام السرايا ، كان أبو عدنان هو ملك السوق دون منازعٍ ، وكان هذا يعني أن الفرصة التي يسترد فيها صاحب الكيس القرش قروشاً عديدة قد لاحت .

أما معي ، فكان أبو عدنان حريصاً على أن يسلك مسلكاً آخر ، فأنا ، قبل اي شيء آخر ، فلسطيني من بلدياته ، صديق لقريبه مازن الذي يعتز أبو عدنان بكونه من أوائل اقربائه الذين حظوا بالتعليم وظفروا بالشهادات ، وأنا ، بعد هذا كله ، معلم ذو مكانة وتأثير عند الأهالي ، ومن الخير للتاجر ان يكسبني إلى جانبه ، أو يبقيني على الحياد ، بدل ان يستفزني إلى العمل ضده وتحريض الناس عليه . حرص ابو عدنان ، منذ تعرفت عليه ، على اصطحابي إلى سهراته . وقد رافقته في البداية ، فلما عاينت مقدار تبذل تلك السهرات احجمت ، فلم يبد منه ما يسوؤني ، بل حرص على اصطحابي إلى الاماكن التي يحظى فيها بالرعاية دون تبذل ، وكان يتعمد ان يعاملني باحترام وان يقدمني إلى الآخرين بكثير من التبجيل . واعطى أبو عدنان لي ، باريحية مدروسة ، حق التوسط عنده لصالح أصحاب الحاجات ، فكان يساعد من اطلب منه مساعدته ويتعمد أن يؤكد أنه يفعل ذلك من أجل خاطر الأستاذ الكريم . وحين كنت انتقد سلوكه لا يزيد على أن يضحك ، واذا تشددت في النقد لا يزيد على أن يقول : «أعفاني الله من هم القراءة فأنا لا أعرف هذا الذي توسوس لكم به الكتب ، افتح عينيك وشف الدنيا كما خلقها الله وتمتع بها ، وأبو عدنان ملك عيونك!» .

والغريب في الأمر أن كل ما في سلوك هذا الرجل كان من النوع الذي لابد لمثلي أن ينفر منه او يعترض عليه ، ومع ذلك فقد كان في شخصيته شيء ما غامض يجذبني اليه . هل وقعت أسير الاعجاب باندفاعة شخصية الرجل وقوة شكيمته وعصاميته؟ وهل وجدت فيه ما يذكرني بجدي عبد المجيد وفي نجاحه النجاح الذي تمنيت ان يحققه الجد بعد الهجرة ، ام ان احتفاء الرجل بي وبراعته في إحاطتي بالرعاية والتكريم هما

اللذان اسراني؟ هل كان فيّ شيء أعمق تأثيراً من الوعي المكتسب حملني على الاعجاب بهذا الفلسطيني الذي حقق لنفسه مكانة متميزة دون أن يسحقه حضور السرايا الطاغي ، أم أن دوافعي للوقوف ضد الظلم لم تكن قد نضجت إلى الحد الذي يجعلني أتحرر من تأثير ما هو شخصي صرف في تحديد موقفي من الآخرين ؟

أياً كان الأمر ، فقد بقيت صديقاً لأبي عدنان ، بالرغم من أني لم أكف عن انتقاده . واحتفظ هو إزائي بالمودة وظل يدافع عني ، أو قل ظل يحميني ، بالرغم من أنه كان مستعداً لسحق ناس لم يجهروا في وجهه بعشر ما اجهر به أنا من انتقاد له .

ومن الوافدين المدينيين إلى البطيحة ، عرفت ، ايضاً ، اثنين من تجار السمك .

التاجر الأول ، وقد نسيت اسمه ، كان رجلاً مشرفاً على الستين من عمره ، جذبته إلى البطيحة في البداية معرفته بعبد الرحمن آغا ، ثم مكث فيها سنوات عديدة ، فكان يعرف ناسها وأحوالها معرفة تامة مثلما كان قادراً على اقتناص أي فرصة لاستغلال هؤلاء الناس والاستفادة من هذه الاحوال . وفي غضون هذه السنوات ، نمّى التاجر ثروته مثلما نمّى كرشه ووطد شبكة سيطرته على معظم صيادي المنطقة المحترفين ، فاحتكر تجارة السمك فيها وتصرف بها على هواه ، فكان هو الذي يحدد السعر ، وكان ميزانه العتيق ذو الكفتين المتدليتين على حامل معلق في السقف هو الذي يحدد أوزان السمك الذي يجلبه الصيادون إلى مخزن التاجر غير المفتون بقواعد الاخلاق ومقتضيات الأمانة . لقد سمعت الكثير عن الرجل قبل أن اقدم اليه ، وكان المتعاملون معه يعرفون أنه يغشهم في الوزن وفي حساب الاسعار ، إلا انهم كانوا عاجزين عن الانفكاك من قبضة سيطرته ، لأنهم لا يعرفون واسطة أخرى لإيصال سمكهم إلى سوق المدينة . فلما قدمت إليه ، قدّمني أبو عدنان ، وجدتني ، فعلاً بإزاء تاجر غير نظيف ، لا بالمعنى الاخلاقي للكلمة فحسب بل بمعناها الفيزيائي ايضاً . كانت رائحة

السمك التي أزمنت تفوح من جسد الرجل وملابسه وتؤذي مجالسيه ، دون أن يبدو عليه أنه يهتم لذلك أو انه مستعد لبذل أي مجهود لتنظيف نفسه ، وكان يتحدث عن غشه للصيادين ومقدرته على تحصيل المال من ثمرة كدهم بنبرة من يتحدث عن الامور التي يدلل بها على ذكائه وخبرته في خفايا العمل التجاري ، فلا يبدو عليه أنه يعرف وجع الضمير . وعندما أدليت بأولى ملاحظاتي حول سوء أمانته ، لم يقع هذا التاجر في أي اضطراب ، بل شملني بنظرة مستخفة ، ووجه الخطاب لأبي عدنان : «قلت لي إنه صاحبك ، فافهمه ان التجارة عرض وقبول ، ومادام الصيادون قابلين بما أقدمه لهم ، فلماذا يحشر نفسه في ما لم يخلق له؟!» . وبالاجمال ، نفرت من هذا التاجر عند لقائي الأول به ، واستهان هو بي استهانة لم يكلف نفسه عناء التستر عليها . وفي كل مرة التقيت فيها بهذا التاجر بعد ذلك ، كان النفور المتبادل هو الذي يسم العبارات القليلة التي كنا نتبادلها .

التاجر الآخر كان ، مثل الأول ، دمشقياً . ذلك هو أبو داغر صاحب دكان بيع السمك الشهير في حي القصاع في العاصمة ، وكان لي الفضل في استدراج هذا التاجر إلى البطيحة . بدأ الأمر أثناء زيارتي لدمشق بعد الأسبوعين الأولين اللذين قضيتهما في المنطقة . وقتها التقيت بصديقي حمدان حمدان فاخذني إلى منزله حيث يقيم مع ذويه ، فعل حمدان ذلك لأنه يعرف أن أباه متشوق للاستماع إلى اخبار المنطقة التي يعشقها هذا الأب . فأبو حمدان نشأ في مدينة طبرية وعاش فيها صياداً مولعاً بالبحيرة والسمك وعاشقاً للحياة ، يعمل فلا يبزه احد في العمل ويسمر في أوقات فراغه فيشيع الحبور حيث يحل . ثم أنشأ ابو حمدان على شاطىء البحيرة مطعماً يوفر لرواده السمك والحبور ويمتعهم بأريحية صاحبه ، فزادت ثروة الرجل فيما بقي على صلة دائمة بالبحيرة والصيد والسمك . وفي ليلة مظلمة ، كما اعتاد الرجل أن يقول ، فقد ابو حمدان هذا كله دفعة واحدة ؛ استولى الاسرائيليون على طبرية وهجّروا أهلها العرب ، ولجأ هو وابناء أسرته ، إلى دمشق ، فسكن في شقة متواضعة لم تكن سوى قبو صغير ، في حي الشيخ محي الدين ، يجتر فيها ذكرياته

ويحلم بالعودة إلى البحيرة وأيام العز على شاطئها ، ويتدبر أمر اطعام اسرته وتعليم أبنائه ، فيمارس هذا العمل أو ذاك ، أجيراً في دكان أو حارساً لبناية أو فراشاً في مكتب ، دون أن يستهويه أي منها أو يعوّضه بقليل أو كثير عن الأيام الخالية . ولأن السمك ظل هو عشق ابي حمدان الأول الذي لا عشق بعده ، فقد ألف الرجل أن يتردد على دكاكين السماكين في المدينة ، ففيها ، وحدها ، كان قادراً على تشمم الاخبار الآتية من البحيرة . عن هذا الطريق تعرف أبو داغر على الصياد الفلسطيني العتيق .

كان أبو داغر ، نفسه ، صياداً قديماً ثم صار المشرف على دكان السمك التي ورثها عن أبيه مع سبعة من اخوته . وسرعان ما تآلف الصيادان اللذان يجمعهما عشقهما المشترك لمخلوقات الماء . وانتهى الأمر بأن استخدم السماك الدمشقي السماك الطبري مساعداً له في الدكان واولاه كامل ثقته . فلما حدثت أبا حمدان عن احوال صيادي السمك في البطيحة ، وجور التاجر عليهم ، حدثني هو عن فظاظة هذا التاجر ذاته مع اصحاب دكاكين السمك في دمشق ، وعن الأسعار الاحتكارية التي يفرضها عليهم ، هنا نبتت الفكرة : لماذا لا نعمل على أن يدخل أبو داغر منافساً للتاجر العتيق في البطيحة؟ واتفقت مع ابي حمدان على أن استطلع الامكانات في المنطقة فيما يتولى هو إعداد صاحبه للمجازفة .

كان الصياد الطبري مدفوعاً بالامل الذي لاح له كي يعود إلى اجواء البحيرة ، وكنت انا مدفوعاً ببغضي التاجر الغشاش ، فاندفع كل منا في مهمته باقصى ما يملك من عزيمة .

هنا ، أعطت علاقتي الغريبة بصديقي تاجر الخضار أبي عدنان واحدة من أطيب ثمراتها . طلبت مساعدة هذا الصديق ، وركزت في عرضي لطلبي على ان المقصود هو مساعدة الصيّاد الفلسطيني واعطاؤه فرصة جديدة للانطلاق .

لم يكن أبو عدنان راغباً في الاساءة للتاجر القديم ، لكنه كان مدفوعاً لترضيتي .

وانتهى الأمر بأن آلت إلى أبي داغر حصة من سمك البطيحة ، كانت تلك حصة ضئيلة بالقياس لما بقي للتاجر القديم ، إلا انها كانت تفي بمتطلبات المسمكة التي يملكها أبو داغر ، وكان هو سعيداً بحصوله على السمك دون وساطة التاجر المحتكر ، أما أنا فقد فُزت بزيارات أبي حمدان للمنطقة فزاد تمتعي بصحبته وفيض حكاياته التي لا تغيض .

ومن بين من عرفت في تلك الفترة المبكرة من اقامتي في البطيحة كان الرقيب فرحان . كان هذا الرقيب هو المسؤول عن نقطة المراقبة القائمة أعلى التل قرب المدرسة والمسؤول ، ايضاً ، عن تنظيم مشاركة الفلاحين من افراد الجيش الشعبي ، أو المقاومة الشعبية ، في الكمائن الليلية التي تقام على حافة النهر . ولكي تدرك طبيعة هذه المسؤولية وتأثيرها على وضع الرقيب ، علي ان استطرد ، هنا ، لاذكر لك ان الفلاحين كانوا مطالبين بالقيام ببعض الواجبات العسكرية ، وكان كل قادر من هؤلاء ملزماً بالتطوع في الجيش الشعبي ، يسمّونه « تطوّع» ولكنهم يفرضونه على الجميع ، رغبوا في ذلك أم لم يرغبوا . وكان أفراد الجيش الشعبي مطالبين بالاشتراك في النشاطات الدفاعية في أوقات الخطر . أما في الأحوال العادية فإن هؤلاء يتناوبون على السهر مع الجنود في الكمائن ، فيضم كل كمين عسكرياً من السرية وثلاثة من الفلاحين . والرقيب فرحان هو الذي كان يتولى تنظيم الدور للمبيت في الكمائن وتوزيع الناس في كل ليلة على القريب أو البعيد ، الآمن أو المعرّض للخطر ، من هذه الكمائن . وكان من بين مسؤوليات الرقيب التفتيش والتحقق من وجود كل فرد في الكمين الذي يذهب إليه .

وبمقدار ما يتعلق الأمر بالواجبات العسكرية في سرية الخيالة المرابطة في منطقة كبيرة على الخط الاول للمجابهة مع العدو ، قدم فرحان مثلاً طيباً عن ضابط الصف ، فكان دائماً حسن الهندام ، سلس السلوك مع مرؤوسيه ، مواظباً على أداء المهام الموكولة اليه دون الحاجة لتذكيره بها . وقد كسب فرحان ثقةرؤسائه وتقديرهم له ، حتى ليمكن القول إنه سحر بعضهم ، فخلوا بينه وبين ما يتولاه من نشاطات وحموه ضد أي انتقاد أو

شكوى . وهذه هي الصورة التي انطبعت في ذهني عن فرحان عندما تعرفت عليه . وقد جذبتني هذه الصورة ، كما جذبني في فرحان قوة شكيمته ومتانة شخصيته وخفة الدم التي تفيض من كل حركة من حركاته وقول من اقواله ، وأبدى فرحان ميلاً صريحاً لمصادقتي ، واذ كان مقداماً وكان سلوكه يوحي بالثقة ، فقد استجبت له دون تردد فما أسرع ما صرنا أصدقاء . غير أنني أكتشفت ، بمضي الوقت ، وجهاً آخر لفرحان هذا ، مختلفاً تماماً وبغيضاً ، واذا كان ابو عدنان آفة معلنة تفتك بضحاياها في وضح النهار باساليب مباشرة ، فقد كان فرحان آفة مخفية يتبع أساليب معقدة في الفتك ولا يمارسها إلا في عتمات الليالي . وكان الاهالي يلجأون الى التكتم على ما يحل بهم من فتكات فرحان ولا يتحدثون عنه الا همساً ، ولم اعرف الوجه الآخر للرقيب الا متأخراً ، بعد أن كانت صداقتنا قد توطدت وانتهى الأمر ، بل بعد أن كنت أحببته كما أحببت أبا عدنان على علاته فلم يعد بمقدوري أن أجافيه . وأستطيع الآن أن أروي لك حكاية هذا الوجه الآخر لفرحان من أولها ، ذلك اني الوحيد الذي عرف بحكم الصداقة وبدافع الفضول الشديد السر الكامن وراء الخصلة التي جعلت من فرحان آفة ليلية صنعت له وجهه الآخر البغيض .

نشأ فرحان كابن مدلل لوجيه من وجهاء إحدى العشائر التي تقطن بادية الشام وتعيش فيها حياة التنقل والرعي ولا تربطها بالحواضر السورية إلا أقل العلاقات ، وقد اختار الأب لابنه الزواج من ابنة العم وكانت هذه فتاة جميلة ورشيقة وذات حضور متميز بين بنات العشيرة . فاتبع فرحان التقليد وهو راض ، بل إنه حمل لابنة العم ذلك النوع من الهوى الذي لا يعرفه الا ابن الباديّة والذي يختلط في تشكيل دوافعه الاستلطاف والشهوة والرغبة في المباهاة والميل الى الاستقلال في بيت منفرد ، وهو ميل لا يتسنى تحقيقه الا بالزواج . وهيأ فرحان نفسه للزواج غير آبه بالاشارات العديدة التي صدرت عن ابنة العم فاظهرت بغضها لابن العم وكرهها الزواج منه . لم يأخذ فرحان هذه الاشارات مأخذ الجد لأنه ربّي على الاستهانة بموقف الانثى والاعتقاد بانها تقول «لا» فتعني «نعم» ، من باب

الخفر ليس غير . وكان على فرحان أن يواجه صدمة لا تحدث لكثيرين في بيئته ؛ ففي لحظة ادخاله على عروسه في بيت الشعر الذي أقيم بمعزل من بيوت العشيرة الأخرى ليشهد خلوتهما الأولى ، عرف فرحان ان العروس تحب شخصاً غيره . وكانت ابنة العم قوية الشخصية أو أنها كانت قد بلغت ذروة اليأس فصارت مستعدة للمجازفة بحياتها . فهي التي أخبرته بحبها للشخص الآخر ورفضها أن تكون لأحد غير حبيبها وخيّرته بين أن يقتلها بنفسه أو أن يترك المهمة لسواه . عندما روى فرحان قصة تلك اللحظة ، كانت خمسَ عشرة سنة قد انقضت منذ واجهها . بالرغم من ذلك ، سيطر الوجوم الكامل على فرحان وهو يروى القصة لي وانتابته رعشات متعاقبة وقال إن شيئاً أقوى من كل نوازعه في تلك اللحظة دفعه الى ترك البنت العاشقة لشأنها ، ووجّه خطاه في الاتجاه الذي يبعده عن العشيرة ، ثم لم يرجع الى عشيرته أبداً .

قاوم فرحان التأثير الطاغي لهذه اللحظة على حياته باندفاعه الشديد لشق طريقه في هذه الحياة ، بدأ ذلك في حمص حيث عمل في شتى المهن التي توفر له اللقمة والمأوى ، ثم عرف طريقه الى الجيش الذي تشكل بعد حصول البلد على الاستقلال ، وحارب مع وحداته في شمال فلسطين فاظهر جرأة نادرة في الحرب وزكّاه رؤساؤه للالتحاق بدورة لمحو الامية ، ثم للانتساب الى مدرسة الرتباء ، وتخرج من المدرسة عريفاً ، ثم صار رقيباً ، وهو يطمع في الحصول على شهادة التعليم المتوسط لعله يتمكن من الاستفادة من القانون الذي يتيح لضباط الصف أن ينضموا الى الكلية العسكرية ويتخرجوا فيها ضباطاً . فعل فرحان هذا كله دون أن يبرأ من تأثير اللحظة التي بدلت مجرى حياته . وقد انعكس هذا التأثير على موقف فرحان من النساء ؛ فهو يعجز عن مضاجعة اي امرأة ترغب فيه ، بينما يستولي عليه جنون الشهوة بإزاء المرأة التي ترفضه . هذه العقدة التي لم يجد فرحان حلاً لها الا الانصياع لتأثيرها حملها الرقيب معه الى البطيخة فصار يعاف المرأة اذا آنس لديها ميلاً نحوه ، اما اذا توجس الإباء في امرأة فإنه ينجذب إليها فيفاتحها برغبته وحين ترفض يغتصبها

اغتصاباً . وقد اقر فرحان لي بما يتهامس به الآخرون بشأنه ، فهو لا يشتهي الا المتزوجات ، وحين يستولي عليه اشتهاؤه لامرأة يضع خطته لغزوها وينفذها ، وغالباً ما يتم ذلك بطريقة واحدة : يرسل زوج المرأة الى الكمين ، ويداهمها فجأة بعد أن ينام الناس ويرغمها على الانصياع له ، ضامناً ان المرأة والذين يحسون بما جرى لها من ذويها سوف يؤثرون الستر أو يتهيبون من الدخول في مشكلة مع رقيب يحظى بتأييد رؤسائه .

ذكرت لك حتى الآن الذين استقرّ أمرهم في ذاكرتي من الوافدين الى المنطقة . اما سكان المنطقة ، مواطنين ولاجئين ، فقد تعرفت على اناس كثيرين منهم . وفي فترة قصيرة صار لي بينهم اصدقاء كثيرون وتوفرت لي بيوت أدخلها دون كلفة وأتمتع باجواء الصحبة الطلقة مع اهلها .

وحين حل موسم الربيع وهو موسم العطاء المبكر للحقول وموسم الصيد الوفير ، أيضاً ، كان قتام الفترة الأولى لإقامتي قد تبدد ، وكانت شبكة علاقاتي قد اتسعت ، وصار بين يدي ما يحبب لي الإقامة في المنطقة . كنت أفرغ من التدريس ثم من حصتي في العمل المنزلي قرابة الرابعة فأتوجه الى الدكان حيث يكون في الغالب أبو أحمد ويكون قد فرغ من معظم عمل النهار فتضمنا المصطبة الممتدة أمام الدكان والكراسي الموزعة حولها ، ويفد الاصدقاء والسمّار ويمتد الحديث ويتنوع . اما الاماسي فكانت للزيارات ، أزور المعارف منفرداً أو بصحبة محمود ، او فرحان ، حسب الأحوال ، أقصد المضافات في بعض الأحيان حيث يمكن الالتقاء بشتى فئات الناس واقصد ناساً بعينهم في دورهم ، في أحيان أخرى . وفي أيام العطل وأنصاف العطل كما هو شأن يوم الخميس ، حين لا اسافر الى القنيطرة او دمشق ، كنت اخصص وقتاً ملائماً للتجول في الحقول أو قرب النهر أو على شاطئ البحيرة . وفي أوقات الذروة في عمل الموسم ، كنت افعل ذلك حتي في استراحة الغداء التي تمتد ساعتين ، كنت أتفرج ، واستمتع ، وأقدم المساعدة في العمل ، وكثيراً ما كنت أذهب لمرافقة الصيادين فأتجه الى النهر وأسير على حافته فأقع عليهم الواحد بعد الآخر وقد انصرفوا لشغلهم مع مخلوقات الماء ، أو أسوح في الحقول فألقاهم حول

الغدران الكبيرة أو على ضفاف البرك التي وسعها مطر الشتاء فأترعها بالماء وانعش حركة الاسماك فيها هنا وهناك . كان كل صياد يعمل بمفرده ، فلا مجال للعمل الجماعي مع السنارة ، والصيد بالسنارة يتم في أوقات النهار وحدها . أما صيد الليل فهو ذلك الذي يتم بالشباك والاجراف في البحيرة ، ذلك أن الصيد محظور في البحيرة . والحقيقة أن اتفاقية الهدنة بين سورية وإسرائيل جعلت البحيرة بكاملها تحت السيطرة العسكرية الاسرائيلية . وقد عنى هذا من حيث المبدأ أن الجانب السوري محظور عليه الوصول الى ماء البحيرة ، إلا أن هذا المبدأ كان يخترقه الصيادون الذين لا يجدون مصدر رزق آخر لهم غير الصيد ، ويغض عسكر السرية النظر او يشجعون الصيادين ويوفرون لهم ما يمكن من الحماية . كان الجانب الإسرائيلي يراقب البحيرة ليل نهار ، في واقع الامر ، وتطوف زوارقه الحربية أرجاء البحيرة فتحمي الصيادين الإسرائيليين وتطلق النار دون انذار على مَنْ يقع في مجال رؤيتها من الصيادين السوريين .

فكانت الأوقات الوحيدة التي تمكن فيها المجازفة بالنزول الى الماء هي الأوقات التي تعمى فيها الزوارق الحربية ، اي عتمات الليالي . حتى في العتمات كانت المجازفة كبيرة ، إذ كثيراً ما كانت الزوارق تطلق نار قذائفها باتجاه الشاطئ السوري من باب الاحتياط ، وما اكثر ما كانت أصوات الرشاشات تخترق هدأة الليل في ذلك الغور الذي عشت فيه!

٣ الوحدة، الديمقراطية، وشكوك تخرق اليقين

تزامن وصولي إلى البطيحة مع تصاعد التوتر الشعبي الذي اقترن باتمام عملية الوحدة بين مصر وسورية . بعض أصداء هذا التوتر اخترق ركود الغور ، أحس الناس بأن شيئاً ما جديداً وهاماً يجري من فوق دون ان تتبين اغلبيتهم طبيعته على وجه اليقين او يتأجج فضولهم لمعرفة هذه الطبيعة . إلا ان ناساً قليلين لمهان يفتقروا الى الاهتمام ، من هؤلاء صفوة العاملين في السرايا ومسؤولو السرية والتجار والدرك الذين تصل اليهم توجيهات الأجهزة الحكومية بشأن ما يستجد من أحداث .

لم يكن في المدرسة جهاز راديو . وعندما اقترحت على زميليّ أن نشترك في دفع ثمن راديو ، احتج زكريا بأنه طلب ، بوصفه المدير ، تزويد المدرسة بالراديو وهو يتوقع الحصول على الموافقة فلا داعي اذن لتبديد نقودنا الخاصة . وبانتظار وصول الراديو الموعود ، صار راديو ابي احمد هو وسيلتي لمتابعة الاحداث . كان هذا الراديو الذي له حجم صندوق كبير والذي تشغله بطارية سيارة موضوعاً في مكان بارز في الدكان ، وكان

هوائيه يتأرجح على سطحها . وقد حرص أبو أحمد مثلي على متابعة الاحداث غير أن جهازه كان كما ألف ان يصفه ، صاحب مزاج ، يطيب مزاجه في بعض الاحيان ، فيخرج منه الصوت واضحاً لا شائبة فيه ، ويعتكر في احيان اخرى فيلزمك ان تلصق أذنيك بسماعته كي تتمكن من التقاط الكلام ، او يغيب تماماً . ولم يكن جهاز أبي أحمد صاحب مزاج متقلب فحسب بل كان مخاتلاً ايضاً : فكان يحدث ان اجيء قبل موعد الاخبار فاجد ان صوته على أتم صفائه ويظل كذلك الى حين الموعد فيضطرب الصوت او يغيب . ولكثرة ما اتعبنا هذا الراديو صرنا نضرب به الامثال ، فنصف الشخص الذي يصمت حين نحتاج الى كلامه ويتكلم حين نضيق به بأنه مثل راديو أبو أحمد ونطلق الصفة ذاتها على المخاتل والعنيد وما الى ذلك من اصناف الناس المتعبين .

بالرغم من هذا ، ظل من الممكن معرفة ما يجري بالمقدار الذي تفصح عنه الاذاعات التي يمكن التقاط بثها في هذا الغور ، وكان من الممكن التقاط اذاعات دمشق والقاهرة وكذلك اذاعة اسرائيل باللغة العربية في اوقات كثيرة من النهار . اما في الليل فكان عدد الاذاعات الملتقطة يزيد فيصير من الممكن ايضاً التقاط اذاعة عمان واذاعة الشرق الادنى التي صار اسمها اذاعة لندن . وعندما اعلن عن قيام الوحدة رسمياً ، نبتت في رأسي فكرة : لماذا لا ننظم هنا مظاهرة احتفال اسوة بما يجري في انحاء سورية كلها؟ وقد عرضت الامر على أبي أحمد فاستهوته فكرتي ، هو الفلسطيني الذي كان شديد الحماس للوحدة . وأبو أحمد هو الذي نصحني : «الرقيب فرحان صديقك ، ولو تعاون معنا فستكون مظاهرة بحق وحقيق» . وماكان أسرع ما استجاب فرحان للفكرة ، فقد كان هو نفسه من المتحمسين للوحدة ، وكانت لديهم في الجيش تعليمات بالاحتفال بها على أوسع نطاق .

وهكذا شهد الغور ، ربما لأول مرة في تاريخه ، مظاهرة التلاميذ الذين نظمناهم والفلاحين الذين دعوناهم أو الذين حشدهم فرحان ، والآخرين الذين اجتذبهم الحماس أو الفضول . انطلقت المظاهرة من تل الأعور ، قرب

المدرسة ، واسعفنا الطقس بصحو نهاره . واجتازت المظاهرة الطريق الوحيد الذي يتسع لعدد كبير من الناس ، وهو الطريق الذي تعبره السيارات . واذا كان الهدف ، وفق الخطة ، أن تصل المظاهرة إلى مخفر الدرك ، فقد ترتب على هذا ، بحكم الطريق ، ان يمر المتظاهرون أمام مدخل السرايا الرئيسي وأن ينعطفوا مع انعطافة سورها قبل الوصول إلى المخفر المجاور لها . ولأن الناس كانوا يقومون بأمر لم يألفوه فانهم لم يعرفوا كيف يتصرفون . وقد احتاج الامر إلى تدخلنا نحن المعلمين والمهتمين الآخرين القليلين بتنظيم المظاهرة ؛ تدخل أبو أحمد بهمة ، وكذلك الرقيب فرحان ، وقام ابو هاشم بما يقدر عليه وزيادة فبز الجميع بالحماس والنشاط . أما زكريا الهيّاب بطبعه من أي نشاط سياسي فقد آثر الا يحتسب في عداد المنظمين ، وان سار في المظاهرة من اولها إلى آخرها ، مجارياً الجو العام . وقد وجب ان نتدخل في كل صغيرة وكبيرة . فنحن الذين أعددنا الهتافات ووزعناها على الهتافين الذين اخترناهم من بين كبار التلاميذ ودربناهم على الهتاف . ونحن الذين وزعنا الناس على صفوف ومجموعات ووجهناهم كي يرددوا ما يقوله الهتاف الذي يتقدم كل مجموعة . ثم اننا توزعنا لنباري المجموعات فنتدخل حين يقع خطأ أو خلل . وسارت المظاهرة بانتظام وهدوء إلى أن اشرفت على السرايا . هنا ، علت أصوات بعض الهتافين متقدي الحماس ، واطلق البعض هتافات تشي بالعداء ، فذعر ناس السرايا ، وفاق ذعرهم ما يقتضيه واقع الحال ، فاقفلوا البوابة واختفوا عن الانظار . وقد تدخلنا على الفور كي لا يقع ما ليس في الحسبان ، واتممنا سير المظاهرة باتجاه المخفر دون ان يقع اي حادث .

وشاء رئيس المخفر ان يتصرف كما يتصرف المسؤولون الحكوميون الكبار حين تجيء المظاهرات إلى مقراتهم . فأطل رقيب الدرك على الجمع المحتشد في باحة المخفر وقد لبس بذلة المراسم الرسمية ، وحيا الجميع ملوحاً بذراعيه ، ثم شرع في القاء كلمة . وقد استهل الرقيب كلمته بالعبارة التي يستخدمها الرئيس جمال عبد الناصر ، فهتف : «أيها الأخوة المواطنون!» ، فاذا بمعظم الجمع يردد الهتاف ذاته . رد الفعل غير المتوقع ، هذا ، أربك

الرقيب ، ولعله خشي أن يقول عبارة أخرى فيعمد الجمهور إلى ترديدها ، فتلجلج ، فلم يفه بشيء . عندها ، تدخل ابو هاشم لانقاذ الموقف ، فقفز إلى المصطبة ودعا الجمهور إلى الاصغاء ، متوقعاً ان يتابع الرقيب كلمته . غير أن الرجل الذي اسقط في يده بقي صامتاً . فكان ان تكلم ابو هاشم ، فنجح في اجتذاب انتباه السامعين ، وانقذ الموقف .

هذه المظاهرة استتبعت جملة من ردود الفعل . فقد استدعى الرقيب فرحان إلى فوق ، إلى مقر قيادة اللواء في العليقة ، واخضع للتحقيق حول مساهمته في تنظيم المظاهرة . ولأن فرحان لم يشعر بأنه فعل ما يؤاخذ عليه ، فقد حكى لضابط المخابرات العسكرية الذي حقق معه كل شيء . وبهذا ، تيقنت المخابرات من اني انا صاحب الفكرة والمحرض على التظاهر ، وظنت أني انا الذي اعدّ الهتافات المعادية لناس السرايا ، فبدأت بالبحث عن اصلي وفصلي وانتماءاتي ونشاطاتي السياسية . وفتح لي ملف جديد في المخابرات العسكرية . أما في السرايا ، فيبدو أن جماعة البك بالغت في تقدير المخاطر الناجمة عن أول مظاهرة في اقطاعية سيدها ، أو انها تهيبت من تحمل المسؤولية بإزائه . وقد ارسلت الجماعة من ابلغ الانباء الى البك في دمشق ناصحة إياه بالقدوم إلى المنطقة لمعالجة الامر بنفسه . والذي حصل أن فؤاد بك وصل إلى السرايا أبكر من عادته المألوفة في كل عام وان استقبالاً غير مألوف أعد له ولحاشيته عند وصوله . وقد اطلق وصول البك على هذا النحو حملة من الاشاعات ، وقيل إن معلمي المدرسة لن يسلموا وإن السرية ستنال حصتها من العقاب جراء تدخلها في أمور لا ينبغي للجيش أن يتدخل فيها . كل ذلك دون أن يقع ، مما هو ملموس ، ما يزعجنا .

بالرغم من ذلك ، وجدتني مندفعاً لمواجهة حملة الاشاعات ، ليس من باب الدفاع عن النفس ، بل لأني ذلك الشاب الذي يعد نفسه وحدوياً اشتراكياً معادياً للإقطاع ويرى أن الدولة الجديدة قامت لتعزيز النضال ضد الاقطاعيين .

وكان لدي الكثير مما أقوله في هذه المواجهة . فواقع الفلاحين الذي اراه امامي مسعف تماماً في تزويدي بالمادة اللازمة لاظهار مظالم الاقطاع . والتعبير عن الابتهاج بقيام الوحدة حق لكل مواطن مدني أو عسكري ، وهو حق تدعمه الدولة . ألم يكن رئيس الدولة الجديدة نفسه عسكرياً؟ ألم يتقدم كبار العسكريين في البلد صفوف الداعين إلى هذه الوحدة ويشغلوا مناصب كبيرة في حكومة الدولة الجديدة ومؤسساتها الأخرى؟ واذا كان رقيب في سرية الخيّالة قد ساعد في تنظيم المظاهرة في البطيحة ، فإن ضباط السرايا والكتائب والألوية كلها كانوا يقومون في معظم المناطق ، ومنها مناطق الجبهة ، بنشاطات صريحة ضد الاقطاع ويحرضون الفلاحين على التمرد .

وقد روّجت ، في حملتي المضادة ، حكاية اعجبتني ، بطلها هو الضابط البعثي مصطفى حمدون .

هذه الحكاية سمعتها في دار أبي وليد في القنيطرة وكان الناس يتناقلونها بين معجب ومستنكر . موجز الحكاية أن الرائد حمدون كان منذ جاء إلى الجبهة ، وذلك قبل قيام الوحدة ، ينشر أفكار حزب البعث علناً ويحرض الفلاحين ضد الاقطاع ، غير آبه للأنظمة العسكرية التي تحظر على العسكريين الاشتغال بالنشاط الحزبي . وقد كان مقر هذا الرائد في قرية في الجبهة يملكها اقطاعي من اصل بدوي هو الأمير فاعور . وكان الأمير يقيم نفوذه على قاعدة مكانته العشائرية الكبيرة وسلطته الاقتصادية ، هو الذي يتحكم بارزاق فلاحيه ومصائرهم ويتصرف بها على هواه . وقد تردد الفلاحون في الاستجابة لتحريضات الرائد البعثي ، فاستثار ترددهم حمية الرائد للامعان في التحريض وتحدي نفوذ الأمير . وكان من العادات المتبقية في الاقطاعية أن يلجأ الفلاح المحتاج للعون أو للاستجارة بحام إلى حائط سرايا الأمير فيضع يده على مكان بعينه في هذا الحائط ويجهر بطلب العون أو الاستجارة ، فيظفر بهما . وكانت هذه العادة هي الرمز الأصلي الذي يدل على مدى سلطة الامير فاعور ويظهر مدى حاجة الفلاحين لرعايته . وقد اختار الرائد هذا المكان في الحائط ،

بالذات ، ليهزأ من نفوذ الامير ويزعزع معتقدات الفلاحين بشأنه ويجتذب هؤلاء للاعتماد عليه ، هو الرائد ، في حل مشاكلهم ، وليس على صاحب السرايا . والحكاية تقول ان الرائد حمدون جمع فلاحي القرية كلهم أمام السرايا ، ثم اعتلى الحائط وبال على ذلك المكان .

كنت اقصّ هذه الحكاية هنا وهناك في البطيحة ، ثم أضيف ، مدفوعاً بحمية لا قبل لي بمقاومة تأثيرها : «أنا لم أبل على حائط احد ، غير اني مستعد لذلك ، إن لم يلزم كل صاحب حد حده» . ولم ألبث ان اشتهرت في البطيحة متحدياً لهيبة فؤاد بك . وقد دخلت هذه الشهرة في نسيج علاقاتي مع الآخرين .

كان آل صرصور ، ابو احمد وأبو رمزي ، صديقاي ، وابو عدنان الذي يجهد لاكتسابي إلى جانبه ، حريصين على مسايرة صاحب الاقطاعية التي يكسبون عيشهم فيها . وكان هؤلاء ، جميعهم ، ضد حملتي على فؤاد بك ، إلا أن كل واحد منهم عبر عن معارضته بطريقة مختلفة . كان ابو احمد يناقشني ويجتهد ، بمقدار ثقافته ، كي يعطي للنقاش أبعاداً فلسفية ، فهو يرى أن في الاقطاع ظلماً سوف يقضي عليه التطور ، دون تدخلي ، وينصحني ، بدافع الحرص على سلامتي ، بأن لا أزج نفسي في مواجهة مع من هم اقدر مني ، ويضيف إلى ذلك ان الفلسطيني غريب ، والغريب لابد ان يكون اديباً حيث يحل . وكان أبو رمزي ، وهو المؤمن بحق المديني في استغلال الفلاحين ، يرى ان فلاحي البطيحة يستحقون ما هم فيه ، بل يرى انهم يظفرون بأكثر مما هم مؤهلون له ومن العبث ان اضيع نفسي وجهدي في الدفاع عنهم . وكانت نصائح ابي رمزي لي تجيء ، دائماً ، بعبارات موجزة ومقرعة : اتركك من هذا فلست قده! أو لماذا تناطح الصخر! أو خلّ بين كل مخلوق وما خلقه الرب له ، البك للسيادة والفلاح لخدمة البك! أما ابو عدنان فكان يجهر باعتراضه على موقفي حين نكون وسط الآخرين . وحين نختلي ، كان أبو عدنان يلين لهجته فيلجأ إلى النصح ويستخدم كل ما في قاموسه من حجج ، لكنه لا يتردد في التأكيد على أنه سوف يحميني من الأذى قدر استطاعته ما دامت لي هذه الرأس

اليابسة . ولا شك في أن قيام الوحدة والملامح التقدمية السافرة التي حملتها الدولة الجديدة وروجت لها قد فعلت فعلها في تليين موقف هؤلاء التجار مني .

وأما الاهالي ، هؤلاء الناس الذين يدهشك تماثلهم حين تتعرف عليهم وتحتاج إلى بعض الوقت كي تدرك ما بينهم من تمايز ، فانك تعجز عن التعرف ، للتو ، على مشاعرهم الحقيقية . غير أنك تتعلم مع الزمن استقراء هذه المشاعر في انطباق الافواه وقتام السحن وجمود النظرات . لقد اعتاد هؤلاء على اخفاء ردود فعلهم حتى كادت العادة تتحول إلى غريزة . وكان من الصعب ، حتى وأنا بإزاء هذا الجمود ، أن اتصور ان يحنق عليّ مظلوم لأني أحرضه على ظالمه . والواقع أن الظلم الذي تراكم على الفلاحين جيلاً بعد جيل ، دون ان يجدوا من ينصرهم على الظالم ، اسلم هؤلاء إلى تلك العادة فصاروا يتهيبون التعجل في اظهار ردود فعلهم حين يحرضهم محرض غريب لا يعرفونه . وكان من السهل على الواحد منهم أن يتسلح بعدم الفهم او بالاستسلام لمشيئة الرب الذي قسم أرزاق الناس وحدد أقدارهم . لكن في الروح ، أيّ روح ، شيئاً يشع حين تلامسه فلا يظل بمقدور التكتم ان يستره . والمحرض الصادق قادر على ايقاد الاشعاعة في روح المستمع إليه والاحساس بها حين تتقد . هذا المحرض لا يحتاج الى كلام مستمعيه كي يتعرف على مواقفهم الحقيقية . لقد كنت استشعر وقدة هنا وأخرى هناك ، في هذا المجلس او ذاك ، فاتشجع وأمضي باحثاً عن المزيد . كانت غالبية الناس تتلقاني بالاحترام الذي توجبه التقاليد لمعلم متميز ، الا انها لا تتبسط في اظهار مكنوناتها ولا تبوح باسرارها بسهولة . واذا كان هذا غاظني في البداية فما أسرع ما تعلمت ان المواظبة هي وسيلة المحرض للاستئثار باهتمام المظلومين وان الصدق هو مفتاح القلوب المقفلة!

بعد المظاهرة ، وقع حادث القى حجراً على ركود السهل فانداحت تأثيراته وشغلت الناس بغير ما ألفوا ان ينشغلوا به . فقد انتحر قائد السرية النقيب سليم ، أمعن الرجل في الشرب ذات مساء وأفاض امام جلسائه في الحديث عن حياته الماضية دون ان يذكر خيانته لزعيمه ولو بالإشارة .

ولما انصرف آخر هؤلاء ، حز النقيب رسغه وقطع الوريد بشفرة حلاقة وتمدد على فراشه وترك الدم ينز فانسلت الروح من جسده دون ان يحس أحد في مقر السرية بذلك . وفي الصباح ، وجدوا النقيب في فراشه المنقوع بالدم . ثم اجري تحقيق سريع ومتكتم ، وجاء من فوق بضع سيارات بها ضباط من رتب مختلفة ، بينها سيارة اسعاف . وقبل أن تغيب الشمس ، غادرت السيارات المنطقة وفيها جثمان النقيب . وبهذا انطوت حياة الرجل الذي وصفه فرحان بأنه أقام في السرية سنتين دون أن يؤذي أحداً أو ينفع احداً . ثم مضت أيام أخرى ونسينا حكاية موجوع الضمير ، هذا ، الذي لم ينفع إلا الموت في إطفاء أوجاعه . وشاع أن قائداً جديداً للسرية قد وصل . وتناقل الناس أن القائد الجديد نقيب فلسطيني من اهل القدس هو مصباح البديري وتناقلوا أنه ضابط متين الشخصية مشهود له بالشجاعة . ثم تهامس الناس بأن القائد الجديد قد دعي إلى السرايا وقالوا ان البك قد احتفى به واقام له وليمة فاخرة . وتفنن الناس في وصف الاطايب التي حوتها المائدة واطلقوا لأخيلتهم العنان في تصور لذائذها وتصويرها . واستنتج الناس ان الشاب ابن العائلة المقدسية المحترمة يعرف كيف يتعامل مع أكابر القوم وقد عرف كيف يفتن البك ويستأثر باعجابه .

كنت اسمع ما يقال ، موزع المشاعر بين خشيتي من أن يكون الكلام صحيحاً وشكي في أن يوجد بين الضباط الفلسطينيين هذا الارستقراطي المؤيّد للاقطاع ، انا الذي حملت عن هؤلاء الضباط فكرة مغايرة . وتذكرت ما عرفته عن ضباط الدورة الشهيرة ، بل تذكرت ان الثلاثة الذين عرفتهم في دار ابي وليد قد جاءوا على ذكر البديري هذا بوصفه من أعز أصدقائهم وقالوا انه يشغل موقعاً في إحدى الكتائب قرب جسر بنات يعقوب . على كل حال ، لم يمر وقت طويل حتى تعرفنا على قائد السرية الجديد . تم التعارف بطريقة غريبة ، اذ كنا في المدرسة قد فرغنا لتونا من عمل يومنا ، وكنت واقفاً في الباحة أرقب السهل والبحيرة وأفكر في ما استطيع أن أفعله بقية النهار ، حين اقتحم الباحة من مدخلها الجانبي فارسان ، احدهما فرحان . كان الرقيب على ظهر حصانه الأكحل الذي

يمتطيه في المهمات الرسمية ، أما رفيقه الذي يتقدمه فقد امتطى حصاناً أبيض يفور بالفتوة والعافية . ولما لمحت النجوم الثلاث على كتف بذلة العمل العسكرية التي يمتطيها هذا الفارس ، توقعت أن يكون هو النقيب الذي تدور حوله الحكايات منذ بعض الوقت . وقد أطلق الرجل التحية ذات الطابع الرسمي : السلام عليكم ورحمة الله ، وهو ما يزال على سرج الحصان ، فرددت تحيته وردّها ، أيضاً ، زميلاي ، اللذان اجتذبتهما جلبة الفارسين .

وترجل فرحان على عجل وامسك رأس الحصان الآخر ، فترجل صاحب النجوم الثلاث . وقد لفت نظري ان في جسد النقيب شيئاً من البدانة التي لا تجور على رشاقته ، وان وجهه المتميز بلونه الحنطي طافح بحمرة العافية . وكان الوجه مكسواً بنظارتين لهما اطار ذهبي والرأس مجللاً بشعر خرنوبي فاتح يكاد يكون اشقر . وكان هذا كله يشي بأن صاحبه من المنعمين .

قدمنا فرحان إلى نقيبه الجديد مصباح . واتبع فرحان التقليد العسكري في مراعاة المرتبة والقدم ، فقدم زكريا ، أولاً ، بوصفه المدير ، ثم قدم أبا هاشم ، بوصفه أقدم مني ، ثم جاء دوري . اما الرئيس فهو الذي عرفنا بنفسه ، وقد حرص ، وهذا ما لفت نظري ، على أن يؤكد على أنه من القدس . وعندما عرضنا على ضيفنا أن نتوجه إلى الحجرة التي نقيم فيها ، أعلن هذا انه يؤثر الاستدفاء بالشمس التي كانت ما تزال تطالعنا من ناحية البحيرة والتمتع بمشهد الطبيعة الممتد أمامنا . وهكذا ، جلبنا مائدة وكراسي وأقمنا مجلسنا وسط الباحة . وأوعز زكريا للآذن محمود كي يقوم بالخدمة المطلوبة ، فخف هذا لما طلب منه مظهراً في خدمة صاحب الرتبة العسكرية ، حماساً ما كان ليظهره في خدمة المدنيين .

وقد تصرفنا على أساس أن هذه زيارة تعارف ومجاملة . غير أن النقيب فاجأنا بأنه جاء من اجل موضوع محدد . خاطبنا النقيب بنبرة رسمية فقال إنه هنا ليحقق معنا في شكوى مقدمة ضد معلمي المدرسة ، ثم ركز

نظره عليّ وأضاف : « ضدك انت بالذات ، يا أستاذ حوراني» . عندها ، توجه نظري بصورة عفوية ناحية صديقي فرحان كأني كنت اتوقع أن يطلعني على أمر الشكوى من قبل ذلك وأني ألومه لأنه اخفاه عني . والتقط النقيب النظرة وبدا انه ادرك مغزاها ، فقال ، بنبرة حمالة أوجه ، موجهاً الخطاب لي : «ليس لك ان تعتب على الرقيب فانا لم اطلعه على الشكوى ، وصدقني ان فرحان محام جيد عن المدرسة وهو يدافع عنكم في كل مكان» . فقال زكريا ، متذكراً أنه هو مدير المدرسة : «أرجو من حضرة النقيب ان يطلعنا على الشكوى!» . وكانت حركات يدي زكريا وتعابير وجهة تشي باضطرابه وتفضح الخوف الذي استولى عليه . اما النقيب فقد اصطنع سمتاً كامل الجدية ، واخذ يعرض شكوى قال إن فؤاد بك تقدم بها . وملخص الشكوى أن البك يتهمني بتحريض الناس ضده والتعريض به ويقول ان المعلمين الآخرين يؤيدانني في هذا ، ويرى البك ان التحريض الذي أمارسه ، وهو ينسبه لدوافع حزبية لا يحدد صفتها بالضبط ، قد يؤدي إلى إثارة الأحقاد وإحداث القلاقل في هذه المنطقة الحدودية التي يريد كل انسان لها الهدوء والاستقرار حتى تنصرف أجهزة الدولة لمواجهة ما هو اهم وهو شؤون الدفاع ضد العدو الاسرائيلي .

واردت أن اقول شيئاً في لحظة صمت فيها النقيب ، غير أن هذا اوقفني قائلاً إنه لم يتم حديثه ، ثم أضاف أن الشكوى ارسلت في واقع الأمر إلى مخابرات اللواء وإن المخابرات هي التي احالتها إلى قيادة السرية ، ثم اتيح للنقيب أن يستمع إلى تفاصيل الشكوى ، ايضاً ، من فؤاد بك نفسه ورجاله عندما زار السرايا . وقال النقيب ، بعد هذا ، ما عده بيت القصيد ، وهو ان فؤاد بك قبل أن يتوسط ، هو النقيب ، بيننا وبينه ، فإن قبلنا التوقف عن التحريض ضد السرايا فإنهم يرحبون بصحبتنا ولن نجد عندهم إلا الخير ، أما إذا رفضنا اليد الممدودة للتفاهم فإن قيادة السرية مرغمة على القيام بالتحقيق المطلوب .

عرض النقيب الشكوى بجدية تامة زاد معها غيظي أنا المغتاظ أساساً من الزيارة كلها ، ونطق العبارات الاخيرة بنبرة محذرة أوصلت غيظي إلى

الذروة. فلما صمت النقيب، توقعت ان يقول زكريا شيئاً متبعاً عادته في التذكير بأنه المدير، غير أن المدير آثر الصمت. وهم أبو هاشم بقول شيء ثم احجم. وهكذا بقي أن اتحدث انا، وقد تحدثت. لم يعد الجالس في مواجهتي زائراً يستحق المجاملة بل رجل سلطة أو قل عسكرياً يتحداني فيستفزني إلى المجابهة. والحقيقة اني افلت لساني بغير تحفظ، فكشفت كل ما اختزنه ضد الاقطاع وظلم الاقطاعي، ثم قلت راداً لزائري استفزازه: «زمن البك مدبر، وان كان من غير الغريب أن يتمسك به. اما الغريب فهو تعاطف الجيش معه. لقد ظننت ان للبلد جيشاً لم يجند لخدمة الاقطاع».

وكنت عازماً على متابعة الحديث على هذا النحو عندما هتف فرحان وهو يوجه إلى رئيسه نظرة مفاخرة: «هذا هو ما قلته لك، ياسيدي! إني أعرفه، إنه صديقي، وهو لا يضعها واطية!».

ثم صفق فرحان جذلاً، وصفق النقيب مثله وهو يضحك. وقبل ان استشف المغزى الكامل لهذه المقاطعة، قال مصباح: «أردت ان امازحكم، أو قل، ولا تؤاخذوني، أردت أن امتحن اعصابكم».

كانت تلك مزحة ثقيلة، في واقع الأمر، إلا أنها مرت بسلام. بعدها، انفردت اسارير مصباح وتبسط في الحديث فبدا على طبيعته. واتضحت القصة الحقيقية للشكوى. فقد شكانا البك، حقاً، إلى قائد السرية الجديد عندما دعاه إلى مائدته. بل إن مصباح يعتقد بأن البك ما تعجل دعوته إلا ليحرضه ضدنا. وكان ان استمع مصباح إلى البك بأدب واهتمام فتوسم البك فيه الاستجابة فأمعن في ايراد التفاصيل، فلم يزد على أن اثار اعجاب ضيفه المتكتم بنا. وعندما افرغ البك ما في جوفه وأجواف ازلامه من حقد علينا، أظهر مصباح، متمسكاً بأدبه، عجزه عن القيام بتحقيق رسمي بشأن الشكوى لأن هذا ليس من صلاحياته، وعرض الوساطة فعلاً وفي باله ان يفهم البك ان الجيش محايد. ولم يسترح البك لسلبية مصباح إزاء الشكوى وإن كتم احساسه بالخيبة. ويبدو ان البك أوعز، بعد ذلك، إلى وكيله، بأن يوجه ضدنا شكوى رسمية إلى المخابرات

وأن يلمح فيها لسلبية قائد السرية الجديد . هذه الشكوى احالتها المخابرات إلى مصباح . ولأن الشكوى مكتوبة بلغة الوكيل ، فقد بدت مثيرة للضحك وتضمنت مبالغات لا يمكن لقارئها إلا أن يستهزىء بها . واذا كان مصباح قد فاجأنا بما سماه مزحة فلأنه حمل عنا انطباعاً طيباً قبل ان يرانا ، فشاء ان يختبر متانة موقفنا بنفسه قبل أن يعلن امامنا بعبارات صريحة أنه متعاطف معنا مستعد لحمايتنا . وعند مصباح ، كما بين ذلك بجدية مثيرة للاعجاب ، ان الأمر يستدعي التسلح بالحذر ، فهو لا يشاركنا تفاؤلنا الشديد بأن زمن الاقطاع قد ولى وانتهى أمره ، إنه لا ينكر الملامح التقدمية للتطورات الكبيرة التي تمت بقيام الوحدة ، لكنه يرى أن الدولة مازالت دولة هؤلاء الناس وهم خبراء ، ولا تجوز الاستهانة بقدراتهم وقوتهم .

توثقت علاقتي بمصباح البديري بسرعة فاقت توقعاتي . كان القائد الجديد للسرية ، إلى ما يتمتع به من خفة دم ملحوظة وميل ظاهر إلى المرح ، وإلى كونه فلسطينياً مسكوناً بالهم الوطني ، معنياً بالشأن الاجتماعي ، حريصاً على دعم حقوق الفلاحين ، كما كان مقداماً عصّياً على التطويع . وقد راقب مصباح عسكر سريته ، ضباطاً وجنوداً ، مراقبة صارمة ، كي يكفوا عن مضايقة الفلاحين ، فمنع السخرة ، وحظر على العسكر تلقي الهدايا التي تحولت ، عملياً ، إلى أعطيات يقدمها الفلاحون لكل صاحب نفوذ توخياً لكف أذاه عنهم ، وأوجب على كل عسكري ان يدفع ثمن ما يأخذه من منتوجات الفلاح . وأوقف مصباح تسلط العسكريين على سمك الصيادين .

ولكي تدرك مغزى هذه الاجراءات ، فقد ينبغي أن أذكر لك أن أي عسكري في السرية ، بمن في ذلك أدنى الجنود رتبة ، كان قادراً على استدعاء أي فلاح وتكليفه ، سخرة ، بأي عمل ، بما في ذلك ان يحمل الفلاح العسكري ويجتاز به منطقة موحلة ، أو ينقل اشياء العسكري من مكان إلى آخر ، أو ينظف حذاءه . كما كان اي عسكري قادراً على أن يأخذ من منتوجات الفلاح ما يشاء ، خضاراً أو فواكه أو بيضاً ودجاجاً ،

دون ان يدفع له شيئاً مقابل ذلك ، ودون أن يملك الفلاح حتى حق الشكوى إلى قائد السرية أو سواه ، مالم يجازف صاحب الشكوى بالتعرض للضرب والمهانات الأخرى على أيدي العسكري المعني بالأمر وأصحابه . وقد جعل مصباح من سلوكه ، هو نفسه ، قدوة ، فكان يدفع ثمن ما يحتاج إليه ، نقداً ، ويرفض الهدايا ، بل يرفض الدعوات إلى الولائم الخاصة .

وقد حاولت السرايا أن تستدرج مصباح إلى فخاخها . وظل هو مؤدباً كلما تعلق الأمر باللياقات الاجتماعية ، فكان يلبي الدعوات ويتصرف بتهذيب يحسده عليه أعرق الارستقراطيين ، إلا أنه لا يلزم نفسه بشيء مما يقتضيه الانحياز إلى جماعة السرايا ولا يستجيب لطلباتهم حين يشمّ فيها رائحة الظلم . ولم يلبث ان تبين لهؤلاء استعصاء قائد السرية على الفساد فضموه إلى جملة من يشكون منهم وراحوا يحرضون المسؤولين ضده . وكنت معجباً ، بل مفتوناً بهذا كله ، وكان فيه سبب كاف لجذبي إلى الضابط الفلسطيني وحملي على التعاون معه بانفتاح واخلاص تامين . ووجد مصباح فيّ صديقاً يدافع عنه ويلهج في كل مكان بالثناء عليه والاشادة بخصاله الحميدة ، كما وجد فيّ ايضاً ، حليفاً نشيطاً ومأموناً ، في النشاط الاجتماعي والنشاط السياسي .

ونمت بيننا ، مصباح وأنا ، على هذه الارضية ، صداقة قُدّر لها انذاك ، أن تتوطد ثم أن تعمر سنوات طويلة .

شخص آخر قدم إلى البطيحة في تلك الفترة وكان من طينتنا ، طينة المعنيين بالمبادىء والمسكونين بالهم الوطني والراغبين في تقدم المجتمع وتخفيف الأعباء عن المظلومين . كان ذاك هو الملازم الاول نزار باكير آغا ، وهو سوري من أدلب . كان نزار ضابطاً احتياطياً استدعي مؤخراً للخدمة ، أما في الحياة المدنية فكان مدرساً . ونزار بعثي انضم إلى حزب البعث منذ كان تلميذاً في الثانوية ونشأ على أفكاره وأخلص لها . وقد تولى نزار مسؤولية الجيش الشعبي بعد أن اتجهت النية إلى تحسين وضع الجيش ،

فحل ، بذلك ، محل الرقيب فرحان الذي غدا مساعداً له . وبوجود هذا الضابط المسّيس ، وبوجود مصباح في قيادة السرية ، وبتعاون معلمي المدرسة ، وبنشاط فرحان الذي لا يكل ولا يمل ، تمت محاولات جادة لتطوير وحدة الجيش الشعبي الموجودة في منطقة خدمة السرية ، فضلاً عن أن انضمام الملازم الأول إلى حلقتنا ساعد على المضي في التطويرات الأخرى الجارية على كل صعيد آخر وعزز الجبهة الآخذة في التشكل ضد السرايا والمتحالفين معها .

انضممت إلى الجيش الشعبي ، وصرت عملياً ، المساعد السياسي لنزار ، وشكلنا ، نزار ومصباح وأنا ، ثلاثياً متعاوناً في كل المجالات ، وكنا نتشاور باستمرار ونراكم الخبرات ونستفيد من خبراتنا فيما كنت أنا أستفيد من خبرات الزميلين . واتجه تفكيرنا ، أول ما اتجه ، إلى جعل الخدمة في الجيش الشعبي مشّوقة ، والتخفيف ، ما أمكن ، من طابعها الارغامي . وهكذا ابتكرنا مجموعة من الحوافز ، فجعلنا المبيت في الكمائن من واجب غير المتزوجين ، وحدهم ، فاذا احتاج الأمر إلى استكمال العدد من بين المتزوجين فقد توخينا أن يتم ذلك بالتطوّع . وضمنّا التسابق على التطوع حين تعهد قائد السرية بتزويد عناصر الجيش الشعبي بالسجاير المخصصة للجنود بالسعر الرخيص . وجعل مصباح من بين الحوافز الحق باستخدام تليفون السرية عند الحاجة بالمقدار المخصص للجنود ، وكذلك الحق في تلقي العلاج لدى الممرض او الذهاب للعلاج في مستوصف اللواء او مستشفى الجيش في القنيطرة والحصول على الدواء مجاناً . وكان هناك في المنطقة الى جانب الجيش النظامي والجيش الشعبي تنظيم شبه عسكري هو الحرس الوطني وهو تنظيم يقع من الناحية العسكرية في مرتبة بين هذين الجيشين ، يميزه عن الجيش النظامي أن أفراده يتولون مهام الحراسة في الخطوط الأمامية لا غير ، ويملكون حق التواجد في المناطق المجردة التي تحظر اتفاقية الهدنة على العسكريين التواجد فيها ، ويميزه عن الجيش الشعبي أن هؤلاء الأفراد يتقاضون رواتب شهرية وكان الفلاحون يتوقون للانتساب الى الحرس الوطني لأنه يضمن

لهم دخلاً ثابتاً . وقد أفهم فلاحو المنطقة أن انتقاء العناصر للحرس الوطني هذا سيتم من بين العناصر المبرزة في الجيش الشعبي ، وحدها ، فنشط ذلك رغبتهم في التطوع . وأكثرنا من الحوافز المعنوية ، فتعددت الثناءات والقاب الشرف ، مما عمم روح التنافس بين الجميع .

وعالج مصباح عقدة فرحان الخاصة فور معرفته بها . وقد ادهشتني قدرة النقيب على التصرف بلباقة وفعالية في هذا المجال . احاط مصباح رقيبه المسكون بالرغبة في الاعتداء على النساء باهتمامه الشخصي حتى كسب ثقته ، وتبسط معه في أحاديث يديرها بأناة ويروي له خلالها حكايات كثيرة عن حالات الشذوذ التي عرفها في حياته في الجيش وما آلت اليه أحوال اصحابها ، مَنْ شفي منهم فتمتع بالعافية النفسية والجسدية ومَنْ أودى به الشذوذ فقضى على مستقبله . ومنذ كسب مصباح ثقة فرحان ، راح هذا ينشد الخلاص ولا يخجل من طلب النصيحة ، وكان في هذا بداية شفائه . وقد تيقنت من أن عقدة فرحان وجدت طريقها إلى الحل عندما صارحني الرقيب بأنه يتوقع الحصول على اجازة طويلة كي يذهب إلى البادية ويبحث عن أهله ويعيد صلته بهم . ولما رجع فرحان بعد الاجازة كان انساناً آخر كأنه ولد ولادة جديدة ، وأسرّ لي وللنقيب وللملازم الأول بأنه يعتزم الزواج ، وقال انه سيجد الزوجة المناسبة بنفسه هذه المرة .

وبالاجمال ، وجد جو جديد ، خف فيه الاحساس بالارغام إن لم يكن قد تلاشى . وتزامن هذا مع استغراقنا في شؤون الناس غير العسكرية وتوسيع علاقاتنا الشخصية بهم ، حتى صار مقر قيادة الملازم نزار ، وهو ، أيضاً ، مقر إقامته ، خليّة ناشطة لا يهدأ العمل فيها ليل نهار . وصار هذا المقر هو وقيادة السرية والمدرسة مراكز جذب يجيء اليها الناس لشتى الأغراض ويجدون فيها حلولا لمشاكلهم واستجابة لتطلعاتهم .

لم نحتج اذن للتبول على حائط أحد أو أي أعمال أخرى فاضحة كي نستقطب الناس ونبعدهم عن الالتصاق بالسرايا وصاحبها . وقد اجابت

السرايا على نشاطنا بإعلان عدائها السافر لنا واقفال أبوابها في وجوهنا. أما آل الصرصور فبقي موقفهم على تناقضه، فمصباح وانا فلسطينيان وقد حققنا بين الجمهور مكانة تجعل آل الصرصور الفلسطينيين يعتّزون بنا. إلا ان المصالح ظلت، أيضاً، تفعل فعلها. وتفاوتت مواقف المخاتير، فمخاتير العشيرتين الفلسطينيتين احاطونا بالود. وقد التف أبناء عشيرة القديرين حول مصباح صراحة ووضع شيخ العشيرة ومختارها حسين المعجل «ابو فخري» نفسه ومكانته ومضافته «في خدمة الطيبين» وجاهر بصداقته لنا. وتحسنت معاملة مخاتير الشمالنة لنا دون أن يبلغوا حد معاداة السرايا. وانقسم مخاتير العشائر الأخرى بين مَنْ يجهر بودّه لنا ومن يجهر بالعداء ومن يتكتم ويداري اموره بيننا وبين السرايا. أما أطرف المواقف فكان، دون شك، موقف مخفر الدرك. هذا المخفر يرأسه الرقيب الذي حدثتك عنه، صاحب «ايها الاخوة المواطنون»، وهو رجل من بلدة النبك، ظفر بالشهادة الابتدائية وانتسب إلى سلك الدرك وتنقل بين مواقع عدة في البلاد، دركياً أوّل وعريفاً، فلما صار رقيباً عينوه لرئاسة مخفر البطيحة. وكان أبو حسان، وهذا هو، على ما اتذكر، اسم الرقيب، قد تشرب أطباع الدرك بكاملها، فهو ابن حكومة يربطه الولاء للحكومة ولا يتبدل هذا الولاء بتبديل الحكومات، وينفذ التعليمات العلنية والسرية التي ترسلها الحكومة لمخفره. والحكومة عند رئيس المخفر هي، اولاً، وقبل أي شيء، قائد درك سرية القضاء الذي يتبع له مخفره، أي قائد درك قضاء فيق، ثم هي فؤاد بك عبد الرحمن بك، سليل الحسب والنسب، الذي إن لم يكن وزيراً فهو مهم مثل أي وزير، أو أكثر.

والحقيقة أن وضع ابي حسان في البطيحة منذ صار رئيساً لمخفرها قبل مجيئي اليها كان على ما يرام، ما دام انه لم يكن هناك تناقض بين الحكومة التي يمثلها قائد الدرك والأخرى التي يمثلها فؤاد بك. وكان أبو حسان في هذا الوضع غارقاً في النعم، نعم التمتع بما تطاله يده من منتوجات الفلاحين وما تغدقه عليه السرايا ونعيم التمتع بالسلطة. لكن الأمور اختلفت بعد ذلك منذ إعلان الوحدة، فاختلطت على الرجل؛ ففي

دمشق حكومة ناصرية ، أهم ما يشغلها هو تأكيد زعامة الرئيس عبد الناصر وتوسيع ولاء الناس له ونشر محبته بين الجمهور والترويج لأفكاره وبينها الأفكار المعادية للاقطاع ؛ وفي السرايا حكومة تعترض على هذا كله وتضيق بقيام الوحدة ؛ وفي السرية قائد جديد ، تقول التقارير التي يتلقاها أبو حسان انه شيوعي نشيط ؛ وفي المدرسة معلم جمّ النشاط تصفه التقارير بأنه بعثي . هذا الوضع أربك أبا حسان بالطبع ، وبلبل مواقفه فجعلها تتضارب ، دون أن يتعمد الرجل ذلك أو يرتاح إليه .

في غضون ذلك ، بينما رحتُ انشغل أكثر فأكثر في شؤون المنطقة وناسها ، لم تنقطع صلتي بدمشق ولم يبهت شوقي لاصحابي فيها أو تعلّقي بما لي في العاصمة من شؤون وشجون . وقد ألفت ان أزور دمشق مرة كل أسبوعين ، على الأقل ؛ أغادر البطيحة بعد ظهر الاربعاء إن تيسرت وسيلة عابرة للنقل ، وأبيت في دار أبي وليد وأبهج الرجل المضياف بما أحمله إلى داره من سمك البطيحة وأحظى بفرصة الاستماع إلى حكاياته وأتعرف على المزيد من زوار الدار واتمتع بصحبة وليد ، ثم أتوجه إلى دمشق في الصباح الباكر لأغادرها ظهر الجمعة وألحق بسيارة عوني التي أعود فيها إلى البطيحة مع حلول المساء . وبهذا ، كان يتسنى لي أن أمضي نهاراً ونصف نهار وبينهما ليلة كاملة في دمشق ، فألتقي بأصحابي وأسهر معهم وأظل في صورة الأحداث العامة التي تشغل البلاد . وقد احتفظت بصلتي بهايل وانيس وصبحي ، وكان هؤلاء الأصدقاء يطلعونني على نشاط تنظيم عرب فلسطين . أما حزب البعث الذي وقعت طلب الانتساب إليه ، فلم يتسنَّ لي ان اتمتع بعضويته ، ذلك ان قيادة الحزب قررت حله في سورية تنفيذاً لأحد الشروط التي وضعها عبد الناصر ثمناً لموافقته على وحدة مصر وسورية ، إذ أصّر على أن تحل الاحزاب السورية نفسها ليقوم على أنقاضها الاتحاد القومي ، التنظيم الواحد الوحيد المرخص له بالعمل في البلاد . وكان الأصدقاء من عرب فلسطين متفائلين . ولم يشعر هؤلاء بالأسف لحل الأحزاب ، ذلك أنهم كانوا ، في الأساس ، ضد التحاق الفلسطينيين بأي حزب ، وقد وجدوا في قيام الدولة الكبيرة التي

تحيط بإسرائيل من الشمال والجنوب ما وجده فيها معظم الفلسطينيين ، وتهيأ لهم أن الفرصة حانت ، مع قيام هذه الدولة ، لوضع حد لعنجهية إسرائيل ولتحرير فلسطين . اما البعثيون ، وبينهم الفلسطينيون ، فقد احتفظوا ، في البداية ، بحماسهم الطاغي للوحدة وتفاؤلهم بشأن النتائج الكبيرة التي توخوها بقيامها . وكان هؤلاء قد أفهموا من قبل قيادتهم التي تفاوضت مع عبد الناصر أن حل الحزب ليس أكثر من خطوة إجرائية على البعث ان يقوم بها كي لا يعطي ذريعة للأحزاب الأخرى فتمتنع عن حل نفسها . وقد وعد البعثيون من قبل عبد الناصر ، كما ابلغ هذا إليهم من قبل قيادتهم ، بأن يكون لهم الدور الأول في تشكيلات الاتحاد القومي ، فوطدوا امورهم على هذا الاساس ومنوا أنفسهم بأعرض الاماني . وأسهم البعثيون في الحملة التي شنتها الدولة الجديدة على الحزب الشيوعي السوري عندما أبى هذا الحزب أن يحل نفسه وقرن قبوله بالوحدة بعدد من الشروط بينها استمرار الحياة الديمقراطية والتعددية السياسية التي تمتعت بها سورية منذ سقوط ديكتاتورية أديب الشيشكلي في العام ١٩٥٤ .

وقد تأثرت ، دون شك ، بأجواء التفاؤل السائدة . ولم تستوقفني الشكاوى التي كان الشيوعيون يرددونها بشأن تغييب الديمقراطية . وكنت ، مثل غيري ، من ناس الأغلبية ، مفتوناً بعبد الناصر ، وقد اعتقدت ، كما اعتقدوا في حينه ، بأن زعامة عبد الناصر وصدق عزيمته في مقاومة الاستعمار والامبريالية ومواجهة إسرائيل ، وتشبثه بتأمين مصالح الكادحين ، ودعوته إلى إلغاء الظلم الاجتماعي وإعادة توزيع الدخل بصورة عادلة ، تشكل ضمانات كافية لكي تسير الدولة الجديدة في هذا الاتجاه .

غير أن شيئاً ما لم يلبث أن برز فشاب اعتقادي هذا شكوك راحت تتزايد بمضي الوقت . فقد جرت انتخابات الاتحاد القومي فتدخلت أجهزة السلطة في العملية الانتخابية بصورة فظة ، ولم يظفر البعثيون بما وعدوا به ولا ظفر به أي من التقدميين الآخرين . وانجلت الانتخابات عن سيطرة أعداد كبيرة من الرجعيين والانتهازيين والمنافقين ومحترفي تبديل الولاء من حكومة لأخرى على قيادات التنظيم الجديد . ثم إن الحملة على

الشيوعيين ، وهي التي ابتدأت حملة إعلامية تديرها أجهزة إعلام السلطة ، اجتذبت أعتى الرجعيين وقربتهم من السلطة الجديدة . ولم تلبث هذه الحملة أن تحولت إلى إجراءات قمع لم تألفها سورية في أي عهد من عهود استقلالها . فاكتظت السجون بالمعتقلين السياسيين وشاعت حكايات مرعبة عن التعذيب الوحشي الذي يتعرض له هؤلاء . وترافق ذلك مع ازدياد مظاهر عبادة الفرد التي اختص بها عبد الناصر وما اقترن بهذه العبادة من ظواهر غير مألوفة واجراءات تستفز المشاعر وتثير السخط في أعماق النفوس . كل هذا برز والسلطة الجديدة جاهدة في محاولاتها لاسترضاء غالبية الجمهور بالتأميم الذي شمل البنوك والمصانع الكبيرة ، وتوزيع الأرض على غير المالكين من الفلاحين ، والحرص عل أن يحظى كل حيّ في المدينة أو كل قرية بمشروع جديد ، كأن تبنى مدرسة ، أو يُحفر بئر ارتوازي لتأمين الماء ، أو يشق طريق ، أو يعبد آخر .

وقد اسهمت صلتي المتزايدة بالضباط الفلسطينيين في بلبلة أفكاري وتبهيت حماسي للنظام الجديد . كان هؤلاء الضباط متأثرين دون شك بموقف الشيوعيين وما جرى لهم . غير أن موقفهم من الوحدة تميز ، في البداية ، بالحماس ، وقد عقدوا عليها الآمال بتوطيد قدرات المجابهة مع إسرائيل وتصعيد هذه المجابهة ، وآمال الضباط الفلسطينيين هذه هي التي حملتهم عند قيام الوحدة إلى المبادرة إلى وضع خطة لتحركات عسكرية ضد إسرائيل . وقد ارسلوا هذه الخطة إلى الرئيس عبد الناصر ، عبر عفيف البزره الذي رُفّع إلى رتبة فريق وصار قائداً للجيش الاول ، أي للجيش السوري ، او جيش الاقليم الشمالي وفق التسمية التي أطلقت على سورية بعد أن صارت جزءاً من الجمهورية العربية المتحدة .

لم اعرف تفاصيل هذه الخطة ، غير أني ادركت أن فيها ما يشجع على الاستفادة من الوضع الاستراتيجي الجديد لتصعيد المجابهة مع إسرائيل ، إن لم يكن لتصفية الحساب معها . ولابد أن تكون هذه الخطة التي وصلت إلى الرئاسة قد أحيلت ، أو أبلغت ، إلى المؤسسات المختصة ، وبضمنها بالطبع المخابرات العسكرية . من السهل أن تحزر طبيعة رد فعل الرئاسة

ومؤسساتها على دعوة للتصعيد مع اسرائيل ، فقد حرص عبد الناصر على تركيز الجهد لتوطيد اركان دولة الوحدة الجديدة ومجابهة ردود الفعل السلبية الكثيرة التي عارضت الوحدة ، سواء منها ردود فعل الدول العربية أو دول أوروبا وأميركا . وفي هذا السياق ، تجنب عبد الناصر ما أمكنه ذلك ، التحرش باسرائيل ، وحرص على أن لا تتوفر لها أي ذريعة للعدوان . وبينما كان الضباط الفلسطينيون يتوقعون أن يتلقوا رداً ايجابياً على خطتهم الحماسية ، فوجئوا بما أطفأ حماسهم وحول تفاؤلهم بالوحدة إلى النقيض . تمثلت المفاجأة في استبدال التعليمات المعتمدة في الجبهة حول الحالات التي يجوز فيها إطلاق النار على العدو بتعليمات جديدة . وكانت التعليمات المعتمدة ، حتى قيام الوحدة ، تبيح لقادة الوحدات المرابطة على الخطوط الأولى أن يطلقوا النار في حالات بعينها ، كأن يكون ذلك رداً على نار تجيء من ناحية العدو أو منعاً لمحاولة تسلل يقوم بها ، وذلك دون ان يحتاج قائد الوحدة إلى الحصول على إذن مسبق من قيادة الجبهة . أما التعليمات الجديدة فقد أوجبت الحصول على إذن قيادة الجبهة المسبق التي تتلقى تعليماتها ، بدورها ، من قيادة الاركان العامة في دمشق ، وذلك حتى في حالات الدفاع عن النفس ، بما فيها الرد على نار يطلقها العدو فعلاً . ويبدو أن الخطة التي تحمس لها الضباط الفلسطينيون لم تؤد إلى شيء سوى زيادة لفت النظر إلى وجودهم في الجيش تكتلاً مشاغباً واخضاعهم ، بالتالي ، لمزيد من الرقابة وإثارة شكوك أكثر حولهم .

كان قائد الجبهة ضابطاً سورياً مشهوداً له بطيبته وحسن معاملته لمرؤوسيه ورهافة حسه الوطني ، وكان الضباط الفلسطينيون يحبونه ويحترمونه ويتعاونون معه بإخلاص ، ذلك هو العقيد جادو عز الدين . وقد جيء بعد الوحدة بمعاون مصري لقائد الجبهة هو ، على ما اتذكر ، العقيد عبد المحسن ابو النور ، لقد سبق لهذا الضابط أن عمل في سفارة مصر في دمشق بصفة ملحق عسكري واسهم في توسيع النفوذ المصري في سورية ، وكان من الضباط الموثوقين من الرئاسة والقادرين على الاتصال بقيادات الجيش والدولة العليا دون حاجة إلى التسلسل الذي تفرضه أنظمة الجيش

في الاتصالات . وشاع في الجبهة أن العقيد المصري فوجىء بوجود ضباط فلسطينيين في الجيش السوري ، كما فوجىء بكثرتهم في الجبهة وبتوزعهم على مواقع حساسة فيها . أما أكثر ما فاجأ الضابط المصري واسع النفوذ ، هذا ، فهو سمعة هؤلاء الضباط بوصفهم شيوعيين وثبوت انتماء عدد منهم فعلاً إلى الصف الشيوعي . هنا عليّ ان اذكرك بأن مصر كانت تتشدد في حظر اشتغال العسكريين بالسياسة وان الشيوعيين المصريين ، عسكريين ومدنيين ، كانوا قيد الاعتقال أو الملاحقة ، وكانوا يعاملون بقسوة بالغة ويتهمون بأنهم أعداء للدولة .

وهكذا ، نشأت مشكلة الضباط الفلسطينيين ، وتزايدت هذه المشكلة وتفاقمت مع اتساع حملة السلطة على الشيوعيين في اقليمي الدولة ، مصر وسورية . وأدرك هؤلاء الضباط أنهم مستهدفون ، ولاحظوا ان المخابرات تترصدهم وتحصي عليهم حتى الأنفاس وتدقق في كل ما يقولون أو يفعلون . ولما كان هؤلاء شباناً يفيضون بالحيوية ويضعون اعتبارات الكرامة فوق اي اعتبار ويعدون وجودهم في الجيش مدخلاً لخدمة قضية يؤمنون بها ، وليس حرفة للارتزاق ، فان استهدافهم بسخط السلطة الجديدة اجج روح التحدي في نفوسهم ، فزاد التصاقهم ببعضهم البعض ، وصاروا يتصرفون على نحو سافر ، بشكل كتلة متماسكة ، ويفاخرون بفلسطينيتهم ، ويجهرون بالمعارضة .

ووجدتني متعاطفاً مع هؤلاء الشبان منذ البداية وتعمق التعاطف حين اشتدت المضايقات التي يتعرضون لها . وشاركني الملازم الأول البعثي نزارٍ باكير آغا هذا الموقف . كان ضابط الاحتياط هذا ، مثلي ، متحمساً للوحدة ، مؤمناً بزعامة عبد الناصر ، لكنه كان ، مثلي أيضاً ، يرى في وجود الضباط الفلسطينيين في الجيش السوري علامة على أصالة مفهوم الوحدة العربية ويرى في الحملة التي يتعرضون لها عملاً قبيحاً ينسبه إلى الاجهزة ويظن أن عبد الناصر بريء منه .

هذا التعاطف الذي كنا ، نزار وانا ، نظهره بغير تحفظ وطد علاقتنا

بمصباح البديري . وعلي أن أقول لك إن هذا النقيب المقدسي كان واحداً من أكفأ الضباط وأكثرهم استقامة وأشدهم إخلاصاً في اداء الواجبات الموكولة اليه ، كما كان من اطول هؤلاء الضباط لساناً في انتقاد ما يراه سلبياً واكثرهم جرأة في الجهر بما يراه حقاً ومواجهة قادته به . وكان هذا كله يفتنني ويزيدني إعجاباً بالضابط الجريء وانحيازاً لقضيته هو وزملائه .

وهكذا ، على هذا النحو ، انقضى عامي المدرسي الأول في البطيحة ، بين التدريس ، والاستغراق في شؤون الفلاحين وتوسيع العلاقات الشخصية معهم ، والتّماس مع عالم التجار والسماسرة ، والانخراط في الشأن العام على عدة مستويات . وقد قدم لي هذا كله خبرات جديدة وغنية ، رحت اعبها واراكمها واتمتع باحتيازي عليها وأعزز إحساسي بالتميز ، أنا الذي يتوفر له ما يظن أنه لا يتوفر إلا للقليلين من أبناء جيله . ولا بد أنك حزرت ان الحياة في البطيحة قد اجتذبتني ، إذن ، فتغلبت طرائفها على توقي للحياة في دمشق . والواقع ان هذا ما حدث بالفعل . لذلك ، لم أطلب النقل إلى دمشق مع أن هذا كان حقاً لي وفق الانظمة .

وآثرت أن أعود إلى المنطقة في العام الدراسي التالي .

٤ في دمشق مع متع الاستقلال عن الأسرة

كانت العطلة الصيفية للمدارس في زمننا تمتد لأكثر من ثلاثة شهور ، تبدأ في أواخر أيار / مايو وتنتهي في أوائل أيلول / سبتمبر ، وكثيراً ما تستغرق وقتاً أطول ، اذا وقع ما يوجب إغلاق المدارس قبل الأوان أو تمديد العطلة . وقد وطدت العزم حين بدأت العطلة ذلك العام ، في أواخر أيار / مايو ، على أن أقضيها بين البطيحة ودمشق ، لأظل على صلة بالمشاغل التي تجتذبني فيهما كليهما واخصص في الذهاب والاياب اياماً اقضيها بصحبة وليد وأبيه في القنيطرة . غير ان الحر الشديد وما اقترن به من ارتفاع درجة الرطوبة في جو الغور وما نجم عنهما من اشتداد آلام المفاصل وبلوغها حداً أرّقني في الصحو والنوم ، حملتني على التعجيل بمغادرة البطيحة ، منذ حلول العطلة ، والتوجه إلى القنيطرة حيث يمكن الاستمتاع بالجو المنعش الذي تتميز به . وقد أمضيت في القنيطرة أياماً لم تبلغ تمام الاسبوع ، استنفدت خلالها كل ما يمكن أن يشدّني للبقاء في البلدة الصغيرة ، فحملني الشوق إلى دمشق على التعجيل بمغادرة القنيطرة .

وبنصيحة أريبة ومساعدة محمودة من صاحب المصبغة التي سبق ان عملت فيها ، صديقي سمير النقيب ، أبي وليد ، استأجرت حجرة مفروشة في منزل قريب من المصبغة ، في حي القصور ، وأقمت فيها .

ثم لم يلبث أن استغرقتني المشاغل والعلاقات القديمة والمستجدة في دمشق ، فأمسكتني طيلة العطلة الصيفية في العاصمة ، فلم أتمكن من الذهاب إلى البطيحة ولو مرة واحدة خلالها .

لن أنسى ملفينا البنا ، وهذا هو اسم السيدة المشرفة على الستين من عمرها التي استأجرت حجرة في منزلها . انحدرت ملفينا من أسرة دمشقية مسيحية متوسطة الحال ، وعندما عرفتها كان اقرباؤها الأدنون ، أمها وأبوها وأخوتها وأخواتها ، جميعاً ، قد ماتوا ، وقد ورثت عنهم ما أعانها على شراء الشقة التي تقيم فيها في قبو في بناية في الحيّ ، وهي شقة تضم حجرتين وصالوناً وحديقة صغيرة . وقد عاشت ملفينا التي تعنست حتى فاتها القطار نهائياً ، على ريع عدد من الاسهم التي ورثتها . فلما انخفضت قيمة الأسهم وقل ريعها ، وكانت هي قد تجاوزت السن الذي تلام فيه اذا ساكنها غرباء ، راحت ملفينا تؤجر حجرتين ، لتستكمل المورد الكافي لمعيشتها ، وتنام في الصالون ، وقد احتفظت ملفينا بآداب السلوك الراقي الذي نشأت عليه في أسرتها الارثوذوكسية ، وتشددت في إلزام ساكنيها بهذه الآداب . ودأبت المرأة التي تعشق الهدوء على انتقاء المستأجرين انتقاء يخضع لمقاييس صارمة وتكبيلهم بشروط أشد صرامة في ما يتعلق بالهدوء والنظافة واستخدام المطبخ والحديقة . وعندما قدمت لهذه المرأة ، بهيأتي ، انا العائد للتوّ من الريف ، ترددت في قبولي ، وبالغت في إملاء الشروط . وكان من ذلك أني لا استطيع أن أطبخ في الشقة ، ولا يجوز لي أن استقبل أي زائر ، وألا اتأخر في العودة إلى المنزل عن ساعة بعينها في المساء . وقد اتبعت نصيحة زوّدني بها أبو وليد حين أخذني إلى السيدة ، فوافقت على شروطها جميعاً ، دون أي مماحكة . والحقيقة أن موافقتي السريعة أدهشت السيدة ، ولعلها شاءت أن تتأكد من صدق استجابتي ، فكررت تعداد الشروط ممعنة في ذكر التفاصيل .

عندها ، ادركت اني أثرت شكوك هذه السيدة بتسرعي بالموافقة ، فتداركت خطأي وصارحتها بتحفظي على الشرط الخاص بالزوار ، وقلت لها إن أخلاقي وتقاليدي لا تبيح لي أن ارفض زائراً ، واذا كان لابد من الالتزام بالشرط الذي تمليه هي عليّ ، فإني أرجوها ان تتولى هي إفهام من يطرق الباب لزيارتي بأني ممنوع من استقبال الزوار أو صرفه بأي وسيلة تراها دون أن تكبدني حرج مواجهته . ويبدو أن هذا التحفظ وهذا الطلب قد حركا شيئاً دفيناً في أعماق سليلة الأسرة الطيبة ، فقد أصغت لي بامعان ، ولم تعقب بشيء ، ووافقت على تأجيري احدى الحجرتين ، وكانتا كلتاهما فارغتين فتسنى لي أن أختار الحجرة التي لها باب يفضي إلى الحديقة .

اخضعتني ملفينا لمراقبة يقظة تتقن القيام بها دون أن تضايقك بفضولها ، وراحت تدرسني دراسة عميقة . وقد لاحظت هذا بغير عناء ووجدتني محمولاً على التدقيق في سلوكي وتجنب ما قد يزعجها . وفي واحد من صباحاتي الأولى في منزلها ، حملت ملفينا إلى حجرتي قهوة الصباح وطبقاً من الكعك المنزلي الذي تصنعه لنفسها ، فاقترحت أن نشرب القهوة في الحديقة ، فاخذتني إلى الركن الذي تنتصب فيه شجرة ياسمين تحبها هي وتعتني بها عناية بالغة . هنا انفتح الحديث ، وطاب ؛ استدرجتني هي كي أحكي لها عن أهلي ، ولما عرفت أني عشت سنوات طويلة بعيداً عن أمي وان من المتعذر على الإلتقاء بها ، ارتسمت على وجهها امارات تعاطف حميم . وحكت لي عن أهلها ، وألمحت إلى مرض غريب حل بأفراد أسرتها وفتك بهم الواحد تلو الآخر ، دون أن يعرف له علاج ، وجعلها على ماهي عليه مقطوعة من شجرة ، لا أخ ولا أخت ، وأبعد عنها الراغبين في الزواج فبقيت عزباء بغير خلف . ووجدت لدي الجرأة فقلت لها : «أنا محروم من الأم وانت ليس لديك ولد ، فهل تأذنين لي بأن أناديك يا أمي؟» .

لم تفه جليستي المأخوذة باقتراحي بالإجابة ، إلا أن تعابير وجهها قدمت إجابة قاطعة . لقد لامست نبع حنان حبيساً فلم يلبث أن فاضت

مكنوناته وأخذت تغمرني .

وتصادف أن كان وليد أول من طرق الباب ليسأل عني . جاء وليد من القنيطرة وتوجه إلى المصبغة ، أو إلى الجورة ، وفق التسمية التي نتداولها ، فحذره ابو وليد من انني ممنوع من استقبال الزوّار . غير أن وليد لم يأبه لهذا ، بل جاء وأفهم السيدة التي فتحت الباب انه قادم من خارج المدينة . وكان وليد بطبعه ، شديد التهذيب مع السيدات ، وقد راعى سن السيدة التي كانت تتفحصه بامعان فاستخدم عبارة يا أمي في حواره معها ، فأسقط بهذه اللمسة أول الشروط وأقساها . ثم سقطت بقية الشروط من تلقاء نفسها .

كانت ملفينا طباخة ماهرة ، بل كانت أمهر من عرفت في حياتي . وهي تتقن إعداد الأطباق الشامية التي أعرفها ، كما تتقن إعداد أطباق أخرى لم أعرفها من قبل . ويوم زارني وليد ، دعتني ملفينا إلى مشاركتها الغداء ، ودعتني بعد ذلك مرة ومرات لتناول وجبات خاصة تفننت في إعدادها . وكان عليّ أن أرد الدعوات ، فصرت اجلب المواد اللازمة فتعدها ملفينا وأنا معها في المطبخ ، أتعلم منها وأساعدها . ثم تطور الأمر ، اذ ان استجابة هذه السيدة لمشاركتي الطعام شجعتني ، فاقترحت عليها نظاماً نتشارك بموجبه في كل الوجبات ، وتعمدت أن أتحمل الجزء الأكبر من النفقات مقابل قيامها ، هي بطبيعة الحال ، بالعبء الأكبر من العمل . وانتهى هذا الأمر إلى ان صارت ملفينا تعد اشهى الموائد وتحثني على دعوة الأصدقاء اليها ، ان لم يقدموا من تلقاء انفسهم .

وإذا كانت الإقامة عند ملفينا قد طابت لي وتهيأ لي في ظلها الجو العائلي الذي افتقده ، فإن وجودي معها قد ساعدها ، هي نفسها ، على الخروج من العزلة التي عاشتها سنوات عديدة والتسلي عن أحزانها المخزونة . ولم يمض وقت طويل حتى صارت التي أناديها بأمي تعدني ابناً حقيقياً لها وتخصص معظم وقتها وجهدها لي ولأصحابي . وفي كنف ملفينا ، تشذب سلوكي إلى حد بعيد ، وكانت هي ناقدة وموجهة متبصرة

وخبيرة، وقد اعطت لنفسها الحقوق التي للأم، فصارت تتدخل في شؤوني دون حرج. وفي كنف ملفينا، عرفت لأول مرة الموسيقى الكلاسيكية، فقد كان عندها حاكي موروث عن الأسرة من الطراز الذي يشغّل باليد، وعدد وافر من الاسطوانات. وعبر ملفينا، تعرفت على الأسر التي تسكن في الجوار وبناتها، وعرفت ان الناس يحتفلون بأعياد ميلادهم وبذكريات الأيام السعيدة التي مرت في حياتهم ويتخاطبون بعبارات سلسة ومنتقاة ويتقنون الابتسام في وجوه بعضهم، كما عرفت ان للورود شأناً في علاقات الناس ببعضهم وان لكل صنف من الورد عندما يقدمه الناس لبعضهم البعض معنى رمزياً ودلالات تختلف عما لغيره من الأصناف.

كنت اتشرب هذه المعرفة وآداب السلوك الجديدة عليّ، أولاً بأول، أقبل بعضها للتو واتقنه، ويستعصي علي اتقان البعض الآخر، وملفينا بجانبي على الدوام، تجود بملاحظاتها وتطوعني للتواءم مع ما لم آلفه من قبل. وكان أكثر ما أدهشني في الوسط الذي فتحته ملفينا لي استخدام الناس لاسماء الدلع أو أسماء التحبب. لكن، بالرغم من كل توجيهات راعيتي الأريبة، لم اتمكن من ان أدعو جارنا جورج باسم جو، ولا ان أجاري اخته فريدة التي يدعوها الأخرون فريدا. اما الرقص الموصوف بالغربي فقد مارسته على حياء شديد في البداية، ثم تضاءل الحياء الناجم عن اضطراري لاحتضان سيدة ولم يبق إلا الحياء الناجم عن جهلي باتباع القواعد. والواقع أن الرقصة الوحيدة التي صار بامكاني ان ارقصها دون أخطاء تذكر هي رقصة التانغو البطيئة. وقد صرت أمارسها بكثير من المتعة، وبشيء من الرشاقة الملحوظة.

كانت حالتي المالية مسعفة، فالراتب الذي أدفع منه خمسين ليرة أجرة للحجرة يبقى منه ما يكفي لنفقاتي الأخرى. وكنت قد عدت من البطيحة ومعي المبلغ الذي وفرته أثناء إقامتي غير المكلفة هناك. ولكي اتمكن من مجاراة الوسط الذي احتك به دون تحرج، بل لكي اتحرر من لسان ملفينا وعيونها التي تخترق ملابسي، عمدت إلى شراء ملابس

جديدة للمنزل وللخروج . وكان لي صديق خياط من ابناء صفد ، يجدر بي أن اعرفك به سلمته ما بقي معي ، وكان خمسمائة ليرة ، ففصل لي بذلة كاملة وبنطالين ، وجاكتين لائقين بالبنطالين ، فتقاضاني ما يقارب ثلاثمائة ليرة ، على أن يظل باقي المبلغ عنده لأفصل ملابس جديدة في المستقبل . هذا الخيّاط هو عدنان كريم ، تعرفت عليه حين كان أخوه الأكبر ، عبد الحليم ، عضواً في تنظيم عرب فلسطين .

وعدنان شاب من جيلي ، نشيط ، وطموح ، ومتفوق في مهنته منذ الصغر ، حاولنا اجتذابه للتنظيم فاستعصى على الاقتناع ، كان بطبعه صعب الانقياد مولعاً بالمماحكة حول الشؤون الفكرية والسياسية مغرماً بنقد الآخرين ، قاسياً وصريحاً في نقده ، إلا أنه كان حفيّاً بأصدقائه ، مبادراً لتقديم العون لهم ، أريحياً في تعامله مع الناس ، فكان يواجهنا ، دائماً ، بملاحظاته القاسية على مواقفنا وسلوكنا ، لكنه يخفّ إلى مساعدتنا بمقدار ما يستطيع . وقد تمكن عدنان ، الذي لم يظفر إلا بقليلٍ من التعليم المدرسي والذي أمضى معظم سنوات طفولته وفتوته أجيراً في دكاكين الخياطين ، من الاستقلال بعمله في سن مبكرة ، فافتتح لنفسه دكان خياطة قائماً في مدخل إحدى البنايات قرب محطة الحجاز . وبوقوع الدكان في مركز البلد هذا ، تحولت إلى موئل نلتقي فيه ، ونسهر ، ونتجادل ، ونتلذذ باستثارة عدنان والاستماع إلى ما يقذفنا به لسانه السليط .

وبجهود ملفينا ، من جهة ، وعدنان ، من الجهة الأخرى ، غادرت الهيئة الزرية التي كانت لي ، وتوافرت لي هيئة مقبولة لا تخلو من الأناقة ، وعرفت ملابسي انسجام الزي وتناسق الألوان ، وصار بإمكاني ان أوجد مع اي جلساء من أي مستوى دون ان تتناوشني النظرات المعبرة عن عدم الرضى . ولعلي لا أبالغ إذا قلت إن تحوّلي على هذا النحو شكل مفاجأة للذين عرفوني أيام كنت أجيراً في الجورة . أنا أتذكر خصوصاً ، نظرات الدهشة في عيون خادمات المنازل اللواتي أدهشهن أن يكتشفن في الساكن الجديد في الحي أجير الجورة القديم الذي كان يحمل اليهن الملابس المكوية

ويتلقى منهن الملابس المحتاجة للكي . واتذكر من هؤلاء واحدة كانت هي الاخرى قد تبدل حالها كلية ، فقد تزوجت اثناء غيابي عن الحي فتى ميسور الحال اجتذبه جمالها المفرط ، وسكنت مع هذا الفتى في حي آخر واكتسى جسدها بالملابس الفاخرة والحليّ الثمينة ، وكانت تجيء إلى حي القصور بين وقت وآخر لتزور منزل مستخدميها السابقين وتلتقي بزميلاتها السابقات وتدل على الجميع بما تهيأ لها من يسار . هذه المرأة وقع نظرها عليّ حين تقابلنا في الشارع وهي تسير ممسكة بذراع زوجها ، وبدت عليها الحيرة ، اذ لم تكن متأكدة من أن الشاب الرشيق الأنيق الذي تقابله هو ذاته الأجير السابق هزيل الجسد زري الهيئة الذي عرفته من قبل . وقد داومت المرأة على تقليب النظر فيّ ، ما تيسر لها ذلك ، دون أن تصل إلى يقين بشأني ، بل انها التفتت نحوي بعد أن تجاوزتها ، فوجدتني وقد ألتفت أنا الآخر نحوها ، فتجمدت خطواتها وتابعت النظر إلى أن حملها زوجها حملاً على مواصلة السير ، بعد ان رأتني ألج الجورة وأبادلها النظر عبر واجهتها الزجاجية .

والحقيقة ان صلتي بالجورة ، وأنا أسكن بجوارها تجددت ، فاستعدت الأجواء السابقة التي شدتني إليها وصرت اخصص أوقاتاً طويلة أقضيها فيها ، بالرغم من اعتراضات ملفينا التي لم يرضها سلوكي هذا . كان رواد الجورة الذين عرفتهم أيام عملي فيها ما يزالون يترددون عليها . والجديد الوحيد من هؤلاء كان فتى فلسطينياً أصغر مني بقليل ، وقد حل محلي أجيراً . هذا الفتى كان ناصرياً متعصباً ، لا يتقن الحوار ولا آدابه ولكنه يدلي برأيه في ما نتطرق اليه من موضوعات ، مقاطعاً الآخرين ، بعبارات مثيرة وقاطعة ، مصرّاً على أنه صاحب الرأي الوحيد الصائب ، ومبدياً الاستعداد لعراك من يخالفه الرأي أو يذكر الرئيس بغير ما يراه لائقاً به من إعجاب وتبجيل . بل إن هذا الفتى كان كثيراً ما يندفع في السخط على منتقدي الرئيس فيهدد بالإبلاغ عنهم إلى سلطات الأمن . صحيح انه لم يفعل هذا أبداً ، ولا تصور أحد منا انه سيفعله حقاً ، إلا أنه كان يكشف عن نزق لا ضابط له ويستفزّ الآخرين بمن فيهم المعجبون بالرئيس . وكنت

بازاء متحمس من هذا النوع ، اتعمد أن أردد من الانتقادات المتداولة حول عبد الناصر ما أوافق عليه وما لا أوافق ، أفعل ذلك لتمييز نفسي ، أنا المؤيد لعبد الناصر ، عن هذا الفتى الذي لا يحظى باحترام سامعيه . وما أسهل ما كان الفتى يستثار وما اقسى ما كان ينعتني به من صفات ويرميني به من شتائم .

وكان أكثر رواد الجورة ضيقا بالفتى النزق وازدراء له هو الحاج نجدت فكان يترفع عن مبادلته أي حوار ولا يخاطبه إلا منتهراً له كلما امعن الفتى في استفزاز الآخرين . قلت فرص العمل أمام سليل العائلة الغنية الذي صار سائق شاحنة ، لأن علاقات سورية مع الأردن والسعودية وبعض مشيخات الخليج تدهورت بعد قيام الوحدة ، فتضاءلت العلاقات التجارية معها إلى أدنى الحدود . وقد ألف الحاج نجدت ان يخصص وقتاً أطول من السابق للمكوث في الجورة . وكان قد صار أقل حكمة وأضيق صدراً ، واكتست أحاديثه بشيء من الحدة ، وخالط التوتر حركاته . ومثله صار أبو داود اللاجىء إلى دمشق من الاردن والعامل في معمل البلوك القريب . وقد اتضح لرواد الجورة أن الرجل شيوعي هرب من الأردن كي لا يقع في يد السلطات التي تلاحقه ، وها هم الشيوعيون يتعرضون للملاحقة في البلد الذي ظن أبو داود أنه وجد فيه الأمان ، وما كان لهذا أن يظل بغير تأثير على شخصيته ، فأصابه الحاج نجدت وسكن السخط والقلق والتوتر روحه .

ولم يلبث أن طرأ حدث جديد أدخل مزيداً من الألوان على حواراتنا في الجورة وكساها بمزيد من المرارة . ففي الرابع عشر من تموز / يوليو من ذلك العام قامت ، كما تعرف ، الثورة العراقية التي أطاحت بالملكية وحولت العراق إلى جمهورية . وبرز اسم عبد الكريم قاسم في مقدمة الضباط الذين صنعوا هذا الحدث وسط حماس شعبي منقطع النظير ، وهو الذي صار رئيساً للجمهورية . واستخلص المتحمسون للوحدة المصرية - السورية أن قيام ثورة العراق هو الثمرة الأولى ، على الصعيد العربي ، لقيام الوحدة . ورأى هؤلاء من المنطقي جداً أن ينضم العراق فوراً إلى هذه

الوحدة أما على الصعيد الأخر فقد استنفر الحدث العراقي الأنظمة الملكية وخصوصاً في البلدان المحيطة به ، واثار حذراً شديداً في الدول الغربية ، لانه أدى ، عملياً ، إلى سقوط حلف بغداد ، أي إلى إحداث خلل خطير في نظام الامن الدفاعي الذي اقامه الغرب حول دول المنظومة الاشتراكية .

وتحالف الجانبان العربي الساخط والغربي القلق ، وتوالت اجراءات كثيرة ، سياسية وعسكرية ، وطلب الاردن معونة بريطانيا ، ونزل مشاة الاسطول الامريكي السادس على شواطىء لبنان بناء على طلب رئيسه كميل شمعون ، فتوتر الجو في الشرق الأوسط إلى أبعد الحدود . وكان هذا كله باعثاً على الاهتمام ، وقد اضفى على صيفنا ذاك ، مزيداً من الإثارة .

في هذه العطلة ، عرفت السينما ، لاول مرة ، قد يدهشك ان أتاخر إلى هذا الوقت ، لكنني أرى أن ليس من حقك أن تندهش أنت الذي صرت تعرف الظروف التي مررت بها .

ففي السن الذي يذهب الاولاد فيه إلى السينما ، حتى من وراء ظهر أهليهم عندما يكون هؤلاء محافظين ومتزمتين ، كنت أسير التعلق بالجامع وحلقات المشايخ فكنت أنا نفسي متزمتاً . بعد ذلك ، كنت أفقر من ان اتطلع إلى متعة مشاهدة الافلام . وفي هذه العطلة ، عرفت ، أيضاً ، عادة الجلوس على المقاهي ، فكنت أتردد على مقهى الهافانا قبل الظهر ، ومقهى الكمال الصيفي مع انكسار حرارة النهار قبيل حلول المساء . وكان في كل من المقهيين مجلس انضم إليه ويضم عدداً من رفاق عرب فلسطين ، وخصوصاً صبحي وانيس وهايل المغرمين بلعب طاولة النرد ، أو من البعثيين ، وخصوصاً محمود صبح الذي غدا ، مثلي ، معلماً في مدرسة وخلدون الشهابي الموظف في بنك . ومع هؤلاء كنت ألعب الورق . وكانت أخبار البلد والمنطقة والعالم متداولة في المقاهي مما يعوض قلة الأخبار التي تنشرها الصحافة أو تبثها الاذاعة ، وهما اللتان لا تنقلان حتى من الاخبار إلا ما يتفق مع السياسة المعلنة للدولة ودعاياتها .

أما الشأن الذي استغرقني أكثر من أي شيء آخر فهو العمل الجاري

لتأسيس رابطة الطلبة الفلسطينيين في جامعة دمشق. لقد تعجلت، بالطبع، تلبية رغبتي في الانتساب إلى الجامعة، وإذ توفرت النقود، فقد سجلت في اليوم الأول الذي فتح فيه باب التسجيل، فصرت طالباً في قسم اللغة العربية في كلية الآداب، وعنى هذا أن أدرس سنة الثقافة العامة التي يدرسها المنتسبون إلى أقسام الكلية كافة، وكانت فكرة تأسيس الرابطة قد انتشرت بين الطلبة الفلسطينيين، أطلقها ذوو التجربة السياسية من المنتمين لحزب البعث أو حركة القوميين العرب أو عرب فلسطين وتلقفها الآخرون. والحقيقة أن تأسيس منظمات خاصة بالفلسطينيين صار مع قيام الوحدة وما بعثته من آمال هدفاً توجه إليه الناس من قطاعات متعددة. وقد عارضت السلطات هذا التوجه، فلم تفلح المساعي إلا في مجال واحد هو تنظيمات الطلبة. وبين اسباب ذلك ان الطلبة الفلسطينيين بفئاتهم المتعددة تحمسوا للفكرة حماسة شديدة وثابروا على العمل لانفاذها. فالبعثيون، من الفلسطينيين المقيمين في سورية او الوافدين اليها من قطاع غزة والاردن، رأوا في الرابطة اطاراً شرعياً لنشاطهم بعد ان تم حل حزبهم، فاندفعوا في العمل لتأسيسه، مستفيدين مما لهم من نفوذ في أجهزة الدولة. والقوميون العرب وجلهم من الفلسطينيين اندفعوا في الاتجاه ذاته كي يفوتوا على الاخرين فرصة الاستقراد بالنفوذ وسط الطلبة. وتحمس للفكرة اعضاء عرب فلسطين حماساً هائلاً لأنهم كانوا مع ابراز اي شيء فلسطيني مستقل.

ولعل من المفيد أن تعرف أن تأسيس الرابطة لم يتم بسهولة، فقد دأبت السلطات منذ ما قبل قيام الوحدة على النظر بحذر لأي توجه لإنشاء منظمات فلسطينية مستقلة. وسبق أن رفضت هذه السلطات الإذن باقامة اي تنظيم للفلسطينيين. وعندما حاول عدد من فلسطينيي دمشق وكان بينهم خالي نافذ قبل قيام الوحدة بسنة او سنتين التحايل على حذر السلطات فطلبوا انشاء ناد ثقافي او ناد رياضي، رفض طلبهم هذا أيضاً. وفي عهد الوحدة بدا الامر معقداً، فقد أيدت غالبية الفلسطينيين، بصورة سافرة، هذا العهد تأييداً تلقائياً، إلا أن وجود هذا التاييد لم يلغ حذر

السلطات ضد التحرك المستقل الذي يتوخاه طالبو انشاء التنظيمات . وقد ترتب على الطلبة الساعين لإنشاء رابطتهم ان يواجهوا العديد من المصاعب ويذللوا الكثير من العقبات . وكانت الأنظمة المعتمدة في سورية توجب ان تقوم الجمعيات وبضمنها روابط الطلبة على أساس القانون الموروث عن العهد العثماني ، وهو ينص بين ما ينص عليه من قيود وضوابط ، على منع الجمعيات من ممارسة العمل السياسي ويحظر على أعضائها الانخراط في العمل الحزبي . ولكي يمكن تأسيس الرابطة ، قبل المؤسسون هذا الشرط ، ووضعوا في النظام الداخلي نصاً يؤكد على ذلك . وجمعت التبرعات من الطلبة والمؤيدين الآخرين ، فصارت لنا رابطة وصار لها مقر نلتقي فيه . كان هذا المقر في البداية شقة صغيرة في بناية سكنية في حي المجتهد قرب المستشفى الذي يحمل هذا الاسم . وعلى تواضعها وضيق مساحتها ، بدت الشقة لنا في حينه جنة فسيحة ، وأمكن أن تتسع لنشاط المئات من الطلبة . وفي هذا المقر ، انعقد المؤتمر الاول للرابطة وانتخبت هيئتنا الادارية . وهكذا ، مارست في صيف العام ١٩٤٨حق الانتخاب لأول مرة وتمتعت بذلك الشعور الاخاذ ، الشعور بحريتي في اختيار من يمثلني ولو في هذا النطاق المحدود . وقد ضمت الهيئة أغلبية بعثية من القوميين العرب وواحداً من عرب فلسطين لم اعد اتذكر من هو . ودعي الاعضاء الآخرون للمساهمة في عمل اللجان التي تساعد الهيئة الإدارية ، فانضممت الى اللجنة الثقافية ، وكان هناك الى جانبها لجان العلاقات العامة وشؤون الطلاب والرياضة ، وما شابه ذلك .

شكل تأسيس الرابطة فاتحة لتجميع هذا القطاع من أبناء فلسطين في منظمة واحدة . وبوجود الحظر الرسمي على الاحزاب ، صارت الرابطة الغطاء الشرعي لنشاط القوى السياسية العاملة في صفوف الفلسطينيين . ومع ميل السلطات الى التشدد ضد العمل السياسي والحزبي ، بمضي الوقت ، صار للرابطة شأن فاق حجمها الطالبي بكثير ، فزاد حرص الجميع عليها ، مثلما زادت رقابة اجهزة الدولة على نشاطاتها . ومنذ ادت تطورات العهد الجديد الى انتقال البعثيين الى مواقع المعارضة ، ومع تمتعهم

بالاغلبية بين الطلبة الفلسطينيين ، صارت الرابطة واحداً من المعاقل الهامة للمعارضة ، مثلما هي الميدان الذي تتنافس فيه القوى الفلسطينية ، والقوى المؤثرة في الساحة الفلسطينية . وكان في هذا وذاك الكثير مما يستهويني ويدفعني الى مزيد من النشاط .

قد تسألني الآن وانا اوشك ان اختم حديثي عن عطلتي الاولى في دمشق ، عما تم بشأن علاقتي مع اسرتي التي تركتها غاضباً .

الحقيقة اني لم اندم في اي وقت على قراري الانفصال عن الاسرة ، حتى في الاوقات التي كان يغالبني فيها الشوق الى الاقرباء والجو العائلي . وفي الفترة التي امضيتها في البطيحة وظفرت فيها بحرية التصرف بعيداً عن اسر تقاليد العائلة ، وافكارها ، تأكد لي صواب قراري كما تأكد عزمي على التشبث به . اما في الاسرة فيبدو ان معظم اعضائها عدّ انفصالي عنها أمراً عارضاً وتوقع ان تزول الازمة فأعود الى الحظيرة . وقد جرت أكثر من محاولة لإعادتي ، أولى المحاولات بادر بها جدي ؛ كان ذلك في بداية العطلة وكنت ما أزال مقيماً في فندق صغير في وسط المدينة ، بانتظار الظفر بحجرة ملفينا . جاء الجد الى الفندق ، ظهر أمامي فجأة ، وكان في كامل هيبته ، وأتم اناقته ، وتصّرف الجد للتو على اساس انه وليّ امري وان عليّ ان اطيعه ، وطلب مني بصيغة حاسمة ان المّ حوائجي وارافقه الى المنزل . غير اني لم أوخذ باسلوب الجد ، ولا تزعزعت امام تسلحه بسلطة ولي الامر ، بل اظهرت رفضي الصريح العودة الى ما عانيت منه . هنا اضطر الجد الى أن يتواضع . ومع فنجان القهوة الذي دعوته الى شربه ودخان السجائر التي اشعلتها أمامه الواحدة تلو الأخرى ، دار بيني وبين الجد حوار طويل . وقد عرفت ان خالي نافذ وشريكه عربي محي الدين أقفلا مدرستهما الخاصة في فيق ، اذ إن عربي آثر ان يعمل في المحاماة ، وظفر خالي نافذ بوظيفة محترمة في ادارة الفتوى والتشريع في المؤسسة العامة للجمارك ، في دمشق . وقد روى لي الجد ان نافذ لمحني قبل مدة في القنيطرة وأنا أمشي منحني القامة تحت ثقل الآم المفاصل التي تسكن ظهري . وقال الجد إن رؤية الخال لي وأنا في هذه الحال حركت حبّه

الكامن لي ، وأن الخال هو الذي جاء الى الجد وطلب منه أن يعيدني إلى منزل الأسرة حتى أظفر بالرعاية اللازمة . وقال الجدّ إن في الاسرة حساسية خاصة بإزاء آلام المفاصل ، وذكر أن والدي تعرض لها قبل موته وهو في مثل سنّي وان نافذ نفسه تعرض لها ولم تشفه منها الا الرعاية الكاملة التي وفرتها له الأسرة ونحن في فلسطين والاطباء العظام الذين دفع الجد لهم الكثير من حرّ ماله . ولا شك في أني تأثرت بالحكاية مقدراً عاطفة الخال وحرصه على سلامتي . غير أني سلحت نفسي بعنادي المزمن ، فلم اليّن موقفي بل أفهمت الجد أني لا أسمح بأن يضعني المرض من جديد تحت رحمة المزاج المتقلب لخالي . وامعنت في العناد ، قلت لجدي ان وجود هذا المرض يشكل ، بالنسبة لي ، سبباً اضافياً كي اظل بعيداً عن الاسرة واتجنب هموم المماحكات المتوقعة مع خالي . واردت ان اطمئن الجد وأن اقفل باب النقاش في الوقت ذاته ، فقلت له : «لا تقلق عليّ ، انا قادر على ان اتدبر امري حتى لو اضطررت للمشي على عكاكيز او التنقل على كرسيّ» . هذا التطمين اسخط الجدّ بدل ان يُطمئنه ، فنهض وهو يغالب سخطه ، وغادرني دون وداع ، ثم توقف والتفت ناحيتي ، وقال وهو يشير اليّ بعصاه التي لا تفارقه : «حتى هذه اللحظة ، ظللت اضع الحق على طبع خالك العنيد ، والآن اشهد الله ان عنادك اقسى من عناده ، أنتم يا أولاد سلمان أعند خلق الله قاطبة» . وأسخطني بدوري ، أن يتجاهل الجدّ الوقائع السابقة التي أوصلت الامور الى هذا الحد . هذا السخط هو الذي وضع على لساني الرد الفظ الذي قذفته في وجه الجد : «نافذ وأنا منحدران من صلبك ، فلماذا العجب؟!» . هذا الرد الذي فاق في قسوته كل ما توقعه الجد من حفيده جعل الجدّ يعود اليّ ويقف بإزائي وهو يرتجف ويزعق في وجهي : «زودتها ، زودتها كثيراً ، يا ولد!» . وكنت قد صرت أسير سخطي المستثار ، وقد سيطر عليّ دافع خبيث منطلق من رغبة كامنة في الانتقام ، فامعنت في الاستفزاز واصطنعت نبرة تعمدت ان تكون مغيظة وقلت : «إن كانت المسألة مسألة حاجة الأسرة لمساهمتي في نفقاتها بعد أن صار لي راتب فأنا مستعد لدفع

ما هو مطلوب مني دون أن أعيش مع الخال الذي عذبني» . وكان من الطبيعي أن يرفض الجدّ العرض الذي أقدمه بهذه الطريقة المهينة . والواقع أن رفض الجد جاء حازماً ، فقد هزّ عصاه في وجهي ، وخرجت الكلمات من بين أسنانه وهو يقول بأناة مقصودة : «سوف تندم ، اقول لك ، انا جدك ، سوف تندم ، أما مالك فإن الله أغنانا عنه ، فليكن هذا المال حراماً علينا . الآن وإلى أن تقوم الساعة!» .

المحاولات التالية لإعادتي الى الاسرة بادر اليها آخرون ، من الأصدقاء . لقد شاع من حواري مع الجد واقعة رفضي العودة ورفض الجدّ حتى المال . روى الجدّ بعض ما جرى بيني وبينه دون أن يدفعه سخطه الى إغفال حرصه على سمعة العائلة ، فاستخلص الأصدقاء من الرواية المبتورة أن الباب لم ينسد أمام المصالحة . وكثر السعاة بالخير ، هؤلاء الذين تحركهم دوافع شتى ويظل حرصهم على حسن سمعتهم ، هم ، في مقدمة هذه الدوافع . وتكررت إجابتي لكل من لقيني من هؤلاء : «خالي وأنا ، هكذا ، أفضل ، وهم ، في الأسرة ، كذلك ، فمع البعد يتقد الحبّ وتنمو الاشواق ، أما حين نعيش مع بعضنا البعض فما أسرع ما تتوتر الاجواء!» .

لم يفلح الوسطاء ، إذن ، في ثنيي عن التشبث بالاستقلال عن الأسرة ، إلا انهم افلحوا في شيء آخر ، إذ حملوني على القيام بزيارة للأسرة وحصلوا على تعهد من الأسرة بأن تستقبلني . وكان آل ذكرى ، وهم أصدقائي الأثيرون بين جميع سعاة الخير ، هم الذين ثابروا على السعي بيننا حتى تم الاتفاق .

هذه الزيارة قمت بها قبيل نهاية العطلة الصيفية . توجهت ، أولاً ، الى الشقة التي فوق ، وفتحت خالتي شفيقة الباب ، وقد التمع في عينيها حين تلقتاني شيء وشى بعواطفها الحقيقية تجاهي . بالرغم من هذه العواطف ، سلكت الخالة سلوكاً متحفظاً ، فقد صافحتني دون عناق ، وقادتني الى حجرة الضيوف وتركتني فيها وحدي . وكان من اليسير علي أن استخلص ان الخالة ذات المشاعر الفياضة في العادة واقعة في أسر

تعليمات صارمة ألزمتها لجم مشاعرها . وعندما جاءت الجدّة الى الحجرة وتبعها خالي عمر ثم جاء غالب ، تكرر الأمر ذاته ؛ السلوك المرسوم وعبارات الترحيب المحسوبة . وتوالت تقدمات الضيافة ، طبق الفواكه ، وطبق الكعك المنزلي ، والشاي ، والقهوة ، لتؤكد على انطباعي الاول بأنهم قرروا معاملتي زائراً غريباً عن الأسرة ، وليس عضواً من أعضائها يجيئها بعد طول غياب . وكان تقديم القهوة ، كما هو شأنه في الزيارات ، ايذاناً بأن مراسم الزيارة بلغت تمامها . ولم يظهر نافذ ، وإن ادركت بوضوح انه موجود في الشقة وأن ما جرى أمامي هو السيناريو الذي رسمه الخال الساخط وفرض على الجميع أداء الأدوار التي حددها لهم فيه .ثم تكرر الامر ذاته في الشقة التي تحت ، فقد بدا الاولاد ، الفرحين دون شك برؤيتي ، ملزمين بعدم الانطلاق في التعبير عن فرحتهم . ولم يظهر الجدّ في حجرة الضيوف إلا حين حان موعد تقديم القهوة ، وقد ظهر بكامل هندامه وسلم عليّ على عجل ورشف قهوته وهو واقف ، ثم غادر الحجرة والشقة بدعوى انه مستعجل للحاق بالصلاة في الجامع الاموي . أم عدنان ، وحدها ، تصرفت دون تحفظ ، فقد استقبلتني ببشاشة ، وأمطرتني بالاسئلة مظهرة الحرص على تقصي أحوالي بالتفصيل . وبعد أن غادرنا الجدّ ، تشجعت خالتي هيام ، فقالت ، وهي تستعيد فنجان قهوتي الفارغ : «لماذا لا تبقى عندنا» . قدّمت الخالة الصغيرة هذا العرض وهي متهيبة ، وأرادت أن تقول شيئاً آخر ، غير أن أخاها عدنان ، وكان قد غدا تام الشباب ، انتهرها بفظاظة : «بس يا بنت!» . وشفع عدنان عبارته بنظرة وجّهها لأخته كأنه يذكرها بأشياء تم الاتفاق عليها بينهم بشأن زيارتي . ولم تشأ الخالة المهذبة أن تتحدى أخاها ، ولم تحتمل الصمت الذي فرضته فظاظته على مجلسنا ، فانسحبت بحركة غاضبة . هنا ، اتجه نظري ناحية أم عدنان فرأيت التماعة دموع تتشكل في مآقيها فيما تجد هي لمغالبة تدفقها ، فتغاضيت متجنباً المزيد من الاحراج ، لكنني لم املك إخفاء استيائي من فظاظة عدنان ، فقلت له بأناة تعكس الحنق اكثر مما تفصح عن التصبر : «أسأت لهيام ، قم وأحضرها لأودعها قبل أن أنصرف!» . فقام عدنان وقد امتزجت في تعابير

وجهه مظاهر التذمر والاستخذاء وهو يجمجم بكلمات لا تبين معانيها . وفي اللحظة التي ظهرت فيها هيام عند الباب ، انفجرت دموع ام عدنان الحبيسة ، فخفت البنت إلى امها واحتضنتها وراحت تهدئها فيما انسابت من عينيها هي الدموع . واذا لم تتوقف الأم عن مسحّ الدموع ، نترت هيام رأسها بحركة أعرف أنا أنها المقدمة لقول ما تفصح به عن جرأتها ، وقالت لي فيما عيناها متجهتان نحو عدنان : «الله رحمك بعيشك بعيداً عنا ، هذه أسرة ملعونة ، كل من فيها معقّد ، الذين فوق والذين تحت ، لا تخلع واحداً منهم من قدميك!» . وقد استمع عدنان إلى ثورة اخته مطرقاً ولم يفه بشيء .

بعد هذه الزيارة ، تأكد عزمي على ألا أطأ عتبة بناية القاري مرة اخرى ، إلا عند الضرورة القصوى ، وألا أربط نفسي بشبكة العواطف والعلاقات المعقدة التي تربط اعضاءها . وقد نفذت هذا العزم ، فلم أعد أزور أقربائي هؤلاء إلا في الأعياد والمناسبات الاجتماعية المهمة . وانسحب قراري هذا على بقية آل الحوراني ، على أي واحد منهم تضعه الظروف في طريقي ، فاحتفظت بمسافة مدروسة بيني وبينهم ، ولم اقترب من اي واحد منهم إلا إذا كانت هناك اسباب أخرى غير صلة القرابة تسوّغ الاقتراب .

٥ ربابة وخيول أصيلة وناس متميزون

في سنة اقامتي الثانية في البطيحة ، بدت الأمور أهون من السنة الاولى وأمتع . فقد عدت الى منطقة أعرفها وناس آلفهم ومشاغل قديمة وأخرى مستجدة تملأ وقتي وتجتذبني وتحفزني على مزيد من النشاط .

في هذه السنة ، حلّ معلمون جدد محلّ زميليّ اللذين انتقلا الى دمشق . في البداية ، جاء معلمان ، ثم التحق بهما ثالث بعد أن أفلحت جهود المفتش قاسم حمد في جعل ملاك المدرسة أربعة . أول القادمين كان محمد عرب . جاء من درعا ، من مخيم اللاجئين الفلسطينيين فيها ، وهو قريب ، ابن عمّ أو شيء من هذا القبيل ، للصديق صبحي عرب ، وكان قد سمع عني أشياء طيبة من صبحي الذي غدا هو الآخر معلماً في وكالة الغوث في مدرسة في قرية قريبة من غور البطيحة . كما كان محمد ، هذا ، من المؤيدين البعيدين لعرب فلسطين وحزب البعث ، فوجد الأساس الذي قامت عليه صداقة فورية بيننا . لم يكن محمد يصغرني الا بسنة واحدة غير أنه لا يحمل على كاهله الهموم الثقيلة التي حملتني إياها حياتي

المضطربة . وإذا كنت أنا قد صرت منذ تلك السنّ ميالاً الى السخرية السوداء ، فقد كان فيه ، هو ، ميل الى السخرية المرحة الطلقة ، فكنّا ، من هذه الناحية ، نكمل بعضنا ونشكل آفة على مَنْ يقع ضحية تسلطنا عليه بالسنتنا . وكان محمد ، وهو من النوع الذي يمكن ان تصفه بأنه خليّ البال ، محبّاً للهو وممارسة الرياضة والتمتع بالحياة مع الأقران ، دون ان يكون مهملاً للواجبات الموكولة اليه . وها أنا اتذكر هيئة هذا الصديق الذي أحببته ، شاباً مديد القامة متينها ، على نحول يضفي عليه رشاقة قطّ خفيف الحركة . ولأمر ما ، عاملني محمد معاملته لشخص متقدم عنه في السن ، وكان يفسر ذلك بطريقته المرحة فيقول عنّي ان خبرتي في الحياة التي مرت بي تضيف سنة الى كل سنة فعلية من عمري وأنه ، هو ، يفتقر الى رجاحة العقل التي اتمتع بها . وقد تعززت صداقتي مع محمد بسرعة ، ولم ألبث ان صرت زميله الأثير ونجيّه وكاتم اسراره ومقيل عثراته والناصح الأمين الذي يلجأ اليه كلما أوقعته نزواته في المشاكل .

القادم الثاني كان محمد مصلح ، جاء من مخيّم اليرموك وقد ظفر بالشهادة الثانوية مع شيء من التعثر في الدراسة ، وكان مولعاً بالرياضة منذ صغره وقد حمل هذا الولع معه الى البطيحة . تعلق محمد ، الثاني هذا ، بالملاكمة فحرص على أن يحتفظ بلياقته البدنية ، فكان يتدرب في الصباح والمساء ويقوم بحركات رياضية في كل وقت حتى وهو بين التلاميذ . واذ لم يكن في البطيحة من يلاكم هذا المفتون بلياقة جسده وقوة قبضته ، فقد راح «يلاكم الحيطان» ، على حدّ التعبير الساخر الذي وصفه به محمد عرب . وكان محمد مصلح ، الى ما يتصف به الرياضي المولع بعضلاته وحدها من ضيق أفق وقلة معرفة بالشأن العام ، مفتقراً الى الطيبة التي تميّز شخصيات معظم الرياضيين ؛ وكان حريصاً على أن يظهر بمظهر المتديّن ، دون ان يكون ، في الواقع ، ملماً بالشؤون الدينية ، ودون أن يتصف سلوكه بالتقوى او بالتسامح أو كبر النفس التي يتصف بها المتدين الصحيح . وقد أضيف تدين محمد ، التدين غير المقنع ، الى افتتانه بقوته الجسدية وادلاله بها على الجميع بمناسبة وبغير مناسبة ، فجعل منه شخصاً

منفراً للآخرين ، سريع النفور منهم . وكان من شأنه أن وضع في يد محمد عرب ، الذي لا يحبّ زميله ، أسباباً كثيرة كي يستفزه ويجتذبه الى العراك كلما شاء .

المعلم الثالث ، وكان قد عيّن للوظيفة قبل زميليه وان قدم بعدهما ، هو عامر عواد ، جاء من دمشق حيث تقطن أسرته في منزل في وسط المدينة قريب من مدخل سوق الحميدية . وعامر ابن لخياط ملابس رجالية ميسور الحال . وقد اعتنى الخياط اللاجىء الى دمشق من صفد بتربية اولاده وتعليمهم ، دون تزمت ، فنشأ عامر بشخصية مستقلة ، وورث استقامة أبيه وبساطته وحرصه على احترام نفسه وتجنبه الإثقال على الآخرين . كنت أعرف عامر هذا معرفة بسيطة قبل ان يجيء الينا . فقد سبق أن التقينا في الاجواء التي يتردد عليها التلاميذ في دمشق . وكان لعامر في المدينة بعض الشهرة بين الفتيان من جيله ، إذ كان رياضياً شبه محترف ، اجتذبته رياضة كمال الأجسام ومارس معها الملاكمة ودخل بضع مباريات أمام الجمهور وشارك في العام الذي سبق تعيينه للوظيفة في المباراة على بطولة وزن الريشة لمدينة دمشق وصار بطل هذا الوزن . وكان هايل قد حاول اجتذاب عامر الى تنظيم عرب فلسطين ، غير أن الفتى لم يكن ممن تستهويهم السياسة . وقد كان لعامر من أطباع الرياضيين أحسنها ، فهو متواضع دون أن يكون ضعيف الشخصية ، أبداً ، وهو صريح وشهم دون محاباة لأحد او تحامل على احد ، وكان من عادته ان يعرض المساعدة على مَنْ يحتاج لعونه أو يقدمها ، دون ان يتبذل في العرض أو في التقديم . وقد جاء عامر الى البطيحة وفي ظنه انه سيستمتع بمباهج الحياة في الريف ، ذلك أن الصورة التي يحملها هذا الفتى ، وهو الذي لم يعش في قرية أو مخيم ، هي الصورة الرومانسية التي استقاها من الكتب واغاني الاذاعة التي تزين الحياة في الريف ؛ فلما صدمه الواقع الجافي لهذه الصورة لم يتهيب ، بل واجه المصاعب بهمة الملاكم الذي تفرض عليه مباراة صعبة فيصمم على الصمود . وفي حياته في كنف أب ميسور الحال وام حانية ، ألف عامر أن يقضي الآخرون حاجاته المنزلية فيما هو منصرف لدروسه

وتدريباته ، فكان يجهل حتى كيفية اعداد كوب من الشاي أو سلق بيضة ، فلما توجب عليه في البطيحة ان يحمل ، او يشارك في حمل عبء تدبير المعيشة ، اتضح انه لا يفتقر الى ملكة الاعتماد على النفس ، فانخرط في التجربة دون تذمر .

أوكلت ادارة التعليم الى عامر مهمة ادارة المدرسة ، متخطية إياي ، أنا الأقدم منه ، لأسباب يسهل عليك أن تحزرها . وقد أحس عامر إزاء ذلك بشيء من الحرج تجاهي مع انه ليس مسؤولاً عنه . وإذ كان هذا المدير غير المسلّح بأي خبرة محتاجاً لما يعدّه خبرتي ، فقد صار يحيل الي المشاكل التي يتولى المدير في العادة حلّها ويقبل ما أنصح به بشأنها . وانتهى الأمر بأصحاب المشاكل ، من المعلمين أو التلاميذ أو الأهالي ، الى التوجه اليّ مباشرة ، وبدا عامر سعيداً بهذا ، لأنه يعفيه من وجع الراس كما اعتاد أن يقول حين يشكرني على القيام بالأعباء التي كان ينبغي عليه هو القيام بها .

بانضمام معلم رابع الى المدرسة ، صار علينا أن نوزع صفوفها الخمسة على الحجرات الأربع ، فلم يبق لنا في مبنى المدرسة مكان نقيم فيه . هنا ، استنجدت بأصحابي الكثيرين وكان ابو أحمد الصرصور أسرعهم استجابة وانشطهم فوقع لنا على دار خالية مكونة من حجرتين انتقل صاحبها ، لسبب ما ، الى مخيم خان الشيخ . واحتاج الأمر الى توسط الوسطاء لاقناع صاحب الدار بتأجيرها لنا . وقد عززنا الضغط المعنوي على الرجل بعرض أجرة سخيّة لداره حتى ظفرنا بها ، فكان بهذا أول رجل في المنطقة يؤجر داره . وتقاسمنا الحجرتين ، فحللت أنا ومحمد عرب في واحدة ، وجمعنا الملاكمين في الثانية . ولم يكن في الدار عدا الحجرتين اي شيء آخر ، فلا باحة ، ولا فضاء ولا مطبخ ، ولا حمام ، فصار علينا ان نقوم بالاعمال المنزلية كلها حيث ننام .

وتناقشنا نحن الاربعة حول تقاسم العمل في الدار ، فاقترحت أن أقوم أنا بالطبخ ويتولى محمد عرب تدبير المواد اللازمة ويقوم عامر بأعمال

تنظيف الدار وترتيب أشيائها ، على أن يتولى محمد مصلح جلي الأواني . وقد راعيت في اقتراحي ، كما يمكن لك ان تلاحظ ، قدرات كل واحد منّا . لكن محمد مصلح اعترض على هذا التقسيم اعتقاداً منه بأني اوكل اليه مهمة وضيعة وأحتفظ بالمهمة الرفيعة لنفسي . واصر محمد ، هذا ، على الزعم بأنه يتقن اعداد الطعام طالباً ان يتولى هو هذه المهمة . وكاد الجدل يتحول الى عراك بين المحمدين لو لم أبادر الى اعلان قبولي بمهمة الجلي وسعادتي بها على ان يتولى الزميل المعتدّ بنفسه مهمة الطبخ . وجرى العمل بالتقسيم الذي اتفقنا عليه لبضعة أسابيع فقط . وقد اكتشف محمد مصلح كم هي صعبة مهمة اعداد طعام لاربعة اشخاص ، ثلاث مرات كل يوم ، خصوصاً في ظروفنا ، كما اكتشف كم هي سهلة مهمة الجلي التي كنت أتدبر أداءها بأهون السبل وفي اقصر وقت ، ثم أنصرف الى المطالعة او العبث بانتظار أن يفرغ هو من معاناته في الطبخ . في غضون هذه الاسابيع ، فاتحني محمد مصلح ، دون الآخرين ، بالمصاعب التي يتكبدها ، والمح الى استعداده لتبادل المهمات معي ؛ فابديت له استعدادي لقبول التبادل ، مشترطاً أن يقبل الآخرون ذلك وأن يقر هو أمام الجميع بجهله في شؤون الطبيخ وعجزه عن الاستمرار ؛ فعز عليه ان يفعل ذلك . وكنّا انا ومحمد عرب نتندر في ما بيننا على عناد زميلنا المتشبث بكبرياء فارغة ، واتفقنا على ان لا نمكنه من الاستعفاء من اداء هذه المهمة الا اذا تنازل صراحة عن هذه الكبرياء .

واستمر الامر على حاله أسابيع أخرى ، فكنا نأكل هذا الخليط غير المتجانس من الأطعمة التي تخرج من بين يدي زميلنا وننتظر اللحظة التي يقرّ فيها بعجزه . لم يزعجني كثيراً ان الطعام الذي آكله سيىء الاعداد . ما همني اكثر من هذا هو أن أحمل الزميل المتغطرس على التواضع . ولا بدّ أن طرافة الأمر استهوتني ، أيضاً ، فأمعنت في التشبث بالشرط الذي وضعته . إلا أن عامر هو الذي لم يحتمل . كان هذا الشاب الذي لا يختزن جسده ذرة شحم واحدة غير قادر على احتمال الجوع كما كان غير قادر على احتمال طبيخ زميلنا . وعامر هو الذي توسل لي أن أقبل بالتبادل .

وقد توسم محمد مصلح أن انتهي الى القبول ، بضغط من عامر ، فلا يحتاج هو الى الاقرار بما يعده مهيناً له . والحقيقة أني استجبت لعامر لكن بطريقة لم يتوقعها الشخص الآخر ، اذ انني طلبت من مصلح ان يستقل بطعامه وحده . وأعدنا ، نحن الثلاثة الآخرين ، تقسيم العمل المشترك بيننا ، فتولى عامر ، الذي رحب بالتدبير الجديد ، التنظيف والجلي ، وتوليت مع محمد تدبير المواد وطبخها . وأبقيت باب العودة الى مشاركتنا مفتوحاً امام الزميل العنيد على ان ينفذ شرطي الاول ، لكنه ركب رأسه ، وانتهى الى ان صار يسوغ عناده بالقول ان انفصاله عن مائدتنا يعفيه من الآثام التي تلحق به حين نجالسه ونحن نشرب ما حرّمه الله . وكان يشير بهذا الى الأوقات القليلة التي يتسنى لنا فيها ان نظفر بزجاجة عرق والى المعلبات التي نأكلها ويصر هو على الزعم بأنها كلها مصنوعة من لحم الخنزير ، حتى لو كتب عليها غير ذلك .

أما توزيع المهام في المدرسة فكانت له هو الآخر قصة واشكالات سببها ، أيضاً ، عناد زميلنا المتعصب . لقد حاولنا أن نلغي أسلوب تكليف معلم واحد بتدريس المواد كلّها لصف بعينه ونستعيض عنه بتقاسم المواد التي تدرس للصفوف كلها . ووضعنا جدولاً لتوزيع المواد ، فاعترض محمد مصلح بأنه مغبون ، فبدلنا الجدول مرة وأخرى ، مراعين ما يبديه هذا الزميل من رغبات ، فكان يجد في كل مرة ما يعترض عليه . واضطررنا هنا الى العودة الى الاسلوب الأول . واقترح عامر أن أتولى أنا تدريس الصف السادس الذي غدا وفق الأنظمة المدرسية الجديدة صف الشهادة الابتدائية الحكومية ، بصفتي أكثرهم خبرة ؛ وتولى عامر تدريس الصفين الرابع والخامس ، المجموعين في حجرة واحدة . وبقي خياران : تدريس الصفين الثاني والثالث المجموعين معاً ، أو الصف الأول . فأبى محمد مصلح الخيارين كليهما . وامضينا العام الدراسي ونحن نتعارك بين فترة وأخرى ، ونعيد التقسيم ، دون استقرار .

كان عامر صبوراً ، وكان محمد مصلح ، الذي يعارك الحيطان ، يتجنب العراك مع المدير ، على كل حال . وكنت أنا قادراً على الزام هذه المعارك

بحدود بعينها ، ولم أوفر له أيّ فرصة للدخول في عراك معي . أما محمد عرب فكانت المناكفة واحدة من الهوايات التي تجتذبه ، وكان يجد في استفزاز محمد مصلح متعة لا يخفي ابتهاجه بالحصول عليها ، وما كان اسهل استفزاز هذا الزميل! وكان الجدل بين المحمدين كثيراً ما يصل الى حافة الاقتتال ، فكنا ، عامر وأنا ، نتدخل لوقف تدهور الأمور . والحقيقة أننا ، عامر وأنا ، كنا مأخوذين بقامة محمد مصلح الطويلة العريضة وما هو ظاهر من قوته البدنية ونزوعه الى استخدامها ، فكنّا نخشى أن يفتك بزميله النحيل لو وقع الاقتتال بينهما . أما محمد عرب فكان له في قوة زميله رأي مختلف وقد راح يتحين الفرصة التي تمكنه من إثبات زيف هذه القوة . وأما محمد مصلح فكان من رأيه أن محمد عرب ولد طائش لم يتلقّ التربية الكافية عند أهله وأن من المفيد تلقين هذا الطائش الدرس الذي يضعه على الطريق المستقيم وتعليمه كيف يحترم عباد الله . وتوجب ، إذن ، أن أبقى أنا وعامر دائمي اليقظة ، وأن يظل المعلمان المتناكفان تحت رقابتنا ما تواجدا معاً في مكان واحد .

إلا أن ما كنّا نخشاه وقع . حدث هذا في يوم كان محمد عرب فيه مع تلاميذ صفه في الباحة ، في حصة رياضة بدنية ، وبقية المعلمين داخل الحجرات . وادعى محمد مصلح أن توجيهات زميله للتلاميذ تشوش عليه ، وطلب منه أن يخفض صوته ويقلل الضجيج . وأصر محمد عرب على القول إن صوته لم يخرج عن المألوف واتهم زميله بأنه يتقصد افتعال مشكلة . ووقعت ملاسنة لم ننتبه نحن الآخرين لها إلا حين تحولت الى اشتباك بالأيدي واجتذبت انتباه التلاميذ الذين ندرسّهم . وحين ضمتنا الباحة ، جميعاً ، كان المعلمان يصولان ويجولان ، وسط حلقة ضمت تلاميذ صفيهما ثم انضم اليها تلاميذ الصفوف الأخرى ، ويتبادلان لكمات حاقدة . وكان عدد من سكان الجوار ، ممن اجتذبتهم الملاسنة ، قد أخذ يتوافد الى الباحة . ولأننا كنّا أسيري الخوف من المعلم العملاق على زميله النحيل فقد هرعنا ، عامر وأنا ، ناحية الأول وكبلناه بأذرعنا ، فتشجع الآذن محمود وامسك بالمعلم الثاني . ومن موقفه ازاء زميله ، صرخ محمد

عرب في وجه هذا الزميل: «انت لست سوى جبان منفاخ!»، واتبع الصرخة ببصقة انطلقت كالقذيفة وحطت على وجه الخصم. وبقوة حنقه، انفلت محمد مصلح من ايدينا واندفع ناحية الآخر وسدد بذراعه الطويلة لكمة اخطأت الوجه فحطت على الرقبة. في غضون ذلك، كنّا قد عاودنا الإحاطة بجذع العملاق فيما شد محمود طوقه على جذع النحيل، فدخل الاشتباك طوراً جديداً، استخدمت فيه الاقدام والأيدي وانضاف اللبط الى اللكم، فيما نحن عاجزون عن المباعدة بين المتقاتلين. وكان أن هيجت الاصابات المتقاتلين كليهما، فانفلتا من بين اذرعنا ودخل القتال اعنف أطواره. ولدهشة الجميع، لم تمض الا دقيقة واختتها حتى رأينا العملاق مبطوحاً على الارض والنحيل باركاً على صدره وهو يوالي توجيه اللكمات المحكمة للوجه الذي غدا ملك قبضتيه وقد صبغه الدم الأحمر القاني ببريقه المفزع. ولا اخفي عليك ان هذا الوضع جعلنا، عامر وأنا، نتلكأ في التدخل، بالاضافة لما أصابنا به من دهشة. غير أننا تدخلنا، بطبيعة الحال، في نهاية المطاف، باعدنا بين الاثنين وتولى كل واحد منا تهدئة واحد منهما. وفي غضون ذلك، أمرنا التلاميذ بالعودة الى الحجرات، وطلبنا من الغرباء مغادرة الباحة.

بفوزه البيّن في القتال، انطفأ توق محمد عرب للاشتباك فقلت محاولاته لاستفزاز العملاق واستدراجه الى العراك. اما العملاق ذاته فان الهزيمة لم تحمله على اظهار التواضع، بل صور الأمر على أساس أن تدخلي أنا وعامر هو الذي منعه من التغلب على الآخر، وتابع عادته في استعراض قوته، إلا أنه صار، على كل حال، أشدّ حذراً، فلم يدخل امتحان المجابهة بالقوة مرة اخرى. وصار علينا، في غضون ذلك، أن نفعل أي شيء وكل شيء لنداري الفضيحة المشهودة التي انداحت انباؤها في الغور.

لم تستغرق شؤون المدرسة والمعلمين وقتي كله، ولم تعد تأخذ من طاقتي ما كانت تأخذه في العام السابق. وتهيأت لي أوقات أطول وفرص اكثر للانخراط في الشؤون الأخرى. وصارت لقاءاتي مع مصباح ونزار

باكير آغا يومية ، وصرنا نتداول في شتى الأمور ونقوم بالكثير من المهمات المشتركة . وكانت المساعي لتحسين وضع الجيش الشعبي في المنطقة قد وضعت علي عاتقنا أعباء كثيرة خصوصاً لأننا قرنّاها بتعزيز علاقاتنا بالناس وحضّهم على العمل لتحسين أحوالهم .

وإذ افلح كثيرون في الوصول الى الحرس الوطني عبر أدائهم الجيّد في الجيش الشعبي ، فقد تشجع الآخرون وصاروا ينظرون بجدّية اكثر الى العمل الذي غالباً ما أدوه في السابق بروحية المسخرين . وقد وسع نزار مهمات العمل بين المتطوعين ، فأدخل بينها مهام التثقيف والتوعية السياسية وخطط لعقد دورة لمحو الأمية ونفذ الخطة ، وكان في هذا كله محتاجاً لمساعدتي . وحسّن نزار فرص تدريب أفراد الجيش الشعبي على الأسلحة المتيسرة ، فعمل على أن يتقن الجميع استخدام البنادق الموزعة عليهم والتي صار من حقهم الاحتفاظ بها . واختار نزار أعداداً من العناصر المتميزة فدرّبها على استخدام الرشاشات التي كان استخدامها محصوراً بالعسكر . وكان أشهر الرشاشات ، آنذاك ، الديكتاريوف الذي يبلغ مداه المجدي كيلومترين ونصف ويلعلع صوته في الغور فيشيع فيه احساساً عميقاً بالاطمئنان . ودرب نزار آخرين على مضادات الدروع ، وكان أشهرها البلاندسيت ، وجعل من حق عناصر الجيش الشعبي المدربة على هذين السلاحين المشاركة في الحراسة في المناطق الحساسة التي يقيم فيها العسكر . ونظم الضابط المسكون بالرغبة في أداء الواجب سلسلة من المناورات لتحسين أداء عناصره ، فكان يقسم هؤلاء ، كما يفعلون في الجيش النظامي ، بين فريق مدافع وآخر مهاجم ، فيتحرك الفريقان في ظروف مشابهة لظروف المعارك الحقيقية ، ويحصلان على مزيد من الخبرة في القتال . وقد انخرطت في هذا كله بهمة وتمتعت به . وزاد من متعتي ثناء الأهالي عليّ وعزز الثناء احساسي بالتميز وحملني على الاندفاع اكثر فأكثر في أداء المهام المتاحة .

اما السرايا فإن ناسها صاروا أقلّ عنجهية ، كما صاروا يحسبون خطواتهم ويتحسبون من العواقب بعد أن رأوا اتساع الميل ضد الاقطاع

واحسّوا بأن العهد الجديد مقدم على تطبيق الإصلاح الزراعي . وقد أخذ فؤاد بك يكثر من التواجد في البطيحة بعد ان ضاقت أوجه النشاط المتاحة له في العاصمة . وإذ خشي مالك الارض ألا تظل ملكيته على اتساعها عند تطبيق قانون الاصلاح الزراعي عليها ، فقد خفّ الرجل الى النشاط للدفاع عنها . وتعددت وجوه هذا النشاط وتنوعت وسائله ؛ فكان منها انخراط السرايا في حملة تشكيك بنوايا العهد كلّه وبلبلة أفكار الفلاحين بشأنه ؛ كما كان منها تنظيم سبل التحايل على القانون ، وأشهر هذه السبل ، وأقربها الى المتناول ، كانا تحديد أخصب قطع الارض المفلوحة وتسجيلها بأسماء الموثوقين من الأقرباء ، واتمام التزويرات اللازمة لكي يبدو أن هذا التسجيل تم قبل صدور قانون الإصلاح الزراعي ، وكذلك إعداد الوثائق لتبديل وصف الأرض المفلوحة من مرويّة الى بعلية ، ومن مشجّرة الى جرداء ؛ وذلك كله لتقليل مساحة الأرض التي ستصادر من المالك وتوزّع على الفلاحين . وفي غضون ذلك ، أخذ فؤاد بك يوسع علاقاته في المنطقة ويمتّن صفوف الموالين له والمتحالفين معه ، فزادت لقاءاته مع المخاتير والوجهاء والتجار ، كما زادت مبادراته لتليين ضمائر موظفي الحكومة . كانت السرايا تتحصن للدفاع دون ان تهمل الإعداد للهجوم .

في هذا الجوّ ، تلقيت دعوة الى مائدة فؤاد بك . وقال رجل السرايا الذي نقل الدعوة اليّ إن البك راغب في التعرف عليّ شخصياً بعد أن سمع آراء متضاربة بشأني . وملت الى رفض الدعوة ، لا لشيء الا لتجنب الموقف المحرج الذي أعرف اني سأواجهه في الوسط الذي لا آلفه ولا يألفني . الا أن مصباح ونزار واصحاباً آخرين حثوني على تلبية الدعوة وعدّوا رفضي «ولدنة» لا مبرر لها . وعندما احتوتني فيلا البك الخاصة القائمة في ركن من أركان السرايا الكبيرة ، وجدتني أسير الشعور بأني جئت الى مكان ليس لي أن أوجد فيه . وقد ظل هذا الشعور مسيطراً عليّ طيلة مكوثي مع صاحب السرايا . أما هو فبدا طبيعياً دون تبسط ومضيافاً دون الحاح ، وقد اتبع ، بالاجمال ، أكثر آداب السلوك ارستقراطية ، ولم تفارق وجهه الابتسامة حتى في أشد لحظات حوارنا توتراً . واكتشفت أني ازاء شخص

ليس هو الآغا الفظ الذي تصوره القصص حين يصف كتّابها اقطاعيي بلادنا ، بل ازاء «الجنتلمان» الذي يعرف كيف يدير الحديث ويتحكم به دون إثقال على محدثه . وفهمت من الحديث ان جليسي متعلم ، اتمّ الدراسة الثانوية في مدرسة اللاييك الفرنسية في دمشق ثم درس الاقتصاد في الجامعة الامريكية في بيروت ، وهو يتقن الفرنسية والإنجليزية ويعرف اشياء كثيرة عن آدابهما ومفكريهما . وشكّل هذا كلّه مفاجأة لي أنا المسكون بصور اقطاعيين أفظاظ وجهلة . وقد اسلمتني المفاجأة الى شيء من التطامن القسري في حضرة الرجل الذي أدركت أنه يتفوق عليّ دون أن يتعالى عن مؤانستي واختيار المواضيع التي لا تثير الإشكالات بيني وبينه ، وإن رحت أغالب هذا التطامن مستنجداً بما اختزنه من كره لنظام الإقطاع . وبدافع إثبات الذات ، وجدتني أنا الذي يلج الحديث عن الموضوعات التي تثير الإشكالات . تحدثت عن فقدان العدالة في نظام الإقطاع وما ينطوي عليه هذا النظام من استغلال لجهود جمهور كامل لمصلحة فرد واحد أو أسرة ، وأشرت الى سوء سلوك من أسمع عنهم من الإقطاعيين والمظالم المشهورة التي يوقعونها بفلاحيهم . فلما لاحظ مضيفي اني اتعمد الاستفزاز ، قال بنبرة فيها الكثير من السماحة : «لنقل ، جدلاً ، إن الكثير مما تسمعه صحيح ، ونصرف النظر عما فيه من مغالطات ، فهل من الضروري أن نفسد جلستنا هذه ، مع أن هناك اموراً كثيرة اخرى نستطيع ان نتحدث حولها بصفتنا بشراً متعلمين ومتمدنين دون أن يتعكر مزاجك الحساس؟!» . وبلباقة يتقن التسلح بها ، قاد فؤاد بك الحديث ناحية الأدب . بدأ بالقول ان الصراع على ملكية الارض قائم منذ سكن آدم وذريته الأرض وسيظل قائماً مهما تبدلت أحوال الكون ؛ وهذا الصراع فيه ، مثل أي صراع آخر ، صفّان يرى أصحاب كل منهما أنهم على صواب ، ويعتقدون بعدالة ما يفعلونه . وهممت بالتعقيب ، فاستبقني فؤاد بك وسألني عما اذا كنت قد قرأت رواية الارض لإميل زولا ، فاسقط في يدي ، ذلك أني لم اكن قد سمعت بالرواية او بصاحبها ، ولم أشأ أن اقرّ بجهلي . فسألته : «هل هي مترجمة الى العربية؟» ، فقال ، وقد استخلص

الإجابة على سؤاله وأظهر مزيداً من التسامح : «اعذرني فأنا لا أعرف ، قرأت الرواية بالفرنسية» ، ثم راح يقصّ عليّ وقائع الرواية باسهاب استغرق بقية جلستنا على المائدة .

بعد ذلك ، وبعد أن انتقلنا الى الصالون ، ظل فؤاد بك هو المسيطر على الحديث إلى أن حان موعد انصرافي ، ولم أجد ما أقوله سوى الافراط في ازجاء الشكر له على دعوته لي . أما في داخلي فكنت مغتاظاً ـ لقد ذهبت الى سرايا الاقطاعي معتزماً أن أجعل الزيارة جولة أظهر فيها مقدرتي على المجابهة وصواب موقفي ضد الظلم . فلما عجزت عن انفاذ عزمي هذا وتحولت الى مستمع مفتون بحديث مضيفه ، اغتظت من نفسي . وقد فاض هذا الغيظ بعد أن ودعني فؤاد بك عند باب الفيلاّ ، فاجتزت باحة السرايا الكبيرة متعجلاً الخروج منها ، دون أن أودع الذين فيها او أفطن الى وجودهم . وعندما نبح في وجهي كلب حراسة مربوط قرب البوابة الكبيرة ، تجلّى غيظي بتمامه ، فالتقطت حجراً من الأرض ورميت الكلب به ، ثم خلفته ورائي وهو ينوح من الألم .

في سنة إقامتي الثانية ، هذه ، في البطيحة ، ظفرت المنطقة بحصتها من المنشآت التي بناها عهد الوحدة . لقد اختار هذا العهد أن يقيم في المنطقة قرية نموذجية . وكانت هذه واحدة من قرى تقرر اقامتها في عدد من مناطق خطوط المواجهة مع العدو ، على ان تضم أبنية تصلح للسكن وللدفاع في الوقت ذاته . وقد أنيطت مسؤولية المشروع كلّه ، تخطيطاً وتنفيذاً ، بقسم التحصينات في الجبهة الذي يقوده النقيب الفلسطيني محمد الشاعر . واشتمل مشروع القرية المخصصة للبطيحة على انشاء أربعين وحدة سكنية دفاعية ومدرسة ومولّد كهرباء يعمل بالمازوت ويؤمّن الطاقة الكهربائية لهذه الوحدات . وهكذا ، شهدت البطيحة هذه العملية الواسعة التي توالت فيها اعمال المسح وانتقاء المواقع المناسبة وتسويتها وإقامة الأبنية عليها . وقد اختيرت المواقع بحيث تفصل بينها مسافات مناسبة للمناورة في حالة الدفاع وتتوزع على مساحة واسعة شملت التل الأعور والجهات المحيطة به . واختير للمدرسة مكان منعزل مشرف على

السهل والبحيرة ، بحيث تتوسط قرى المنطقة التي يجيء منها تلاميذها ويتوفر لها الهدوء والمنظر الطبيعي الممتد على مدى النظر .

وإذ سبق لي ان التقيت محمد الشاعر في دار أبي وليد ، ولأنه كان صديقاً لمصباح ، فما أسهل ما توثقت العلاقة بيننا فصرنا أصدقاء . كان هذا النقيب القادم الى سورية من حيّ شعبي في يافا واتيح لـه ان يشهد نشاط مجاهدي المدينة الفلسطينية الساحلية ويسهم فيه ، مسكوناً ، كزملائه ، بالهم الوطني ، وكان ، مثل الكثير منهم ، متأثراً بالشيوعيين . وكانت للنقيب ذي القامة الرشيقة والوجه الملوح ، نظرة آمرة تشي بتمتعه المبكر بالسلطة ، مثلما كانت له ، أيضاً ، سمعة طيبة بوصفه خبير تحصين عسكرياً مشهوداً له بالحزم والاستقامة ونظافة اليد . وقد لفت نظري أن هذا الضابط ، الذي يجيء الى البطيحة في زيارات متواترة ويشرف على كل صغيرة وكبيرة ويدقق كل تفصيل من تفاصيل العمل الجاري ، كان يعطي وقته كله واهتمامه وانتباهه الشديد لما يناط به من مهام ، وكان حريصاً على انتظام العمل وسرعة الأداء وتجنب التبديد في الوقت أو المواد . واذ كنت أراقب أعمال البناء وأدلي برأيي فيها وأقدم ما يعنّ لي من اجتهادات ونصائح بشأنها ، كان النقيب يصغي اليّ بجدية كاملة ، وكثيراً ما استخلص من ملاحظاتي فكرة مفيدة أو طوّر اقتراحاً تقدمت به فوجد الاقتراح طريقه للتنفيذ .

ومع بدء العمل في المشروع ، وفد الى البطيحة ناس جدد كثيرون ، اداريون ومهندسون وحرفيون في شتى المهن ومراقبو عمال ، عسكريون محترفون وآخرون مجندون ومدنيون يستخدمهم قسم التحصينات . وتوفرت لأهل المنطقة فرص جديدة للعمل المأجور ، وكان القسم يدفع أجوراً يعدها الناس في البطيحة مرتفعة ويتنافسون للظفر بها . وقد تفاهم النقيبان الشاعر والبديري والملازم الأول باكير آغا فجعلوا الأولوية في العمل لمن يرشحهم الجيش الشعبي من المبرزين فيه ، واتفقوا على أن يبذلوا جهدهم كي يُراعى الاعتبار ذاته عند توزيع المساكن . وبحكم صلتي الطيبة بهؤلاء الثلاثة ، صارت لي يدٌ في التشغيل ، فكثر عدد الذين

يقصدونني للتدخل ، خصوصاً وقد عرف الناس أني اتدخل دون أن أطلب رشاوى أو أقبل هدايا . وكان من شأن هذا أن وفّر لي مزيداً من الإحترام لدى مَنْ يحبذون السلوك الحميد ، فيما انطلقت ألسنة كثيرة بذمي .

هنا ، قد ينبغي عليّ أن اقول لك إني الزمت نفسي بالسلوك المستقيم الى حدّ التزمت . وقد نلت الجزاء العادل بمحبّة الكثيرين لي وارتباطهم بي بعلاقات صافية روّت عطشي الى العلاقات الحميمة . ولم يمض وقت طويل حتى وجدتني غارقاً بكليتي في هموم الناس ومشاكلهم ، لا يقصدني طلاب الوساطة او المشورة ، وحدهم ، بل يقصدني ، أيضاً ، المتخاصمون لفض خصوماتهم والمتنازعون على حق من الحقوق للحكم بينهم . وكان هذا يسعدني ويزيدني انشداداً الى الجوّ المحيط بي وييسر لي اكتساب معارف وخبرات جديدة . وآل الامر ، بمضيّ الوقت وتراكم الخبرات ، الى ان صرت عارفاً موثوقاً بعادات العشائر وتقاليدها وانظمة القضاء العشائري وأحكامه ومراتب الناس وعلاقات التعاون او التنابذ القائمة بينهم وأسبابها القديمة او المستجدة وسبل تطوير ما هو ايجابي فيها . ثم جاء وقت ادخلني فيه الناس في أخصّ شؤونهم ، فصرت مستشار العاشق المتيم ، والمخفف من هموم الآخر المنبوذ ، وراح الناس يندبونني للمشاركة في «الجاهات» التي تنظم الخطوبة والزواج وتفصل في الحوارات حول النفقات والمهور ، ويستدعونني لفضّ المنازعات ، وها أنا أتذكر واحدة من المنازعات التي افلحت في حلها ، واحدة مؤسية وطريفة في آن . فقد تبادل شابان من الشمالنة اختيهما ، اي ان كل واحد منها تزوج أخت الآخر دون مهر . وكان هذا شائعاً ومألوفاً . وقد رتبت الاسرتان كل شيء ، ومضت اجراءات الخطوبة والزواج على أتمّ وجه . أما المنازعة فنشأت حين اكتشف احد الشابين أن الفتاة التي تزوجها معطوبة الجسد ، على حدّ تعبيره ، وغير قادرة على القيام بالعمل الصحيح ، أو أن لديها ضلعاً مصاباً بكسر قديم ، وفق تشخيص مجبر العظام لحالتها . وعدّ الشاب نفسه مغبوناً في صفقة التبادل ، هو الذي قدم لنسيبه فتاة سليمة الأضلاع موفورة الصحة . وإزاء ذلك ، وما احتسبه الشاب غشّاً مقصوداً تعرّض له ،

أصر هذا الشاب على إعادة الزوجة المعطوبة الى أهلها واستعادة أخته السليمة . والحقيقة أن وضع المسألة بهذه الصورة أذهلني أنا الذي كنت مفعماً بالأفكار الرومانسية عن الحبّ والزواج والصلات الروحية وما الى ذلك . لكنني لم ألبث ان اكتشفت اني المذهول الوحيد . فالمجتمع الذي ينتمي اليه الشابان يتعامل مع هذه المسائل بواقعية لا يجمعها بتصوراتي الرومانسية جامع . وكاد الطلاق يطال الفتاتين ، بالفعل ، لو لم يتبين للأسرتين ان كلاً من الفتاتين حامل . فلما صارت المسألة بين يدي ، صار علي أن أجد الحل الذي يقبله الطرفان ، وسط غلبة مفاهيم عملية لا تزينها العواطف ، وأن اجتهد ، من جانبي ، كي لا يؤدي الحل الى هدم اسرتين تشكلتا للتو . والحقيقة أن التوصل للحل كان أكبر من قدراتي ، فاستشرت أصدقائي واشركتهم في البحث عنه . وفي يوم لا انساه ، جمعت الشابين وأفراد اسرتيهما وعدداً من رجال العشيرة المتنفذين ، ونطقت امامهم بالحكم الذي توصلت اليه . قد يصدمك ان يصدر هذا الحكم عني ، أما في العشيرة التي ساندت الحكم فقد وجدوا فيه تعبيراً عن حصافة خارقة وحكمة عميقة . لقد بقيت كل فتاة عند زوجها ، على ان تخضع الفتاة المصابة للعلاج ، وتوجب على أهل الفتاة ان يرسلوا واحدة من اخواتها للعمل في حقل الاسرة الشاكية إلى ان يتم الشفاء . واوجب الحكم ان يتولى اهل الفتاة المصابة دفع نفقات علاجها . وكان هذا واجباً نظرياً ، فقط ، اما من الناحية العملية فقد رتبت الامور ، مع النقيبين الصديقين ، بحيث تتم المعالجة مجاناً لدى اطباء الجيش .

في هذه الفترة ، تعرفت على رجل هو بين الذين ضمتهم اقطاعية عبد الرحمن آغا ثم ولده فؤاد بك الوحيد الذي يصح ان يقال إن له تاريخاً مشهوداً . تعرفت على الرجل بالصدفة ، في وقت غير ملائم ؛ لكن المعرفة استقامت بعد ذلك ، وظلت صورة الرجل وسيرته حيّة في ذاكرتي على الدوام .

حدث ذلك عندما تناهى الى سمعي ان عبد الله الفالح صار رئيساً لبلدية فيق . لعلك ما تزال تتذكر هذا الاسم ، فهو اسم المعلم البعثي الذي

زاملته عندما عملت في فيق في المدرسة التي يملكها خالي وشريكه عربي محي الدين . وقد دفعني الشوق ، وكذلك الفضول ، الى التفكير بزيارة البلدة التي سبق أن عملت فيها ، وهي ، على كل حال ، مركز القضاء الذي تتبعه البطيحة ومقابلة صديقي القديم . ولم يكن ثمة ، آنذاك ، طريق معبد يصل البطيحة بفيق ، فكان الناس يسعون بينهما مشاة أو على الدواب ، فيحتاج الماشي الى ساعات طويلة يقطع خلالها الدرب الذي يخترق عدّة تلال متعاقبة وما بينها من قيعان ، بينما لا يحتاج الراكب على فرس الا الى ساعتين او ثلاث . وتحمس المدير عامر لمرافقتي . ولما لم يكن اي منا يعرف الطريق الى فيق فقد اقتضى الأمر ان يصحبنا محمود . وهكذا برزت الحاجة للحصول على ثلاثة رؤوس خيل . وفي تشاورنا حول الذين يمكن ان نستعير منهم الخيول ، فطن محمود الى ان الشيخ عوض المعيش ، وهو الرجل الذي احدثك عنه ، يملك اجود خيول في المنطقة وحبذ أن نستعيرها منه ، مؤكداً أن الرجل لن يرفض طلبنا .

كان الشيخ عوض هذا زعيم قرية الشقيف التي تبعد عن تل الاعور مسيرة ساعة على الطريق ذاته المفضي الى هدفنا . وكان للشيخ في مدرستنا ابن ، هو اصغر ابنائه العديدين ، كما كان في المدرسة تلاميذ آخرون من أبناء هذه القرية . فبعثنا الى الشيخ ابنه واثنين آخرين من ابناء قريته ، مؤملين ان يجلبوا الخيول التي ستحملنا الى فيق . ارسلنا هؤلاء الأولاد ضحى يوم خميس ، واتفقنا معهم على أن نلاقيهم عند نقطة على طريق عودتهم بالخيل لكي نكسب الوقت فيعودوا هم الى قريتهم في وقت ملائم ونتم نحن مشوارنا فنزور فيق ونعود في اليوم ذاته . وقد وصلنا هذه النقطة في الوقت المتفق عليه ، فانتظرنا وطال انتظارنا دون ان يظهر أثر للأولاد . هنا ، استولى عليّ قلق شديد ، خشية ان يكون الأولاد قد تعرضوا لمكروه ، وقررت أن أكمل المشوار مشياً الى قريتهم لأعرف بنفسي ما الذي أعاقهم ، ووافقني زميلا الرحلة على ذلك .

وكانت الشمس تكاد تختفي وراء قمة تل مجاور حين بلغنا نحن قمة التل الذي تقوم قرية الشقيف عليه . وقد اجتذب وصولنا عدداً كبيراً من

الأولاد ، وهرعت نحونا كلاب القرية كلها وهي تنبح نباحاً يملأ الفضاء . وبرز بين الأولاد واحد ممن ارسلناهم مع ابن الشيخ . وأفهمنا هذا الولد الذي بدا غير مدرك لسبب حنقنا أنهم وصلوا القرية بسلام لكنهم لم يجدوا الشيخ فيها فترتب عليهم ان ينتظروا عودته ، ثم صار الوقت متأخرا بالنسبة لهم فأرجأوا المجيء بالخيل الى اليوم التالي . وكان من شأن ذلك أن يطفىء قلقنا ، على الأقل . وكنّا بحاجة الى الراحة ، وكانت في العودة الى البطيحة في الظلام مخاطرة لم نستعد لها ، وكنّا ، الى هذا ، جائعين نحن الذين لم نأكل شيئاً منذ الصباح . كل هذا جعلنا نتبع الولد الذي قادنا الى منزل أبيه ، دون أن نفطن الى ما يوجبه حسن السلوك فنذهب الى مضافة الشيخ ونشكره على استعداده لإعارتنا خيوله .

ولكي تدرك المغزى الحقيقي للخطأ الذي وقعنا فيه ولما ترتب عليه ، يجدر أن تعرف على التو ما عرفته أنا عن الشيخ عوض المعيش والجماعة التي تسكن قرية الشقيف هذه . كان عمر الشيخ حين تعرفت عليه قد اقترب من المئة . وهذا الذي صار شيخاً لقرية وُلِدَ في البطيحة عبداً مملوكاً لأحد اجداد فؤاد بك . وفي مطلع شبابه ، تمرد العبد على سيده ، فهرب من السرايا ومارس انواعاً شتى من العنف ضد السرايا وناسها وممتلكاتها . واجتذب المتمرد المقدام عبيداً آخرين الى صفه فشكّل منهم عصابة ثائرة قوية المراس . وتوالت سنون عديدة مثّلت العصابة فيها خطراً على نفوذ السرايا ومكانتها واقلقت أسيادها ، دون ان يتمكنوا من الفتك بالثائرين . كان عوض المعيش قد شحن اتباعه بالعزيمة الصلبة التي له وأدار نشاطاتهم بذكائه الفطري واتخذ من الكهوف الطبيعية الموزعة في التلال مخابىء حصينة تحتمي بها العصابة وتخزن فيها ما تستولي عليه خلال هجماتها من تموين ومواد ، توزعه على كهوف عدة متباعدة حتى اذا اكتشف مطاردوها من ناس السرايا ودرك السلطة واحداً من هذه الكهوف بقي للعصابة ما يلبي حاجاتها في بقية الكهوف .

بكلمات أخرى ، استمرت ثورة عوض المعيش وعصابته سنة بعد سنة وانقضى عليها عقد وراء عقد ، دون أن تتمكن السرايا من القضاء عليها ،

لكن ، أيضاً ، دون ان تتمكن العصابة من تحقيق نصر حاسم . وبقي الأمر كذلك الى ان آلت ملكية الاقطاعية بالإرث الى عبد الرحمن آغا ، والد فؤاد بك . والشائع ان هذا الآغا كان رجلاً مقداماً يحبّ الشجعان من أي صنف ويقدر شجاعتهم ؛ وكان الى ذلك بسيطاً ، يكره التعقيدات ، ويعجز عن متابعة الأمور الشائكة ، ويميل الى الحلول السهلة ، ويحب ان يظهر اريحيته ويعدّها مما يعلي مقامه ويعزز مكانته . وقد عرض الآغا على عوض المعيش تسوية مشرفة . ويقال إن الآغا ارسل الى العبد الثائر الذي مضت على ثورته خمس وثلاثون سنة اقرب رجاله اليه ، ثم التقاه بنفسه وعرض عليه بنود التسوية وأعطاه كلمته بأن يلتزم بما يخصه منها ويلزم به ورثته . وقبل عوض المعيش ذلك كلّه .

وقد قضت هذه التسوية أن يظفر عوض المعيش واعضاء جماعته من العبيد بحريتهم وفق صكوك أمضاها الآغا بخاتمه واشهد عليها الشهود ؛ كما قضت بأن تظفر الجماعة بتل الشقيف والحقول التي تكتنف سفوحه كلها فتصير لهم يسكنون فيها ويفلحونها هم وذريتهم الى أبد الآبدين . واعترف الاغا بعوض المعيش ، الذي لم يعد ، بعد ، شاباً ، شيخاً للجماعة وتعهد بأن يتعامل معه على هذا الأساس . كل ذلك مقابل تعهد الشيخ بأن يلتزم هو وجماعته بعدم التعرض لشيء في الاقطاعية او لأحد من ناسها وان يدافعوا عنها ضد أي اعتداء تتعرض له من الناحية التي يقيمون فيها ، وان يقرّوا بأن ملكية الأرض التي احتازوا عليها هي للآغا وورثته وقد حصلوا عليها برضاه ، دون أن يلزمهم هذا الإقرار بدفع حصة الثلث من الانتاج التي يدفعها فلاحو الإقطاعية للمالك .

ومنذ إبرام هذه الاتفاقية ، انصرف الشيخ عوض الى تنظيم الحياة السلمية لجماعته ؛ فكان أن بنوا قريتهم على رأس التل وسمّوها باسمه ، واستصلحوا الحقول واجتهدوا في فلاحتها . وقد تكشفت شخصية الشيخ الجديد عن قدرات مدهشة في تنظيم العمل . فتم ذلك كله بغير مشاكل . ونظم الشيخ العلاقات بين اتباعه ، فجعل لهم مشاعةً ، العمل فيها مفروض على كل قادر والخير المنتج فيها مبذول لكل محتاج . وقد ابقى

الشيخ في يده كافة السلطات ، لكنه لم يَجُرْ على أحد . وكان الشيخ شديد الحزم في عمله لحفظ النظام وتوفير حسن سير الأمور ، يدفع الجميع الى العمل ويتقدمهم فيه ضارباً المثل بنفسه ، فلم يجرؤ احد من رفاقه في التمرد او من ذريتهم على الخروج على النظام الذي وضعه الشيخ وصانه بحكمة ودهاء ويقظة . ولكي يعزز الشيخ وضعه ووضع قريته في محيطها ، اعطى للجماعة اسم عشيرة فسمّاها «المناذرة» ، وعقد زيجات عديدة فاختار زوجاته من بنات شيوخ عشائر أخرى ، وخلّف أولاداً كثيرين رباهم بحيث يكونون طوع بنانه في أي امر يحتاج فيه الى مَنْ يعتمد عليه ويثق به ثقة مطلقة . وقد اغتنى الشيخ واغتنت القرية وكانت حياتها متميزة في كلّ شيء بالمقارنة مع القرى المجاورة . وبمضيّ السنين ، صارت للشيخ مهابة خاصة في المنطقة ، وتعززت مكانته بين زعماء العشائر القريبة والبعيدة وتوسعت علاقاته بها . وكان أميز ما فعله الشيخ في هذا المجال زواجه من ابنة أحد شيوخ عشيرة عنِزَة ذات الصيت البعيد في بادية الشام ، تزوجها الشيخ وهو في السبعين من عمره وهي التي انجبت له بضع بنات ثم أهدت اليه ابنه محمد الولد الذي يدرس في الصف الخامس في مدرستنا .

وكان لكلِ اسرة في الشقيف دار خاصة بها تفي بحاجاتها ، أما الشيخ فقد بنى داراً كبيرة تكاد تكون سرايا ، فخصص قسماً منها لزوجاته وأولاده وزوجات أولاده وأولادهم وكان هؤلاء يعدون بالعشرات ؛ وخصص قسماً آخر للخيل والمخازن ؛ وجعل فيها قسماً ثالثاً بمثابة مضافة يؤمها رجال القرية وزوارها ، للسمر والمجاملات ولقضاء الحوائج ، أيضاً . وكان الشيخ حريصاً على أن لا يعلو مقام في القرية فوق مقامه ؛ وما دام هو سيّد القوم فقد كان من الواجب ان نتجه الى مضافته نحن المعلمين الطارئين على قريته ، وهذا ما فاتني وأنا أبحث عن أول فرصة راحة وأدخل الدار التي قادنا إليها ذلك الولد . ثم لأن انتظارنا للعشاء الذي انصرف مضيفنا لإعداده طال ، فاننا لم نكد نفرغ من تناول الطعام حتى غلبنا النعاس فاستسلمنا للنوم حيث كنّا ، ولم نذهب للمضافة بعد العشاء ، ولا جرؤ مضيفنا على تذكيرنا بهذا الواجب ، فصار تقصيرنا في اداء واجب المجاملة للشيخ مضاعفاً .

وفي الصباح ، تعجلت الذهاب الى المضافة انا واصحابي ، ومع أننا جئناها مبكرين فإن الشيخ لم يكن هناك ، وقد أنبئنا بأنه غادر الدار ليشرف ، كعادته ، على العمل في الحقول . وطلبنا الخيل من أحد ابناء الشيخ فلبى طلبنا بأدب يفتقر الى الحماس . ووقف الابن صامتاً وهو يرقبنا ونحن نعتلي ظهور الأفراس الاصيلة التي قدمت لنا . وتعجلنا الانصراف وقد فاتنا ، مرة أخرى ، ان ندخل المضافة ونشرب القهوة .

كانت خيول الشيخ عوض تستحق السمعة التي لها . واذ لم أكن غريباً كلية عن التعاطي مع الخيل وكان محمود ابن برّ مدرب على ركوبها وعامر رياضياً يتدبر أمره ، فقد غادرنا دار الشيخ واجتزنا دور القرية دون أن يبدر منّا ما يشكك بمقدرتنا على امتطاء الأصايل . وما أن ابتعدنا عن القرية وانفتح أمامنا السهل المنحدر بميلان شديد نحو قاع عريض حتى أرخينا لهذه الأصايل الأعنّة ، وقد شملنا ذلك الإحساس بالزهو الذي يحلّ بمن يركب خيولاً جوادة كهذه الخيول . وتملكتنا الرغبة في الطراد فقطعنا معظم الطريق بين الشقيف وفيق طراداً ، غير آبهين بأن نكون مصعدين او منحدرين أو ماضين فوق منبسط ، ولا متيحين للخيول الفرص الكافية لالتقاط الأنفاس . وكنّا ، جميعاً ، سعداء سعادة يصعب تصويرها ، وصار الطراد هو شاغلنا الوحيد طيلة الرحلة .

وفي فيق ، سألت عن منزل رئيس البلدية فدلني الناس عليه ، فتوجهت اليه مع أصحابي ، وفوجئت بحارس يقف على الباب ويصر على أن يعرف غايتنا من الزيارة . ولما قلت للحارس إن رئيسه صديقي ، رماني بنظرة متشككة ، وتركنا لحظة عاد بعدها ليقول عبارة واحدة : «الرئيس لا يعرف حتى اسمك» ، ثم أبى ان يضيف شيئاً آخر . وكان في ذلك مفاجأة غير سارة لي ، لكنني لم آبه لها لأن رفض استقبالنا يوفر لنا الفرصة كي نترك فيق فوراً ، أي كي نعود الى الطراد . ومن كثرة توقي للطراد لم أعرّج على احد ممن اعرفهم في فيق . ولو فعلت ذلك لتسنى لي أن أعرف يومها ما عرفته بعد ذلك بزمن طويل ، وهو ان عبد الله الفالح المنتخب لرئاسة بلدية فيق وهو الذي سيصير وزيراً في سورية في الحكومة التي ألفها

د . يوسف زعين بعد عام ١٩٦٦ . ليس عبد الله صديقي وزميلي ، وان المسألة مسألة تشابه اسماء فحسب . وقد عدنا من حيث أتينا ، وطاب لنا أن نعاود الطراد من جديد .

اوصلنا الطراد المتواصل الى مشارف الشقيف قبيل غروب الشمس ، فوجدنا محمد بن الشيخ في انتظارنا على الطريق . وقال الولد بعبارة مقتضبة : «والدي ينتظركم» . فحسبناها دعوة من الشيخ ، وتبعنا الولد الى المضافة .

كانت للجالس في صدر المكان مهابة لا تستطيع ان تنسبها الى سبب واحد ، وحده . فقد تضافرت تأثيرات السنّ وخبرة العمر المديد ومظاهر العافية غير المألوفة على وجه رجل قارب المئة ، واحاطت امارات الثقة بالنفس والمكانة الراسخة والسلطة الوطيدة الرجل بالهالة التي تكتنف حضوره . ولأمر ما ، تذكرتٍ جدّي سلمان في مضافته ، واندفعت نحو الرجل بحرارة . غير ان شيئاً ما في سمت سيد المضافة وحديثه بخّ عليٍ حرارتي برودة أطفأت حماستي ولجمت اندفاعتي . فقد بقي الرجل قاعداً حتى حين كنت قد قطعت معظم المسافة بين مدخل المضافة وصدرها ، وخلت نظراته من بوادر الترحيب التي يستشفها الزائر بسهولة ويتوقعها في مثل هذا المقام ، ولم يقف إلا عندما صرت بأزائه تماماً . ودون أن يخطو نحوي خطوة واحدة ، مدّ الشيخ يده للمصافحة بحركة خلت من الحميمية ، وأطلق عبارة مجاملة لم تلتقط اذناي كلماتها بوضوح ، ثم أشار الى الناحية التي يدعوني للجلوس فيها ، وكرر الأمر ذاته مع صاحبي ، ثم جلس قبل أن نكون نحن قد استوينا في مجالسنا .

هذا الاستقبال الذي لم أهتد الى سبب يسوغ برودته صدمني . وسألت نفسي : اذا كان الرجل لا يرحب بمقدمنا فلماذا دعانا الى مضافته؟ ولم أقع على الإجابة ، وبلغ احساسي بالاستفزاز ذروته بحيث لجم لساني . وعندما جاء صبّاب القهوة ، وهو واحد من أبناء الشيخ الفتيان ، أردت أن أجعلها واحدة بواحدة فاظهر استيائي وأبين لمضيفي أني أعرف التقاليد ، فأبيت ان

اتناول الفنجان الممدود لي ، وجمجمت : «لا أشربها» . لقد أُخذ الشاب بموقفي وظهرت الحيرة على وجهه للحظات ، غير أنه تلقى من والده الشيخ نظرة آمرة فتخطاني وتابع صبّ القهوة للآخرين . والتقاليد تقضي ، في مثل هذه الحالة ، ان يسألني عن سبب احجامي عن شرب قهوته فيكون ذلك فاتحة لحديث ينتهي ، غالباً ، بالغاء السبب . الا ان الشيخ التزم الصمت ازاء احجامي مما عددته امعاناً منه في الاستهانة بنا . ثم زاد الطين بلة عندما احضروا العشاء ، ذلك ان ما وضع امامنا كان طبقاً واحداً فيه مزيج من البرغل والعدس المسلوق ومعه كمية من الخبز ، ولا شيء آخر . وفي العرف ليس هو العشاء الذي يقدم لضيوف مدعوين مثلنا . وتناوشتني الاسئلة : هل احضروا هذا العشاء المتواضع لنا على اساس أننا «ضيوف مساء» ، أي ضيوف حضروا في وقت متأخر دون سابق انذار ما لا يلزم المضيف بإعداد مائدة خاصة لهم ، أم انهم تعمدوا التقليل من شأننا لسبب او لآخر ، أم انهم يرون ان شأننا قليل بالفعل؟ لم نكن ، في تصوري ، ضيوف مساء طارئين ما دمنا مدعوين ، ولا بدّ ، اذن ، أن في الأمر شيئاً قصد به مسّ كرامتنا . قد لا تقيم أنت أي وزن لاعتبارات من هذا القبيل ، وقد تسخر من هواجسي أو تجد أن لا لزوم لها . أما أنا ، في وضعي ذاك ، فقد وجدتني مستفزاً ، كما وجدتني مدفوعاً لعمل ما يصون كرامتنا ويحفظ مقامنا بوصفنا معلمين يستحقون معاملة أفضل . ومهما يكن من أمر ، فاني مددت يدي الى الطبق بحركة وئيدة ، وأخذت لقمة واحدة ، وهذه يسمّونها «حرمة الزاد» ، ثم أحجمت عن الأكل ، في حركة احتجاج سافرة . أما صاحباي فلم يفطنا لشيء فانكبا على الطعام ونالا منه كفايتهما . ودارت القهوة من جديد فتكرر رفضي لها .

مرة أخرى ، لم يؤخذ الشيخ بردّ فعلي ، إلا أنه ، وقد استخلص دون شك مغزاه ، وجه إلي الخطاب مباشرة لاول مرة منذ قدومنا : «هل الاستاذ بدوي؟» . كان في نبرة سائلي ما يشي بأن الشيخ يريد ان يتحقق من أني ، انا نفسي ، قد ادركت مغزى المعاملة التي اتلقاها في مضافته . ووجدتني ، على غير عادتي ، محمولاً على المفاخرة : «انا فلاح ، ابن عشيرة كبيرة هي

كل اهل البلد!». لماذا تباهيت بما لا أعدّه أبداً سبباً للتباهي؟ أأغلب الظن أني أردت أن أبين للشيخ مقدار الخطأ الذي يرتكبه حين يستهين بي. ولم تطل السهرة بعد ذلك. تعللَ الشيخ بحاجة تدعوه الى الانصراف، وكنّا نحن متعبين. ولو لم نكن في منطقة عسكرية يتعذر التنقل فيها في الليل لما بتّ في الشقيف. وفي الصباح، لم يجيء الشيخ الى المضافة حتى بعد أن أعلنّا أننا عازمون على الإنصراف، ولم يعرض أحد علينا أن نأخذ الخيول، فتوجب علينا ان نتم المشوار الى البطيحة على الاقدام. وحين صرنا في باحة الدار، ظهر الشيخ للحظة ليقول لنا: «مع السلامة»، وافترقنا.

هذا كلّه رويته في دار أبي وليد في القنيطرة عندما زرته في الأسبوع التالي. وقد استغرب ابو وليد، هو الآخر، مسلك الشيخ، وقال إنه يعرف عوض المعيش معرفة حميمة، فالرجل مضياف وكريم وعارف باقدار الناس والمجاملات التي يستحقونها، فلا بدّ ان يكون ثمة سبب وجيه حمله على معاملتنا على هذا النحو. ولم يترك أبو وليد الحكاية لتمرّ دون تمحيص. فترقب الشيخ حتى قدم الى القنيطرة وفاتحه في الأمر فاتضح كل شيء.

كان توجهنا الى غير مضافة الشيخ هو أول ما ساءه من سلوكنا، غير أنه كان مستعداً لطيّ هذه الغلطة على أساس أننا لا نعرفه من قبل. أما ما لم يستطع الشيخ طيّه فهو معاملتنا السيئة لخيوله. كانت أفراس الشيخ معروفة لأهل المنطقة التي عبرناها في الذهاب والإياب. وقد ساء هؤلاء أننا ارهقنا الخيول بالطراد وخصوصاً أثناء صعود التلال. فتطوع منهم من سبقنا وأبلغ الشيخ ما ساءه. فأرسل الشيخ ابنه الذي يدرس في مدرستنا ليضمن استعادة الخيل للتو، لأنه خشي أن نتابع المشوار بها الى تل الأعور فنزيدها ارهاقاً. وإذا كان الولد قد فاه بما أوحى لنا بأننا مدعوون من قبل والده، فلا بدّ انه فعل ذلك لخجله منّا. وقال أبو وليد كل ما يلزم لتطييب خاطر الشيخ. واقر الشيخ لأبي وليد بأن سلوكي في مضافته دفاعاً عن كرامتي استحوذ على إعجابه.

وبعد أيام من اللقاء بين الرجلين ، وقبل أن أعرف وقائعه ، فوجئت وأنا في الدار في تل الأعور بخيالة مقبلين نحو الدار والشيخ عوض يتقدمهم ممتطياً الفرس الشقراء التي سبق لي أن امتطيتها . ومع أني ما كنت قد تحررت من تأثير المعاملة التي لقيتها في مضافة الشيخ ، فقد وجدتني أرحب بقدومه ترحيباً حاراً لا بدّ أن يكون مبعثه تأثري بمبادرته لزيارتي وإعجابي الشديد بقصة حياته التي كنت قد استقصيت تفاصيلها بعد لقائي الأول به . أما هو فقد تصرف بالبساطة التي تعكس كبر شخصيته ودهاءه . وقال قبل أن يجلس : «لم تأكل في داري ، فجئت إليك مع وجهاء المناذرة لنأكل في دارك ، وعليك أن تقرّ : من هو الأكرم؟» ، فاحنيت رأسي ، وقلت : «لك ، عندي ، هذه ، يا أصيل!» .

منذ ذلك الوقت ، نشأت بيني وبين الشيخ ، مع فارق العقود السبعة بين عمرينا ، صداقة فريدة ، فظل يزورني كلما سمحت ظروفه ، ودأب علي أن يرسل لي هدايا منتقاة ، عسلاً مجتنى للتو ، او فطوراً نادرة ، او طيوراً برية صادها بنفسه ، أو أي شيء من هذا القبيل ، مما يعكس المودة الخاصة التي يحملها لي . ودأبت من جهتي على زيارته ، فكنت أذهب الى المضافة ، حاملاً توقي للشيخ والهدايا التي اجلبها من المدينة ، واحظى فيها بأطيب حديث وأكرم صحبة .

ناس آخرون تعرفت عليهم في تلك السنة . فإن تزايد الاهتمام بالبطيحة حمل كثيرين على البحث عن فرص للارتزاق فيها . وكان أبو داغر ، وهو صاحب المسمكة الدمشقي الذي ساعدته في الحصول على حصة من سمك البطيحة ، قد رتّب شؤونه مع الصيادين الذين يتعاملون معه ، فأوكل الى أبي حمدان مهمة متابعة هذه الشؤون ، وصار يجيء الى المنطقة لنقل السمك . وكانت عند أبي داغر سيارة من نوع «بك أب» اكل الدهر عليها وشرب ، دون ان تفقد قوتها . وقد تميزت هذه السيارة بصوتها المجلجل والدخان الكثيف الذي يطلقه العادم فيدلان على قدومها قبل أن تقع العين عليها ، وكان بين السيارة وصاحبها شبه غريب ، فصوت ابي داغر يجلجل مثل سيارته وغليونه الكبير دائم الاشتعال لا يكف عن

اطلاق دخانه حيثما يحل الرجل . والحقيقة اني لم اندم على مساعدتي لهذا التاجر ، فقد اتسم سلوكه كلّه باريحية جعلته اقرب الى سلوك الصيادين منه الى التجار . عني ابو داغر بالظفر بالسمك الجيد ، ولم يعنه ان يجيء ربحه بعد ذلك قليلاً أو كثيراً ، وصادق كل الذين تعاملوا معه ووضع نفسه في خدمتهم ، فصارت سيارته التي تذهب محملة بالسمك لا تعود الا وهي طافحة بالاشياء التي طلب منه الاصدقاء جلبها لهم . وكان هو يصر على توصيل كل حاجة الى طالبها في منزله . وكان ابو داغر ، الى هذا ، خفيف الدم ، قادراً على نشر المرح في المجالس . ولما كان ابو حمدان خبيراً بإعداد اشهى الوجبات من السمك الطازج الذي عاد اليه ، فقد كثرت المجالس التي كانت تجمعنا بوجود أبي داغر والعرق الفاخر الذي يجلبه الرجل من منزله في دمشق ليشربه مع أصحابه في البطيحة .

في ذلك الوقت ، طرأ جديد كاد يبدل مجرى حياتي . فقد استدعيت لأداء الخدمة العسكرية ، لأن انقطاعي عن الدراسة سنة بكاملها حرمني من حق تأجيل الخدمة الذي يحظي به المنتسبون الى الجامعة . وكانت السلطات السورية قد قررت ، قبل الوحدة ، أن تشمل الخدمة الإلزامية في الجيش ابناء الفلسطينيين المقيمين فيها . وعندما أُبلغ إليّ الاستدعاء ، ذهبت الى دمشق ، واتبعت شتى الاختبارات ، فتقرر تجنيدي للخدمة غير المسلحة بسبب عور العين ، وسجلت للالتحاق بكلية ضباط الاحتياط التي كانت تخرج المجندين من حملة الشهادة الثانوية برتبة مرشح ضابط . وطلب مني أن أبقى على استعداد لتلقي اشارة الالتحاق بالكلية في أي وقت . وكان من حسن التصرف أني لم أقدم استقالتي من العمل ، بل آثرت أن ارجيء تقديمها الى ما بعد وصول هذه الإشارة .

لا شك في أن مشاعري بازاء هذا الاستدعاء تضاربت بغير استقرار . فالخدمة في الجيش ، والتزيي بزيّ الضباط والظفر بما يظفرون به من امتيازات كانت اموراً شديدة الغواية لفتى في سني . ثم إن تجنيد الفلسطينيين لإتاحة الفرص لهم كي يتدربوا على السلاح كان من بين ما شاركت في المطالبة به منذ كنت صبياً ، وما أكثر ما هتفنا نحن

الفلسطينيين في المظاهرات : جنّدونا! جنّدونا! غير ان ما كنت أعرفه عن القسوة التي يعامل بها المجندون وغياب المنطق في التعامل بين شتى الرتب ، فضلاً عن حكاية تجنيدي غير مسلح ، أضعفت حماستي وجعلتني أجري مقارنة ، بين وضعي القائم الذي آلفه واحبه ووضع مرشح الضابط الذي سأكونه ، فيرجح ميلي الى الوضع الاول . ولنقل إن حسنات الخدمة في الجيش وسيئاتها تقابلت في داخلي وتصارعت ، وكنت أعرف أن لا بدّ ، على كل حال ، من هذه الخدمة . ولما جاءت الاشارة الموعودة فأوجبت عليّ ان اراجع شعبة تجنيدي فوراً ، حملتني سيارة أبي داغر بضجيجها ودخانها الى دمشق . وانستني العجلة أن أترك استقالتي عند مدير المدرسة ، فقررت أن أودعها في ادارة التعليم في رئاسة الأونروا في العاصمة . لكن مفاجأة هامة كانت في الانتظار ؛ فقد اخبروني في شعبة التجنيد عندما توجهت اليها في الصباح أن قراراً جديداً صدر قبل يوم واحد فصرت بموجبه معفىً من الخدمة إعفاءً تاماً ، وكان ذلك هو القرار الذي منع تجنيد العور . وطويت هذه المسألة ، بالنسبة لي ، الى الأبد ، وواصلت العمل حيث كنت .

هذا كله كان يجري وأنا غارق في مجراه فيزيدني انشداداً الى هذه البقعة من الأرض وشؤون ناسها ويوطد احساسي بأني موجود حيث يطيب لي أن أكون . ولو لقيتني في تلك الفترة من حياتي لصعب عليك ان تصدق أنك بإزاء غريب جاء الى المنطقة قبل أقل من عامين ولتوهمت أني نشأت وصرفت معظم سنوات عمري فيها . والحقيقة أن كل ما فيّ صار يؤكد انشدادي الكامل للمحيط الذي انا فيه ، تبدل مظهري الخارجي كلية في البطيحة . فصرت اعتمر الحطة السلك ذات اللونين الابيض والاسود ، وانتعل الجزمة طويلة الساق ، وألبس في أغلب الاوقات سراويل الخيّالة . وقد لوّحت شمس الغور بشرتي فصار لها لون الحنطة ، وصلبت كثرة التطواف عضلاتي فصار لي تلك القامة الصلدة التي يتميز بها النشطاء من شبان الفلاحين . وقد اتقنت لهجة أهل المنطقة فصرت لا استخدم غيرها في حديثي معهم . وتبدلت أوجه سلوكي الاخرى ،

فصرت أشرب الماء زرنقة ، واغترف اللقم الكبيرة من الطبق المشترك وأكورها باصابع كفي واجيد قذفها ناحية البلعوم . وألفت السهر المديد في بيوت الشعر والاخصاص والمضافات حيث يلتف الساهرون حول بكارج القهوة المصفوفة فوق مناقل النار ويديرون بينهم أحاديث رخوة وأخرى جادة ، ساعات وساعات ، دون ملل .

ونمت لديّ في هذا الجوّ هواية الإصغاء الى الربابة والاستماع الى الزجالين وهم يقصون على انغامها شتّى الحكايات القديمة والمعاصرة . وتعلقت بواحد من هؤلاء اسمه ابو عناد . وهو رجل قارب الخمسين . كان أبو عناد يسعى في النهار في شؤون المعيشة وينصرف في الليل الى ربابته ، يستقبل المستمعين في منزله في الطواحين او يزورهم في منازلهم حين يستضيفونه . حفظ ابو عناد ما يحفظه سواه من أزجال وإيقاعات وتميّز عن الآخرين بمقدرة فذّة على الإرتجال . عرفني على شاعر الربابة ، هذا ، ابو احمد الصرصور ، فتعلقت به منذ عرفته ، صرت أتصيد السهرات التي تنتظم حوله ولا يفوتني أن أحضر واحدة منها ، على الاقل ، مرة كل اسبوع . كان أبو عناد فقيراً لكنه لا يأبه بالامر ، فهو من النوع الذي لا يتطلع لأكثر من زاد يومه ، ويكفي أن تتوفر السجاير حتى يطيب مزاجه وتتفتح القريحة . ولم يكن هذا المفتون بموهبته يقبل العطايا من اهل منطقته ، ولكنه ألِف مني ، كما أَلف ذلك من ابي احمد ، أن أجيء ومعي هدية ، وان تكون الهدية ، غالباً ، مما يمكن اعداده للاكل . وها أنا ذا أتذكر مرة تشاورت فيها مع أبي أحمد حول سهرتنا القادمة مع الربابة وما ينبغي ان احمله معي . وكان أبو أحمد ، هو الآخر ، في مزاج طيب فأرادها سهرة مجلجلة . واتفقنا على ان يدعو أبو أحمد الى دار أبي عناد عدداً من السمّيعة المختارين . وتكفلت بأن أجلب من أجل السهرة بضعة ديوك حتى يتوفر للجميع عشاء دسم . وابلغ أبو أحمد الدعوة للاصحاب ، لكنّا في بحثنا المتواصل لم نظفر بغير ديك واحد ، فحملنا الديك وحملنا كمية من الأرز ، ليتضح ان عدد المحتشدين في انتظارنا قد قارب العشرين وكل منهم متشوق للطبق اللذيذ الموعود . هذا الوضع اوقعني في الحرج ، وأخذ

حرجي يزداد مع اقتراب موعد تقديم الوجبة التي كانت ام عناد منصرفة لإعدادها . فلما جاء طبق الأرز وليس عليه الا هذا الديك ، بلغ حرجي ذروته . شاعر الربابة هو الذي بدد حرجي ؛ فقد ارتجل زجلاً تكررت فيه لازمة «ديكك يا سيد فيصل» وغناه ففتن مستمعيه ، ثم ارتجل ازجالاً أخرى ، كانت كلها عن الديك ، وغناها على ايقاعات متعددة ، حزينة او مرحة ، جادة او ساخرة ، وظل يرتجل حتى صاحت الديوك الحية دون أن يفطن احد لانقضاء الوقت . وهكذا عوضنا ديك الفن الذي افاض ابو عناد في ذكر أوصافه ومزاياه عن ديك الواقع الذي لم يسمن ولم يُغنِ احداً من جوع . وشاعت الحكاية في الغور ، وحفظ الناس أزجال أبي عنَاد المبتكرة وصاروا يرددونها كلما اقتضت ذلك أي مناسبة ، وصار ذكر «ديكك يا سيد فيصل» في أي مجلس كناية تشير الى نقص الطعام فيه عن حاجة الحاضرين .

هذه الهواية نمت لديّ بجانبها هواية اخرى : ركوب الخيل . ولعلك ما تزال تتذكر حديثي عن عشقي للخيل وأنا طفل في المسمية الصغيرة . هذا العشق هو الذي تفجر بعد طول كبت ، منذ حللت بالمنطقة وصرت أرى فيها الخيل والخيّالة غادين رائحين . وقد وثِق عشقي للخيل علاقتي مع رجل من عشيرة الشمالنة يقيم في بيت شعر ينصبه على منبسط قريب من مكان اقامة المعلمين ويقتني فرساً زرقاء اصيلة ، وهم يطلقون صفة الزرقاء على الفرسِ البيضاء ، ويطيب له أن يسميه أصحابه «خيّال الزرقا» ويعتز بذلك اعتزازاً كبيراً . أدرك هذا الخيّال مدى هيامي بالخيل منذ عاين ردّ فعلي حين وقع نظري على الزرقاء أول مرة . وتحقق من الأمر عندما رأى أني اتقصد زيارته واتفقد الفرس بعناية وأسأل عن أحوالها بالتفصيل . وقد أفادني الدرس الذي استخلصته من تجربتي مع خيول الشيخ عوض المعيش ، فادركت أن الخيّال الحقيقي لا يحترم أي خيال يهمل الخيل . وكانت الزرقاء ، على اصالتها وقوتها الخارقة ، قد روضت على أتم وجه وبمنتهى المحبة ، فصارت تستجيب للعناية وتلين إزاء الحنان ، فتغدو ، مع مَنْ يتقن التقرب اليها ، مطواعة ، سلسة الحركة ، دقيقة الاستجابة لرغبات

فارسها . وكان هذا يجعل الطراد بالزرقاء متعة لا تعادلها الا متع قليلة اخرى . وقد أباح لي صاحبي ، صاحب الزرقاء ، بعد بضعة تجارب مرضية له ، أن استعير الفرس واذهب بها الى حيث اريد ؛ لم يطلب على ذلك اجراً او مكافأة ، ولم يضق بطلباتي المتكررة لاستعارتها . وكان يطيب لي أن أستعير الفرس التي اطلقت عليها من عندي اسم عزيزة واتجول بها في المنطقة بغير هدف محدد أو أزور المدارس التي تقع في المناطق المجاورة . وصار معروفاً عني اني ، حين احلّ مع عزيزة عند أي مضيف ، لا أستقر قبل أن أطمئن على راحتها في مربطها ووجود العلف الكافي لغذائها وتوفر الماء النظيف لشربها . وكنت في طريق العودة بالفرس ، خصوصاً في أيام الحرّ ، اتوقف عند أي نبع ماء وأغسل عزيزة بنفسي وأعتني بها ، وأنظف كل بقعة في بدنها ، وخصوصاً في حنايا البدن حيث يتكاثف العرق ويجتذب الحشرات المزعجة . وقد عزز هذا كلّه ثقة صاحب الفرس بي وشجع آخرين على إعارتي خيولهم حين تكون عزيزة مشغولة مع صاحبها أو في وضع لا يسمح لها بالسفر . وانتهى أمري مع عزيزة الى أن عرضت على صاحبها شراءها منه فأبى الرجل أن يفرط بزرقائه . فلما الحفت في الطلب ، قبل صديقي ان يشركني بحصة من الفرس فصار لي ربعها . وهذا يعني ، عملياً ، أنه صار لي الحق في الحصول على ربع ما تنجبه عزيزتي من أمهار . وتعهد صاحبي ، إمعاناً منه في اكرامي ، بأن يكون أول مهر تنجبه عزيزة من نصيبي .

ومع استغراقي في شؤون البطيحة ، أخذ اهتمامي بما يجري في العاصمة يغيب ثم لا ينبثق من جديد إلا مع الأحداث الكبيرة الطارئة أو حين أجيء الى العاصمة والتقي أصحابي فيها . وكدت أنسى وأنا في البطيحة الواجبات التي يضعها على عاتقي كوني ما أزال عضواً في عرب فلسطين . ولم يحدث أن حاولت تجنيد احد للتنظيم . أما حكاية انتسابي السريع لحزب البعث فقد نسيتها .

لا يعني هذا أني صرت خالي البال من الهم السياسي أو الهم الاجتماعي العام ، فقد كان من المتعذر أن يغيب أي منهما ما دمت في

هذه المنطقة التي تقف اسرائيل ازاءها ويفتك نظام الاقطاع وما يقترن به من مظالم بناسها. كانت اسرائيل أمامي جداراً شاخصاً أراه كل الوقت. كان خطر اسرائيل ماثلاً، ليس، فقط، من خلال وجودها ذاته القائم على اغتصاب وطني، بل، أيضاً، من خلال النشاط اليومي او شبه اليومي الذي يطال المنطقة التي أعيش فيها. كانت سلطات دولة الوحدة، كما غدوت تعرف، قد حرصت على عدم التحرش باسرائيل او اعطائها أي ذريعة للاعتداء على الجبهة السورية. وكان البديري والشاعر وغيرهما ممن التقيتهم من الضباط الفلسطينيين ما يفتأون يتحدثون بامتعاض عن مدى تشدد العقيد المصري عبد المحسن ابو النور في الزام الوحدات السورية إلزاماً صارماً بعدم الانجرار الى الاستفزازات الاسرائيلية. والواقع أن عدد الاشتباكات على الجبهة، عموماً، قد قلّ في ضوء هذه السياسة وإنْ تميّز ما كان يقع منها، بين وقت وآخر، بالحدة والاتساع وكثرة عدد الضحايا.

في البطيحة بالذات، اختلف الأمر. فقد توفر هنا سبب دائم لإطلاق النار الذي يبدأ غالباً من ناحية اسرائيل. هذا السبب ارتبط بالصيد في البحيرة الذي تحظر اتفاقية الهدنة على الجانب السوري استثماره وفق تفسير الاسرائيليين لهذه الاتفاقية. كان هذا الحظر غير واقعي ما دامت قرى سورية عديدة قائمة على شاطىء البحيرة وما دام ناسها لا يملكون وسيلة أخرى للارتزاق سوى الصيد. كان الصيادون على هذه الناحية يتسترون بالظلام فلا ينزلون الى الماء إلا في الليل. فكانت قذائف الرشاشات التي تطلقها الزوارق الاسرائيلية تخترق هدوء الليل، على الدوام، تقريباً، تفعل ذلك حين يستشعر الاسرائيليون حركة الصيادين على الشط، أو من باب الاحتياط كي تخيفهم فتمنعهم من النزول الى الماء. وحين تنطلق الرشاشات العمياء فتنهمر قذائفها فوق السهل، يصبح كل انسان في السهل معرضاً للخطر، وخصوصاً أولئك الذين يفتقرون لأي وقاية ممن يسكنون الأخصاص وبيوت الشعر او ممن يلجئهم حرّ الغور الى السمر في الأماكن المكشوفة. هذا الحال غشّى ليالينا بالقلق وألزمنا الحذر الدائم، فكنا نتجول على حذر، وننتقي اماكن سمرنا في البقع التي تتوفر

لها وقاية ما من قذائف الرشاشات ، كأن يحميها من ناحية البحيرة تل او جدار منزل أو ما شابه ذلك . وحين ننام ، كنّا نختار لمضاجعنا أركان الحجرات التي تجعلنا بمنأى عن المفاجآت . والى هذا ، ظل علينا أن نتسلح باليقظة إزاء الاحتمالات الأخرى ، نتوجس من هجوم مباغت أو عمليات تسلل الى خلف الخطوط الاولى يقوم بها جنود العدو لغرض او آخر وان نتسلح للمواجهة . وبوصفنا عناصر في الجيش الشعبي ، كان علينا ، حين يزيد اطلاق النار عن الحدّ المألوف أو تتوفر نذر تشي باحتمال هجوم مباغت ، أن نحمل اسلحتنا ونتوجه الى المواقع الدفاعية المخصصة لنا .

وقد ألفت ألا اسير في ليل البطيحة الا وبندقيتي معي وحواسي متنبهة . وها أنا أتذكر ساعة من اقسى ساعات عمري داهمني فيها الخوف حتى اوقف شعر رأسي بالمعنى الحرفي للكلمة ، لا لشيء إلّا لأني كنت مفرط الحساسية ازاء أي نأمة شاذة استشعرها في الليل . كنت قد شهدت سهرة مرحة بصحبة أبي أحمد عند عازف الربابة في الطواحين . ولما حان موعد الانصراف ، وجدتني وسط ظلام مطبق على الأرض والسماء ، فتوجب أن أخوض في الوحول دون أن أرى موقع قدمي . ولما صرت وحدي بعد أن ودعني أبو أحمد ، واصلت التخويض في الوحل على الدرب الصاعد نحو تل الأعور . وفجأة ، التقطت أذناي نأمة غريبة ، دبيباً يشبه دبيب عدة أقدام . وتوجست شراً وتنبه كياني كله . حاولت أن أفسّر طبيعة هذا الدبيب فلم أهتد لتفسير قاطع ، فتوقفت لأفكر في ما ينبغي عمله ، فإذا بالدبيب يتوقف هو الآخر . وكان في هذا ما يخالف أي تفسير افترضته . وانتظرت في موقفي لحظات . فلما لم اسمع الصوت الغريب ، اقنعت نفسي بأني كنت واهماً . لكنني ما إن تابعت سيري حتى عاد الدبيب ذاته بالرتابة ذاتها ، فتوقفت ثانية ، وجهزت بندقيتي محاذراً أن يصدر عنها أي صوت . وفي غضون ذلك ، اختفى الدبيب ، مرة أخرى . وهكذا ، صار أني كلما توقفت غاب الصوت الغامض لينبثق من جديد كلما عاودت السير . فسكنتني الهواجس ، وبلغ خوفي درجة شنيعة ، وأحسست بشيء غير عادي يشد جلدة رأسي ويوجعني ، فتفقدت الرأس

لأجد أن شعره قد انتصب مستقيماً كالإبر .

كانت تلك ساعة من ساعات الهول ، لا تنسى ؛ مع أن الأمر ، كما تبينته في نهاية المطاف ، كان أمر حمار نسي أصحابه إيواءه في تلك الليلة الباردة . ويبدو أن الحمار نفسه توجس شراً عندما سمع وقع خطواتي وأنا مقبل ناحيته ، فصار يهرب مني حين أقترب منه ويتوقف حين أتوقف . وقد فاتني عندما استعدت الطمأنينة أن اتفقد شعر الحمار . وأنا لا اعرف حتى الآن إنْ كان شعر البهائم يقف عندما يداهمها الخوف أم لا .

لقد طبع القلق المتواصل أنفسنا بطبائع خاصة ما أزال أحمل بعضها حتى اليوم . فأنا قادر ، حتى حين اكون في عزّ النوم ، على التقاط أي نأمة شاذة مهما ضؤل وقعها . كما أني قادر على استعادة صحوي التام والشروع في أي عمل لحظة استيقاظي من النوم ، مهما طالت ، أو قصرت ، المدة التي نمت خلالها . وما زال من الممكن أن أوقظ من النوم في أي وقت وبأي وسيلة دون أن يزعجني هذا أبداً ، ودون أن يحول الاستيقاظ الطارىء بيني وبين العودة الى الاستغراق في النوم من جديد .

ومن الاوقات الأكثر هولاً والتي تعرضت خلالها لخطر حقيقي ، وليس متوهماً ، أتذكر تلك الساعات التي قضيتها مرة بصحبة مصباح البديري على ضفة نهر الاردن في ليلة يشبه قتامها الليلة التي وقف فيها شعر رأسي . لقد ألفَ قائد السرية الصديق أن يقوم بدوريات ليلية بين وقت وآخر ليتفقد الكمائن بنفسه ويطمئن الى يقظتها ، وحدث أكثر من مرة أن صحبت مصباح كما صحبت غيره ، في الدورية ، دون ان يقع حادث يذكر ، وكان هذا يمتعني ، كما كان يعزز سمعتي التي أحرص عليها بوصفي عنصراً مقداماً في الجيش الشعبي ومعلماً متميزاً . وفي الليلة التي أحدثك عنها ، بدأنا ، مصباح وأنا ، تحركنا مع حلول المساء ، فركبنا حصانين من احصنة السرية وجئنا الى قرية المسعدية ، حيث تركنا الحصانين وبدأنا دوريتنا الراجلة . ومررنا بالكمائن المرابطة ازاء شاطىء البحيرة حتى وصلنا الى مخفر الحاصل القائم عند مصب النهر تماماً .

وهناك ، انعطفنا ، معاكسين مجرى النهر لنمرّ بالكمائن المرابطة على حافته ، الواحد تلو الآخر . وفجأة ، وفيما كنا في المسافة التي تفصل بين كمينين ، عنّت على بال مصباح فكرة جريئة : لماذا لا تعبر المخاضة متسترين بالظلام ونستطلع المنطقة المجردة القائمة على الجهة الأخرى والتي لا يؤذن لسكانها أن يجيئوا اليها في الليل . وكان الدافع الى هذه الفكرة ان قائد السرية الف ان يتلقى تقارير متضاربة عن مدى استخدام الاسرائيليين لهذه المنطقة في الليل وعن كمائن عسكرية يقيمونها فيها دون ان يكون لهم الحق في ذلك ، فشاء ان يعاين الأمر بنفسه . وقد استهوتني الفكرة ، لا لأني أحبّ تعريض نفسي للخطر ، بل لأن مشاركتي في هذه المهمة توفر لي سبباً خارقاً للعادة لإظهار شجاعتي وتعزز حاجتي الى الاحساس بالتميز .

كان الظلام تامّ الإطباق . وكان الهدوء المفعم بالنذر الغامضة يجلل المنطقة ، كما هي الحال عادة في المناطق التي يعرف الاعداء المتقابلون فيها أن كلا منهم يرصد الآخر ويتوقى أن يصدر عنه ما يكشف مكان وجوده . وقد اجتزنا المخاضة بأقصى ما نستطيع من تكتم فلم ينتبه احد لحركتنا ، فوصلنا الحافة الأخرى بسلام . ولم آبه لالام المفاصل التي هيجتها برودة الماء وزادها التوتر المكبوت هياجاً ، بل جهدت كي اتماسك وتبعت قائد السرية وهو يتسلل وسط نبات العليق وعيدان القصب ، مجارياً إياه في حركته المحاذرة ، وحريصاً على أن أشق طريقي دون احداث ضجّة . وقد نجحت في هذا ، إلا أني لم انجح في السيطرة على موجة العطاس التي داهمتني . ويبدو أن احد كمائننا هو الذي التقط الصوت ، وكان الكمين يجهل أنّا موجودان على هذه الناحية . كما يبدو أن المناوب في الكمين كان خائفاً أكثر من اللازم فنسي التعليمات المشددة ، وأطلق صلية من بندقية على الجهة التي جاء منها صوت عُطاسي . نار الكمين السوري قابلتها على الفور نار الكمائن الاسرائيلية التي اتضح انها منشورة على سفح تل المطلّة القائم في مواجهتنا . وهكذا وقعنا ، أو قل أوقعنا انفسنا ، بين نارين . وكان الشيء الحكيم الوحيد الذي نستطيع أن نفعله هو أن

نكفّ عن الحركة ونلبد بين النباتات وننتظر شروق الشمس ونعود الى الجهة الأخرى حين يصبح عبور المخاضة مسموحاً به . وهذا ما فعلناه ، ولك ان تتصور هول تلك الساعات وما كابدته خلالها انا الذي تضافر ضده خطر الرصاص المنهمر من كل الجهات وآلام المفاصل التي لا ترحم .

هذا الحادث تبعته عواقب مزعجة على اكثر من صعيد واحد . فقد خالفت الكمائن التي اندفعت الى اطلاق النار بغير رويّة التعليمات الواضحة المبلغة إليها ، فصار على قائد السرية أن يجتهد لإعادة الانضباط وما كان لهذا أن يتمّ دون أن يتعرض ناس الكمائن للعقوبات . وما كان من السهل على مصباح أن يعاقب هؤلاء الناس ما دام ، هو نفسه ، من المعترضين على التعليمات التي لم يقتنع بصوابها وما دام هو المتسبب بالحادث . أما الأصعب من هذا فتمثل في حاجة قائد السرية إلى شرح الأمر لرؤسائه . فلو أظهر الحقيقة كلها لتعرض هو نفسه للعقوبة بسبب اجتيازه للنهر ومجازفته بتعريض مدني مثلي لمهمة لم يدرّب عليها ، ولفرضت عقوبات قاسية على الآخرين ممن أطلقوا النار دون أوامر ؛ أما لو كذب فسيوجعه ضميره لأن الكذب يتعارض مع مفهوم الضابط الشاب عن الشجاعة .

والحقيقة أن مصباح الذي حاصرته هذه الملابسات الشائكة حزم أمره بسرعة وقرر أن يقول كل شيء ، لكنه اختار ان يقول ذلك لقائد الجبهة . وهكذا ، اتصل مصباح مباشرة بالعقيد جادو عزّ الدين وطلب مقابلة استثنائية . وهناك ، في مكتب الرجل المتعاطف مع الضباط الفلسطينيين ، عرض مصباح ما جرى كلّه ، وافرغ ما يختزنه من ملاحظات وانتقادات . وقائد الجبهة المتفهم هو الذي تدبّر الأمر على نحو خرج مصباح منه بسلام . وحين تجمعنا حول الراديو للاستماع الى نشرة اخبار الظهيرة ، وكان مصباح ما يزال في القنيطرة ، سمعنا بلاغ المتحدث الرسمي وهو يبلغ الى الجمهور أن قواتنا اليقظة تصدت لمحاولة تسلل اسرائيلية الى البطيحة ، وردت قوات العدوّ على اعقابها .

بعد هذا الحادث ، وقع حادث جديد اثيرت معه مسألة الانضباط مرة اخرى . فقد رأى راصد مناوب في مخفر الحاصل ، وهو من افراد الحرس الوطني ، امرأة تتجول بمفردها ، على مرمى بندقيته ، في الجانب الاسرائيلي ، قرب شاطىء البحيرة ، وهي تلبس زي الجنود الاسرائيليين . وجود هذه المرأة استفزّ الحارس البدوي اذ عدّه تحدياً لا تحتمله رجولته ، خصوصاً لأن المرأة برزت أمامه في عزّ الظهيرة وكانت تخطر فوق رمل الشاطىء دون تستر ، غير آبهة بوجود الجانب السوري . وكان أن أطلق هذا الحارس رصاصة واحدة سددها بترو فاصابت المرأة في مقتل . ولما رأى الحارس نتيجة عمله ، مدركاً أنه خالَف الأوامر التي جرى تشديدها منذ وقت قصير ، فكّر في عمل يخفف عنه المسؤولية إزاء رؤسائه ، وهداه التفكير الى اجتهاد فطن ، فقطع النهر وسحب جثّة المرأة لتصير في المنطقة المجردة العائدة للجانب السوري والتي يحظر على الاسرائيليين التواجد فيها . وطمع الحارس في الساعة الانيقة التي تحملها المرأة فانتزعها من معصمها ، ثم عاد الى مخفره . ولم يجد هذا الحارس الجرأة على إبلاغ ما جرى الى رؤسائه فاعتصم بالصمت وتواطأ مع زملائه في المخفر ، فصمتوا هم الآخرون .

وما هي إلا ساعة أو أقل منها حتى بدا وكأن القيامة قامت في المنطقة المواجهة لمخفر الحاصل . فقد ظهرت الحوامات الإسرائيلية كما ظهر المشاة بكثافة غير معهودة ، ونشط الجميع في حركة محمومة . وانتهى الأمر بأن وجد الباحثون عن المرأة جثتها . وصدر عن المتحدث باسم الجيش الإسرائيلي بلاغ يعلن أن زوجة الملحق الجوّي البريطاني في اسرائيل لقيت مصرعها على شاطىء بحيرة طبريا بمواجهة مخفر سوري اطلق عليها النار وهي تتنزه . ولم يوضح البلاغ السبب الذي حمل المرأة الغريبة على التنزه في منطقة كفت الطيور نفسها عن التنزه فيها ، ولا ذكر حقيقة ان المرأة كانت تلبس زي الجنود . تلقى مصباح اتصالاً عاجلاً من قيادة الجبهة التي كانت القيادة العامة للجيش تطالبها بايضاح ما جرى . وذهب مصباح بنفسه الى مخفز الحاصل ، فانكر حراسه جميعاً ان يكونوا ، من جانبهم ،

قد فعلوا أي شيء غير عادي ، أو لاحظوا شيئاً على الجانب الآخر . وصدر عن المتحدث الرسمي باسم الجمهورية العربية المتحدة بلاغ يرد على بلاغ الناطق الاسرائيلي وينكر الواقعة جملة وتفصيلاً . لكن مراقبي الهدنة الدوليين اكدوا الواقعة ، بعد أن عاينوا بأنفسهم اثار سحب الجثّة على الارض .

وجاءت المخابرات العسكرية وباشرت تحقيقاً مستفيضاً . وفي البداية ، تمسك مطلق الرصاصة بروايته الأولى ، فلما حوصر بالوقائع التي لا يمكن نكرانها أقر بأنه اطلق الرصاصة لكنه جزم ، ولا ادري لماذا فعل ذلك ، أن مَنْ برز أمامه كان رجلاً وليس امرأة ، واقسم انه رأى في منظار البندقية شاربيّ الرجل بوضوح . ثم جاء الدليل القاطع حين عرف المحققون أن زوجة الحارس تحمل ساعة القتيلة وتتباهى بها . واقتيد الرجل الى «فيق» وحول الى المحكمة العسكرية . وتلقى العقيد عبد المحسن أبو النور تقريراً جديداً اضافه الى ملف مصباح البديري الذي تزايدت التقارير السلبية ضده ، مثلما تزايدت التقارير المماثلة ضد الضباط الفلسطينيين الآخرين .

هنا ، ينبغي أن أقول لك إن حماس أهل المنطقة للوحدة ولزعامة عبد الناصر بقي ظاهراً ومتغلباً ، غير أن شيئاً ما ، غامضاً أحياناً وملموساً أحياناً أخرى ، راح يشوب هذا الحماس . فأوساط النخبة ، سواء من السكان او الوافدين ، كانت تتلقى تأثيرات الانتقادات المتعددة المتداولة في المدن ، على نحو أو آخر ، فتقبلها أو ترفضها وينشغل بالها بها في كل الاحوال . وجمهور الفلاحين كان يتأثر بهذا ، ويتأثر اكثر بالدعاية المثابرة التي تبثها السرايا ضد ما لا يوائم مصالحها من اجراءات العهد الجديد . وانضاف الى هذا تأثير ثورة لبنان التي اشتعلت ضد حكم الرئيس كميل شمعون بعد استدعائه للجنود الامريكيين . لقد دعمت الجمهورية العربية المتحدة هذه الثورة ومدتها بالمال وكذلك بالرجال . واجتذب رجال السلطة عدداً من الفلسطينيين وأرسلوهم للقتال في لبنان ، في سياق هذا الدعم . وكان رد فعل الناس ايجابياً في البداية ، لكنه لم يلبث ان اخذ يتبدل عندما سقط عدد من ابناء المنطقة ضحايا . وكان من هؤلاء ابنٌ شاب لشيخ عشيرة

القديرين ، حسين المعجل ، ابو فخري ، الذي سبق له أن فقد ابناً آخر متطوعاً في الجيش . وعرف الذين اجتذبهم الراتب المغري مقدار المخاطرة التي يتعرضون لها في بلد بعيد لا يعرفون احواله ولا يملكون دافعاً شخصياً للقتال مع طرف منه او معاداة طرف آخر . ولما تطورت العداوة بين نظام الجمهورية العربية المتحدة ونظام الزعيم عبد الكريم قاسم في العراق ، ودعمت السلطات معارضي الزعيم وراحت تمدهم بالمال والعتاد على غرار ما فعلت في لبنان ، جاء رجال السلطة من جديد وعرضوا اغراءات كثيرة بهدف اجتذاب الناس وارسالهم في مهمات نقل المعونات الى العراق ، فلم يجدوا استجابة . وقد اتخذ التحريض ضد التورط في العراق مظاهر علنية في بعض الحالات ، حتى ان مصباح البديري ، بالرغم من انه ضابط في جيش الدولة ، اخذ يزور مخاتير العشيرتين الفلسطينيتين ويحثهم على رفض الذهاب الى البلد الذي لا ناقة ولا جمل لاتباعهم في الاضطرابات الواقعة فيه .

كنت ألمس هذه الامور بتأثيراتها وأصدائها في البطيحة وأطلع على تفصيلاتها حين أزور القنيطرة ودمشق واتجادل بشأنها مع الاصحاب ، هنا وهناك ، وأغالب تأثيرها عليّ لاحتفظ بحماستي للوحدة واعجابي بعبد الناصر . واللافت للنظر في الأمر أن الإعلام الرسمي ، الذي هو الإعلام العلني الوحيد ، دأب على الربط التام بين الوحدة وعبد الناصر ، فجعل الولاء لأي منهما ولاءً تلقائياً للآخر وصور المعارضة لأحدهما معارضة للآخر . وكان هذا الإعلام مفرطاً في الأذى وهو يعدّ أي انتقاد لإجراءات السلطة دليلاً على العداء للوحدة ذاتها .

وكنّا نقترب من العطلة الصيفية حين تلقى مصباح البديري أمراً بالانتقال وطلب منه أن يلتحق فوراً بعمله الجديد قائداً لكتيبة من كتائب الحرس الوطني ترابط فوق ، في المنطقة المشرفة على بحيرة الحولة . ولم يكن نقل الضابط الكفيّ من موقع قائد سرية في الجيش النظامي الى قائد كتيبة في الحرس الوطني ترفيعاً ، كما بدا في ظاهره ، بل كان عقوبة . وكان هدف العقوبة هو عزل هذا الضابط عن المنطقة المكتظة بالسكان

المدنيين واشغاله بقيادة كتيبة حديثة التشكيل واغراقه في شؤونها في منطقة تكاد تخلو من المدنيين . ثم لم يلبث ان تلقى نزار باكير آغا قرارا بانهاء خدمته في الاحتياط ، فتوجب عليه أن يعود الى ادلب . وقد حل في قيادة السرية ملازم أول شاب لا اتذكر اسمه ولم تقم بيني وبينه أي علاقة ، لانه تعمّد الا يحتك بالمدنيين وتصرف كعسكري محترف لا شأن له بأي شأن غير عسكري . ومحل نزار ، حلّ مرشح ضابط متخرج للتوّ من كلية ضباط الاحتياط ، وهو شاب دمشقي جاء الى البطيحة مفتوناً ببذلة الضابط ومؤملاً أن يجد في الريف الحياة الفاتنة التي تصورها أغاني الاذاعة وساعياً لاغتراف اكبر قدر ممكن من متع هذه الحياة . وقد بدا هذا الشاب جاهلاً جهلاً تاماً بأحوال الفلاحين ، ناهيك بالبدو ، وعاداتهم وهمومهم ، وغير معني بأن يتعرف عليها .

لا شك في أن ما جرى لصاحبيّ مصباح ونزار قد ساءني وأن استيائي اشتد حين لم يعوض اللذان حلا محلهما ما كان لصديقيّ من حضور ايجابي . غير أن الأمر لم يبلغ بي حدّ الاعتراض على الوحدة او استبدال ولائي لعبد الناصر بالمعارضة . وكنت ، مثل كثيرين غيري ، اعدّ السلبيات التي اشهدها اخطاء صغيرة حين نقارنها بالأهمية القصوى لوجود الوحدة واستمرارها وانسب الكثير من هذه السلبيات الى الأخطاء التي يقع فيها ناس النظام وليس لزعيم هذا النظام .

ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى العام الدراسي وأنا ما أزال مستغرقاً في الكثير من المشاغل والعلاقات في البطيحة ومنشدّاً اليها ، فلم اطلب الانتقال من المدرسة . وإذا كنت قد تعجلت المغادرة فلكي أحضّر نفسي في دمشق لامتحانات سنتي الأولى في الجامعة . وكان العام كله قد انقضى دون أن القي ولو نظرة عابرة على الكتب المقررة . وقد منّيت نفسي بأن أتدارك الأمر في دمشق .

٦

قمع وتزوير انتخابات وأمزجة متباينة

ضمتني شقة ملفينا من جديد . وشملتني العجوز التي يطيب لها ان اعدّها اماً لي برعايتها المنظمة ، واحتواني حدبها الذي لا يفتقر الى الحنان لكنه لا يبلغ حد التدليل . وراحت الدمشقية العريقة تعمل بهمة لا تعرف الكلل او الملاينة لتعيدني الى الحياة المدينية وتلزمني باتباع آداب السلوك التي كدت انساها .

وكنّا قد صرنا في أواخر أيار / مايو ، وبقي لي ما لا يزيد عن خمسة أسابيع لأدرس المواد التي سأمتحن فيها . وبالرغم من ضيق الوقت ، كنت واثقاً من قدرتي على النجاح في المواد كافة الا واحدة ، هي هذه الجغرافيا اللعينة التي لا أتذكرها إلا تعكر مزاجي لكثرة ما سببت لي من ازعاجات خلال حياتي التعليمية كلها . ولست ادري لماذا أُقحمت هذه المادة على منهاج سنة الثقافة العامة في كلية الآداب ، كما لا أعرف فائدة واحدة سيجنيها طالب مقدم على التخصص في احدى اللغات من دراسة التضاريس وحفظ مواقع البلدان ومعرفة تركيب التربة والصخور فيها .

وكانوا في الجامعة ، بعد التعديلات التي أدخلت على أساليب التعليم ، في عهد الوحدة ، يعطون للطالب الحق في الترفع إلى سنة أعلى اذا لم ينجح في مادة او اثنتين ، ولكنهم يستثنون طلاب سنة الثقافة العامة ، وحدها ، من هذا الحق . فلم يتيسر لي الهرب من مكابدة دراسة الجغرافيا لأن الفشل فيها يعني ضياع سنة كاملة بعد أن ضاعت عليّ ، كما تعلم ، سنة سابقة لافتقاري الى رسوم التسجيل . وقادني كرهي للجغرافيا الى وضع خطة دراستي على أساس أن أركز في الاسابيع الخمسة على المواد التي أضمن النجاح فيها منذ دورة الامتحانات الاولى ، فيتوفر لي وقت كاف لمجالدة الجغرافيا وأتقدم للامتحان فيها في الدورة الثانية التي تنعقد في نهاية الصيف . ولما لم يكن الاحتباس في المنزل ملائماً لطبعي التواق أبداً للانطلاق ، فقد تخيّرت أماكن أخرى ، بجانب المنزل ، أدرس فيها وألقى الاصحاب وأمارس الفعاليات الاخرى التي تفتنني .

وكانت رابطة الطلاب الفلسطينيين التي اجتازت سنة كاملة منذ تأسيسها قد انتقلت من مقرها الصغير الأول إلى دار من الدور القديمة الفسيحة في زقاق الزهراء المتصل بسوق الصالحية ، في مكان وسط بين ساحة عرنوس وساحة الجسر الابيض . وهذه الدار مكونة من خمس حجرات وصالة داخلية مسقوفة تتوسط هذه الحجرات وفناء خارجي مكشوف تكتنفه وتظلله أشجار ليمون ونارنج وياسمين وتتصدره حجرة منعزلة تصلح للخلوات . وكانوا في الرابطة قد أعدوا المقر الجديد في موسم التحضير للامتحانات ليستوعب عدداً كبيراً من الطلبة الوافدين من خارج المدينة او المقيمين فيها ممن لا يتوفر لهم في أماكن سكنهم الجو الملائم للدراسة . فصرت أذهب الى المقرّ في الأصباح فاجلس في حجرة المكتبة أو أنتحي ركناً في الفناء او انفرد في الحجرة المنعزلة بواحد من الزملاء حين احتاج لمعونته . وفي أوقات بعد الظهر ، كنت أذهب الى الجامعة التي تحولت أركانها وفسحها الى أماكن للدراسة . وكان مكاني الأثير هو مبنى نادي الطلاب حيث تمكن المذاكرة في أرجائه المشكوفة او المسقوفة دون حاجة للامتناع عن التدخين ، وحيث يمكن ، أيضاً ، تبادل شتى انواع

الحديث مع الاصحاب . أما الأماسي فجعلتها للنشاطات العامة او الترويح عن النفس .

على هذا النحو ، انفقت الاسابيع الخمسة الاولى من العطلة ، وأديت الامتحانات الشفهية والتحريرية مدركاً اني سانجح فيها . وهذا ما برهنت عليه النتائج عندما أعلنت بعد حين . ولم يبق أمامي الا التحضير لمادة واحدة . وقد توفرت لي أوقات حرّة كثيرة ، وكان أمامي شهران بكاملهما قبل أن تنتهي العطلة .

في هذين الشهرين ، تفرغت لشتى انواع النشاطات التي أهواها . وقد ينبغي أن ألفت نظرك الى أن أجواء العاصمة كانت قد تبدلت تبديلاً ظاهراً عما الفته من قبل . فقد اتسع التذمر من سلوك أجهزة السلطة . وكان لكل فئة من الناس ما تشكو منه ؛ فاليساريون يشكون بطء السلطة في تطبيق التدابير التقدمية التي تقررها ، واليمينيون يشكون من وجود هذه التدابير . والموالون للسلطة يشكون ما يعدونه تراخياً منها في مواجهة المعارضة ، والمعارضون يشكون قسوة السلطة ازاءهم . وفي الأوساط التي احتك بها اكثر من غيرها ، كان غياب الديمقراطية ، وهيمنة أجواء القمع ، والبروز الظاهر لدور المنافقين والانتهازيين في مؤسسات الدولة ، وتكريس مظاهر عبادة الفرد هي المواضيع التي يشكو منها الجميع . وكان البعثيون ، بعد ترددهم بين موالاة النظام ومعارضته قد حزموا أمرهم وانتقلوا ، كلية ، الى صفوف المعارضة ، فانضموا ، بذلك ، الى الشيوعيين والنشطاء من ناس الاحزاب والفئات الأخرى ، ولم يبق في ساحة الولاء للسلطة ، بجانب المنافقين ومنتهزي الفرص ، الا القوميون العرب الذين كثرت اعباؤهم وهم يتصدون للدفاع عن النظام .

وكان الذين اعرفهم من البعثيين الفلسطينيين قد ألفوا أن يلتقوا بنظرائهم السوريين والعرب الآخرين المقيمين في دمشق في مجالس تنعقد في الرابطة أو في نادي الجامعة او في مقهى الكمال الصيفي . وفي هذا المقهى بالذات ، انتظم أهم مجالس البعثيين اليومية . وقد ألف رواد هذا

المقهى الذي يكتظ بطالبي الراحة فيه ، أن يروا واحداً أو أكثر من قادة البعث الشهيرين وهم يتوسطون المجلس ويستقطبون الاهتمام . وقد وجدتني منجذباً لحضور مجلس البعثيين هذا مفتوناً بالأحاديث التي تدور فيه . وبهذه المواظبة اتسعت علاقاتي بهذا الوسط . ولا أبالغ لو قلت لك إني تعرفت في ذلك الصيف على مئات البعثيين من مختلف المستويات ، وأنشأت علاقات وثيقة مع الفلسطينيين منهم على وجه الخصوص .

ولكي تعرف هذا الجوّ الذي كان سائداً ، عليّ أن أقول لك إن قلة ، فقط ، من البعثيين كانت تشكك بجدوى استمرار الوحدة وتجهر بالقول إن العلاج الوحيد الممكن لمعالجة ما يرونه من تردي الوضع هو فك الوحدة والتخلص من الزعامة الطاغية لعبد الناصر . وكان الزعيم غير المنازع لهذه القلة هو اكرم الحوراني الذي استقال من منصبه بصفته نائباً لرئيس الجمهورية العربية المتحدة وتفرغ للتحريض ضد زعامتها . أما أغلبية البعثيين فكانت تنطلق من التأكيد على أهمية استمرار الوحدة وتدعو الى توطيدها ، وتطرح دعوتها لمعالجة السلبيات باعتبار أن هذه المعالجة هي التي تقوي الوحدة وتجتذب اقطاراً عربية أخرى اليها .

وفي الرابطة ، أو قل بين نشطاء الرابطة ، حقق البعثيون حضوراً كبيراً ، ولئن لم يشكل اعضاؤهم اغلبية الاعضاء العددية ، فإن تأثير نشاطاتهم وأفكارهم كان هو الغالب . وقد تعزز وضع البعثيين في الرابطة بانتقالهم إلى المعارضة في الدولة . وكما لا بدّ أنك تعرف ، فإني أميل الى المعارضة في أغلب الأحوال . وقد كان هذا هو شأن معظم الطلاب . وما من شيء يستطيع أن يجتذب الطالب بمقدار ما يجتذبه النشاط المعارض للسلطة . وكان نشطاء الرابطة من البعثيين والقوميين العرب قد أجروا اتصالات مثابرة مع أقرانهم في الروابط الطلابية الفلسطينية التي أنشئت قبل ذلك في القاهرة والاسكندرية وبيروت واتفق الجميع على تأسيس الاتحاد العام للطلاب الفلسطينيين فصارت الرابطة ، بهذا ، فرعاً للاتحاد العام . وكانت فئات الطلبة كلها غارقة في نشاط دائب للتحضير للانتخابات التي تقرر أن تجري وشيكاً لاختيار هيئة الفرع الادارية ومندوبيه الى المؤتمر العام .

ووجدتني مستغرقاً ، ايضاً ، في هذا النشاط ، وموزعاً بين البعثيين الذين يتوقعون تأييدي لمرشحيهم وعرب فلسطين الذين ما ازال انتمي اليهم .

أما في المصبغة ، او الجورة ، التي لم اتخلّ عن عادة الجلوس فيها ولم تكفّ حواراتها عن اجتذابي ، فكان الجوّ فيها قد تبدل ، هو الآخر . فقد نالت الجورة حصتها من التبدلات التي طرأت على الجوّ العام كلّه ، وانضاف الى هذا سبب آخر ، خاص . ذلك أن الحيّ كان يضم عدداً من السياسيين ورجال الاحزاب المحظورة فكثر وجود رجال الأمن الموكلين بمراقبة هؤلاء . وقد ألف رجال الأمن ، حين يتعبون من الوقوف الطويل او يتوقون لكأس شاي ، ان يتسللوا الى الجورة فيظفروا بالراحة والشراب المنعش . وكان من شأن ذلك أن قلل فرص الحوار الطلق في الجورة ، كما قلّل عدد المترددين عليها وقصّر فترات مكوثهم فيها . بالرغم من ذلك ، ظل من الممكن أن ألتقي أبا وليد وأجير الدكان الناصري المتحمس وروّاد الجورة المواظبين ، كما ظل من الممكن ان نقتنص أوقاتاً لا يثقل علينا فيها المراقبون ، فنتحدث بطلاقة .

كان ابو وليد ما يزال على ناصريته ، كما يقول هو نفسه ، إلا أنه ما كان يجاري الناصريين في هجومهم على خصوم النظام . وقد اختطّ صاحب المصبغة ، الذي يكدح بيديه من الصباح الى المساء ، لنفسه خطّة ميزته عن الناصريين المتعصبين ، فهو لا ينكر السلبيات الماثلة للعيان ، ولا يعيب على المعارضين انتقادهم لهذه السلبيات ، لكنه يبرىء عبد الناصر ذاته من المسؤولية ، ويعتقد أن الذين يتحملون المسؤولية هم المحيطون بالرئيس الذين يخفون عنه الحقائق ، ويمنّي نفسه وسامعيه بوقت سيجيء ويعرف عبد الناصر فيه ما يجري من وراء ظهره ويعاقب المتسببين به . والحقيقة أن هذه كانت فكرة متداولة بين جمهور الموالين لعبد الناصر ممن صدمهم التباين بين الآمال والواقع ، فشاعت على نطاق واسع مقولة الرئيس النزيه والبطانة الفاسدة ، أو الزعيم العادل والأعوان المتجبرون . أما أجير المصبغة الشاب فكان حماسه لعبد الناصر ما يزال على اشدّه ، فظل يؤيد كل ما يجري ، بما في ذلك أعمال القمع وكم الافواه التي يرى فيها اجراءات ضرورية لمنع

أعداء الرئيس من ايذائه . وقد أقفل هذا الناصري المتعصب عقله تماماً وانطلق من اعتقاد لا يتزعزع بأن الزعيم لا يخطىء وان للزعيم الحق في ان يفعل ما يشاء وليس على المواطنين إلا أن يفوضوا امرهم له ، فالزعيم يعرف مصلحة المواطنين ويعرف ما يلائمها من اجراءات اكثر مما يعرف المواطنون انفسهم . وقد وطدت نفسي على ان آخذ هذا المتحمس على قد عقله ، فصرت اتجنب الخوض في أي حوار جاد معه ؛ وحين احاوره لا يكون ذلك الا بهدف التفكّه او استفزازه ليدلي بآرائه الفجة المسيئة لعبد الناصر نفسه فيشتبك مع ناصري آخر من الحضور . وكنت أنا ، بالذات ، اكثر مَنْ يستثير هذا الشاب ، لا لشيء الا لحمله على الافصاح عن ارائه لأدلل أنا بها ، في محاججاتي مع الآخرين ، على مساوىء التربية السياسية التي تقوم على تأليه الفرد . وأما الحاج نجدت فكان قد انتهى الى ما يشبه البطالة التامة بعد ان ادى تردي العلاقات مع الاردن والعراق والسعودية الى توقف شاحنته عن السفر . وقد ظل الحاج ، كما كان ، سيّد المجلس القادر على اتحاف مستمعيه بالتفاصيل الكثيرة التي يستقيها من الوسط الذي ينتمي اليه اخوه . إلا أن النغمة القديمة التي خفتت لبعض الوقت عادت لتسيطر على موقف الحاج وحديثه . فالاحزاب كلها ، كما يرى الحاج ، والسياسيون كلهم يتقاتلون على المنافع الشخصية ليس غير ، أصحاب المبادىء منهم والانتهازيون ، الشيوعيون والبعثيون والناصريون والاخوان المسلمون ، وكذلك المستقلون ، جميعهم ، يقولون كلاماً معسولاً ويقومون بأرذل الأعمال ويتوخون أحط الاهداف ، وكل واحد من هؤلاء يتآمر على الآخر ، حتى في الصف الواحد يتآمر الرفيق على رفيقه ، ويستخدم الواحد منهم الآخر من اجل مصلحته ، ملاكو الارض ، وكبار التجار ، ومستثمرو الأموال يراقبون الناصريين ويشجعونهم على الوقوع في مزيد من الأخطاء ليضعفوهم ويحلّوا محلهم ، والشيوعيون يعارضون لأن موسكو تحثهم على ذلك وتدفع المال لزعمائهم ، والبعثيون انتقلوا الى المعارضة لأن الناصريين لم يمكنوهم من ملء جيوبهم ، وعبد الناصر يستخدم معاونه عبد الحميد السّراج لكمّ الأفواه في سورية فيتحمل

السراج سوء السمعة وينجو عبد الناصر منها ، والسراج يستخدم ميزته الناصرية ليقوي نفوذه في سورية ويستأثر بالسلطة لنفسه وأعوانه . يقول الحاج هذا كله ويفسر ، في ضوئه ، ما يجري في البلد ، ثم يضيف : «فاسدة ، هي فاسدة ، هكذا كانت وهكذا ستظل ، أنتم تتعبون أنفسكم ، لكن بلا فائدة» . وبعد كل حديث من هذا النوع ، كان الحاج يتوجه الي وعلى وجهه ابتسامة يضيء معها طاقم اسنانه الصناعية الجديد ، ويسألني : «ما هي اخبار بعثييك؟» ، يطرح السؤال بنبرة تنطوي على التلميح بأنه يدرك أني منجذب الى هؤلاء . كان الرجل يحبني ويعزني ويتمنى أن لا أتورط بالانتساب الى أي حزب ، لكنه لا يعبّر عن رأيه إلا تلميحاً ، وكنت أبادله المحبة والاعزاز ، لكني أرى أنه غير محق في الركون الى اليأس ، فلا أتأثر برأيه .

وأما السائق السوري القومي فقد صار يتهيب المجيء الى الجورة منذ عرف رجال الامن طريقهم اليها ، واذا جاء فلقضاء حاجة ، وهو يقضيها ، عادة ، وينصرف دون كلام ، فإذا تكلم اكتفى بالقول إن الانسان لا يأتمن أحداً في هذه الأيام . والحاج داود ، عامل البلوك ، الذي اختفى منذ اشتدت ملاحقة السلطة للشيوعيين ، لم يظهر ثانية ولم يسمع أحد عنه شيئاً .

تنظيم عرب فلسطين ، هو الآخر ، تبدلت أحواله ، فقد هجره كثير من اعضائه ، وحل آخرون ، جدد ، محلهم ، ولم يبق من الفرسان القدماء الا هايل وأنيس وصبحي ومازن ومحمود السلطي ومحمد زعيتر . كان هايل قد عبر فاجعة شخصية تمثلت بوفاة أمه المقيمة في غزة في اليوم ذاته الذي كان فيه يستعد للسفر من أجل زيارتها هناك . وكان أنيس الذي ظفر بالشهادة الثانوية وعمل معلماً وكيلاً بأجر قليل يتطلع الى الظفر بوظيفة معلم في احدى دول الخليج كي يتمكن من إعالة نفسه ومساعدة أسرته الفقيرة التي ضحت بالكثير من اجل تعليمه . أما صبحي فكان قد ظفر بوظيفة في الأونروا وأصبح معلماً في مدرسة السنابر التي يفصلها عن البطيحة مسافة يقطعها الخيّال في ساعتين . وأما مازن فكان ما يزال موزع

النفس بين توقه المتعجل الى الظهور ومقتضيات العمل السري في التنظيم . والحقيقة ان طغيان المدّ القومي العربي في تلك الفترة قد عرض تنظيم عرب فلسطين للزعازع وأضعف منطقه . وقد جهد هؤلاء الفرسان القدماء ومَنْ بقي معهم من أعضاء كي يحتفظوا بوجود التنظيم وسط هذه الزعازع ، ويسّر لهم وجود الرابطة ، او فرع الاتحاد ، فرصة جديدة للحركة فانكبوا عليها وركزوا جهودهم للظهور كقوة مستقلة وسط القوتين الكبيرتين : البعثية والقومية العربية . ويمكن القول إن الأعمال الكثيرة التي تطلبها تثبيت وجود الرابطة وتأسيس الاتحاد العام وفرت متسعاً للجميع .

نشاط آخر جرى في ذلك العام فاستقطب اهتمام الطلاب وغير الطلاب من نشطاء الفلسطينيين ، وذلك هو تأسيس الاتحاد القومي الفلسطيني في سورية ؛ او الاقليم الشمالي للجمهورية العربية المتحدة ، هذا الاتحاد تقرر انشاؤه ، على غرار الاتحاد القومي العربي الفلسطيني الذي أنشىء في قطاع غزة ، وكلاهما أُنشىء على غرار الاتحاد القومي العربي المصري ، أي بمبادرة من السلطات . وفي عرب فلسطين ، وكنت آنذاك الرئيس الشهري المناوب للدزينة ، حزمنا أمرنا على خوض هذه الانتخابات . كنّا نعرف مقدار قوتنا ، وأدركنا أن من المتعذر علينا تشكيل قوة كبيرة داخل الاتحاد على نطاق سورية كلها أو حتى على نطاق مدينة دمشق ، فتحدد هدفنا بأن نوصل الى المؤتمر العام مَنْ يحمل صوتنا . وهكذا اخترنا منطقة واحدة من المناطق الانتخابية العديدة في دمشقٍ وركزنا نشاطنا كلّه فيها . وكان على كل منطقة أن تنتخب عشرين مندوباً يمثلونها في المؤتمر العام . وكان من الطبيعي أن يتركز نشاطنا في منطقة الأليانس التي سيصوت فيها الفلسطينيون المقيمون في الحيّ اليهودي وما يحيط به من مناطق دمشق القديمة .

عرض علينا القوميون العرب في هذه المنطقة التعاون معهم ، على أن يعطونا مقعداً أو اثنين في قائمتهم . أما البعثيون فقد تجنبوا أن يكرروا التجربة الفاشلة التي تعرضوا لها في الاتحاد القومي العربي السوري ، فلم يدخلوا في المنافسة دخولاً كاملاً ، بل اكتفوا بترشيح واحد من اعضائهم

في كل منطقة ، واحد فقط ، بهدف تأكيد الوجود ، ليس غير ، والاستفادة من المعركة الانتخابية لبثّ آرائهم بين الجمهور . وقد عرض البعثيون علينا ، ايضاً ، التعاون ، وكان مرشحهم في منطقة الاليانس هو محمد خليفة الذي كان ، آنذاك ، طالباً في الجامعة ومدرساً في الأونروا وعضواً نشيطاً في قيادتي رابطة الطلاب ورابطة المعلمين الفلسطينيين . طرف ثالث عرض التعاون مع عرب فلسطين هو صبحي ياسين . كانت لهذا المجاهد الفلسطيني الذي يقطن في حي العمارة قريباً من منزل هايل سمعة طيبة ؛ فقد انتمى ، وهو بعد فتى صغير ، لحركة القسام الشهيرة ، ثم شارك في ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ وانخرط في النشاط الوطني العام منذ ذلك الوقت ، وبرز اثناء اقامته في سورية واحداً من نشطاء الفلسطينيين ضد مشاريع توطين اللاجئين ، وأقام صلات ما مع الاجهزة المصرية التي أشرفت في الخمسينات على إدارة عمليات الفدائيين الفلسطينيين الشهيرة داخل اسرائيل ، وحاول أن يفعل شيئاً لتنظيم عمليات مماثلة تنطلق من سورية ، ثم صار ناصرياً متحمساً وبقيت له صلة ما بالاجهزة المصرية . وقد سبق لصبحي ياسين أن أصدر كتاباً وثّق فيه ، بأسلوب بسيط ، وقائع ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩ . وفي خاتمة هذا الكتاب ، عرض صبحي ياسين خطة مختصرة لتحرير فلسطين ؛ قوام الخطة هو تأسيس ما سماه فرقة فدائية ضاربة من خمسة وعشرين ألف مقاتل مدرّب . وقد أعجبنا الكتاب واجتذبتنا الدعوة الى تأسيس هذه الفرقة ، فقمنا بتوزيعه والترويج للخطة الواردة فيه ، وتوثقت صلتنا بمؤلفه ، فصرنا نتزاور ونتشاور حول الشؤون العامة باستمرار .

وعندما اجتمعت الدزينة لمناقشة العروض الثلاثة ، ملتُ أنا وعضو آخر هو محمود السلطي الى التعاون مع البعثيين على أساس أن لنا ولهم هدفاً متماثلاً هو ايصال الصوت الى المؤتمر العام وليس السعي للاستئثار بعدد كبير من المقاعد ؛ ومال آخرون الى التعاون مع القوميين العرب على أساس أن نجاح قائمتهم التي تدعمها السلطة مضمون . لكن هايل عارض الرأيين ودعم معارضته بحجج اجتذبت غالبية الأعضاء ، فالتعاون مع البعثيين

سيسمنا بسمة المعارضة بينما سيسمنا التعاون مع القوميين العرب بسمة الموالين للسلطة ، وليس لنا مصلحة في هذا أو ذاك . وهكذا قررنا أن نتعاون مع صبحي ياسين ونجتذب الى قائمتنا مَنْ يمكن اجتذابه من وجوه المستقلين في المنطقة . فعلنا ذلك ونحن نعلم أن عبد الحميد السرّاج ، رجل الاجهزة الامنية النافذ ووزير الداخلية في الإقليم الشمالي ، لا يرتاح لصبحي ياسين ، بل يضيق بما يفعله هذا الفلسطيني المقيم في سورية ، حين يتخطى الأجهزة التي يشرف الوزير عليها ، ويقيم علاقة مباشرة مع الأجهزة المصرية . وبالتشاور مع حليفنا صبحي ياسين ، شكلنا قائمة ضمّته هو وواحداً من أصدقائه وثمانية من تنظيمنا ، كما ضمت عشرة آخرين انتقيناهم من الذين قبلوا التعاون معنا وكانوا ، جميعهم ، من الشبّان .

في هذه المعركة الانتخابية ، نظمنا حملة دعاية واسعة ، فطبعنا بياناً حوى أفكارنا وبرنامجنا ووزعناه في المدينة ، وليس في منطقتنا الانتخابية وحدها ، واجرينا زيارات متتابعة ، واقمنا حوارات مع مجموعات الشبّان والشلَل الموزّعة هنا وهناك . وجارينا منافسينا المقتدرين فنظمنا مهرجانات خطابية عامة عقدناها في باحات الدور التي يقطن فيها أعضاء التنظيم او على الأسطح . وها أنا أتذكر تفاصيل واحد من هذه المهرجانات هو الذي أقمناه على سطح السكن المشترك الذي يقطن فيه صبحي عرب ، في شارع الأمين ، بعد ظهر أحد أيام الحملة . يومها استأجرنا كراسي ، وحصلنا على ميكروفون وسمّاعات . فرحنا نبثّ دعايتنا ، خلالها ، قبل ساعات من موعد افتتاح المهرجان . وقد استفاد التنظيم من قدرتي الكتابية ، فلعلعت النداءات والشعارات المصاغة بلغة فخمة فهبطت من السطح على عابري الشارع ورواد الدكاكين وسكان المنازل المجاورة . فلما حان موعد الافتتاح كان عدد الناس الذين صعدوا الى السطح او تجمعوا في الشارع اكبر بكثير مما توقعنا ، وهذا ما افرحنا وأبلغ حماسنا الذروة .

في ذلك الوقت ، كان هايل قد صار هو الرئيس المناوب للدزينة فتولى القاء خطاب التنظيم الذي وقع عليّ عبء صياغته صياغة محكمة . ثم

توالى الخطباء ، فتحدث صبحي ياسين عن فرقته الضاربة ، وتحدّث واحد من المستقلين المنضمين للقائمة ، كما تحدثت فتاة لم اعد اتذكرها ، وإن كان لا بدّ أن تكون قريبة أحد أعضاء تنظيمنا . ولعبت أم صبحي عرب دوراً ذا شأن في المهرجان ، إذ إنها جمعت عدداً كبيراً من صديقاتها وجاراتها ، فضلاً عن بناتها الثلاث الصبايا ، فأضافت الى حماس الكلمات الحماس الذي هيجته أهاليل النساء وزغاريدهن الرنانة . أما صبحي نفسه ، فكان هو العريف ، وكان ، مثله مثل ابناء جيلنا ، يحفظ العديد من المقاطع الشعرية ليوسف الخطيب ، فراح يلقيها بين الفقرات . وقد حدث مرة أن ألقى صبحي صدر بيت ليوسف ، يقول : «انا خائن أنا مجرم غدّار» ، ثم نسي عجز البيت ، ونشأ موقف طريف ، فيما راح صبحي يردد هذه الأوصاف بأمل أن يتذكر بقية البيت ، دون أن يفلح . وكاد الموقف يتحوّل الى كوميديا ، لو لم يبادر أحدهم الى المعونة ويُسرّ في أذن العريف بما غاب عن باله . هنا ، اطلق صبحي المبتهج لخلاصه من الورطة حنجرته على آخرها : «حتى تعاد الى ذويها الدار» ، فانفجرت هتافات الحشد ، ولعلع صوت ام صبحي بأحلى زغرودة .

ولم نترك وسيلة معروفة في الدعاية الانتخابية الا اتبعناها . وها أنا ذا اتذكر أننا مارسنا حتى الرشوة ، وذلك بمعنى ما . وقد يجدر أن أقص عليك حكاية هذه الرشوة التي تندّرنا بها طويلاً . فقد كان في حيّ الامين رجل من آل ابو لبن اليافاويين اسمه ابو سمير . وبخلاف افراد العائلة الشهيرة الآخرين ، المتمتعين ، عموماً ، بالاحترام ، كان أبو سمير هذا أفّاكاً محترفاً ، وقد قاده تعاطي الحشيش الى الادمان ، فنبذ العمل ، وراح يتصيد فرص الحصول على ثمن الحشيش بأي وسيلة ، دون مراعاة لأي اعتبار ، فصار ذلك الذي يطلقون عليه في اللهجة الشامية وصف «بالوعة العائلة» ، وازداد تحلله من القيم ، وغاب عن حساباته الخوف من العواقب ، وانقطعت صلته بالعائلة انقطاعاً تاماً ، فتحول الى متشرد يجول في الحيّ ، يلغو في سير الناس ويبتزّ العطايا من الذين يهابون طول لسانه . وكان صبحي عرب ، القاطن في الحيّ نفسه الذي يتجول فيه أبو سمير ، اعرفنا بهذا المتشرد

طويل اللسان . ويبدو أن صبحي خشي أن يستخدم منافسونا أبا سمير ضدنا ، فشاء أن يكفّ أذاه عنّا ، فراح يمنحه بعض النقود او علب السجائر ، ويسترضيه . والظاهر أن الرجل أخذ بالعطايا وفُتن بأن تقدم له بغير طلب او استفزاز ، فعدّ نفسه من انصار قائمتنا ، فأخذ يمدح مرشحيها مضفياً عليهم ما هو صحيح أو غير صحيح من المزايا . ثم جاء يوم احتاج فيه صبحي لهذا الرجل فوجده على اتم الاستعداد . كان ذلك هو يوم اجراء الانتخابات ، فقد جاء عبد الحميد السراج الى مدرسة الأليانس لتفقد العملية الانتخابية الجارية فيها . وكنّا ، نحن أعضاء التنظيم ومَنْ يلوذ بنا من انصار ، كلّنا ، هناك . وقد لحظنا أكثر من إمارة تشي بأن السلطة عازمة على تزوير الانتخابات ، ورأينا ، رأي العين ، عناصر الأمن وهم يمارسون الضغوط على الناس كي ينتخبوا قائمة القوميين العرب . فلما عرفنا بوجود السراج ، توجه صبحي ياسين الى الحجرة التي كان هذا الوزير فيها عازماً على الشكوى من التزوير . وما كاد الشاكي يفوه ببضع كلمات حتى قاطعه السراج بفظاظة ووجّه له شتيمة علنية متهماً إيّاه بالكذب . فاحتدّ صبحي ياسين وأخذ يصرخ في وجه شاتمه ، فتقدم السراج ناحية الرجل وصفعه صفعة مدوية ، وسط دهشة الجميع ، ثم غادر الحجرة . كانت تلك إهانة أقسى من ان تبتلع وقد ارهبت كل من شهدها او سمع بها ؛ وكنّا أعجز من ان نردّها للوزير بمثلها . فلم نملك اكثر من أن ندور بين الناس ونهمس بأن السراج ما جاء الا ليتأكد من نجاح التدابير التي أعدها لإنجاح جماعة السلطة . في هذا الجو ، تذكر صبحي جاره غير الهياب ، فوضع في يده عشر ليرات كاملة ، وطلب منه أن يقف في مكان يطل منه على الحشد ويهتف منددا بالتزوير . وما تزال في ذاكرتي صورة أبي سمير ، وهو واقف بجسده البدين إزاء حشد الناس ، وصوته وهو يزعق : «الله أكبر! الله أكبر! يا خلق الله ، تزوّر ، تزوّر!» . اجتهد ابو سمير ان يستخدم هذه الكلمة الغريبة ، ظاناً انها هي اللفظة الفصيحة المعادلة للفظة تزوير التي ظن انها عاميّة . وكان أن أعطى هذا الحشاش لانتخابات ذلك اليوم أليق ما تستحقه من الاوصاف . وشاعت الكلمة بين ناس الحيّ وتندر هؤلاء بها

وظلوا يستخدمونها لسنوات طوال في وصف الانتخابات التي تنظمها السلطة .

ومهما يكن من أمر ، فإن عملية الإدلاء بالأصوات انتهت مع المساء ، فرضخ للضغط مَنْ رضخ ، وقاوم مَنْ قاوم ، ونجا من أفلت من عيون رجال الأمن المترصدة ، ثم بدأت عملية فرز الاصوات . وقد تابعنا الفرز بيقظة شديدة . وعندما أحصيت النتائج مع الفجر ، اتضح لنا ان اربعة من مرشحي قائمتنا فازوا بالعضوية ، وهؤلاء هم صبحي ياسين وهايل عبد الحميد ومازن الصرصور وعضو آخر في عرب فلسطين . واحتسبنا ذلك نتيجة معقولة توجت الجهود التي بذلناها بامكانياتنا المتواضعة ، وتبادلنا التهاني وتوجهنا نحو منزل صبحي ياسين الذي غادر مركز الانتخابات منذ اشتباكه مع السراج ، لنبلغ اليه النتيجة .

إلا أن الصباح حمل الينا مفاجأة جاءت بمثابة صفعة أطفأت حماسنا ، او قل : بددت أوهامنا بشأن هذه الانتخابات . ففي نشرة الأخبار الأولى ، في السابعة والربع ، وكنّا قد انتقلنا الى منزل هايل ، أذاع الراديو النتائج كما أعلنها وزير الداخلية ، فاتضح لنا أن اسم صبحي ياسين اسقط من بين اسماء الفائزين ، وحل محله اسم مرشح من جماعة السلطة التابعين للوزير . هذا الظلم الصارخ ، بما ينطوي عليه من استهانة بارادة الناس وقهر لهذه الارادة ، أثارنا ثورة كادت تخرجنا عن أطوارنا . وكان هايل أشدنا ثورة ، فاقترح ، بوصفه رئيس التنظيم ، أن يبادر الذين فازوا من تنظيمنا الى إعلان استقالتهم فوراً ، وأن يصارحوا الناس بأن الانتخابات قد زوّرت . وكان معنى خطوة كهذه التي اقترحها هايل أن ندخل في مجابهة مع السلطة وأن نتعرض ، ونعرض أنصارنا ، للملاحقة وقطع الأرزاق والتعذيب والسجن ، في وقت لن يقيم فيه معظم الفلسطينيين وزناً لتضحياتنا بسبب حماس الناس للوحدة وولائهم العارم لزعامة عبد الناصر وقلّة اهتمامهم بأن تكون الانتخابات مزورة او غير مزورة . وكنّا ما نزال منخرطين في مناقشة الاقتراح ، مع ميل واضح ، في ذلك الوقت ، للأخذ به ، حين ظهر صبحي ياسين بنفسه في منزل هايل . وما كان أحكم هذا الرجل في ذلك الموقف ،

فإنه هو الذي بادر الى تهدئة هايل وتهدئتنا! وقد تشبث المجاهد العتيق بمعارضة الاستقالة ، ودعم معارضته بحجة مقنعة : ألم نخض هذه المعركة بأمل أن يصل صوتنا الى المؤتمر العام دون أن نتوهم أننا سنحصل على مقاعد كثيرة؟ أليس بإمكان ثلاثة مندوبين أن يوصلوا هذا الصوت تماماً كما يوصله أربعة؟ إن خسارة مقعد واحد لا تشكل سبباً للدخول في مواجهة نعرف انها ستؤدي الى دمارنا . والحقيقة أن صبحي ياسين ، حتى وان كان قد خسر مقعداً في الاتحاد القومي ، قد كسب صداقتنا واحترامنا الدائمين له . ولك أن تحزر أن هذا المكسب كان مكافأة عادلة للرجل الذي تسلح بالصبر وغلّب ما رأى فيه مصلحة لدولة الوحدة على مرارته الشخصية .

بانتهاء معركة الانتخابات ، صار عليّ أن أتفرغ لدراسة مادة الجغرافيا كي اترفع الى السنة الجامعية الثالثة . وهذا ما شرعت به فور انتهاء المعركة . إلا ان انصرافي للدراسة لم يطل اكثر من بضعة ايام . فقد اقتنعت بأني عاجز عن هضم هذه المادة ، مهما بذلت من جهد أو خصصت لها من وقت . واستنتجت أن الأصوب هو صرف النظر عنها ، أي عن سنة الثقافة العامة كلها ، اي عن سنة اخرى تضيع من عمري الدراسيّ . وكان معنى هذا أن أصرف النظر ، أيضاً ، عن كلية الآداب . وبعد تردد لم يدم طويلاً عزمت على تسجيل نفسي في كلية الحقوق . وهكذا فوّتّ موعد الامتحانات دون أن أتعرض لمرارة المواجهة مع اسئلة الجغرافيا ، ورحت اترقب موعد التسجيل للسنة الجديدة . وقد كان الوقت في آخر يوم من أيام عطلتي ، فتعجلت الذهاب الى مكتب التسجيل . وعرفت وأنا واقف في صف الانتظار ان تعليمات جديدة صدرت فالغت سنة الثقافة العامة وجغرافيتها البغيضة . وقد اسعدني هذا ، وطلبت تسجيلي في قسم اللغة العربية وآدابها . غير ان موظف التسجيل افهمني أن الانتساب لهذا القسم يقتضي ، حسب التعليمات الجديدة ، وجود وثيقة تتضمن مفردات العلامات التي حصلت عليها في الشهادة الثانوية ، وذلك كي يتأكدوا من أن علامتي في اللغة العربية تؤهلني لدراستها في الجامعة . وكان ملفي يفتقر الى هذه الوثيقة ، اما الحصول عليها فكان

يقتضي أن أذهب الى وزارة التربية والتعليم وانتظر بضعة أيام للظفر بها. وسألت الموظف عن القسم الذي يمكن الانتساب اليه في كلية الآداب دون تقديم مفردات العلامات فتبين أنه القسم الذي يدرس طلابه الفلسفة وعلم النفس والمنطق وعلم الاجتماع، فطلبت تسجيلي فيه. ولم ادرك يومها، وقد قررت هذه الصدفة طبيعة دراستي الجامعية، أني ما تخلصت من دلف الجغرافيا الا لاقع تحت مزراب المنطق الذي كانوا يدرسونه في الجامعة بطريقة تهون معها الجغرافيا والطوبوغرافيا وعلوم طبقات الارض كلها. وقد عدت الى البطيحة غير آسف على شيء، الا على السنة الأخرى التي ضاعت من عمري الجامعي.

٧ نهاية مفجعة للسنة الثالثة في البطيحة

كما حدث في السنة الفائتة ، كنت في العام المدرسي ١٩٥٩-١٩٦٠ المعلم القديم الوحيد في المدرسة ، فقد انتقل الزملاء الثلاثة وحل ثلاثة جدد محلهم ، ولم تتخطني ادارة التعليم في الاونروا هذه المرة فعينتني مديراً للمدرسة . ولعل بين اسباب ذلك ان انتقال البعثيين الى المعارضة لقي هوى في نفس مفتش التعليم الذي يعدني من هؤلاء البعثيين .

وقد وصلت الى البطيحة معتكر المزاج بعض الشيء ، بسبب ما عرفته عن الوضع الدقيق الذي يواجهه الضباط الفلسطينيون . حدثني وليد وأبوه عن هذا الوضع . ولقيت بعض هؤلاء الضباط اثناء مقامي في دار ابي وليد في طريقي الى مكان عملي . ضاقت حلقة الرقابة على الضباط الذين لم تبدل الضغوط اطباعهم فطفحت ملفاتهم بالتقارير السلبية . ويبدو ان النائب المصري لقائد الجبهة كان قد حزم أمره ، وأنه بلور اقتراحات بعينها بشأن مصير هؤلاء الضباط وأرسلها الى القاهرة وراح ينتظر موافقة رؤسائه عليها . كما يبدو أن قائد الجبهة ، العقيد جادو عز الدين ، لم يعد قادراً

على توفير الحماية لمرؤوسيه الذين ألف ان يغفر لهم نزواتهم ويقدر كفاءتهم . اما الحامي القديم لهؤلاء الضباط ، الفريق عفيف البزرة ، فكان قد أبعد عن الجيش وصار هو نفسه بحاجة لمن يحميه . وفي البطيحة ، روى لي مصباح الذي خف لزيارتي وقائع لقاء ضمّه مع غريمه العقيد عبد المحسن ابو النور في مكتب قائد الجبهة . لقد واجه العقيد المصري النقيب الفلسطيني بالاتهامات المتجمعة ضده وضد زملائه والتقارير التي ترصد نشاطاتهم المشاكسة وألسنتهم الطويلة . وأظهر العقيد في هذا اللقاء صلفاً وفظاظة لم يحتملها النقيب ، فانبرى هذا لتفنيد التهم مثلما انبرى لتسويغ ما يردده هو وزملاؤه من انتقادات . واسمع الضابط المرؤوس رئيسه ما لم يتخيل هذا الرئيس العسكري البيروقراطي أن بامكان أحد أن يتفوه به أمامه . ووجه مصباح للعقيد ولمن يواليهم العقيد كومة من الاتهامات أكبر من تلك التي وجهها العقيد لمصباح وزملائه . وشملت غضبة مصباح العقيد الطيب جادو عز الدين . كان النقيب الفلسطيني يأخذ على العقيد السوري استكانته امام النفوذ الطاغي لنائبه وتهيّبه من مجابهة هذا النائب بما يستحق من حزم ، وهذا ما جهر به ، في اللقاء ، أمام الاثنين . وتحدّى مصباح رئيسيه كليهما ، المصري والسوري ، أن يحيلاه ، هو ، أو أياً من زملائه الى المحاكمة ، وجزم أمامهما بأنهما لا يجرؤان على ذلك ، لأنهما يعلمان أن المحاكمة ستتحول الى فضيحة . ولما نبهت مصباح الى أن ثورته هذه أمر غير مألوف في العلاقات بين الرؤساء والمرؤوسين في الجيش ، قال الشاب المعتزّ بكرامته إن ما قيل قد قيل وإنه غير نادم ، ثم أكد انه يعدّ تلك الايام أيامه الاخيرة في الجيش هو وأصحابه جميعاً . وقال مصباح ان العقيد المصري ثابر منذ تسلم منصبه في الجبهة على محاولاته لتطويع الضباط الفلسطينيين وحملهم على مجاراته في النفاق للسلطة ، فلما عجز عن ذلك ، ثابر علي جمع الأدلة ضدهم ، ما هو منها صحيح وما هو مفتعل ، ليتخلص منهم .

في غضون ذلك ، تم بناء القرية النموذجية ، قام على تل الأعور ومحيطه أربعون منزلاً حجرياً موزعة بين الدور الطينية والاخصاص وبيوت الشعر .

وقد ضمّ كل منزل حجرتين ومدخلاً ومطبخاً وحماماً، كما ضمّ قبواً حصيناً بحجم المنزل صالحاً لأنْ يستخدم مستودعاً مثلما هو صالح للاغراض الدفاعية. وعرف ليل البطيحة لأول مرة مصابيح الكهرباء التي شعت أضواؤها في المنازل الجديدة وتوزعت في الافضية القائمة بينها. وجاء النقيب الشاعر ليشهد الاحتفال بانتهاء العمل، فضمتنا خلوة دار فيها حديث ذو شجون. وقد أكد الرجل المهموم، باسلوبه الذي لا يترك مجالاً للمناقشة، على هواجس مصباح، وقال انها مسألة يوم وآخر وينتهي أمرهم في الجيش. كان هذا الفلسطيني القادم من يافا ذو الملامح التي تشي باصله المصري البعيد قليل الكلام، وكان من النوع الذي يحسب أقواله ويتحسب لعواقبها قبل أن يتفوه بها، حتى حين يتحدث أمام خلصائه، وكان أقل ثورة من مصباح، دون ان يكون أقل حزناً او يأساً. وبالكلمات القليلة التي نطق بها، رسم الضابط المهندس صورة كئيبة لمستقبل الوحدة ذاته: انهم يخلون الجيش من الضباط العقائديين، ويلاحقون التقدميين في كل مكان، فيخلو الميدان للانتهازيين والرجعيين وحدهم.

ومهما يكن من أمر، فقد كان أمامي في ذلك الوقت الكثير من العمل، وخصوصاً العمل المتعلق بالمدرسة. في المقدمة، كانت هناك مشاغل افتتاح العام المدرسي الجديد. وقد عزمت على تنظيم حملة واسعة لإقناع أرباب الأسر بتسجيل بناتهم للدراسة، هم الذين ألفوا ان يرسلوا الصبيان دون البنات. واقتضاني الأمر ان اقوم بزيارات متواصلة وأخوض مناقشات مضنية.

وكانت تلك، في الواقع، مهمة شاقة في مواجهة ناس لا يجدون أهمية كبيرة لتعليم الصبيان انفسهم. ثم جاء وقت الانتقال الى المبنى الجديد الذي خصص للمدرسة في القرية النموذجية. والواقع ان الظفر بمبنى جديد لم يحلّ الا بعض مشاكلنا. أما مشكلة ضيق المكان فبقيت على حالها. فالمبنى الجديد، لم يضم سوى أربع حجرات. مثله في هذا مثل القديم. وقد تركت امام المبنى مساحة فسيحة من الارض لتكون

باحة ، الا انهم لم يسووا وعرها ولم يسوروها ، مما يعني أن تصير المدرسة عرضة لغزوات الدواب وأن يتعذر استنبات أي شيء حولها . وعندما راجعت محمد الشاعر مستوضحاً عن سبب هذا النقص اتضح انه وقع سهواً ، وكانت الميزانية قد نفدت فلم يعد بالإمكان تدارك النقص . وتوجب أن نقوم نحن بالعمل ، دون ان يكون لدينا مال ، فرأيت أن نعتمد على التلاميذ والمتطوعين من الاهالي . وهكذا ، نظمنا حملة واسعة ، فكنا نبدأ العمل فور انتهاء الدروس ، فننزع حجارة الباحة ونفتت صخورها ، ونجلب الحجارة الملائمة من الحقول المحيطة وننضدها ، الى ان صارت لمدرستنا باحة مسوّاة وصار لها سور بارتفاع ثلاثة أرباع القامة ، كما صار للسور مدخل معتبر صنعنا له بوابة من فروع الأشجار . وأكملنا العملية بأن غرسنا شتلات السرو على محيط السور ، وشجّرنا الباحة ذاتها وأقمنا بين شتلات الشجر مساكب لاستنبات الخضار والزهور .

هذه العملية حرصت على أن أشرف بنفسي على تفاصيلها وأسهم بجهد بدني في مراحلها كلها . قمت بذلك ليس لأني أحب العمل اليدوي ، فقط ، بل لأضرب المثل للتلاميذ وأجتذب ذويهم الى المساعدة ، أيضاً . وعاونني في هذه العملية الآذن محمود الذي جاراني في الاندفاع الى العمل واشتغل بهمة مَنْ يبني منزلاً لنفسه . وقد أفادنا محمود باقتراحات كثيرة نافعة ، وساعدنا في حل المشاكل التي واجهناها . واحدة من هذه المشاكل كانت طريفة فضلاً عن انها خطيرة وابتكر لها محمود حلاً بدا لنا طريفاً . فالمنطقة الوعرة التي اقيمت المدرسة على أرضها تكثر فيها العقارب . هذه العقارب تتخذ من أفياء الحجارة والصخور مأوي تحميها من حرّ الغور ؛ فلم ننزع حجراً أو نقلب صخرة الا وجدنا تحته كميات من هذه العقارب . وقد شكل محمود فريقاً من التلاميذ انتقى هو أعضاءه وجعلهم يتابعون منتزعي الحجارة فيجمعون العقارب قبل تفرقها وينقلونها الى برميل وضعه في وسط الباحة . وفي آخر كل نهار ، كان البرميل يكاد يمتلىء بالحشرات القاتلة ، فكنّا نختتم عمل النهار بالاحتفال بإعدامها . وقد دلّنا محمود على طريقة للفتك بهذه الحشرات حولت احتفالاتنا الى

متعة يتلذذ بها الأولاد ويترقبونها كل يوم . كان محمود يصب كمية من الكاز ، الكيروسين ، فوق الأرض على شكل دائرة كبيرة ويكب محتويات البرميل وسطها ثم يوقد النار . وكان الاولاد يتحلقون حول دائرة النار هذه ويشهدون آلاف العقارب وهي تؤدي رقصة الموت داخل اللهب ، لائبة باحثة عن مخرجٍ في طوق لا فكاك منه . وبانتهاء العملية كلها ، هي التي استغرقت أسبوعاً ، كنّا قد طهّرنا منطقة المدرسة من عقاربها .

وفي النهاية ، حظيت مدرستنا بمقر له هيئة المدرسة العصرية حقاً ، وتزينت الباحة بشتلات السرو والكينا والزيتون ذات اللون الأخضر المتميز وسط القتام البازلتي الذي يدكن الارض حولها . أما حملة اجتذاب البنات الى المدرسة فاثمرت عشر بنات تسجلن في الصف الاول مفتتحات عهد تعليم الإناث في هذه المنطقة التي لا تفك فيها امرأة واحدة الخط .

لكن ، اذا كانت المدرسة قد ظفرت بمقرّ أفضل ، فان سكن المعلمين لم يتحسن . فمنازل القرية النموذجية الاربعون وزعت بمعرفة المخابرات العسكرية وفق انتقائها ، ولم يخصص منها منزل لهؤلاء المعلمين . وقد حاولنا ان نستفيد من مبنى المدرسة الجديد . ولما تعذر ان نخص انفسنا بواحدة كاملة من حجراته الأربع ، فقد قسمنا أوسع هذه الحجرات بحاجز من الخزائن وخصصنا أصغر القسمين لتلاميذ الصف السادس قليل العدد ، واستخدمنا القسم الآخر لمبيتنا ، مستأثرين ، بهذا ، بالمساحة التي كان من المفروض ان تخصص للادارة . وظل هذا الترتيب معقولاً ما دام الطقس دافئاً وصحواً ، أي ما دام بإمكاننا أن نستخدم ليوان المبنى والباحة لنشاطاتنا المنزلية المتعددة . فلمّا حل فصل الشتاء ، تعذر استمرار الاقامة على هذا النحو ، فعدنا الى المنزل الطيني الذي شغلناه في العام الفائت ، وفقدنا ، من جديد ، نعمة الكهرباء . لكننا دأبنا ، بالرغم من انتقال السكن ، على تمضية معظم اوقات النهار وجانب من الليل في مبنى المدرسة .

وكان شريكي في احدى حجرتي المنزل الطيني المعلم الجديد نايف

القاضي . هاجرت اسرة نايف من صفد وهو بعد طفل . وتعلم الطفل في دمشق الى أن ظفر بشهادة دار المعلمين الابتدائية ، وكان عليه ، وفق الانظمة الرسمية ، أن يخدم في مدارس الحكومة عدداً معيناً من السنين ، سنتين ونصف ، على ما اتذكر ، مقابل كل سنة قضاها في دار المعلمين ، الا انه تدبّر امره ، بطريقة ما ، فعمل مع الاونروا وأرسل الى مدرستنا . كانت لنايف ، فضلاً عن انه الوحيد بيننا الدارس لاصول التعليم ، شخصية جذابة من عدة نواح ، فهو جمّ الادب دون ان تنقصه خفّة الدم ، حسن السلوك دون تصنع ، وودود في تعامله مع الزملاء والتلاميذ والاهالي دون تهاون حين يتعلق الامر بمقتضيات الكرامة ، وهو ، الى هذا كله ، محدّث لبق ومستمع أريب . ولم يكن نايف شحيحاً في الانفاق على نفسه ، فتوافقنا ، هو وأنا ، ونظمنا حجرتنا بحيث صار فيها سريران ومذياع خاص بنا غير مذياع المدرسة ومكتبة . كما نظمنا أمورنا بحيث نحصل من القنيطرة ودمشق على مواد الطعام واللوازم الأخرى المفتقدة في البطيحة . وقد جلب نايف من دار أسرته الكبيرة الكثير من مواد المؤونة ، فتوفر لنا الزيتون باصنافه المتعددة ، وبضمن ذلك أفخرها ، والمقدوس ، واللبنة المغمورة بالزيت ، وكذلك الفواكه المعقودة بالسكر ، كما جلب العديد من الخضار المحفوظة . وكان من شأن هذه التدبير أن جعل امر اعداد وجباتنا أيسر ، وطيّب طعامنا ، ومكننا من إقامة ولائم متميزة ندعو اليها أصدقاءنا ومعارفنا من أهل المنطقة وزوّارها ، فنجعل علاقاتنا الاجتماعية ، نحن الذين كنّا ندعى الى الولائم ولا نتمكن من الدعوة اليها ، أكثر توازناً وأدعى الى الرضى .

في تلك السنة ، تعرفت على صنف جديد من مجاهدي فلسطين . فقد خصصت خمسة من منازل القرية النموذجية لخمس أسر وفدت من خارج المنطقة . ولأن المخابرات هي التي جاءت بأرباب هذه الأسر فقد ظن الناس ، في البداية ، بأنهم من المخبرين . هذا الظن عززه الغموض الذي أحاط بالقادمين الجدد وبطبيعة عملهم في المنطقة . وبعد أيام من قدومهم ، زارني اثنان من أرباب الاسر الوافدة ، أول الاثنين هو شهاب الأحمد الذي

اتضح أنه من وجهاء عشيرة المواسي الفلسطينية الغورانية ، والثاني هو أبو علي هوشي ، وهو من وجهاء عشيرة اكراد البقارة ، أجليت عشيرته بالقوة عن موطنها في سهل الحولة ، في عهد ديكتاتورية أديب الشيشكلي ، حين فرّط العهد بالمنطقة المجرّدة في هذا السهل الفلسطيني الشهير فارغمت اسرائيل سكانه على الرحيل . واتضح من حديث الرجلين أنهما سكنا ، قبل مجيئهما الى البطيحة ، في مخيم خان الشيح ، وأن لكل منهما ، فضلاً عن الأبناء الذكور ، ابنة وصلت في مدرسة المخيم الى الصف الرابع ، وقد جاءا اليّ ليناقشا إمكانية انضمام البنتين الى هذا الصف في مدرستنا . هذا الطلب ، بما يعكسه من رغبة في تعليم البنات ، هو أول ما اجتذبني الى الرجلين اللذين تصرفا بأدب وتواضع لفتا نظري . وكان أن دعمت غمرة الاحمد وعلياء الهوشي فريق البنات الصغير في مدرستنا ، وصارت ابنتا الصف الرابع راعيتين لزميلاتهما الصغيرات وكانتا راعيتين حدوبتين ومتفهمتين ، وقد وفرتا علينا الكثير من الجهد المطلوب لتعويد البنات على التصرف بطلاقة وسط محيط أكثريته الساحقة من الذكور . وقد حدث أن زارنا ، في ذلك الوقت ، صحافي من مجلة «المصوّر» في القاهرة ، جاء ليرصد التطور الذي تحقق لسورية في عهد الوحدة . فلفت وجود البنات نظر الصحافي ، فافرط في التقاط الصور لهن ، ثم ظهر التحقيق في المجلة الشهيرة فتصدرته صورتان كبيرتان ، واحدة لغمرة ، السمراء ذات الأحد عشر ربيعاً بتقاطيع وجهها التي يرتسم فيها أحلى ما في الطفولة الانثوية من معان ، والأخرى لعلياء ، الشقراء ، ووجهها الجميل ونظارتيها اللتين تضفيان عليها سمتاً جاداً يظهرها تلميذة متميزة . وقد أضاف الصحافي الى الصور ما ابتكرته مخيلته المسكونة بهاجس الدعاية لعهد الوحدة وزعيمها عبد الناصر ، فأنطق البنتين بما ناسبه هو من أقوال وانطق غيرهما بأقوال مماثلة ، فرد ذلك كله على اربع صفحات ، وعدّ وجود البنات في المدرسة واحداً من مكتسبات العهد ، ونقل لقرائه شكر الصغيرات للرئيس عبد الناصر الذي وفر لهن هذه الفرصة .

وقعت على المجلة في إحدى زياراتي لدمشق ، فاشتريت عدداً من

النسخ . وكانت تلك هي المناسبة التي أدخلتني الى منزلي شهاب وهوشي ، أو أبي أحمد وأبي علي . في المنزل الاول ، استقبلني أبو أحمد بود أبويّ وترحاب حميم ذكّراني باجواء مضافة جدّي سلمان . ودعا الرجل أهل بيته ، امرأته وبنيه ، وبينهم مجايلي أحمد ، وبناته ، وبينهن غمرة وأخت لها ظفرت بالشهادة الابتدائية قبل مجيئها الى البطيحة ، ووجدتني في هذا الجو العائلي اسير الطيبة الظاهرة لمضيفي . ولأمر ما ، استخلصت ان من المتعذر ان يكون رجل بهذه السمات ، كشهاب الاحمد ، مخبراً كما شاع عنه عند قدومه . وتشجعت فسألت الرجل عن طبيعة عمله والسبب الذي جاء به الى البطيحة فحرم ابنته الكبيرة من متابعة تعليمها بالرغم من رغبتها الظاهرة فيه . ازاء هذا السؤال ، تنهّد أبو أحمد قبل أن يبدأ الحديث . أما ابنه احمد فسألني وعلى وجهه ابتسامة ذات مغزى : «قالوا لك إن ابي مُخْبر ولهذا لم تزرنا قبل الآن؟» . فلم أنكر أني سمعت هذا القول ، فعقب أحمد : «كبحهم!» وأراد أن يضيف شيئاً فاوقفته نظرة من أبيه . وعندما تحدث ابو احمد ادلى بكلام عام ، فعرفت انه مجاهد قديم وقد كان قائداً لفصيل من مجاهدي عشيرته قبل الهجرة من فلسطين وان الله الذي هداه الى درب الجهاد في شبابه قد وجهه ليختم حياته على الدرب ذاته ، ثم قال : «دروب الجهاد ، يا ولدي ، كثيرة» . ولم يزد على ذلك . وبدا واضحاً أن الرجل يتكتم متجنباً الحديث عن موقعه الحالي على هذه الدروب . وفي منزل أبي علي ، حظيت باستقبال عائلي مماثل ، وقعدت أم علي وصغارها بجانب زوجها في الحجرة التي يستقبلون فيها الزوار وشاركت في الترحيب بي . كانوا في انتظاري بعد أن سبقتني إليهم انباء وصول المجلة ، وقد عاملوني معاملة زائر حمل اليهم هدية عظيمة . كانت لهوشي ، وهو اصغر من زميله شهاب ، شخصية مختلفة عن شخصية الزميل ، شخصية تكاد تكون مقسومة بالتساوي بين الحاجة الى التكتم والرغبة في الهذر . لم ينتظر ابو علي أن أسأله عن عمله ، بل بادر هو الى الحديث ، فعل ذلك برغبة واضحة في أن ينفي التهمة الشائعة عنه وعن زملائه ويكسب احترامي ، أنا مدير

المدرسة . وفي منزل هوشي ، في تلك الأمسية التي استبقيت فيها للعشاء ، وفي غيرها مما تلاها من أماس عديدة ، سمعت وعاينت الكثير وعرفت طبيعة عمل هذه المجموعة التي ينتمي اليها ربّ الدار ، وأرى ان من حقك ان تعرفها .

في وقت قريب من الوقت الذي انشئت فيه كتيبة الفدائيين الفلسطينيين الشهيرة في قطاع غزة ، تشكلت في سورية كتيبة استطلاع ضمت متطوعين فلسطينيين . وقد روعي في تشكيل هذه الكتيبة التي يقودها ضباط سوريون أن تجتذب العناصر القادرة على القيام بمهمات استطلاعية خاصة داخل اسرائيل . وهكذا ، اجتذبت الكتيبة عدداً من مجاهدي فلسطين العارفين بمناطق البلاد ودروبها ومداخلها ومخارجها . وكان الخمسة الذين وفدوا الى البطيحة من بين هؤلاء ، ويمكن القول انهم كانوا اكفأهم واحذقهم في أداء المهام الصعبة . وعندما اتخذت الكتيبة شكل كتيبة استطلاع عسكري نظامية ، مع احتفاظها بطابعها الذي انشئت من اجله ، ابقي في معسكرها القريب من دمشق العناصر القادرة على اداء الواجبات العسكرية الروتينية . اما قدماء المجاهدين الموكلين بالمهام الخاصة فقد وجهوا للاقامة في المناطق الحدودية . فكان أن جيء بهؤلاء الخمسة الى القرية النموذجية في البطيحة . وكان الواحد من هؤلاء يعبر خط وقف اطلاق النار ويتجول بين المواقع الاسرائيلية ويعاين ما يستجد فيها ، أو يتصل بمن يمكن الاتصال به من اهل البلاد ، وغالباً ما يكون هذا من الاقرباء او المعارف الأقدمين ، ثم يعود بحصيلته من المعلومات ويضعها بين أيدي الموكلين بدراستها . كان هؤلاء الاستطلاعيون ، وفق التعبير المتداول بينهم ، سرّيحة ، ينطلق الواحد منهم لأداء مهمته وحيداً ، أو يصطحب واحداً أو اثنين من الزملاء الجدد المحتاجين للتدريب ، ويبيت حيث يتيسر له ، ليلة او اثنتين ، ثم يعود بصيده ويمارس حياة عادية بانتظار سرحة تالية . وكان الخمسة الذين تبيّن أن شهاب الأحمد هو رئيسهم يتناوبون السرحات في منطقة مخصصة لمجموعتهم ، فتنوب الواحد منهم ثلاث سرحات أو أربع في الشهر ، في الأحوال العادية ، ويزيد تواتر

السرحات، في الحالات الاستثنائية .

وما أكثر المخاطر المتوقعة والمفاجئة التي كان هؤلاء الاستطلاعيون يتعرضون لها وهم يسعون على الدروب في مناطق يسيطر عليها عدوّ ليس قليل اليقظة، وما اكثر ما بقي في ذاكرتي من حكايات عن المغامرات التي خاضوها! وها أنا ذا أتذكر حكاية هوشي حين الجأه التوجس الى قضاء ليلة كاملة في مغارة غير مطروقة . كان ابو علي قد أتمّ المهمة الموكولة اليه واخذ طريق العودة مع حلول الظلام حين اكتشف أن وحدة من الجيش الاسرائيلي تقوم بمناورة في المنطقة التي هو فيها . ولأنه كان يجهل حدود انتشار الوحدة فقد الجأه الحذر، وهو الاستطلاعي المتمرس، الى اول مأوى يخفيه عن الانظار، فوجد نفسه في هذه المغارة . وهناك، تطلب الأمر أن يقبع هوشي طيلة الليل ساكناً هادئاً . ولم يلبث ان اتضح ان المغارة تؤوي جيوشاً من حشرات العلق . وقد تناوبت الحشرات البغيضة على جسد الرجل الساكن وراحت تمص دمه، دون أن يجرؤ هو على إطلاق آهة أو مغادرة المكان . ووصل أبو علي الى البطيحة، حاملاً جراحه وأورامه وآلامه . واقتضى الأمر ان يقيم الرجل المشرف على الموت عدة اسابيع في المستشفى حتى أمكن ان يتعافى . وفي سرحة اخرى، فوجىء هوشي بوجود جنود اسرائيليين على طريقه وهو يعبر سهلاً لا صخور فيه ولا مفر، فكان من الطبيعي أن يلتجىء الى اول شجرة يقع عليها، فاعتلى شجرة خرّوب وكمن بين فروعها . ولم يلبث أن قدم الى ناحية الشجرة راع شاب من عرب الجليل ومعه غنماته . وقد لاحظ هوشي ان الراعي ظل منذ بلغ الخروبة يلوب في المكان، ولم يبرحه حتى مغيب الشمس، دون أن يصدر عن الراعي طيلة الساعات العديدة التي أمضاها مع غنماته ما يدل على أنه فطن أو لم يفطن الى وجود القابع المتوجس في أعلى الشجرة . فقط، عند غروب الشمس، جاءت الإشارة : جمع الراعي الغنمات، ومر من تحت الشجرة دون أن يرفع رأسه وقال : «رحل العسكر، كمّل مشوارك على بركة الله!» . واحتاج شهاب الاحمد مرة الى استكمال معلوماته عن موقع اسرائيلي جديد، وعرف من واحد ممن يتصل بهم ان رجلاً بعينه،

ولنسمّه ، هنا ، صابر ، يعمل في الموقع وهو الوحيد القادر على امداده بالمعلومات اللازمة . وتصادف ان كان صابر من ابناء عشيرة لها ثأر قديم عند عشيرة المواسي التي يعد شهاب واحداً من وجهائها . ولم يكن شهاب قد رأى صابر هذا منذ باعدت دروب الهجرة بين الناس ، أي منذ عام ١٩٤٨ ، ولا عرف كيف تطورت احواله ، وما كان له ، اذن ، أن يحزر بعد فراق عشر سنوات الطريقة التي سيتلقاه بها الغريم القديم . وقرر شهاب ان يجازف فدخل المنزل فجأة ، وصابر نائم ، وأيقظه ، وقدم له مسدسه ، وقال : «انا في دارك ، لك ان تقتلني وتخفي جثتي فتستد ثأر عشيرتك القديم ، او تساعدني كرمى لله والوطن فتظفر بأجر المجاهدين . وفي الحالتين لن يعرف الناس أني جئت إليك» . والذي حصل ان شهاب ظفر بالمعلومات الثمينة وبصداقة الخصم القديم .

سرعان ما توثقت علاقتي بهؤلاء الناس! جمعنا الكثير مما هو مشترك في الهمّ الفلسطيني ، وجذبني إليهم هذا الجوّ البطولي الذي يحيط بهم والعمل الخطير الذي يتولونه ثم يتحدث الواحد منهم عنه حديث مَن يسرح لصيد الطيور او جمع فطور الارض واعشابها . وجذبهم اليّ اهتمامي الشديد بهم وتوقي الدائم لمعرفة ماضيهم وحاضرهم .

كان موسى الزنغري واحداً من هؤلاء ، وهو ، كما يدل على هذا اسمه ، من عشيرة الزنغرية ، وكان أصغر افراد مجموعته سنّاً وان لم يبق ، بعد ، فتى صغيراً . وكان موسى ، بين زملائه ، الأطول قامة والأضخم جسداً ، كما كان الأرخى لساناً والاقلّ تزمتاً حين يتعلق الأمر بالمبادىء . وقد انقسم سلوك الزنغري بين نهجين مختلفين ، نهج يتبعه الفدائي في ليله هذا الذي يسرح فيه بين المخاطر ويؤدي أجلّ المهام ، ونهج يتبعه في حياته العادية . في نهجه الفدائي السريح وسط الدروب التي تكتنفها المخاطر ، كان الزنغري رجلاً جاداً ، جمّ التواضع ، شديد التكتم ، لا يعرف أحد ممن لا يعنيهم الأمر متى يعبر الحدود أو متى يرجع أو كيف ينفذ عبر الكمائن والأرصاد التي يبثها الاسرائيليون لتصيّد أمثاله . وفي حياته العادية ، كان الزنغري رجلاً مقبلاً على المتع ، يستحل لنفسه منها ما هو حلال ، حقاً ،

وما هو غير ذلك ، كان محباً للهو ، حاذقاً في لعب الورق دون أن يتورع عن الغشّ فيه ، أكولاً لا يكف عن طلب المزيد من اطايب الطعام . كان هذا الرجل براغماتياً في جلّ شؤونه ، يعرف كيف يخدم الآخرين ، اذا خدم ، ويتبادل معهم المنافع ويجني منها حصته الكاملة . والى هذا كلّه ، كان الزنغري أكثر رجال مجموعته ولعاً بالسياسة ، على ولع الآخرين الشديد بها ، لا لأنه الأفهم بينهم او الأنشط في هذا المجال ، بل لإدراكه أن الانغماس في السياسة هو اقصر الطرق الى توسيع العلاقات ، وتوسيع العلاقات هو أنجع الطرق لمراكمة المكاسب المعنوية والمادية . وقد اتضح لي ان موسى الزنغري دخل انتخابات الاتحاد القومي الفلسطيني في سورية وتابع الشوط في مراحلها كلها حتى ظفر بعضوية الهيئة المكونة من عشرين مندوباً التي تنتخب القيادة العليا للاتحاد .

وعندما تعرفت على هذا الرجل ، كانت الاستعدادات جارية لعقد اجتماع هذه الهيئة من أجل انتخاب رئيس الاتحاد ، كل هذا وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب . وكان هناك مرشحان اثنان يتنافسان على الرئاسة ، احدهما هو قاضي محكمة دمشق الشرعية الشيخ عبد الرحمن مراد ، وهو رجل له تاريخ في الجهاد بالإضافة لمكانته الدينية وما اشتهر به قاضياً نزيهاً ، والثاني هو الدكتور اسامة النقيب ، أحد قادة حركة القوميين العرب ، وهو من الجيل الجديد ، ظفر بدرجة الدكتوراة في الكيمياء وافتتح بمساعدة والده الذي كان نقيباً لاشراف صفد مخبراً للتحاليل الطبية . وبين الاثنين ، كان الدكتور أسامة هو مرشح السلطة . وبميلي الطبيعي ضد مرشحي السلطة ، رحت أحرض موسى الزنغري على انتخاب المرشح الآخر واعدد مزايا الشيخ مما ظننت انه سيجتذب هذا الفدائي . وكان موسى يستمع اليّ دون اعتراض ، بل يظهر ميلاً لقبول رأيي ، شافعاً ذلك بإطرائي بوصفي المتعلم الذي يعرف ما لا يعرفه هو الأمي المسكين ، الا أنه ما كان يلزم نفسه بشيء محدد . وحين كنت أحاصر موسى بسؤاله عما سيفعله في جلسة الانتخابات ، كان يزوغ أو يدلي بعبارات حمّالة أوجه . وفي الانتخابات ، صوّت الزنغري لصالح مرشح السلطة وتعمّد أن يعرف

الجميع موقفه . وسوغ الزنغري هذا الموقف بأنه انتخب الرجل المتعلم الذي يتقن الرطانة بالإنجليزية ، وقال ان قضية فلسطين بحاجة لامثاله .

اما نقيض موسى في المجموعة فكان الرجل الذي لم اعرف من شؤونه ، على طول صلتي به ، الا كنيته وهي ابو شاكر . كان ابو شاكر رجلاً تدل ملامحه على انه تجاوز الأربعين ، وهو كتوم وصموت ، يعجز أي اغراء او استفزاز عن حمله على الكلام . وإذا استثنينا عبارات التحايا والمجاملات التي يتقنها الرجل فتشي بلهجته الغورانية ، فإني لا اتذكر مرة واحدة نطق ابو شاكر فيها شيئاً يتعلق بعمله واهتماماته او بما يشغل الناس من هموم السياسة والمجتمع . بالرغم من ذلك ، كان للرجل حضور واضح في المجالس يحس به كل مَنْ يجالسه . وكانت تجليات هذا الحضور تتبدى تباعاً عبر حركات الرجل : اطلالته المتميزة ، قعدته حين يتربع منذ يدخل ثم لا يبدل تربيعته ، طريقته في تناوله لما يدار على المجلس من شراب او طعام ، لعبه الورق ، وحركة عينيه المقتصدة هو الذي لا يرسل نظرة ناحية شيء او شخص الا حين يكون للنظرة معنى يدركه المقصود به . وكان في كل ما يفعله أبو شاكر الكثير مما يشي بأنه مستمع جيد ولاقط فطن لما يجري حوله . وقد عرفت من ناس المجموعة ان رجلهم الصامت هذا هو انجحهم في الاستطلاع . اما الخامس فكان رجلاً لم يتح لي ان اتعرف عليه جيداً ، اذ إنه كان مقتصداً في مخالطة اصحابه ، وكان لا يخالط احداً سواهم .

لقد شكّلت الاسر الخمس ، باربابها المتميزين هؤلاء ، فريقاً اجتماعياً خاصاً . فمع أن ناسها يحتفظون بتقاليدهم العشائرية الموروثة ، فقد كان سلوكهم اكثر انفتاحاً وتقدماً . وقد أعطوا ، من هذه الناحية ، أمثولة أثرت في محيطها وحملت آخرين على الاحتذاء بها . وتعزّز التأثير من خلال تمتع أرباب هذه الأسر بالمكانة ذاتها والنفوذ ذاته اللذين للعسكريين وناس الحكومة ، دون أن يتسم سلوكهم بالتعالي أو التسلّط . وبمضي الوقت ، صار منزل شهاب الاحمد مضافة مطروقة . وصار ، هو وزملاؤه ، واسطة الناس في محيطهم لحل المشاكل عند أجهزة الدولة والمخابرات ، وكانوا ، من هذه الناحية ، مبادرين لخدمة مَنْ يحتاج الى خدماتهم . وقد واظب شهاب

الأحمد على معاملتي كواحد من أفراد عائلته ، فتعلقت بهذا الرجل وصرت صديقاً لابنه أحمد ، وزائراً منتظماً للمنزل الذي أجد فيه الحميمية العائلية التي افتقر إليها في حياتي . وسرت إشاعة ، مضى وقت طويل قبل أن تبلغ الى مسامعي ، فحواها أني عازم على الزواج من الابنة الكبيرة لشهاب الأحمد . وكانت تلك اشاعة باطلة ، وقد أحرجني انتشارها ، وخشيت أن تؤثر على علاقاتي بالأسرة التي أكرمتني . إلا أن رب الأسرة أبدى ، من هذه الناحية ، أيضاً ، تفهّماً لائقاً ، وواجه الإشاعة بترو ، وأعلن أن الابنة منذورة لابن عمها الذي يتابع تعليمه في درعا . وجاء أبن العم الى البطيحة في زيارة لمنزل عمه ، وتعمد شهاب الاحمد أن أكون أنا على صدر المائدة عندما أوْلَم وليمة كبيرة للاحتفاء بابن اخيه وخطيب ابنته . وبدا ان هذا كله تم وفق تدبير مسبق هدفه إطفاء الإشاعة ، وقد انطفأت بالفعل .

ولا شك في أن علاقتي برجال هذه المجموعة قد نفعتني نفعاً كبيراً . لا أتحدث ، هنا ، عن الفرص التي أتيحت لي للاطلاع على وقائع الجهاد الفلسطيني القديمة والمستجدة وأحوال الفلسطينيين الذين بقوا في الجليل في ظل السلطة الاسرائيلية . بل أتحدث ، أيضاً ، عن الحماية التي توفرت لي إزاء أجهزة الدولة ، وخصوصاً المخابرات . فقد عمل هؤلاء الأصحاب كل ما في وسعهم لتفنيد الاتهامات التي تختزنها ملفات المخابرات ضدي . ولكي تدرك اهمية هذه الحماية بكاملها ، علي ان اذكرك بأجواء القمع الذي أخذ يستفحل ضد فئات سياسية بعينها . وكان من شأن هذا القمع أن يطالني ، دون شك ، وأنا المعدود عند المخابرات بعثياً والصديق المعروف للضباط الفلسطينيين المتهمين بالشيوعية . والحقيقة ان مسؤول مخابرات اللواء الذي تتبع له سرية البطيحة أبدى اهتماماً خاصاً بشأني . وقد اثار ارتياب هذا المسؤول تشبثي بالبقاء في البطيحة بالرغم من توفر الفرصة لانتقالي الى العاصمة . وجرت حولي عملية استقصاء وجهها ضابط المخابرات الذي التقيته مرتين أو ثلاثاً دون أن تنشأ بيننا علاقة دائمة . وقد استفدت الى حد كبير من الشهادات الطيبة التي أدلى بها الفدائيون

الخمسة تلك التي تطابقت في تبرئتي . وعلمت أن شهاب الأحمد بذل جهداً خاصاً في هذا المجال . بل إنه ، إمعاناً منه في العمل لتأمين سلامتي ، تجاوز مسؤول مخابرات اللواء وقصد مسؤول مخابرات الجبهة وأدلى بشهادة كان نفعها لي حاسماً .

ومهما يكن من أمر ، فإن حياتنا في هذا العام المدرسي لم تلبث ، على كثرة المشاغل وتنوعها ، أن شهدت بعض الانتظام . وقد تعلمت كيف أرتب أموري كي لا يؤثر أي من مشاغلي العديدة على الآخر ، وكيف أنظم الوقت بحيث أتابعها كلها دون تقصير .

وكنّا قد فرغنا من تنظيم شؤون المقر الجديد للمدرسة حين وفد الى البطيحة قائد جديد لسرية الخيالة هو النقيب سعيد ن . وهو رجل من طينة تختلف عن طينة كل مَنْ عرفت من الضباط في الجبهة قبله . قدم الرجل نفسه لنا ، نحن المعلمين ، على أنه ضابط محترف لا يقيم وزناً للعقائد الفكرية ، ولا يشغل نفسه بالسياسة ، ليتضح أن هذا الوصف يعني أن النقيب لا يقيم وزناً لأي قيم ولا ينشغل الا بما يعود عليه بالنفع الشخصي . وقد عرض علينا النقيب ، فور تعرفه بنا ، أن يخلي واحداً من منازل القرية النموذجية لنسكن فيه ، هو الذي اخلى ، بالفعل ، منزلاً لنفسه ، بالاضافة للمنزل المخصص لقيادة السرية الذي كان بإمكانه أن يبيت فيه كما فعل سلفه . والواقع أني ، أنا الذي لم اكن قد عرفت شخصية النقيب ، أخذت عرضه على محمل الجد وعددته تعبيراً عن الشهامة والرغبة في المساعدة . واذا كنت قد رفضت هذا العرض فلأني لم أشأ أن أتعرض للموقف المحرج إزاء أهل القرية والأسرة التي ستفقد منزلها بسببنا . وقد دعانا النقيب سعيد ذات يوم الى منزله ، وقدم عشاء فاخراً أعدّه جنود السرية وعرقاً طيّب المذاق قال إن السرايا أرسلته له . وبعد العشاء ، استحثنا النقيب الى لعب الورق الذي اتضح انه بارع فيه ، فامتدت السهرة الى ساعة متأخرة من الليل ، وكلما هممنا بالمغادرة حثنا مضيفنا على مزيد من اللعب .

في هذه السهرة، عرض النقيب فكرة أخذنا بها جميعاً؛ فقد عرض أن نقيم ما يشبه النادي، حيث يتسنى لنا أن نظفر بوجبات الطعام والخدمات المماثلة بأسعار الكلفة على غرار نوادي الضباط. وتبسط النقيب في شرح عرضه مما وشى بأنه فكر فيه مسبقاً وعمل لكل شيء حسابه الصحيح، وقال إنه مستعد لجعل منزله هذا مقراً للنادي وأنه سيجلب الأدوات اللازمة من نادي ضباط اللواء وسيحصل على مواد التموين من هذا النادي، بالسعر الرخيص المخصص للجيش، أما الخدمة فسيقوم بها مَنْ يختارهم من عناصر السرية. وكاد الاتفاق يتم في تلك الليلة لولا ان النقيب نفسه اقترح أن نأخذ مهلة للتفكير وقال مفسراً ذلك: «حتى لا تندموا!».

وتصادف أن كان عليّ السفر في اليوم التالي الى القنيطرة لمتابعة شأن من شؤون المدرسة، كما تصادف ان قدم مصباح البديري ومحمد الشاعر الى منزل أبي وليد حيث أقمت. وعندما أنبأت هؤلاء بقدوم قائد جديد للسرية، رغبوا في معرفة اسمه، فتذكرت انه سعيد ونسيت اسم عائلته؛ فلما قلت إن الرجل من حلب، تذكر الشاعر شيئاً فهتف: «لا بد أنه سعيد ن.»، فلما أكدت على أنه هو، سأل مصباح، مبتسماً: «ألم يعرض عليكم ان ينشىء نادياً؟». وقبل أن تنتهي دهشتي، راحت الايضاحات تتوالى من الضابطين الصديقين. وقد أجمع الاثنان على ان هذا النقيب رجل بلا مبادىء. وأنه لا يعرف من مكارم الأخلاق الا التبجح بها حين تحاصره الاتهامات. وعرفت أن للرجل سجلاً ضخماً طافحاً بقصص الفساد والافساد، فهو مقامر، يستدرج الآخرين الى اللعب مغوياً إياهم بحجة التسلية، ثم يفتك بأموالهم. وهو نصّاب يغش حتى أقرب المقربين إليه. وهو، في سلوكه كلّه، نفعي لا يجهد نفسه بحركة إلا اذا ضمن من ورائها منفعة شخصية. والرجل في الجيش مغامر يوجه مغامراته للكسب وليس لأي شيء آخر. وحكى مصباح عن هذا الضابط حكاية بدت لي أقرب الى الغرائب. وقعت الحكاية في عهد الشيشكلي، حين كان سعيد ملازماً أول مسؤولاً عن سرية عسكرية في مدينته، حلب. وقتها قرر

الضابط الشاب أن يبني لنفسه داراً جديدة بأقل التكاليف ، فسرق من الجيش ما تمكن من سرقته من مواد ، وتحايل حتى اشترى المواد الأخرى بأقل الاسعار مستخدماً السطوة التي كانت للعسكريين في العهد الديكتاتوري . أما العمل فلم ينفق عليه سعيد هذا شيئاً ، لأنه ، ببساطة ، شغّل جنود السرية . كان الضابط يقود سريته من موقعها العسكري الى موقع داره ، بخطوة عسكرية منتظمة ، جهاراً نهاراً ، أمام أعين الناس ، ويشغّل الجنود في أعمال البناء ويشرف عليهم ثم يعود بهم الى موقع السرية ، بالخطوة المنتظمة ذاتها . وقد استفاد الضابط من الاضطرابات التي كانت تعصف بالجيش وبالبلد كله ومن حاجة الديكتاتور الى ولاء الضباط وغضّه النظر عن مفاسدهم .

ثم استفاد هذا الضابط ، بعد سقوط الشيشكلي ، من حاجة النظام الجديد الى الاستقرار وتجنبه فتح الملفات القديمة وفاز بالدار دون ان يتعرض لأي مساءلة . وقال الشاعر ان النقيب سعيد ن . لم يسلم من العقوبات في حالات اخرى ، فقد امتلأ ملفّه بها ، ويكفي ان تعرف انه أقدم نقيب في الجيش لأن ترفيعه موقوف من سنوات . إلا أن لهذا الرجل مقدرة فذة على تجنب العقوبة الحاسمة وهي التسريح . وهو بارع في التعمية على المخالفات التي يرتكبها ، وأحد أساليبه في التعمية أن يقرّ ، حين يقع ، بالمسؤولية عن المخالفات الصغيرة فينال عقوبة خفيفة ويُلبّس الجانب الأكبر من المسؤولية لسواه ، يفعل ذلك بلا تهيب ولا وازع من ضمير ، ولا يقيم أي اعتبار للزمالة او الصداقة أو القرابة . وقد درس النقيب سعيد القانون في الجامعة ، فعل ذلك تحسباً للمستقبل ، ولا بد أنه نجح في امتحانات كلية الحقوق بالطريقة التي يتدبر بها أموره الأخرى ، أي بدون عناء كبير ، فاذا أرغم النقيب على ترك الجيش الذي يرتع في نعيمه فسيظهر أمامه نعيم المحاماة . وفي ما يخصّ اقتراح انشاء النادي ، اتضح أن النقيب يسعى لانشاء مثل هذا النادي في كل مكان جديد يحل فيه ، ناد يملك فيه هو كل النفوذ ، فيوفر وجباته ووجبات ضيوفه بالمجان ، وتتوفر له الفرص للسرقة من ميزانية النادي ، ويتخذ من المقر مكاناً يجتذب اليه الذين يشاركونه مائدة القمار .

عدت الى البطيحة مثقل الرأس بهذه الحكايات . وقررت أن أحسب خطواتي بإزاء النقيب ، أنا الذي لا تنقصه المشاكل ولا يفيده أن يقع في عداوة جديدة . وكان أن ميّعت موضوع انشاء النادي بدعوى أننا مدنيون ولا يجوز لنا أن نحمّل الجيش عبء طعامنا حتى لو رغب الجيش في ذلك . وتعاملت مع النقيب بأسلوب ظاهره الانفتاح ومجاراته في عبثه ومشاريعه ، وباطنه الحذر الشديد . لكن ، بالرغم من تحسبي الدائم ، كان يحدث أن تفلت مني كلمة تشي بأني أعرف عن الرجل اكثر مما أظهر . ثم لم يكن من السهل عليّ أن أكتم استيائي من سلوك قائد السرية الذي يبيح لنفسه أن يستغل جنوده فيبيح لهؤلاء أن يستغلوا الفلاحين . والحقيقة ان كل اشكال التسلط على الفلاحين وأرزاقهم ، التي سبق أن أوقفها مصباح ، قد عادت من جديد . وكان النقيب في مقدمة المتسلطين ، فكان يوفر حاجاته وحاجات زواره ومعارفه من الخضار والسمك بالسطو على ما في ايدي الزارعين والصيادين .

وها أنا ذا اتذكر المرة التي تجلت فيها طبيعة هذا الضابط بتمامها فبلغ استيائي منه الذروة . فقد اقترب شهر رمضان ، فعمم قائد السرية على الأهالي تعليمات توجب عليهم ان يصوموا وأنذرهم بأن مَنْ يفطر سوف يتعرض للجلد . وبهذا ، أعطى قائد السرية لنفسه سلطة لا يخوله اياها اي قانون . ثم خطر للنقيب أن يحتفل بقدوم شهر الصوم ، بطريقة غير مألوفة ، فقرر أن يقيم وليمة غداء كبيرة في اليوم الأخير قبل بدء الصوم . ودعا الى وليمته ضباط اللواء كلهم . وأراد النقيب أن يبهر مدعويه فقرر أن تقام الوليمة على شاطىء بحيرة طبريا قرب المسعدية . وهكذا ، سُخّر عدد كبير من الفلاحين وجنود السرية للإعداد للوليمة . فتولى بعض هؤلاء بيوت الشعر ونصبها على الشاطىء ، وجلب آخرون الخراف والدجاج والخضار ، وجيء بالمشاريب من السرايا ، وانتظمت ورشة كبيرة لتحضير الأطباق المختلفة : المناسف والمشاوي والمقبلات ، وخطّط للأمر كله بحيث تكون هذه أفخر مائدة عرفها اللواء . ووجه النقيب الدعوات عبر خط الاتصال العسكري وبصياغات عسكرية : الى قائد كتيبة كذا وضباط كتيبة ،

وعممت على كتائب اللواء كلها ، وصيغت دعوة خاصة موجهة الى قائد اللواء وضباط القيادة .

وكان أن امتدت بيوت الشعر بعرض عشرات الامتار ، وصفّت الموائد والكراسي التي جمعها جنود السرية من كل مكان في المنطقة ، ونضدت الاطباق وأدوات المائدة التي جلبت من نادي ضباط اللواء . وقد بلغ عدد المدعوين الى الوليمة من المقيمين في البطيحة العشرات ، شمل العدد المعلمين والمخاتير والتجار ووكلاءهم ورجال السرايا والوجهاء الآخرين . أما الضباط القادمون من الخارج فوصل عددهم الى اربعين ، وكان على رأسهم قائد اللواء العقيد حمد عبيد الرجل المشهود له بالنزاهة ونظافة اليد وحسن السلوك . وفي اللحظات الأخيرة ، فيما اخذ المدعوون من قرى البطيحة يتوافدون الى مكان الوليمة ، جاء من أبلغ الى النقيب ان قائد اللواء لن يرتاح لوجود الكحول على المائدة ، خصوصاً في مناسبة يحتفل فيها بقدوم شهر رمضان ، فصدرت الأوامر باخفاء الزجاجات ، وتوجب على نساء قرية المسعدية القريبة ان يقدمن للمائدة ما أعددنه لأسرهن من شراب اللبن الرائب ، الشنينة . وقال النقيب لجمهور المدعوين انه يحتذي بسنة رسول الله محمد الذي كان يحب هذا الشراب .

لقد ساءني هذا البذخ كلّه ، كما ساءني استغلال النقيب للناس وتحميلهم أعباء إعداد الوليمة التي لم ينفق هو عليها قرشاً واحداً من جيبه . وكان أشد ما فعله النقيب أثارة للغيظ دأبه على التستر بالدافع الديني لهذا الاحتفال واصراره على أنه يجاري سياسة الدولة ، وكانت هذه السياسة قد مالت الى ممالأة المتدينين في محاولة لكسب ودّ الجمهور ، منذ اشتداد صراع أجهزة الدولة مع التقدميين . وبتصويره للدعوة على هذا النحو ، ضمن النقيب أن لا يجرؤ أحد على رفضها ، كما ضمن الثناء عليه من قبل أصحاب السلطة ممن ستصل إليهم التقارير عن الحدث الذي لا سابقة له في المنطقة . شيء آخر ساءني وآثار هواجسي وأنا أرى الحشد الكبير من الضباط متجمعين على الموائد ، بغير حماية ، تحت مرمى الرشاشات الإسرائيلية . وقد ظننت ان النقيب سعيد لم يفطن للخطر ،

ففاتحته بالامر ، فضحك ضحكة إنسان خالي البال ، وقال : «ألم تفهم ، اذن ، لماذا وجهت الدعوات باللاسلكي ، ومَنْ يجهل أن اسرائيل تراقب اتصالاتنا؟ هم يعرفون أنها لمة عرب على طعام ولن يستفزهم هذا» .

وفي إحدى جولات النقيب على الموائد ، وكنا على وشك أن نفرغ من تناول الطعام ، وكنت أجلس بين اثنين من ضباط سريته ، وقف الرجل المستهتر ورائي وقال : «اما تزال متخوفاً؟ ما رأيك لو عرضنا هذا الجمع من النجوم لاطلاق النار فعلاً ، ستكون فرجة ما بعدها فرجة . استطيع ان اصدر امراً لجنودنا باطلاق النار ناحية الاسرائيليين ، ولا بد أن يرد هؤلاء ، فتصور حالة مدعوينا لو لعلع الرصاص ، فجأة! هل تعرف الأنظمة العسكرية ، حين تقع معركة في منطقتي يصير هؤلاء الضباط كلهم تحت امرتي» . كان واضحاً ان الرجل يمزح ، وكانت هذه بالنسبة لي مزحة شديدة السماجة .

وما أن انتهى الناس من تناول الطعام حتى دعاهم النقيب لأداء الصلاة جماعة وندب نفسه ليكون الإمام ، فبلغ في نفاقه الذروة وتجاوز غيظي منه كل الذرى .

وفي اليوم التالي ، وهو أول ايام رمضان ، نفّذ النقيب انذاره للمفطرين ، فقد وقع على اثنين من هؤلاء وهما يدخّنان فجلدهما بيديه في مقرّ السرية ، وشاع النبأ المرعب ووصل الينا في المدرسة . وفي مساء اليوم نفسه ، وكنّا نحن المعلمين متجمعين للسمر في ليوان المدرسة ، فاجأنا النقيب بزيارته لنا ، بدعوى تهنئتنا بحلول الشهر المبارك ؛ جاء وعلى وجهه سمت تقوى كساه به ، وحيّا وقدم التهنئة بعبارات مجلجلة ، ثم دعانا الى أداء صلاة العشاء جماعة وتقدم صفنا متخذاً موضع الامام وهو يجلجل بالقول انه زارنا خصيصاً ليظفر بهذه البركة بصحبتنا . وقد راقبت حركات النقيب وأقواله فيما أخذ مرجلي يغلي ويكاد ينفجر . كنت مغتاظاً غيظاً مضاعفاً ، وكان إحساسي بالعجز عن مواجهة هذا الدعي بما يستحق هو الذي يضاعف غيظي . بالرغم من ذلك ، شحذت إرادتي وأرغمت نفسي

على الاحتمال تحسباً من مواجهة سأكون أنا الخاسر فيها ، لا محالة . إلا ان عبارة واحدة أفلتت من رقابتي المتشددة على نفسي ، فهت بها عندما شرع هو في التكبير للصلاة فوجدتني أقول : «صلاة العونطجي لا تُقبل» ، استخدمت الكلمة العامية المشتقة ، على الاغلب ، من اللغة التركية ، لأني لم أجد أخرى أنسب منها ، وتوقعت ان ينفجر النقيب إزاء هذا التعريض الساخر بسلوكه ، وهيأت نفسي لعراك لا بدّ منه ، الا ان الرجل ، لدهشتي الشديدة ، تابع التكبير كأنه لم يسمع التعريض به ، ثم التفت نحوي وقال بهدوء تام : «لا يتعرف العونطجي الا عونطجي مثله» ، ثم أقام الصلاة .

فلما انقضى شهر رمضان وسافرت في إجازة العيد الى دمشق ثم عدت الى البطيحة ، وجدت النقيب سعيد وقد خلع أردية التقوى واستعاد سلوكه العابث بتمامه . ولم يلبث أن نظم في منزله مجلساً يلتئم في كل امسية ، حيث يجري لعب الورق ويفتك النقيب بجيوب جلسائه . وقد تحاشى النقيب أن يدعوني أنا ، أو أيا من المعلمين ، الى هذا المجلس ، وأبقى بيننا وبينه علاقات مدروسة ، فكفانا شره ، وإن بقي قادراً على منعنا من التصدي لموبقاته .

في هذا الجوّ ، وقعت الواقعة المرتقبة على رأس الضباط الفلسطينيين . فقد حدث أن تشاجر النقيب الفلسطيني عرب عرب مع قائد اللواء . كان العقيد الطيب حمد عبيد قد نحي عن قيادة اللواء وحل محله عقيد نسيت اسمه الأول وبقي في ذاكرتي اسم عائلته لانه غريب وهو ماميش . وكان النقيب عرب قائداً لوحدة في اللواء ، سرية أو كتيبة ، تعسكر إزاء حافة نهر الاردن السورية وتتوزع مواقعها بين عدة قرى صغيرة ، منها قرية الجليبينة . ومع الإفتقار الى الأرض الزراعية الكافية ، توجه السكان الى تربية الأبقار . وكان يحدث أن تغفل عيون الرعاة عن أبقارهم ، في لحظة أو غيرها ، فتدخل بقرة أو أكثر حقول الألغام التي زرعها الجيش وتتسبب في تفجيرها فتكشف خطط الجيش لحماية مواقعه فضلاً عما تسببه من خسائر . وكان ضباط الجيش يواجهون مثل هذه الحوادث ، عادة ، بتشديد

التنبيهات على الأهالي وحثهم على اليقظة أو بفرض غرامات معقولة بين وقت وآخر . وقد تصادف أن تكررت حوادث كثيرة من هذا النوع بعد استلام العقيدماميش لقيادة اللواء . وكان هذا الرجل ، كما يصفه الذين عرفوه ، أحمق ، سريع رد الفعل ، متباين الرأي والموقف في التعليمات التي يصدرها لمرؤوسيه ، كما كان ناصرياً متعصباً يكره الذين يعدهم خصوماً للناصريين كرهاً أعمى . وبعد حادث تجاوزت فيه بقرة في الجليبينة الحدود المرسومة لحركة نوعها ، أصدر العقيد ماميش أمراً عسكرياً للنقيب عرب بأن يجمع مخاتير القرى ويضربهم علناً في مقر السرية عقاباً لهم على قلّة يقظة السكان وضعف استجابتهم للتنبيهات . وكانت هذه هي المهمة الأولى من نوعها التي يطالب النقيب بتوليها منذ انتسابه لسلك العسكرية .

ولكي تفهم ما حصل ، بعد ذلك ، بتمامه ، لا بدّ لك أن تعرف شيئاً عن شخصية النقيب الشاب . فقد تميز عرب عرب ، واشتهر بين أقرانه ، بانصرافه المثابر لاداء واجباته العسكرية وبسلوكه المهذب وعلاقاته الطيبة مع مَنْ يحتك بهم من عسكريين ومدنيين . وكان من الصعب جداً ، بل من المتعذر ، على الضابط الذي أمضى في المنطقة عدة سنوات وألف ناسها وألفوه ، أن يضرب مخاتيرها ويعرضهم للمهانة . ثم إن الأمر الذي تلقاه عرب من رئيسه الأخرق افتقر الى السند القانوني ، فليس في انظمة الجيش ما يبيح لضباطه معاقبة المدنيين ، وإن كانت الأنظمة تلزم الضابط بتنفيذ أي أمر يصدره رئيسه مبقية له حق الاعتراض عليه بعد التنفيذ . ولم يكن عرب يجهل انه ، وزملاءه الفلسطينيين ، مستهدفون . بتأثير هذا كلّه ، تردد النقيب ، لكنه حزم أمره في النهاية واتبع ما املاه عليه ضميره . وهكذا ، استدعى النقيب المخاتير الى مقر السرية واعاد التأكيد على ضرورة اليقظة والتشدد في مراقبة البقر ، ثم اكتفى بتهديدهم بالتعرض للضرب ان تكررت الحوادث ، دون أن يرفع يده على اي واحد منهم . وكان من شأن الحكاية كلها ان تنتهي عند هذا الحد لو لم يكن العقيد ماميش مشحوناً بالكره للضباط الذين يعدهم خصوماً ، ولو لم يكن مشتركاً في عملية

ترصّد أخطائهم وتسقّط هفواتهم لتبرير التخلص منهم . أما المخاتير انفسهم فقد ساءهم مجرد تهديدهم بالضرب . وشاعت حكاية هذا التهديد في القرى ، ووجد من حرّض المخاتير على الاحتجاج ، فشكل هؤلاء وفداً منهم توجه الى قيادة اللواء للشكوى من فظاظة قائد السرية الذي مس كرامتهم . استقبل ماميش الوفد بنفسه واستمع الى شكواه بانتباه فعرف ان مرؤوسه لم ينفذ الامر العسكري الذي اصدره اليه .

عدّ العقيد تصرف النقيب عصياناً وحمله الحنق على التوجه تواً الى مقر قيادة السرية . وكان عرب امام مقره واقفاً باستعداد تحية لقائده ، عندما انطلق من فم القائد سيل من الشتائم القبيحة ، على مسمع من بقية ضباط السرية ومَنْ حضر المشهد من جنودها . وسمع عرب وسط سيل الشتائم كلمة فلسطيني تطلق عليه بوصفها شتيمة . ولم يعد للصبر او الحكمة او دواعي الانضباط العسكري مطرح ، فانفجر مخزون النقيب في مواجهة ما انفجر من مخزون العقيد ، وانفلت الزمام . وشهد شهود عيان أن عرب ، في رد فعله الغاضب ، مدّ يده ناحية مسدسه المعلق في وسطه ، وكاد يستخدمه لو لم يمنعه المحيطون به . أما تقرير العقيد فأكد ان المسدس سحب وصوب ناحيته .

جلجلت واقعة تمرّد الضابط الفلسطيني على قائد لوائه في أرجاء الجبهة كلها . وأصبح النقيب عرب رهين التوقيف واقتيد الى مقر قيادة الجبهة ووضع في سجن المقر . وتسامع زملاء عرب الفلسطينيون الموزعون على وحدات الجبهة بما جرى له ، فغادروا وحداتهم دون استئذان وتجمعوا في مكتب قائد الجبهة ، في ما يشبه المظاهرة ، وتشبثوا بضرورة الإفراج عن زميلهم للتو . والحقيقة ان العقيد جادو عزّ الدين المقدّر لمشاعر هؤلاء الضباط حاول ان يلفلف اصداء الحادث وان يحلّه باعتباره مخالفة تعالج بعقوبة انضباطية تفرض على عرب . الا ان نائب القائد ، العقيد ابو النور ، تشبث بالفرصة السانحة ، فأصر على إحالة عرب الى المحكمة العسكرية بتهمة العصيان وتوجيه سلاح التهديد الى قائده ومحاولة قتله ، كما أصرّ على فرض عقوبات انضباطية مشددة ضد زملاء عرب لأنهم تركوا

مواقعهم ، وسمّى ناساً منهم أصر على إحالتهم هم ، أيضاً ، الى المحكمة بتهمة اقتحام مقر الجبهة بالعنف . في تلك الليلة ، لم ينم احد من المعنيين بالمشكلة ، واخفقت محاولات تسوية الأمر بالاتفاق .

اما أنا فقد هالني ما جرى منذ ان نقل السائق عوني اليّ تفاصيل ما يتداوله الناس في القنيطرة بشأن الحادث . وفي الصباح الباكر ، كنت أجلس بجانب عوني في الشاحنة في طريقي الى القنيطرة وأستعيد مع السائق بعض التفاصيل فتزداد هواجسي . وفي دار ابي وليد التي أنزلني عوني عندها ، وجدت حشداً كبيراً من الزوار مدنيين وعسكريين ، وهم يتبادلون المعلومات ويتشاورون حول ما يمكن لوجهاء المدنيين عمله من اجل اطفاء النار التي اتقدت . وعرفت ان زملاء عرب نجحوا في اقناع قائد الجبهة بالتخفيف عن زميلهم فتم نقله من سجن مقرّ القيادة الى مكتب النقيب عبد العزيز الوجيه ، قائد المقاومة الشعبية ، حيث أمضى الليل بصحبة زملائه ، لكن بوصفه موقوفاً من الناحية الرسمية . اصطحبت وليد ، وتوجهت الى مكتب عبد العزيز متعجلاً الوصول ، لعلّي أستطيع أن أقوم بما هو مفيد . وعندما بلغت المكتب ، وجدت المكان مكتظاً بالزوار ، فقد سبقني اليه فلسطينيون كثيرون من سكان القنيطرة وآخرون جاءوا خصيصاً من دمشق . ولم اتمكن من الدخول ، فالسلطات التي ساءها وجود هذا الحشد جعلت الشرطة العسكرية تطوق المكان وخولتها حق استخدام القوة لمنع دخول احد جديد اليه . فعدت الى دار ابي وليد فوجدت ان مدير منطقة الأونروا ، صدقي الطبري ، ومفتش التعليم ، قاسم حمد ، قد انضما الى زوار الدار ، وكان الاثنان لبقين ، فلم يشر اي منهما الى ما يعنيه وجودي في القنيطرة من تغيب غير مشروع عن العمل . إلا ان المفتش تحين الفرصة وهمس في اذني : «الأسلم ألا تحشر نفسك في هذه المسألة المعقدة . ليس الأمر أمر تمرد طارىء تمكن معالجته ، إنها الخطة الموضوعة للتخلص من هؤلاء الضباط ، وقد استدرجوا . والآن ، سافر العقيد جادو وكذلك معاونه ابو النور الى دمشق ، وسيبذل كل منهما جهده ، وانا اشك في ان يتمكن العقيد جادو من حماية الضباط . ستنفذ الخطة الموضوعة» .

وفي المحصلة ، صحّ ما توقعه مصباح البديري ذات يوم ، فلم يحل أي من هؤلاء الضباط الى المحاكمة ، لا عرب ولا غيره ، وقد تجنبت السلطة فتح الملفات الكبيرة والتأثيرات التي ستحدثها المحاكمة في أوساط العسكريين والمدنيين . وصدر عن القائد العام للقوات المسلحة قرار بترفيع قرابة أربعين ضابطاً فلسطينياً من رتبة نقيب الى رتبة رائد واحالتهم الى التقاعد في الوقت ذاته ، فكان قصارى ما افلح قائد الجبهة في عمله ، وسط الملابسات العديدة التي أحاطت بالمشكلة ، أن ضمن للمسرحين راتباً تقاعدياً . ثم صدرت بعد ذلك قرارات اخرى انهت وجود بقية هؤلاء الضباط في الجيش السوري فأحيل بعضهم على التقاعد وأوكل لبعضهم الآخر مهمات مدنية . وأذن للجميع بأن ينصرفوا الى أسرهم بسلام في البداية ، ثم تولت الاجهزة المختصة متابعتهم فرداً فرداً ، فاقتيد بعضهم الى السجن ، ونجا آخرون من الملاحقة وفرّوا خارج البلاد ، واستكان بعضهم للمصير الجديد . وكان مصباح البديري وعبد الرزاق اليحيى بين الذين عرفوا سجن المزة ، وكان محمد الشاعر بين الذين فروا الى لبنان حيث تخفى هناك لبعض الوقت ثم وجد طريقه الى صوفيا والتحق باحدى جامعاتها ، واندغمت حكاية الأذى الذي تعرّض له هؤلاء الضباط مع حكايا عديدة مماثلة تعرض لها عسكريون ومدنيون آخرون كثيرون . وانتهى هذا الفصل من قصة الدورة التي ارادت الهيئة العربية العليا لفلسطين ، ذات يوم ، أن تجعل من ضبّاطها نواة الجيش الفلسطيني المستقل ، المأمول . وفعل هذا كله فعله في توجيهي الى الموقف الذي اتجهت إليه ، فصرت مع المعارضين الناقمين .

ومنذ ذلك اليوم ، خالطت أيامي في البطيحة كآبة لم تفلح كثرة المشاغل والعلاقات في تحريري منها . وتوزعت مشاعر الناس من حولي بين اغلبية مستكينة لما يجري غير آبهة بأن يكون لها موقف محدد إزاءه ، وأقلّيات متباينة المشاعر ، منها الساخط الذي يجهر بسخطه والناقم الذي يتوقى المشاكل ، ومنها المبتهج . وتميز على نحو خاص ، موقف ناس السرايا ومَنْ يحف بها من سماسرة وتجار ، إذ بدا أغلب هؤلاء شامتاً ، وقد وجد

في ما حلّ بالضباط النزهاء اشارة تأذن له بالعودة من جديد الى أساليب الاستغلال الموتور دون تهيّب .

في ذلك الوقت ، زارني النقيب سعيد ن . وكان هذا الرجل الـمُلعب اذكى من أن يجهر بالشماتة امامي ، ولم يفته ان يردد عبارات الاسف لأن الجيش خسر هذا العدد الكبير من ضباطه الأكفياء دفعة واحدة . غير ان شماتة النقيب كانت مقروءة في عينيه دون عناء . وهو لم يتمكن ، على كل حال ، من اخفاء مشاعره الحقيقية لوقت طويل ، اذ لم يلبث أن كشف عن موقفه من خلال عرضه لما يعتقد انه السبب في التسريح . فكان من رأيه انها السياسة . وقد اخذ النقيب ن على الضباط المسرحين انهم جلبوا لأنفسهم المشاكل بأنفسهم حين غلبوا الوازع السياسي على الوازع الحرفي وتصرفوا بوصفهم كتلة داخل الجيش ، كما أخذ عليهم أنهم تعللوا بأوهام كبيرة حين ظنوا ان بالامكان اخراج الزير من البير ، وكان من رأيه أن هؤلاء الضباط لو استخدموا كفاءاتهم لتدبير امورهم لجنوا منافع كثيرة ولما تعرض لهم أحد بسوء . وكان في هذا الذي ذكره النقيب امامي ، أنا صديق المسرّحين ، قول حق أريد به الكثير من الباطل . فقد شنّ النقيب ذاته ، في المجالس التي لا احضرها ، حملة شديدة الضراوة ضد هؤلاء الضباط ، فاتهمهم بالصلف والغرور وأخذ عليهم انهم يتشبثون بالتصرف كفريق غريب بالرغم من حصولهم على الجنسية السورية ويرفضون الاندماج في المجتمع الذي آواهم ويراعون مصالح بعضهم البعض ويحابون مواطنيهم الفلسطينيين ويهملون الآخرين .

أما ابو عدنان الصرصور الذي اعتاد ، كما تعرف ، اظهار بعض المودة تجاه هؤلاء الضباط لأنهم فلسطينيون مثله ، فإن مصالحه ، وحدها ، هي التي رسمت موقفه من تسريحهم . وأخذ أبو عدنان يهاجم المسرحين هجوماً مبطّناً ، يتخذ في الظاهر سمت الدفاع ليثبت ، في الواقع ، اشنع التهم : «ما الذي جعل البديري يحمل السلم بالعرض ، ويقف ضد علية القوم من اهل البلاد ، وهو اللاجىء المسكين ، الغريب الذي ينبغي أن يكون أديباً ، هل هو قدّ فؤاد بك حتى يحرض الناس ضده ، هل هو الموكل بأرزاق الناس

محلّ ربّ العالمين ، وما الذي جناه الصيادون من رفع أسعار السمك ، لقد فتح المال الزائد عيونهم فصاروا يلبسون الجينز ويشترون أغلى الراديوهات ويجلبون الأسرّة بعد أن عافوا النوم على الأرض التي ينام عليها خلق الله أجمعين ، بطروا فزادت ديونهم . والفلاحون الذين حرّضهم مصباح ضدنا ، ماذا كسبوا ، أراد أن يضع العين فوق الحاجب ضد ارادة الخالق الذي جعل لكل مخلوق درجة لا يتخطاها . ومحمد الشاعر ، هذا الذي كان يصرخ في وجه مهندس بحاله لو اضاع مسماراً ، هل نفعه حرصه على مال الدولة . ولماذا يضيّع عرب مستقبله بسبب المخاتير ، أليس هؤلاء المخاتير من الفلاحين الذين لا تنفع معهم الاّ الشدة؟!» . بمثل هذه الأقوال ، كان أبو عدنان ينفث حقده أمام الفلسطينيين من سكان البطيحة ؛ أما في المجالس التي تضم السوريين فكان سمسار الخضار يهاجم المسرّحين بلا تحفظ ويتوعد كل من يسلك سلوكهم بأن يلقى المصير الذي آلوا إليه .

وفي السرايا ، كان أشد ما ابهجهم ان الجبهة تخلصت من الشيوعيين الذين جاءوا إليها بافكار مستوردة لا تصلح لناسنا او زماننا . وقد لقيني أبو قاسم . وكيل البنك ، مرّة على الطريق وهو على فرسه وانا راجل ، وكان من عادة الرجل ان يوجه لي تحية فاترة دون ان يتوقف ؛ اما في تلك المرة ، فقد لجم فرسه بحركة مجلجلة شاء بها ان يلفت نظري ويفرض علي التوقف . ومن موقعه على ظهر الفرس ، بادرني أبو قاسم ، دون تحية : «الست مشتاقاً للعاصمة ، هل تنوي ان تبقى عندنا بعد أن رحل اصحابك؟!» .

والحقيقة ان فكرة الانتقال من البطيحة كانت قد راودتني منذ عدت إليها في بداية العام المدرسي ولاحظت تبدل الأحوال فيها . ثم جاء هذا الحادث فحفزني على التفكير الجدّي بالانتقال . ولكني كنت قد ألفت أجواء الريف وتعلقت بناسٍ كثيرين في المنطقة غير هؤلاء الذين مضوا . أما العاصمة فلم أكن محروماً منها ، إذ كنت اذهب اليها مرتين أو ثلاثاً في الشهر وأقيم فيها خلال العطلة الصيفية الطويلة . واذا كان الامر أمر شكوى من التطورات السلبية فان تجليات هذه التطورات في العاصمة كانت أسوأ

مما هي عليه في الريف والمشاكل التي قد اجد نفسي منخرطاً فيها هناك اعقد واقسى .

كنت اراوح بين الرغبة في الانتقال ونقيضها الى ان حملتني نصيحة الطبيب على حسم أمري . فقد اشتدت عليّ آلام المفاصل وصار وجع الظهر يؤرقني ليل نهار ، فوصف لي طبيب الاونروا في القنيطرة التداوي بمياه الحمة المعدنية ومنحني اجازة اسبوع قضيتها في هذا المنتجع الحدودي . واذ لاحظت ان قرية الحمة ، وهي قرية فلسطينية نجت من احتلال الاسرائيليين لها في العام ١٩٤٨ ، تضم مدرسة للأونروا ، فقد تبلورت الفكرة : لماذا لا انتقل الى الحمة حيث ابتعد عن البطيحة وأبقى في الريف وأظفر بالعلاج؟ وبهذا ، انتهى ترددي ، واودعت في مكتب مفتش التعليم في القنيطرة طلباً خطياً بالانتقال الى الحمة في العام الدراسي القادم . ولما كنت واثقاً من استجابة ادارة التعليم لطلبي ، فقد ودعت البطيحة وداع مَنْ لن يعود للعمل فيها مرة ثانية ومنيت نفسي بالعودة إليها زائراً ، بين وقت وآخر .

٨ حين وجدتني أفهم من عبد الناصر

احتوتني شقة ملفينا من جديد، بنظافتها ونظامها وآداب السلوك المديني الراقي الذي توجبه الاقامة فيها. وقام عدنان باصلاح ما اضطرب من مظهري فخاط لي بذلة وبناطيل جديدة. أكملت ملفينا المهمة، فانتقت بقية الملابس التي اعادت لي مظهر ابن المدينة. ولأن ارتداء الملابس الريفية، حتى في الريف، كان يغيظ هذه السيدة الحريصة على مواءمتي مع مجتمعها، فقد بادرت، دون علمي، الى اتلاف ما حوته حقيبتي من هذه الملابس. وكنت قد انبأت الراعية التي صار لها في حياتي مقام الأم بأني طلبت الانتقال من البطيحة لكنني لم أجرؤ على مصارحتها بأني سانتقل الى الحمة، فوطدّت أمرها على أساس أني سأقيم في دمشق وانتهي من التطوح بين العاصمة والريف.

وجرت محاولة اخرى لاعادتي الى حظيرة الأسرة. جاءت المبادرة هذه المرة، لدهشتي الشديدة، من خالي نافذ نفسه. كان الخال قد غدا موظفاً عالي الدرجة في المديرية العامة للجمارك ووجيهاً من وجهاء الفلسطينيين

المعدودين في الوسط المحافظ في العاصمة السورية ؛ وكان يتابع احوالي وانا بعيد عنه ، فيسمع عني انباء طيبة ويجد أني أتبع السلوك المستقيم ، خلافاً لما تنبأ به ، فينحل سخطه عليّ . وكانت العلاقة بين شقيّ الاسرة ، الذي فوق والذي تحت ، تمر بواحدة من فترات الهدوء القليلة التي شهدتها . ولا بدّ ان ذلك تمّ بتأثير التحسن في موارد الاسرة ، بعد ان استقر نافذ وعمر نهائياً في دمشق والتحق غالب بدار المعلمين العليا ، او كلية التربية ، التي تدفع للدارسين فيها راتباً شهرياً لا بأس به . ويبدو انهم في الاسرة تذاكروا بشأني ، بعد الزيارة التي اديتها لهم في بداية العطلة ، وتحدثوا عن مرضي وحاجتي الى الرعاية ، فاظهر الخال موافقة غير متوقعة على عودتي وتعهد بأن يعيدني اليهم بنفسه . وجاء الخال لزيارتي ، ولم اكن موجوداً في الشقة ، فأحسنت ملفينا استقباله ، وتبادل الاثنان حديثاً طويلاً ، سمع خالي خلاله شهادة راعيتي حول سلوكي ، وكانت ، بالطبع ، شديدة الإيجابية . وترك لي الخال رسالة تدعوني الى لقائه في المجلس الذي يعقده مع أصحابه كل يوم جمعة ، قبل الصلاة ، في مقهى الحجاز ، فلبيت الدعوة ، مفاجئاً بها مثل مفاجأتي بالزيارة .

وفي المقهى الذي يكتظ برواده في ذلك الوقت ، استقبلني خالي بمودة غامرة ، وقدمني لمن لا أعرف من أصحابه بصفتي ابن أخته العزيز وربيبه الذي آثر الاقامة على حدود فلسطين وخدمة الناس هناك على الإقامة في العاصمة ، ثم انتحى بي جانباً وبادرني بأن قدم لي سيجارة من علبة يحملها هو الذي لا يدخن ، من أجل ضيوفه فقط : «أعرف انك تدخن ، فلا تحصر نفسك!» . لقد اراد الخال لبادرته ان تكون فاتحة طيبة للحديث الذي أعدّ نفسه له . أما انا ، الذي يجهل طبيعة الحديث ، فقد استخلصت عكس ما أراده الخال ، وحركت كلماته نفوري ، ذلك اني وجدت ان الخال يتصرف بوصفه صاحب السلطة عليّ ، فالذي يعطي لنفسه حق الاذن بالتدخين يفترض ، ضمناً ، أنه يملك حق منعي عنه . وهكذا جاء رد فعلي جافاً ، اذ رفضت سيجارته وقلت : «لا تشغل بالك بتدخيني ، سادخن حين اشتهي أنا» ، ثم تعمدت ان أتأخر في اشعال السيجارة التي استللتها

من علبتي . ولا بدّ ان جفائي قد صدم الخال وأربكه هو الذي توقع أن أظهر امتناني الشديد لتسامحه معي في مسألة التدخين أمامه . وقد عرض الخال مبادرته بنبرة مَنْ يعرض صفقة ، وقال ان الأهل راغبون في عودتي اليهم وانه لا يمانع في ذلك . وادركت من جانبي اني تعجلت في اظهارِ الجفاء فلينت الحديث ، حتى أني عرضت على الخال علبة سجائري داعياً اياه ان يدخن ان كان قد صار من المدخنين ، فلما رفض ، قلت مبتسماً : «اعرف انك لا تبدل طباعك» ، وشئت ان يجيء هذا القول الملغز فاتحة لجوابي على المبادرة . يومها ، تبسطت في عرض وجهة نظري حول علاقتي مع الأسرة ، تكلمت ببساطة وصدق ، وتعمدت ان ابيّن افكاري وموقفي باقصى ما يمكن من الوضوح . وسمع الخال منّي ان بقائي بعيداً عن الاسرة هو لمصلحة الطرفين ، فقد تمايز تفكيري وسلوكي عما هو مألوف ومقبول لدى أسرتي وأدّى طول الفراق الى توسيع التمايز ، ولو عدت للعيش معهم فلن يعني هذا الا العودة الى المشاجرات . وسمع الخال مني أني أحبّهم كما يحبونني ولا أتمنى لهم الا الخير واني مستعد لعمل أي شيء يسعدهم الا فرض نفسي عليهم من جديد . واقترحت على خالي أن نحتفظ بعلاقة طيبة ، كما يفعل الأقرباء حتى وهم لا يعيشون في منزل واحد . وشئت ان اثبت حسن نيتي ، فعرضت أن تقبل الأسرة مني مساهمة في نفقاتها ، وقلت إني أعدّ القبول بهذه المساهمة دليلاً على إيمانه بإمكانية إقامة العلاقة الطيبة بيننا .

وبين كل ما قلته في اللقاء ، كان هذا العرض الأخير هو الذي احنق الخال حنقاً لم أجد أنا له مبرراً حتى لو قست الامر بمعايير خالي وليس بمعاييري . ولا بدّ انك تعرف ان قيام الصغار بدعم الاسر التي ربّتهم أمر مألوف ، بل هو واجب تفرضه الاعراف على الصغار حين يكبرون ويصير لهم دخل مستقل . فلماذا حنق خالي لمجرد أني عرضت الأمر عليه؟ يصعب على مَنْ لا يعرف حساسية نافذ المفرطة أن يفهم ردود فعله الحادة . وأغلب الظن أن الخال الذي شال عبء الاسرة طيلة السنوات العشر السابقة خشي أن أتوهم أنه بدعوته لي الى العودة انما يطمع في

الحصول على المال . وان صحّ هذا الظن فهو يعني اني اهنت مشاعر خالي النبيل وهبطت بأريحيته الى مرتبة المساومة على منفعة . ومهما يكن من أمر ، فان حنق الخال انعكس للتو في سلوكه . فقد فارقني دون ان يدعوني للعودة معه الى مجلس الأصحاب . ولما تبعت الخال الى المجلس ، تجاهل هو وجودي كلية ، وبقي على هذا الحال الى ان حان موعد الصلاة فغادر المجلس دون ان يودعني .

عدا هذه الواقعة التي عكرت مزاجي وسببت لي هموماً ستعرفها بعد قليل ، لم يكن هناك أي شأن شخصي آخر يمنعني عن الانصراف الى التحضير لامتحانات الجامعة . كانت سنتي الأولى في القسم الذي انتسبت إليه مخصصة ، في المقام الاول ، لدراسة علم الاجتماع وعلم احصاء السكان ، مع الالمام بمبادىء الفلسفة العامة . وكان عليّ ، وقد فاتني الاستماع الى محاضرات الأساتذة أثناء العام الدراسي ، أن أعود الى المراجع التي حددها أساتذة المواد المتعددة والملخصات التي اعدها الطلاب عن محاضراتهم . كان مرجعنا الاول في علم الاجتماع الكتاب الذي يحمل هذا الاسم والذي ألفه استاذ المادة الدكتور عبد الكريم اليافي . كما كان مرجعنا في علم الاحصاء كتاباً بهذا الاسم ألّفه الدكتور نفسه ، ويعرف من درس على اليافي او قرأ له أن لهذا الأستاذ الكبير اسلوباً اخاذاً يجتذبك الى المعرفة ويمتعك بها ، حتى حين يتناول اعقد المسائل . وكان الاستاذ اليافي مولعاً بجودة الأسلوب وسلامة اللغة وسلاستها وجمالياتها ، يشرح العلم فيجيء الشرح فنّاً يملأ العقل ويشبع الروح . وكان يصدر ، في ما يحكي او يكتب ، عن معرفة وافية بالموضوع الذي يتناوله واطلاع عميق على العلوم المساعدة وإلمام واسع بمعارف العصر الراهن والعصور السابقة . كان هذا الاستاذ ، كما يمكن وصفه بكلمات قليلة ، عالماً في ميدانه موسوعياً في ثقافته العامة ، كما كان ذواقة للجمال قادراً على تزيين كتابته العلمية ببدائع الثقافة الفنية الراقية . وعلى هذا ، كان بامكاني أن ألمّ بالمقرر في علمي الاجتماع والسكان ، دون عناء . بل أن التهمه التهاماً . أما الصعوبات فواجهتني في مادتين : النصوص الانجليزية

التي تضم مواد في علم الاجتماع ، والفلسفة العامة التي درسها في ذلك العام الاستاذ المحاضر مطاع الصفدي . كنت وقتها ، مثلي مثل الذين درسوا المرحلة الثانوية في المدارس السورية ، أعاني ضعفاً مريعاً في اللغة الانجليزية ، وكان من الصعب عليّ ان افهم نصوصاً من علم الاجتماع بهذه اللغة . أما مع الفلسفة فقد اختلفت طبيعة المصاعب . فمطاع الصفدي ، أستاذ المدرسة الثانوية غير الحامل لدرجة علمية عالية في الفلسفة ، جيء به ليحاضر في الجامعة بسبب نقص الأساتذة المؤهلين ، على الاغلب . وكان الصفدي مفتوناً بالفلسفة الوجودية فركز محاضراته حولها . ولم يؤلف كتاباً بل جعل الطلاب ينسخون محاضراته لتصير هي المرجع ، وسمّى عدداً قليلاً من الكتب المترجمة الى العربية او المؤلفة فيها ليستخدم الطلاب فصولاً منها مراجع مساعدة . وقد استعرت موجز محاضرات الصفدي من أحد الطلبة فاتعبتني قراءته ، لا لأن الموضوع صعب في حدّ ذاته بل لأن المحاضر لم يشرحه بلغة مفهومة او لأن الطالب لم يوجز المحاضرات على وجه صحيح . وكاد يسقط في يدي لو لم أعرف أن جهة ما طبعت نصوص المحاضرات ، على آلة الستانسل ، كما ألقاها الاستاذ . فدفعت الثمن المرتفع لهذه المطبوعة وقرأتها فتبين لي ان الامر لم يصبح اسهل ، إذ ما زال الكلام غير مفهوم . وقد قدرت ان الخلل نابع من واحد من امرين : فاما أن المحاضر خاض في موضوع لا يتقنه تماماً فعجز عن التعبير عنه ، او ان اسلوبه في التعبير قاصر عن ايصال أفكاره الى الآخرين . ولما كان لا بدّ من حل ، فقد بحثت عن كل ما هو متيسر من مراجع حتى اتمكن من مقاربة الافكار المقررة ، وصرفت وقتاً طويلاً في القراءة كي استخلص ما أراد محاضر المادة قوله عبر العبارات الركيكة او المعقدة .

في غضون ذلك ، تعرفت على طالبة فلسطينية قادمة من عمّان ، كانت مثلي ، تعمل في التعليم وتجيء الى دمشق وقت الامتحانات . عرفني على هذه الطالبة احد زملاء الرابطة حين عرف رغبتي في الدراسة مع مَن يساعدني في فهم النصوص الانجليزية . وقد اتضح أن «سميّة» ، وهذا هو

الاسم الذي سأطلقه على الطالبة دون ان يكون اسمها الحقيقي ، هي ابنة لاجئ فلسطيني هُجّر من يافا وانتهى به التطواف الى عمان وانشأ تجارة وعلّم اولاده جميعاً ، صبياناً وبنات . وقد أدركت منذ لقاءاتنا الأولى أن سمية على معرفة حسنة بالانجليزية ، كما ادركت انها عانت مثل ما عانيت في فهم مادة مطاع الصفدي . وانتهى أمرنا الى ان صرنا ندرس طيلة النهار وفي الأماسي ، كل المواد ، تعاونني سميّة في فهم النصوص الأجنبية وتستعين بي في فهم الفلسفة ونذاكر المواد الاخرى معاً . بدأنا اثنين ، ثم انضمت الينا صديقة لسمية قادمة هي الاخرى من عمان ، ثم اجتذب الجو الجاد صديقات وأصدقاء آخرين ، فتشكلت منا حلقة واسعة وصار لنا مجلس دائم في نادي الطلاب . واشتهرت حلقتنا بين الحلقات المماثلة بأنها الوحيدة التي تضم عدداً من الإناث أكبر من عدد الذكور . وجعل أصحابي من هذا الوضع مادة للتندر ، فصار اسمي الرمزي بينهم هارون الرشيد . واستغرق التحضير للامتحانات ثم الامتحانات ذاتها ، وكنا نؤديها شفاهة وكتابة ، ستة أسابيع ، فتوثقت صلات المنضمين للحلقة ببعضهم البعض ، وصار لي بينهم أصدقاء حافظوا على الصداقة زمناً طويلاً . وتوثقت ، بصفة خاصة ، صلتي بسميّة ، حتى يمكن القول ان حبي لها تأسس في تلك الفترة التي كنا نقلب فيها الرأي حول مسائل الوجود وما وراء الوجود .

في ذلك العام ، نجحت في المواد كلها منذ دورة الامتحانات الأولى ، حتى الانجليزية التي ظفرت فيها ، أيضاً ، بدرجة جيدة . ونجحت ، كذلك ، الطالبات اللواتي واظبن على حلقتنا ، جميعهن ، فنسبن الفضل في هذه النتيجة الباهرة الى جهودي وصبري الطويل في الشرح وعددنني فلتة زماني . وعندما نقلت النتيجة الطيبة الى سميّة بالهاتف ، بدت سعيدة وفخورة ، وواعدتني على لقاء قريب يضمنا حين تجيء الى دمشق لتسجل نفسها للسنة الجامعية القادمة .

اما الهموم العامة ، فلم اكن بمنأى عنها اثناء الانصراف للدراسة ، ثم إني تفرغت لها كلّية بعد الامتحانات . وقد لاحظت كم تبدل جوّ

العاصمة السياسي وازداد ضيقاً وقسوة، وكم شاب أحاديث الناس وسلوكهم ذلك الحذر الذي تفرضه سطوة النظام البوليسي. صحيح ان الامر لم يصر مماثلاً لما كان عليه أيام الشيشكلي، غير أنه اشتمل على ما يذكّر بتلك الأيام. وقد يصعب عليك ان تدرك الفارق بين الحالتين إنْ لم تكن قد مررت بهما كلتيهما او بما يماثلهما. فالشيشكلي كان مبغوضاً من غالبية الجمهور الساحقة وقد وصل الناس في عهده الى ما يشبه الاجماع على مقاومة نظامه، وكانت انتقاداتهم تطال أوجه سياسته كلها، الداخلية والخارجية، وكانت جهودهم متوافقة على العمل من اجل اسقاطه. أما عبد الناصر فلم يصر مبغوضاً من غالبية الجمهور في اي وقت من الاوقات، بل إن الأدعى الى الصواب القول إن الاغلبية احبت فيه صورة البطل القومي التي كانت له، وايدت كثيراً من اوجه سياسته. أما الانتقادات فقد تركزت على بعض أوجه هذه السياسة وطالت اساليب تطبيقها كما تركزت على اجراءات القمع الشديد التي استهدفت المعارضين. وكانت الغالبية راغبة في الإصلاح، وما كانت هناك سوى اقلية ضئيلة تستهدف اسقاط النظام وفك الوحدة. الا ان أجهزة النظام البوليسية، وأخصها الأجهزة التي يشرف عليها عبد الحميد السرّاج، تعاملت مع كل منتقد على أنه عدو للنظام ولم تتورع عن الفتك بمن طالته أياديها. بل ان هذه الاجهزة نظرت بريبة الى كل مَنْ لا يجهر بالولاء والحماس للنظام ويجاري أجهزة إعلامه في تأليه الرئيس. الواقع أن معظم الانتقادات ومشاعر الامتعاض ضد تأليه الفرد صدرت عن ناس تقدميين تواقين للديمقراطية، فكان من نتيجة ذلك ان انصبت إجراءات القمع على رؤوس التقدميين، ففقد كثيرون منهم مراكزهم في الجيش وفي الادارات المدنية، وتشكل منهم جيش من الساخطين. وقد توزعت مواقف القوى السياسية، السرّي منها والمعلن، المنظم والمفتقر الى التنظيم، على تيارات عدة، فتراوحت المواقف بين الاصرار على التشبث بالوحدة ذاتها مع المثابرة على المطالبة بالاصلاح الديمقراطي، واليأس من امكانية تحقيق الاصلاح إلا بإسقاط النظام وفك الوحدة.

كان الشيوعيون الذين تلقوا أقسى ضربة عرفوها في تاريخهم قد انتهوا الى اليأس التام من امكانية الاصلاح . اما البعثيون ، الذين فقدوا تنظيمهم ، فظلت جمهرتهم الغالبة مؤيدة لاستمرار الوحدة ، فيما ظهرت بينهم فرق انتهت ، ايضاً ، الى اليأس . أما ناس الأحزاب المحافظة والذين على شاكلتهم من غير الحزبيين ، فقد استفادوا من صراع اجهزة الدولة مع التقدميين ، فعززوا مواقعهم واتبعوا نوعاً من التقية فلم ينخرطوا في نشاطات صريحة معادية للنظام ولم يبددوا ، بالتالي ، قواهم في الصراع معه ، وراحوا يترقبون نتائج الصراع بين النظام ومعارضيه التقدميين معززين آمالهم بأن هذه النتائج ستدفع الرياح باتجاه طواحينهم .

وفي رابطة الطلاب الفلسطينيين ، التي صارت فرعاً للاتحاد العام منذ تشكيله رسمياً ، توزعت مواقف جمهور الطلاب بين تأييد البعثيين من دعاة الاصلاح وتأييد القوميين العرب المتشبثين بولائهم المطلق للعهد وزعيمه . اما الشيوعيون فكان حضورهم في الفرع محدوداً للغاية . واما القوى المحافظة فلم يكن لها حضور يذكر في الوسط الطلابي الفلسطيني ، التقدمي بطبيعته . وكان البعثيون الممنوعون من ممارسة النشاط العلني والمراقبون مراقبة صارمة من اجهزة الأمن يشددون التحرك في اي مجال لا تثير فيه نشاطاتهم ردود فعل حادة بين الأجهزة ، فتركز جلّ نشاط هؤلاء في المنظمة الطلابية الفلسطينية الشرعية والمنظمات الطلابية العربية الأخرى المماثلة . والى جانب الاهتمام بالشأن الفلسطيني ، اهتم البعثيون ، ايضاً ، بالثورة الجزائرية وأقاموا أوسع العلاقات مع الطلاب الجزائريين الذين يدرسون في دمشق . وقد اتفق أن تنظيم عرب فلسطين وجّه من جانبه عناية خاصة لشؤون هذه الثورة ، عاكساً ، بذلك ، الاهتمام الفلسطيني الكبير بها ، فوجدتني انا المتصل بالبعثيين وعرب فلسطين منخرطاً في الشؤون الجزائرية انخراطاً وثيقاً . وتوزع وقتي المخصص للنشاط العام بين الفرع الفلسطيني ورابطة الطلاب الجزائريين ومكتب ممثلية جبهة التحرير الوطني الجزائرية .

كان رئيس هذا المكتب هو الشيخ محمد الغسيري ، وهو رجل عصري

المظهر والسلوك ، جمّ الأدب دائب النشاط ، اقترن لقب الشيخ باسمه لأنه كان منتمياً الى رابطة العلماء الجزائريين التي ضمت الوطنيين من رجال الدين في الجزائر وكانت هذه واحدة من المنظمات المهمة التي رفدت الثورة . وكنت مثل كثيرين غيري أتردد على المكتب ، والتقي الشيخ الغسيري ، وأعرض المساعدة في اداء أيّ مهمة يحتاج المكتب لها . وكان عدد من البعثيين قد بادر لاصدار نشرة تتضمن اخبار الثورة الجزائرية ، وكان هؤلاء يتولون بيعها ويقدمون الريع للمكتب ، فرحت اشارك في هذا العمل ، أيضاً . وكانت الروابط الطلابية تخصص جانباً كبيراً من نشاطاتها لدعم الثورة الجزائرية ، فصرت مساهماً نشيطاً في ما تشهده الروابط من امسيات وندوات ومحاضرات أو ما تنظمه من مظاهرات . وتوثقت صلاتي بعدد كبير من الطلاب الجزائريين ، وصرت ألتقي بعضهم يومياً ، فأعرف المزيد عن أحوال الجزائر .

وبالتأثير اللامع للثورة الجزائرية ، استعاد كثير من الفلسطينيين والسوريين المنحدرين من أصل جزائري اهتمامهم بأصلهم هذا . وهذا ما فعله ابو وليد الكبير ، وكذلك صبحي عرب الذي غدا يعدّ نفسه فلسطينياً وجزائرياً في آن واحد ويفاخر بذلك . وعن طريق هذين الصديقين ، تعرفت على احفاد الامير عبد القادر الجزائري الذين واصلوا العيش في دمشق منذ نفي جدّهم اليها في القرن الماضي . زرت منازل الأسرة ، وعرفت الأمير سعيد أكبر الاحفاد الأحياء سناً كما عرفت الامير طارق حفيد سعيد وأصغر الجميع ، وكان ناس هذه الاسرة ، على ما بين اجيالهم من تفاوت ، ما يزالون يحتفظون بارستقراطية الأصل الذي انحدروا منه ، إلا أنهم حين يتعلق الأمر بدعم ثورة وطنهم الاصلي ، كانوا بين المبادرين . والحقيقة ان دراسة هذا الوضع في سلوك افراد الاسرة واحاديثهم استهوتني . وكان من المثير ان تراقب ناساً ورثوا مجداً صنعه جدهم البعيد وتوارثوا ذكريات الجهاد البطولي لهذا الجدّ ، ثم اندمجوا في الحياة السورية جيلاً بعد جيل الى ان جاءت ثورة وطنهم الجديدة ، الثورة التي لم يكن لهم يد في صنعها ، فأحيت في نفوسهم ذلك النوع من الحنين الذي تختزنه نفوس

المغيبين عن وطنهم وتتوارثه اجيالهم المتعاقبة .

ومع اقتراب العطلة الصيفية من نهايتها ، بدأت الاستعدادات لانتخابات فرع اتحاد الطلاب . وكان البعثيون ما يزالون يشكلون اكبر الكتل المؤثرة في الوسط الطلابي الفلسطيني ، وقد حرصوا اشد الحرص على الاحتفاظ بالهيمنة على قيادة الفرع ، هم الذين يهيمنون ، أيضاً ، على قيادة الاتحاد العام ، ويحشدون فيها عدداً من اكفأ عناصرهم . إلا أن ملاحقة السلطة للبعثيين وتضييقها على نشاطاتهم جعل الوضع كله حرجاً . لقد ضمت قيادة الاتحاد العام من البعثيين رئيس الاتحاد ، زهير الخطيب ، وامين سره العام ، لطف غنطوس ، كما ضمت يوسف عيسى وحمزة البرقاوي وآخرين . وكان هؤلاء بحكم اقامتهم في القاهرة مطلعين اطلاعاً جيداً على مجريات الامور في الجمهورية العربية المتحدة . وقد علم هؤلاء من مصادر خاصة بهم في عاصمة الجمهورية ان السلطات ستلجأ الى إقفال أي فرع للاتحاد يفوز المرشحون البعثيون بقيادته ، وكان ان لجأ البعثيون في دمشق إلى تكتيك يجنّبهم هذا المصير فرشحوا اثنين ، فقط ، من اعضائهم المعروفين واكملوا القائمة بسبعة آخرين يعرفهم معظم الطلاب على انهم مستقلون في حين ان من بينهم ، في واقع الامر ، خمسة بعثيين . وأراد البعثيون أن أترشح على قائمتهم بصفتي مستقلاً ، في حين أراد عرب فلسطين ترشيحي ممثلاً لهم ، غير أني اعتذرت في الحالتين ، وكان عذري اني لن اقيم في دمشق ، وهو عذر اقنع الطرفين . وبذل القوميون العرب جهد المستقتل للاستئثار بقيادة الفرع . وكان الامر ، بالنسبة لهم ، امر اثبات وجود ليس أمام تنظيمهم وطلابهم فحسب ، بل امام السلطة التي يوالونها ، إذ ستزيد منزلتهم عندها لو فازوا في الانتخابات . وتطاحن البعثيون والقوميون العرب ، فكانت معركة انتخابية لم يشهد الوسط الطلابي أحدّ منها في اي وقت مضى . واستنفر كل تنظيم عناصره ، وأصدقاءه ، وجهده بالكامل ، وانتضى أسلحة التشهير بالتنظيم الآخر : البعثيون ، في دعاية القوميين العرب ، اعداء للوحدة ومرتدون ، والقوميون العرب في دعاية خصومهم متغاضون عن اخطاء

النظام وأذناب للسلطة . وفي المحصلة ، احتفظ البعثيون المعلنون والمتكتمون باغلبية الهيئة الادارية ، وفاز انيس الخطيب عن عرب فلسطين ، ولم يفز أي من القوميين العرب . هذه النتيجة لم ترض السلطات بالطبع ، لكنها لم تحملها على اقفال الفرع .

يقيناً ان حركة القوميين العرب لم تكن في أضعف حالاتها حتى تمنى بهذه الخسارة ولا كان البعثيون في أقوى حالاتهم . وكل ما في الأمر أن الحركة دفعت في الانتخابات ثمن موالاتها للسلطة التي كثر منتقدوها بين الطلاب ، في حين جنى البعثيون ثمرة وجودهم في المعارضة . كانت الحركة اكبر تنظيم يضم فلسطينيين . لكن هذا التنظيم كان عاجزاً عن مواجهة السخط المتزايد ازاء الامعان في القمع ومظاهر تأليه الفرد وازاء التلكؤ في الدخول في المواجهة التي يترقبها الفلسطينيون مع اسرائيل . أما البعثيون فكان تنظيمهم ، كما تعرف ، مشتتاً ، ولكنهم كانوا يستندون الى قاعدة عريضة الانتشار من الاعضاء السابقين من مختلف الجنسيات العربية ، وكانوا قد شرعوا في اتقان اساليب العمل السري فجعلوا من فرع الاتحاد ميداناً يستقطب جهود المعارضة كلها في مواجهة الاتحاد القومي الفلسطيني الذي يستقطب الموالين للسلطة والذي غدا بغير فعالية . ولم يقتصر تأثير وجود الفرع ، كونه المنبر الفعال للمعارضة ، على الوسط الطلابي وحده ، بل انداح ليصل الى الاوساط الفلسطينية الأخرى ويفعل فعله فيها جميعاً .

وحين فشلت جهود الفلسطينيين في تأسيس أيّ منظمة علنية مستقلة اخرى ، اذا استثنينا رابطة معلمي الأونروا المحكومة وفق انظمة الوكالة الدولية بعدم العمل في السياسة ، بقي الفرع هو المنظمة الوحيدة المتاحة للنشاط ، فاتجهت انظار الجميع إليه ، وكانت انتخابات الفرع حدثاً يشغل المجتمع الفلسطيني بأسره ، وتتداول نتائجه في كل مكان .

والحقيقة أن نتائج الانتخابات في تلك السنة ، وقد جاءت ، مرة اخرى ، بقيادة غير راضخة للسلطة ، اوجدت ارتياحاً عاماً . وكان

الفلسطينيون يقارنون بين ما آل اليه حال المنظمة الطلابية السورية منذ حولتها أجهزة السلطة الى ذيل لها ، وصمود المنظمة الفلسطينية وجرأة قيادتها ، فيشعرون بالاعتزاز ، وتتأسس في اوساطهم روح التحدي ، فيزداد بينهم الجاهرون بضرورة استقلال العمل الفلسطيني عن توجهات السلطة ودعايتها . وقد تعرض عبد الحميد السراج في تلك السنة ، وهو أقوى رجال السلطة من السوريين ، لحادث في مخيم اليرموك نجم عن كره الفلسطينيين لهذا الرجل الذي أبى أن يأذن بأي نشاط مستقل لهم . جرى الحادث حين خف السراج الى المخيم بعد تلقيه انباء عن اضطرابات وقعت فيه . دخل السراج المخيم في سيارته الرسمية المعروفة وسط الموكب المألوف الذي يحيط به ، ظاناً ان هيبة السلطة سوف توقع الرعب في نفوس سكان المخيّم . الا ان الجمهور واجه الرجل القوي ورجم سيارته بالحجارة فأرغمه على ان يعودٍ من حيث أتى دون ان يمكنه من مغادرة السيارة . وقدم هذا الحادث دليلاً آخر على عمق كره الفلسطينيين للحاكم المستبد وجرأتهم في المواجهة ، كما وفر للأجهزة الامنية سبباً آخر كي تتشدد في مراقبة ناس المخيمات . كل ذلك دون ان تكف جمهرة الفلسطينيين عن تعلقها بعبد الناصر وتعويلها على زعامته ، وتنزيهه عن مسؤولية السلبيات .

في تلك الفترة ، كانت مشاعري قد تحوّلت كلية الى جانب البعثيين في موقفهم من سلطة الجمهورية العربية المتحدة ، وصار موقف القوميين العرب الذين يوالون السلطة ولاء مطلقاً يغيظني غيظاً شديداً ويطلق لساني في التشنيع عليهم بوصفهم «ملكيين اكثر من الملك» . اما موقف الشيوعيين فلم أتمكن من فهمه ، ولم أفهم ، خصوصاً ، لماذا يناهض هؤلاء وحدة مصر وسورية ويدعون الى فكها ويشنعون حتى على الإجراءات التقدمية التي تتم في ظلها ، ولا يقصرون معارضهم ، كما يفعل البعثيون ، على السلبيات وحدها . واما عرب فلسطين الذين يتعففون عن اتخاذ موقف ازاء ما يجري بدعوى خصوصية العمل الفلسطيني ، فقد ضقت بموقفهم . وكنت التقط ما أسمعه في مجالس البعثيين وأضيف إليه ما تمليه عليّ مشاعري وأخوض المعامع بهذه العدة هنا وهناك ، مطلقاً للساني العنان

في انتقاد السياسة والتشنيع على الحكام وتوزيع النكت الساخرة التي اخذ الناس يتداولونها بشغف شديد. وانتهى امري بأن صرت بين الطلاب الفلسطينيين المعارضين من أحدّهم لساناً واشتهرت بالجرأة في الانتقاد، وسرّني هذا التميز.

كانت تلك، اذن، عطلة صيفية ساخنة، وقد قضيتها متجولاً بين الجامعة ومقرّات المنظمات الطلابية والمكتب الجزائري ومنازل الاصدقاء ومقهى الهافانا والكمال الصيفي، حاملاً لساني المشحوذ وناشراً آراء المعارضة وانتقاداتها في كل مكان. وكنت، كما وصفني، آنذاك، احد الزملاء، واغلب الظن انه سامي قنديل، اذاعة متنقلة، أو كما وصفني لطف غنطوس في احدى زياراته لدمشق، «المشيع أركان حرب»، على وزن «المشير أركان حرب»، اللقب المقترن باسم عبد الحكيم عامر، نائب عبد الناصر. وكان الجوّ البعثي مفعماً بالحيوية، وقد اخذ الذين تمتعوا بعضوية حزب البعث قبل حلّه في سورية، من أيّد منهم الحلّ في حينه ومن عارضه، ينادون بضرورة اعادة التنظيم. وكانت منظمات الحزب خارج سورية ناشطة. وكان اعضاء قيادة الحزب القومية من السوريين قد احتفظوا بعضويتهم فيها وانتقلوا، أو انتقل معظمهم الى بيروت، حيث بقي بامكانهم ان يوجهوا سياسة الحزب كله. ثم تسنى لي أن أعلم أن قرار حلّ الحزب شمل، عند صدوره في العام ١٩٥٨، الأعضاء الفلسطينيين اللاجئين في سورية. إلا ان نفراً من هؤلاء طلبوا ان يستثنوا من تطبيق قرار الحل عليهم وان يعاملوا معاملة البعثيين غير السوريين. وقد تلكأت القيادة البعثية في البت بهذا الطلب. واستفاد اصحاب الطلب من تلكؤ القيادة فواصلوا نشاطهم في إطار شعبة الطلبة العرب في جامعة دمشق. وعندما احتدمت الخلافات بين البعثيين وعبد الناصر، بعدقيام الوحدة، اجازت القيادة البعثية الوضع الذي اختاره هؤلاء لأنفسهم وأقرّت وجودهم في الشعبة على ان يراعوا التشدد في السرية. والحقيقة أن شعبة الطلبة العرب هذه تحولت الى مركز يستقطب نشاط الوف البعثيين الذين فقدوا التنظيم، وشكلت حلقة الوصل بين هؤلاء وقيادتهم العليا. وكان الفلسطينيون

القليلون الذين احتفظوا بصلتهم التنظيمية بالشعبة من انشط اعضائها . وهكذا ، حظي البعثيون الفلسطينيون المعتمدون في سورية بوضع متميز في حزبهم . وانضاف إليهم البعثيون الذين وفدوا للدراسة من قطاع غزة او من ضفتي الاردن ، وتولى الجميع المهام الحزبية التي يضطلع بها في العادة الاعضاء القادة ، حتى وهم في مراتب عادية في الحزب . ولأن القيادة كانت بعيدة عن البلد ، ولأن الاتصالات في ظروف العمل الحزبي السرّي كانت أبطأ من مجرى الأحداث ، فقد تمتع هؤلاء الأعضاء بدرجة كبيرة من الاستقلالية في العمل وتمتعوا بصلاحيات رفيعة المستوى وتدربوا على التصرف بوصفهم قادة مسؤولين . وكانت اجهزة السلطة على يقين من ان حزب البعث لم يعد بناء تنظيمه في سورية ولا اتخذ القرار بهذا الشأن ، فكان يذهلها ذلك الحجم الكبير من الحضور المتحقق للبعثيين . ولم يتصور مسؤولو هذه الأجهزة أن النواة الصغيرة الباقية في جامعة دمشق هي التي تنظم النشاط الواسع وتديره ، وتحقق الربط بين قيادة الحزب واعضائه السابقين . والواقع ان حضور البعثيين كان ملموساً في أنحاء سورية كلها ، في الريف كما في المدن ، وكانت بيانات القيادة القومية وتوجيهاتها تجد طريقها ، بصورة أو بأخرى ، الى جمهور الحزب والى المعنيين الآخرين بالشؤون العامة . أما في الجامعة فكان هذا الحضور طاغياً حتى لقد فاق حضور أيّ قوة أخرى موالية أو معارضة ، حتى ليمكن القول ان نادي الطلبة في الجامعة ، وهو أكثر أماكن المدينة الجامعية اكتظاظاً بالزوّار ، كان ، بمعنى ما ، نادياً للبعثيين .

وها أنا ذا اتذكر مرة كنا جالسين فيها في هذا النادي . وكنّا نتندر بما فعله سامي قنديل في اليوم السابق . وكان سامي مشهوراً بخفّة الدم والمواقف الطريفة التي يصطنعها فيملأ التندر بها اجواء النادي بالضحك . كان القوميون العرب قد نظموا في ذلك اليوم مظاهرة هدفها الحقيقي اظهار قوة الموالين للسلطة وهدفها المعلن تأييد تقدميي الكونغو في صراعهم مع عملاء الامريكيين . وقد تصادف ان قدم سامي الى الجامعة في لحظات التهيؤ لانطلاق المظاهرة فوقع على طالب مشهور بأنه مهووس بالمظاهرات

دون ان يكون منتمياً لاي حزب او عارفاً بالسياسات التي تطلق هذه المظاهرات . فلقن سامي هذا الطالب هتافاً يجهر به في المظاهرة وافهمه انه سيكون أعظم الهتافات . وكان ان تقدم هذا الطالب جماعة من المتظاهرين وراح يزعق : «عاش محمد لومومبا ، والكونغو عربيّة» . جاهلاً ان اسم لومومبا الاول هو باتريس وانه كان قد قتل وانه لا يوجد في الكونغو كله من اسمه محمد وان الكونغو ليست بلداً عربياً . كنّا ، اذن ، نتندر حول هذه الواقعة ونستذكر ما اصاب منظمي المظاهرة من بلبلة وضيق ، حين قطع راديو دمشق المسموع في النادي برنامجه العادي واعلن مذيعه بصوت مجلجل ان الرئيس عبد الناصر قد وصل للتو الى عاصمة العروبة ونزل ، كعادته ، في قصر الضيافة .

هذا الاعلان ، كان بمثابة دعوة للجمهور كي يتوجه الى ساحة القصر من أجل تحية الرئيس . وقد جرت العادة أن تستقبل الساحة موجات متوالية من الجماهير ، فيطل الرئيس عليها من شرفة القصر ويخطب فيها الواحدة بعد الأخرى ويحتسب هذا في عداد التأكيد على مدى شعبيته . وفي سنة الوحدة الأولى . كان الناس يتوجهون الى الساحة تلقائياً فتغص بهم افضاؤها كما تغص الشوارع المفضية إليها ، ويحتاج الأمر الى عدد كبير من رجال الشرطة والجيش لتنظيم اندفاعات الجمهور والاشراف على دخوله الى الساحة وخروجه منها . اما في ذلك الوقت فكانت الاندفاعات العفوية قد خفتت حتى كادت تتلاشى ، فصار على أجهزة الأمن ومسؤولي التنظيمات الموالية للسلطة ومديري المؤسسات الكبيرة أن يحثوا ناسهم حثاً على التوجه لتحية الرئيس ، وكانت الحافلات الحكومية وسيارات الجيش تتوجه الى القرى لتجلب ناسها الى الساحة اثناء وجود الرئيس في القصر .

وفي تلك المرة التي احدثك عنها ، جاء عميد الجامعة ، واتذكر انه الدكتور احمد السمان ، بنفسه الى النادي وأخذ هو ومعاونوه في التجول على حلقات الطلاب حاثين اياهم على التوجه الى قصر الضيافة القريب . ولم يقصّر العميد أو أي من معاونيه في الجهر بالدعوة باعلى الاصوات

واشدّ النبرات حزماً ، ولكن استجابة الطلاب جاءت اقل حتى مما تصورنا نحن الذين واصلنا سمرنا عازمين على البقاء حيث نحن . وعندما انتظم ، في نهاية المطاف ، الجمع الذي سيتوجه الى المكان المقصود ، وقفت مع زملاء آخرين في مكان نرى منه بوابة الخروج واحصينا عدد من خرجوا فلم يزد عن الخمسين . وقد ألّفنا للتو التشنيعة الملائمة ووزّعناها على المجالس ، فقلنا إن الذين خرجوا هم المخبرون الذين انتهت نوبة مراقبتهم في النادي . ثم اكملنا هذه التشنيعة بحكاية وزعناها في اليوم التالي . فقلنا ان الجماعة رددت امام الرئيس الهتاف الذي شاع في تلك الايام : «جيش الاول لا تعبس! بدّك عسكر بنلبس» ، وهو يعني أن الهاتفين به يعلنون استعدادهم للتطوع في الجيش ، واضفنا ان الرئيس رد على هؤلاء بقوله : «شكراً لكم ، ابقوا مدنيين فهذا أفيد» ، قاصدين ان نقول ان عمل الموالين مخبرين وهم بالملابس المدنية أكثر فائدة للسلطة مع عملهم جنوداً . ويصعب أن أصف لك مذاق الجذل الذي غمرني وأنا أوزّع التشنيعتين وأجد نفسي في موقف المجازف بتحدي عميد الجامعة والاجهزة والرئيس الكبير ذاته! والواقع أنه ليس قليلاً أن تكون ابن عشرين سنة طالباً في بداية دراستك الجامعية ، وان تتحدى دولة لها عظمة الجمهورية العربية المتحدة وتعارض رئيساً له مكانة الرئيس عبد الناصر ، وأن تظن ، فوق هذا كله ، انك تعارض لأنك ، انت الولد ، افهم من الرئيس واعرف منه بمصالح الشعب!

وقد فكرت ، حين وجدتني مستغرقاً في جو العاصمة بكليتي ، أن اعمل للبقاء في دمشق وألغي طلب نقلي الى الحمّة بالرغم من آلام المفاصل . وشاورت اصدقائي البعثيين فشجعوني على البقاء وزينوا لي فوائده . وبهذه النية ذهبت الى ادارة التعليم في الاونروا ، ظاناً انهم لن يضنّوا على بتلبية طلبي الجديد . الا اني فوجئت بأن طلب نقلي الى الحمة ، ذاته ، لم يحظ بالموافقة ، وان اوان طلب الانتقال الى دمشق قد فات ، وعلي أن أعود الى البطيحة . وكانت هذه ، كما لا بدّ لك ان تحزر ، مفاجأة سيئة لي من وجوهها كافة . ولم ينفعني جدلي مع المسؤولين في

الادارة ، لأن القرارات كانت قد صدرت وانتهى الأمر .

وقد اثار رفض نقلي الى الحمة هواجسي فحاولت معرفة السبب ، فلم أظفر بجواب شاف . وعندما جابهت رئيس الادارة الاستاذ عبد المنعم حسن بسؤال مباشرٍ عن هذا السبب ، اكتفى الرجل المستقيم الذي يأنف الكذب بأن وجه اليّ نظرة تدعوني الى عدم احراجه ثم قال : « هذا هو ما حصل ، اما دمشق فاعدك بأن أنقلك اليها في العام القادم» . وبقي السبب الحقيقي سراً يؤرقني جهلي به . ثم جاء وقت تطوع فيه أحد موظفي الإدارة بكشف السر . وقد اتضح ان خالي نافذ تدخل لمنع نقلي ظاناً ، بطبيعة الحال ، أنه يفعل هذا لمصلحتي . اوصل الخال كلاماً الى مسؤولي الأونروا الكبار الذين كان على صلة بهم بحكم موقعه في مديرية الجمارك ، مفاده ان وجودي في منتجع مطروق كالحمّة سوف يؤدي الى ان ابدد جهودي ومواردي على الاصدقاء الكثيرين الذين سيزورونني فيه . واستخدم الخال نفوذه للحيلولة دون ذلك .

٩ السنة الأخيرة في البطيحة، البلبلة ثم الحسم

سنتي المدرسية الرابعة في البطيحة اختلفت عن السنين السابقة . لم يتبدل شيء بعينه في الواقع ، لا في المدرسة التي جاءها معلمون جدد ، كالعادة ، وبقيت انا مديرها ، ولا في علاقاتي بالأصحاب الذين ظلوا يرحبون بي ، ولا في المشاغل التي اتعاطاها والتي صرت أكثر خبرة فيها ، لكنه الجو النفسي ، فهذا هو الذي تبدل .

لقد اشتد اساي لفقداني فرصة الاستشفاء في الحمّة ، وأمضّني الاحساس بأن الأونروا غبنتني لسبب غير مفهوم . امضيت في البطيحة ثلاث سنوات ، بزيادة سنتين عن أي معلم زاملني فيها ، فصار من حقي ان انتقل إلى أي مكان أختاره ، وها انا ذا قد حرمت من هذا الحق دون أن يكلفوا أنفسهم في الأونروا حتى باعلامي برفض طلبي إلا بعد مراجعتي لهم . ولو عرفت في الوقت المناسب لطلبت النقل إلى دمشق التي صارت تجتذبني بشدة ولظفرت به .

ثم ان الجو العام في البطيحة صار اشد قتاماً من اي وقت مضى . نالت المنطقة حصتها من القتام الذي يلفّ البلاد بسدومه الثقيلة ، انحسر التفاؤل بالوحدة ، وبهت الحماس الذي اثاره صدور قانون الإصلاح الزراعي بعد أن عاين الفلاحون كم هي بطيئة الإجراءات التي تستهدف تطبيقه . ووجد الفلاح المتعطش للاستقرار نفسه لا معلّقاً ولا مطلقاً ، بل ضائعا بين قوانين الدولة التي تمنيه بامتلاك مصدر رزقه وسطوة السرايا التي ما تزال تملك هذا المصدر . والقلق على مصير الوحدة واجراءاتها انبثق منه القلق على المصير الشخصي . والنشطاء الذين اجتذبهم العمل العام في السنوات الاخيرة ودفعتهم شعارات الدولة التقدمية الى مواقف ومسالك تثير السرايا عليهم ، هم انفسهم الذين صاروا موضع شكوك أجهزة الدولة واسرى مراقبتها لهم وتضييقاتها على نشاطاتهم ، فلا بقوا مع «سيدي» بخير ولا وجدوا الخير عند «ستي» . كانت السرايا ، التي تهيأ لنا في وقت من الأوقات أن نفوذها آيل إلى الاضمحلال ما تزال قائمة بكامل اركانها ، بمبناها الذي يضم مخازن ثروتها ، وناسها الذين تحمل ملامحهم النذر المرعبة للخصوم ، وشبكة علاقاتها التي لا يقدْر الفلاحون حتى على فك رموزها . وكان ناس الدولة العسكريون منهم والمدنيون ، الذين جافوا السرايا في أول عهد الوحدة ، قد غابوا عن الساحة ، شتتتهم اجراءات النقل والتسريح أو ابتلعتهم السجون والمنافي . والذين حلوا محل هؤلاء اعادوا حليمة إلى عادتها القديمة ، واستمرأوا المنافع التي يوفرها القرب من قلعة الاقطاعي ومد اليد إلى ارزاق الفلاحين . وهكذا ، استعاد مخفر الدرك سمعته السابقة مخفراً للسرايا ، والرئيس الجديد للمخفر ، وهو الذي حل محل أبي حسان ، لم يعد يفترق عن وكيل البك او يعارض له رغبة ، وبدا النقيب سعيد في علاقته مع السرايا راضياً مرضياً ، ينفعها وينتفع بها . وقد تكشفت أطباع هذا النقيب بكاملها ، فراح « يلهط» حيث يستطيع وبمقدار ما يتيسر له . ولغ النقيب في أرزاق الفلاحين والصيادين واستأثر منها بما يحتاجه هو واصدقاؤه ومعارفه . ووفرت السرايا للنقيب ما يحتاج إليه أو ما يبهجه اقتناؤه . وظهر في المنزل الذي استولى عليه قائد السرية

لسكنه الخاص أثاث جديد فاخر ، غرفة نوم حديثة ، وصالون دمشقي من الخشب المحفور المكسو بالبروكار ، ومائدة تليق بهذا الصالون ، ومطبخ كامل الادوات ، وبار طافح دوماً بالمشاريب من كل صنف . وأمّنت المسمكة للرجل المحب للترف لوح ثلج يصل إلى منزله كل يوم . واستخدم النقيب في منزله عساكر السرية الذين يتقنون الاعمال المنزلية ، وجعل سكنه مضافة للسمر يلتقي روادها كل مساء على اطيب المآكل والمشارب وتنعقد فيها حلقات القمار ويربح هو بمهارته حين يسعفه الورق أو بالغش الذي يدرك أن جلساءه يتهيبون الجهر باكتشافهم له . ورتب هذا النقيب أموره مع مسؤول مخابرات اللواء ومع كل مَنْ له نفوذ على امتداد المواقع المنتشرة بين البطيحة والقنيطرة . كانت ربطات السمك الطازج تصل إلى هؤلاء بانتظام ، تحملها اليهم سيارة المسمكة مع تحيات قائد السرية . وكانت السيارة ذاتها أو سيارة عوني تحمل إلى هؤلاء ، ايضاً ، أجود ما تمنحه حقول الغور في مواسمها المبكرة من خضار . وصار النقيب سعيد هو عين المخابرات المعتمدة في البطيحة ، وصارت مصائر الناس تتقرر حسب رأيه فيهم ، فزاد بهذا نفوذاً كما زاد سطوة ، دون ان يكفّ عن تسويغ سطوته بالادعاء بأنه يعمل لتوفير الاستقرار واستتباب الأمن ومنع أعداء الوحدة العربية من افساد هؤلاء الناس لها . أما الموظفون الذين توجب عليهم مسؤولياتهم أن يزوروا البطيحة بين وقت واخر ، أو يحملهم الطمع اليها ، فكان أمامهم أن يختاروا الاستئثار برعاية قائد السرية أو برعاية السرايا ، او التمتع بالاثنين . وافلح قائد السرية في الضغط على محمود آذن المدرسة ، فشغله مخبراً . وأوكلت المخابرات إلى محمود مهمة مراقبتنا وتقديم تقارير تفصيلية عن كل ما نقوم به أو نقوله أو يقع بيننا . وكان شهاب الاحمد هو الذي همس لي بما وقع لمحمود ونصحني بالتزام الحذر وطلب مني أن أكتم أمر معرفتي به . أما محمود نفسه ، وهو الذي انتهى إلى أن يحمل لي وداً حقيقياً ويعدني قدوة يتمنى لو يتمكن من الاحتذاء بها ، فإنه لم يجرؤ على مفاتحتي بالأمر أو الاشارة اليه مجرد اشارة . ولأن محمود ألف معاملتنا له ، نحن المعلمين ، كصديق واوجعه ضميره حين توجب عليه الغدر بنا ، فقد اضطرب سلوكه

كله وراح يكثر من تناول الكحول فساءت أحواله جميعها وفقدت صلته بنا وبغيرنا من اقربائه واصدقائه وأقرانه تلك الحميمية التي كانت توفر له التوازن والكرامة . وفقدت انا صديقاً كنت كثيراً ما أعتمد عليه وأشركه في شؤوني .

وكما يحدث في العهود التي تتوطد فيها سلطة أجهزة الأمن ، كانت المخابرات بحاجة إلى ضحايا . فلكي تؤكد الاجهزة حضورها وأهميتها وجدواها ويتعزز بالتالي نفوذ ناسها ، كان لا بد من أن تقع ضحايا . وقد صار من المألوف ان يتداول الناس في مجالسهم حكايا الذين يُستَدعون إلى التحقيق وتوجه لهم التحذيرات المرعبة ثم يعودون فيبثوا الرعب في الاجواء ، والاخرين الذين يستدعون ولا يعودون . وقد اشتطت المخابرات في استخدام سلاح الإبعاد ، فالمنطقة ، قبل أي شيء وبعد كل شيء ، منطقة حدودية ومن حق مخابرات الجيش الموكّلة بالدفاع عن الحدود ان تبعد من تشتبه فيهم ، وما أكثر ما تعسفت المخابرات في استخدام هذا الحق .

والواقع أن أكثر ما عنّاني في هذا الجو هو اضطراري لأن أحسب خطواتي وأقوالي ، يستوي في ذلك ما أقوم به امام التلاميذ ، وبين الناس ، أو في حجرة نومي ، ولم يكن هذا سهلاً على الفتى المشاكس الذي كنته .

ان معاينة الظلم أمر شاق ، وأشق منه السكوت عنه . وقد يسهل القول بأن العين قادرة ، مهما اشتد الجور ، على مواجهة المخرز . أما في الواقع فالعين هي العين ليس أكثر والمخرز هو مخرز ليس أقل . لقد وجدتني اتمزق بين ما تدفعني اليه استكشافات العين النقادة وما يلزمني به التهيب ازاء قسوة المخرز الغاشم . وكان امري في البطيحة مختلفا عنه في دمشق . فأنا في العاصمة واحد بين معارضين نشيطين كثيرين معظمهم أكثر مني أهمية واجتذاباً لانتباه أعين المراقبين . أما في البطيحة فان وضعي المتميز يجعلني تحت الأضواء في مقدمة العدد القليل من الذين يجهرون بالانتقاد ، والمراقبون يحيطون بي في كل مكان ، من حيث ادري ومن

حيث لا أدري . هذا الوضع اوجب علي ان اتعلم الاحتراس واتسلح بالحصافة وابتكر الاساليب الملائمة للمداراة . والحقيقة اني تعلمت في هذه السنة من الحصافة اكثر مما تعلمت في سني عمري السابقة كلها . ودربت ارادتي على التدخل للحد من الاندفاعات الطائشة التي تجرني اليها الاستفزازات الطبيعية أو المقصودة . وقد استخلصت لنفسي قناعة اراحت ضميري ، مؤداها ان مداراة السفهاء والتحايل على الظالمين والاحتراس في مواجهة اجهزة القمع ليست تخاذلاً حين لا تقترن بالتنازل لمنطقهم ولا تمنعك من القيام بما تستطيع القيام به في مواجهتهم . كما استخلصت قناعة اخرى مفيدة وهي أن الاحتفاظ بمودة الناس المحترمين كنز لا يستهان به وان السمعة الطيبة هي وقاية بمقدار ما هي ، أيضاً ، مكافأة .

في ضوء هذا كله ، وضعت خطتي لتمضية السنة التي تيقنت من انها سنتي الاخيرة في المنطقة . وفي إطار هذه الخطة ، احتفظت بعلاقة محسوبة مع قائد السرية النافذ . كان هذا الرجل المجبول بالمباذل يهابني لأمر ما ويخصّني باحترام قلما يخص به أياً من الاشخاص غير النافذين . إلا أن مسلك الرجل ازائي لم يبدد حذري ولم يخلق لدي أي وهم ، فان مَنْ له طبع هذا النقيب لا يتورع عن ايذاء اعز اصحابه ان لزم الامر . وعلى هذا ، حرصت على ان لا يصدر عني ما يستفز الرجل وتجنبت أن أظهر أمامه ما يثير شكوكه أو يحرك طمعه للاستفادة من الوشاية بي . وظللت أتردد على مجلس الرجل . لا افعل ذلك كل يوم ، لكني لا اغيب إلى الحد الذي قد يفسر على أنه مقاطعة . ولما كان لعب الورق هو النشاط الدائم في مجلس النقيب ، ولأني لم اشأ ان ابدو متزمتاً ازاء اللعب ، فقد نشأت مشكلة غير أني حللتها بطريقة قبلها الآخرون . فقد افهمت النقيب وجلساءه ان مبادئي لا تسمح لي بلعب القمار ولكني راغب في التسلية ثم عرضت حلاً وسطاً ، هو الحل الذي قبلوه ، فصرنا نلعب دون ان يستأثر احد لنفسه بما يربحه ، بل نجمع الربح كله في ما سميته انا صندوقاً للنفقة العامة ونصرف من هذا الصندوق على مشاريع مشتركة ، كأن نقيم حفلة ، أو نشتري قطوف الموز ونخمرها ثم نتقاسمها ، أو ان نجلب كتباً نقرؤها ، ثم

ينتهي امرها إلى مكتبة السرية أو مكتبة المدرسة ، أو نقدم المساعدات للمحتاجين . ومالبث النقيب ان الف هذا النوع من اللعب ، بل إن الامر استهواه ، منذ وافقت على أن يحتفظ هو بمال الصندوق وصرت أغض النظر عن المرات التي يتصرف فيها بالمال بقرار منه ويتمتع بحسن السمعة .

أما العلاقة التي احتفظت بها وطورتها وشكّلتْ لي عزاء مريحاً وسط ما أكابده من شتى أنواع المعاناة ، فكانت علاقتي مع فدائيي الاستطلاع .

كان شهاب الاحمد ورفاقه قد تعرضوا لضغط شديد من مسؤول المخابرات كي يقبلوا التلصص على خلق الله في محيطهم فيضيفوا إلى مهمتهم الاصلية النبيلة هذه المهمة الوضيعة . إلا أن هؤلاء الرجال المجبولين بروح التضحية الحاملين دمهم على أكفهم ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، تسلحوا بالإرادة الكافية لرفض الضغوط وأبوا الانحدار إلى المستوى الذي يدفعهم اليه المسؤول . وقد واظب هؤلاء الرجال على السلوك الذي حببهم إلى الناس ، وظلوا جاهزين للمساعدة ، وخصوصاً حين يتعلق الأمر ببريء أوقعت به الوشايات الكاذبة . وكثيراً ما سافر شهاب الأحمد إلى القنيطرة أو حتى إلى دمشق ، على نفقته الخاصة ، سعياً منه لرد الأذى عن مظلوم . ولم تكن علاقتي بهؤلاء الرجال ، إذن ، مبهجة ومريحة للنفس ، فحسب ، بل كانت ، أيضاً ، مفيدة ، ولا بد ان شهاداتهم لصالحي أمام المسؤولين قد وازنت التقارير الكثيرة السلبية الموجهة ضدي .

وتوطدت علاقتي ، كذلك ، مع أبي أحمد الصرصور ؛ كان في طباع الدكنجي الحاصل على شيء من التعليم مقدار من النزاهة لم تصادره طبيعة عمله ، وإن لم يتخل عن متطلبات هذه الطبيعة . ففي الدكان ، كان ابو احمد واحداً من آل الصرصور ، اي واحداً من هذه المجموعة التي تحصل على رزقها نتيجة حاجة الفلاحين البائسين للاستدانة منها ولا تتورع عن الاستفادة من هذه الحاجة . لكن الرجل الذي هو نفسه لاجىء معرض لما يتعرض له اللاجئون من فظاظات كان يعمل في الدكان عملاً شاقاً ، وقد زادت حصته من العمل وكبر عبؤه فيه منذ تقدم السنّ بأخيه وشريكه في

الدكان ، أبي رمزي ، فخفت مشاركة هذا الاخير في العمل وكثرت غياباته عن الدكان . وفي داخله ، في قرارة النفس التي تنجو من المفاسد ، احتفظ أبو أحمد بشيء من التعاطف مع البؤساء . وكان هذا الشيء ينبثق بين وقت وآخر فيميز الرجل بمسحة انسانية شذية ويصون شخصيته من اليباس الذي يسم شخصيات امثاله من التجار . وقد تمتع أبو أحمد بنظرة نافذة حين يتعلق الأمر بتقديره لأحوال البطيحة وناسها ، نظرة عمقتها الخبرة الطويلة والمعرفة الشاملة بهذه الاحوال . ولأمر ما ، حمل أبو أحمد لي احتراماً لا يتزعزع ومودة لا تتأثر باختلاف الآراء ، فصار هذا وتلك أساساً للصداقة المتينة التي جمعتنا .

وفي ذلك العام المدرسي الرابع ، ضم فريق المعلمين الجدد شاباً من آل الصرصور حصل لتوّه على الشهادة الثانوية واختار بنفسه العمل في البطيحة ليكون قريباً من أعمامه فيساعدهم في عملهم ويحظى برعايتهم . وقد أراد آل الصرصور أن يجيء فتاهم هذا ، واسمه محمود ، إلى البطيحة كي يدعم مكانتهم فيها ويتولى تنظيم حساباتهم بعد ان اتسعت تجارتهم وكثر عدد عملائهم وصار من الصعب عليهم التعويل على ذاكرة ابي عدنان وحدها . وكان أمر محمود متناقضاً ؛ فهو ، معنا وبيننا ، الشاب المتفتح ذو الميول العصرية المتذمر من وسائل ذويه في استغلال جهل اهل المنطقة ؛ وهو ، مع ذويه ، واحد من آل الصرصور ، واحد من المجموعة ، غارق في ما هم غارقون فيه . وقد أسلمت هذه الازدواجية محمود لوضع قلق ، فذووه لم يطمئنوا اليه اطمئناناً كاملاً ، فصاروا يخضعون كل ما يقوم به في عمله معهم للمراجعة والتدقيق ، وانا والمعلمون الذين على شاكلتي لم نمنحه ثقة صافية ، بل كنا نأخذ عليه تذبذبه بين قناعاته الفكرية ومصالحه العائلية ونلومه باستمرار . وكان أبو أحمد ، على استفادته جزئياً من وجود ابن اخيه ، يؤيد رأينا ويحث قريبه على التواؤم مع اخوانه في المدرسة ، ويؤكد له أن مستقبله مرتبط بالتعليم وليس بالتجارة . وفي لحظات صفوه ، كان أبو أحمد يردد امام ابن الأخ : «لو كانت لدي الشهادة التي لديك لما صرفت حياتي في هذا الدكان اللعين» .

وفي المدرسة ، تميز ذلك العام باجتذاب عدد اكبر من البنات إلى الصف الاول ، فقد انتسب اليه عشرون بنتاً إلـى جانب ما يزيد عن ثلاثين صبياً . لـم تكن هذه النتيجة ثمرة الجهود التي بذلناها ، فحسب ، بل كانت ايضاً ، ثمرة النجاح الذي حققته البنات اللواتي انتسبن إلى المدرسة في العام الفائت. وكانت الأمثولة الملموسة أعمق تأثيراً من أي دعاية . وبت مطمئناً إلى ان مسيرة تعليم البنات التي شهدت خطواتها الاولى لن تتوقف .

في ذلك العام ، تحسنت ، أيضاً ، علاقتي مع مفتش التعليم قاسم حمد . كانت للرجل الذي تلاحقه التهمة بالانتماء إلى حزب التحرير الاسلامي متاعبه مع المخابرات ؛ لم يكن هو من النوع الصدامي أو الاستفزازي ولا كان من الذين تستهويهم الرغبة في تسجيل المواقف البطولية ، بل كان ، حين يتعلق الامر بالسلطة المتشددة ، أقرب إلى التسليم بواقع الحال وتجنب مواقع الخطر . بالرغم من ذلك ، بقي الرجل قيد المراقبة من قبل مخبري الأجهزة الأمنية وظل محسوباً على المعارضة من قبل الاجهزة التي تقيم الناس على قاعدة ان مَنْ ليس معنا فهو ضدنا . وبهذا ، وجد ما يجمعنا في موقف واحد ، وبه نشأ نوع من التعاطف غير المتفاهم عليه مسبقاً . ثم ان المفتش المعني بانتظام العمل في المدارس التي يشرف عليها استراح إلى طريقتي في معالجة امور المدرسة وأعجبه ، بصورة خاصة ، ان المشاكل كانت تعالج دون اقحامه فيها . وقد انتهى الرجل إلى الثقة بي وترك زمام الامور كلها بيدي ، وكان يغض الطرف عن الكثير من اخطائي ومخالفاتي للأنظمة ، بل إنه يسمح لي بالمخالفة حين أجد ذلك ضرورياً .

وفي ذلك العام ، توثقت علاقتي اكثر من اي وقت مضى ، بآل الكبير في القنيطرة . كان أبو وليد قد تعب من انتظار الانصاف بشأن التعويضات التي يطالب بها ، فصار أميل إلى الأخذ برأيي أنا والآخرين المحسوبين على المعارضة ، بل انتهى به الامر إلى ان يعد نفسه من البعثيين . وعندما افلح ، بعد مسار عسير ، في الحصول على شيء من التعويض ، جاء هذا الذي حصل عليه أقل من أن يرضيه . والواقع ان التعويض الذي احتسبه

الجيش مقابل استخدامه لأرض آل الكبير كان مضحكاً من كل النواحي ، فقد قدروا الاجرة السنوية للدونم ببضعة قروش وجعلوا الاجرة تشمل الدونمات التي تقوم عليها منشآت عسكرية فاستثنوا بذلك المساحات الاوسع التي يستخدمها الجيش دون ان يقيم عليها منشآت . ثم انهم دفعوا لأبي وليد واخيه الأجرة المحتسبة على هذا النحو عن سنة واحدة وتوقفوا بعد ذلك عن الدفع لسبب لم يقدر للرجل أن يعرفه . أما ما اشيع حول هذه الواقعة فكان أشد وجوهها إغاظة للرجل ، اذ انتشر بين الناس انه قبض مبلغاً كبيراً من المال وصار من الاثرياء . وعلى هذا الاساس ، اخذ الناس يطالبون ابا وليد بانجادهم ويسخطون حين يظهر عجزه . فمن صديق مطالب باستدانة مبلغ ، إلى قريب مطالب بهبة ، إلى صاحب حاجة طارئة ساخط لان حاجته لا تلبى ، زادت مشاكل الرجل بدل ان تحل فزاد سخطه على النظام .

وفي هذا الوقت بالذات ، ألمّت بالأسرة مصيبة لم يتوقعها احد . ذلك أن أعراض حمل بدون زواج ظهرت على ابنة الاسرة الشركسية التي تجاور آل الكبير في السكن . وقد اشاع اهل الفتاة ان وليد هو المتسبب في الحمل وانه اغوى فتاتهم بوعده لها بالزواج وطالبوا بإنجاز هذا الوعد . اما وليد فقد انكر الامر ، فلم يصدقه أحد ، إذ جرت العادة بين الناس على تصديق رواية الفتاة في مثل هذه الحالات . وسقط الاتهام على رأس أبي وليد مثل صاعقة رأى أنها سوف تودي به وأسرته ونفوذه ووجاهته إن لم يعالجها بالحكمة . وقد استنطق الاب ابنه فلم يسمع منه إلا الإنكار . وارتاب ابو وليد في الامر ، وعرض على اهل الفتاة ترضية اقل من الزواج ، فأبوا ، واثاروا ضده الرأي العام في البلدة . وكادت الحكاية تتحول إلى فتنة طرفاها عربي وشركسي ، ثم انتهى الامر باتفاق قبله رب الاسرة المستهدفة في سمعتها حرصاً على هذه السمعة . وأبرم الاتفاق بحضور شهود من وجهاء الطرفين وضمانتهم لحسن تنفيذه . وقد قضى الاتفاق بأن تلتحق الفتاة الحامل باسرة ابي وليد وتعيش معها إلى ان تضع حملها ، فيفحص دم الجنين ، فاذا ثبت ، بنتيجة الفحص ، انه ابن وليد حقاً يلتزم وليد بالزواج ،

اما اذا ثبت العكس فإن الفتاة تعود إلى اهلها . وانتقلت الحامل إلى منزل ابي وليد واحاطتها اسرته بالرعاية الكاملة .

أما وليد فقد فَقَدَ صوابه ، حقيقة ، ولم يعد يطيق المكوث في منزل اسرته ، فكان يهرب إلى أيّ جهة يتيسر له الذهاب اليها ، وكان كثيراً ما يزورني فيمضي في البطيحة أياماً تعتصره خلالها الآلام وتكويه الهموم ، ويغيظه ، أشد ما يغيظه ، أن أهله أنفسهم يشكون في صدقه .

ومن جهتي ، لم أشك في رواية وليد لحظة واحدة . لقد صارحني بأنه استلطف الفتاة وكاشفها باستلطافه ، لكن العلاقة بينهما لم تتعد هذا الحد . وفي الشهور التي بقي الجميع فيها على انتظار ، وجد وليد فيّ الصديق الوحيد الذي يفهمه فهماً صحيحاً ويعرف بالتالي كيف يخفف من معاناته . ولما كان مقدراً للعلاقات بين وليد وابيه ان تسوء بسبب شك الاب في الابن ، فقد بذلت جهداً مثابراً لمواجهة شكوك ابي وليد . لم افلح في حمله على تصديق ابنه ، لكنني أفلحت في تهدئته وحمله على التصرف بما لا يسيىء إلى هذا الابن .

وقد بقي هذا كله في حدود المحتمل من البلايا ، إلى ان وقع ما وقع في الليلة التي وضعت فيها الفتاة جنينها . تمت الولادة في منزل أبي وليد برعاية أهل المنزل وحضور أهل الفتاة ، فيما بات وليد تلك الليلة في منزل عمه . واشرفت على الولادة «الداية» أو الولاّدة التي انتقتها أسرة أبي وليد ، وسمع الجميع صرخة الوليد الجديد ورأوه صبياً في تمام العافية ، وأمنوا له وللوالدة حاجياتهما ، وأحاطوا الوليد برعاية خاصة اذ انه هو المعول عليه في حسم المشكلة التي عصفت بهم . ثم آوى كل منهم إلى مهجعه في انتظار الصباح الذي يتوقعون ان تنجلي بعده الأسرار . لكن هذا الصباح حين أشرق حمل لأسرة أبي وليد أنباء مصيبة لم يتوقعوها ، فقد وجد الوليد مقتولاً وعلى رقبته آثار الأصابع التي كتمت أنفاسه .

هنا ، صار الجميع إزاء جريمة مروعة . وقد تدخلت الشرطة بحزم ، فساقت أبا وليد وزوجته وخادمة الدار إلى السجن ، وبحثت عن وليد

فضمته إلى المسجونين . كان من الطبيعي أن تنصب الشكوك على الأسرة الحاضنة للوالدة وليس على اسرة الفتاة التي لم يبت أي من أعضائها في المنزل . كما كان من الطبيعي أن لا يشك أحد في الأم ذاتها ، خصوصاً بعد أن تبين أن الوليد نقل إلى حجرة أم وليد ونام فيها . وقد وصلتني انباء المصيبة مع عوني في اليوم التالي ، فهرعت إلى القنيطرة ، ورافقت محامي أسرة أبي وليد في مساعيه للإفراج عن المسجونين . وقد تمكن المحامي القدير خلال يوم او يومين من الافراج عن ثلاثة منهم وبقي وليد وحده في سجن القنيطرة رهن التحقيق والآلام . وبعد اسبوع أو اثنين ، دار التحقيق خلالها في حلقة مفرغة ، تمكن المحامي من تحرير وليد من السجن مقابل كفالة مالية كبيرة .

كانت أسرة وليد ميالة إلى اتهامه بالمسؤولية عن القتل وراغبة في تسوية الأمر على هذا الأساس بأقل ضجة ممكنة حتى لا تقع الفتنة المخيفة على اساس عرب وشركس . وفي سعيه في هذا الاتجاه ، ضغط ابو وليد على ابنه كي يقر بالأمر الواقع مظهراً استعداده لقبول الفتاة زوجة كي يمكن تهدئة أهلها والتوصل معهم إلى تسوية . وبالغت أسرة أبي وليد في اكرام الفتاة التي بقيت في منزلهم بأمل أن يكسبوا ودّها ويستعينوا بها في الضغط على أهلها . والحقيقة أن وضعاً شديد التعقيد نجم عن هذا كله وانشغل به خلق كثيرون فكان لكل منهم رأي واجتهاد أو ميل لهذه الأسرة أو تلك ، دون أن يشعر أي منهم بالعطف على وليد .

ولأن الحال ضاقت بوليد ضيقاً لا يحتمل ، فقد ترك القنيطرة ولجأ إلى البطيحة .

وتوفرت لنا بضع ليال ناقشنا فيها الأمر من وجوهه المختلفة وتوصلنا إلى القناعة بأن الفتاة تعرف على وجه اليقين من الذي قتل الوليد مثلما تعرف ، بالطبع ، من هو أبوه الحقيقي . ووضعنا خطة قوامها استدراج الفتاة إلى البوح بأسرارها ، على أساس أن معرفة هذه الأسرار هي المفتاح الوحيد للخروج من الازمة كلها . كانت تلك خطة بسيطة ، وقد انطلقت من تقديري للوضع من أن الفتاة نفسها لابد ان تكون مأزومة ومشحونة بالرغبة

في البوح للتخفيف عن نفسها . وكان على وليد ان يتذرع بالصبر والحكمة الشديدين فيدعو فتاته إلى فتح صفحة جديدة في علاقتهما ، وقدرنا أن الفتاة ستسعد بهذه الدعوة ، فلا يبقى على وليد بعد ذلك إلا أن يطلب منها أن تقرّ بما حصل بدعوى أن هذا الإقرار هو الشرط الذي يتشبث به كي يغفر الماضي وكي يحررها هي من وجع الضمير .

وقد جرت الأمور بعد ذلك على نحو أبسط من الذي توقعناه ، اذ ما كاد وليد يظهر للفتاة ميله إلى فتح الصفحة الجديدة ورغبته في أن يعرف السر حتى اظهرت استعداداً طاغياً للبوح . وقد وقعت الفتاة طرية التجربة في فخ الخطة التي رسمناها بسهولة مدهشة ، فلم نظفر بمعرفة الأسرار ، فحسب ، بل ظفرنا ، أيضاً ، بدليل قاطع على براءة وليد وأسرته . قالت الفتاة لوليد انها تخجل من الحديث وجهاً لوجه عما وقع ، فهي تؤثر أن تقدم إقرارها مكتوباً . وسلمت الفتاة لوليد سبع صفحات مكتوبة بخط يدها ضمنتها الحكاية كاملة بتفاصيلها . وبهذا عرفنا أن الأب الحقيقي للوليد القتيل ليس إلا شاباً فقيراً من معارف أهل الفتاة اختلى بها في لحظة نزوة ، ثم أبى أن يتزوجها وتدبر امره فنقل عمله من القنيطرة إلى بلدة أخرى بعيدة . ولما فاتحت الفتاة أمها بسرّها وعرفت أسرتها السر ، ثم لما كان الجميع على معرفة بميل وليد إلى الفتاة ، فقد وضعوا خطتهم للادعاء بمسؤولية وليد عن الحمل ، مأخوذين بالأحاديث الدائرة عن ثروة أسرته ومؤمّلين بالظفر بزوج ثري . أما المفاجأة الحقيقية التي كشفتها اعترافات الفتاة فتمثلت بإقرارها بأنها هي القاتلة . كانت هي وأبوها وأمها قد تورطوا في اتهام وليد وغرقوا في الملابسات التي نجمت عن ذلك بحيث تعذر عليهم التراجع . وكان من شأن بقاء الوليد حياً وفحص دمه ان يظهر الحقيقة فيفتضحوا ، فقادتهم الخطيئة إلى الامعان في الخطيئة وضغطت الأم على ابنتها مستغلة خوفها من الفضيحة ، فمات الوليد البريء ، تسللت الفتاة في الليل إلى الحجرة التي ينام فيها وليدها وخنقته بيديها .

برىء وليد من التهمة إلا ان المحنة التي يتعرض لها تركت على شخصيته ، وخصوصاً حين يتعلق الأمر بسلوكه إزاء النساء ، آثاراً عميقة .

وأدرك أبو وليد خطأه حين شك في ابنه ، وقدّر لي وقوفي إلى جانبهم وسداد نظرتي إلى الامور . توثقت علاقاتي بالجميع ، وتبدلت معاملة ابي وليد لي ولابنه ، لم نعد الولدين اللذين يحتاجان لرعايته وإرشاداته ، بل صارت لنا ، عنده ، بعض حقوق الأنداد .

اما جديدي في ذلك العام في البطيحة فهو كثرة ترددي على دمشق . كانت سيارة أبو داغر تحت تصرفي ، إلى جانب الوسائل الأخرى التي تعرفها ، وكان النقيب سعيد قد ألف أن ينقلني بسيارة السرية كلما احتجت لذلك .

وإذ تهيأ لي في دمشق الكثير مما يجتذبني ، فقد كثر ترددي عليها .

والحقيقة ان الشأن السياسي صار في مقدمة العوامل التي تجتذبني إلى العاصمة . وكانت رابطة الطلاب الفلسطينيين التي غدت فرعاً للاتحاد العام تهيىء فرصاً كثيرة للنشاط ، وقد صارت لي بين اعضائها علاقات كثيرة ومتنوعة وصرت معدوداً بين الأعضاء النابهين فيها . والاتحاد القومي الفلسطيني ، بالرغم من نشأته في حضن السلطة ورضوخه لمشيئتها ، هيأ ميادين أخرى للنشاط وصار عليّ ، في تنظيم عرب فلسطين ، أن أسهم في إعداد البيانات والمذكرات التي نصدرها أو نوجهها لقيادة الاتحاد ، حول مواقفه ونشاطاته . ومع أن ولائي لتنظيم عرب فلسطين لم يعد قوياً كسابق عهده ، فإن صلتي بعدد من مؤسسيه ، وخصوصاً هايل وأنيس وصبحي ، بقيت حميمة . وقد ألف هؤلاء موقفي ، فأنا انتقد وانق كثيراً وآخذ عليهم ما أعدّه ضيق أفق في النظرة إلى قضية فلسطين ، لكنني أعمل وأبذل جلّ ما أستطيع من جهد في تنفيذ المهام التي اتولاها . اما التنظيمات الأخرى التي نشأت في بداية الخمسينات مع تنظيم عرب فلسطين فكان بعضها قد اضمحل وانتهى أمره ، واندمج بعضها الآخر في حزب البعث أو حركة القوميين العرب .

وتميز عن هذا المصير حلقات أو افراد واصلوا العمل المستقل وتبنوا الدعوة إلى الكفاح المسلح ضد إسرائيل وأخذوا يجتذبون أعضاء جدداً على أساس

هذه الدعوة . ولأني اعرف الكثيرين من هؤلاء ، فقد صار لدي الكثير مما اقوم به في دمشق في مجال الحوار معهم وتنسيق النشاطات المشتركة .

وكانت هناك شؤون الدراسة الجامعية ، فقد حرصت على أن لا أترك أمر التهيؤ للامتحانات إلى نهاية العام الدراسي كما فعلت في السنة السابقة ، فصرت أواظب على الاتصال بزملاء الدراسة من الذين يتابعون المحاضرات ، بل اتحيّن الفرص لحضور محاضرة أو أخرى ، وأحصل اولاً بأول على المواد المقررة واشتري المراجع . وكان بين حوافزي لهذا النشاط علاقتي بالفتاة التي اطلقت عليها اسم سمية ، إذ حرصت على ان تجدني الفتاة جاهزاً لمساعدتها عندما تجيء من عمان ، لتأدية الامتحانات .

كنت قد انتهيت إلى ان احب هذه الفتاة ، وبادلتني هي المشاعر . فعلنا ، كلانا ، ذلك بصمت ، دون ان يبوح أي منا للآخر بكلمة واحدة عن عواطفه . وراحت سمية تتصيد الفرص التي يبيحها عملها في عمّان ، فتجيء إلى دمشق بين وقت وآخر فيتسنى لنا أن نلتقي لساعات ونستمتع بالتواصل البريء . كانت سمية تنزل عند اقرباء لها يسكنون في حي قريب من الجامعة ، وكنت اختار واحداً من الفنادق الرخيصة القريبة من هذا الحي أو أنزل عند ملفينا حين تكون احدى حجراتها شاغرة . وكان اقرباء سمية من معارفي ، فسيدة الأسرة واحدة من نشيطات الحركة النسائية الفلسطينية اللواتي التقيهن في مجال العمل العام وابن هذه السيدة شاب يصغرني بقليل وله مساهمات في الحركة الطالبية وحركة القوميين العرب . وكنت أعمد فور وصولي إلى دمشق إلى الاتصال بهذه الأسرة ، بالهاتف ، فإن تصادف ان سمية قد وصلت فهذا يعني لقاء فورياً في نادي الجامعة ، ثم مشواراً على الاقدام يلي اللقاء . وفي كل مرة ، كنت أجيء وأنا مصمم على أن اتحدث عن حبنا حديثاً مباشراً ، إلا اني لم أنجح في تحقيق ذلك في اي مرة . كنت ، قبل اللقاء ، اعد حتى تفاصيل الحديث الذي ساديره وأولف الجمل والعبارات الملائمة واحفظها عن ظهر قلب ، فاذا التقت العين بالعين غارت الاعدادات كلها وانعقد اللسان وربطه التهيب أو الحياء أو ما لا أدري من الأسباب .

وهكذا ، لم يتسنّ لنا ان نعرف من خطاب الحبّ إلا ما يفصح عنه الصمت أو يبوح به النظرٍ أو يعكسه الاهتمام المتبادل . وكان هذا كله ، على عدم كفايته ، لذيذاً ، وقد واءم هوسي ، المستبد بي آنذاك ، بالحب العذري .

شيء آخر كان يجتذبني إلى دمشق ، وهو ما يمكن لك أن تفهمه بسهولة بعد أن صرت على معرفة بمعاناتي مع أسرتي . فقد وجدتني حريصاً على تعزيز علاقاتي بالناس الذين يعرفون أهلي والظهور أمامهم بأحسن صورة .

وأغلب الظن أني خشيت أن ترتسم في اذهان هؤلاء صورة مغلوطة عني ، وكان أخشى ما أخشاه أن يتصوروا أني الولد الشاذّ الذي تمرد على الأسرة وانصرف إلى اللهو والمباذل . فدفعني الحرص على حسن السمعة إلى الاكثار من زيارة المعارف وتثبيت صورتي الحقيقية في أذهانهم . كنت ، مثلاً ، أزور آل ذكرى الذين أعرف أنهم احتفظوا بعلاقة منتظمة مع أهلي وأحرص على أن أطلعهم على تقدمي في الوظيفة واستغراقي في العمل العام واستقامة سلوكي مع الجميع ، كما أحرص على الاهتمام بشؤونهم واحداً واحداً واستقصاء ما يستجدّ في حياتهم . وبقي أبو وليد ذكرى وزوجته ام وليد يعاملانني كابن لهما ، ويتجنبان ، بلباقة محمودة ، التطرق إلى متاعبي مع اسرتي . غادر مجايلاي ، خالد وسلوى ، منزل الأسرة ، تزوجت سلوى فلسطينياً يعمل في الكويت وذهبت إلى هناك حيث عملت ، هي الاخرى ، في التعليم ، وسافر خالد إلى المانيا الاتحادية بحثاً عن فرصة للعمل والدراسة ، فتوثقت علاقاتي بالأخوة الأصغر سناً ، فضلاً عن علاقاتي الراسخة بالوالدين ، وظل منزل آل ذكرى واحداً من المنازل التي أشعر وأنا فيها أني في بيتي .

اما ملفينا التي انتهت إلى اعتباري ابنها وأخذت تتصرف على هذا الاساس فقد اشتدت لديها الرغبة في تزويجي ، وراحت تحاصرني باقتراحاتها في كل زيارة ، سواء نزلت في شقتها أو جئتها زائراً . وكانت

ملفينا ، بالطبع ، تنتقي مرشحاتها للزواج بي من بنات الوسط الذي تعيش فيه وتألفه ، وسط الأسر المسيحية متوسطة الحال التي تقيم في أقبية حي القصور وجواره . ولأني لم أحدّث ملفينا بشيء عن تعلقي بفتاة الجامعة ، فقد كانت تراني حراً وتقترح عليَّ الزواج ممن تعرف من فتيات محيطها ، حتى اشتهر ذلك عنها ، وبدت كأن لاهمّ لها إلا هذا الهم .

وأتذكر من بين المرشحات واحدة تسكن أسرتها في القبو المجاور لقبو ملفينا . لقد نسيت اسم الفتاة غير أني لم أنس شكلها أو طبعها ، فقد كانت لها هيئة فرس جيدة التغذية وطبع بقرة حسنة التدجين . جاءت الأسرة من لبنان قبل سنوات واستقرت في هذا الحي في دمشق ، دون أن تتخلى عن جنسيتها اللبنانية ، وهي أسرة أرمنية ، يعمل ربها في صناعة الأحذية ويعيل زوجة مثقلة بالاعمال والهموم وست بنات أكبرهن هذه الفتاة . وقد رأيت الفتاة مرات كثيرة وضمتنا لقاءات عائلية متعددة ، واجتذبت هيئة الفتاة وطباعها نظري دون أن تفتنني بأي حال من الأحوال . وكما كنت افعل بالنسبة لمعارف ملفينا كلهم ، دأبت على أن أعامل الفتاة بمودة واحترام والتزم أدق آداب السلوك في حضورها . والحقيقة أن ملفينا طمحت إلى أن تجد لي زوجة أرق وأجمل وأغنى من ابنة صانع الأحذية التي لم تظفر من التعليم العام إلا بأقله . لكن مبالغتي في معاملة الفتاة وأسرتها بود جعلت ملفينا تسيء الفهم فتظن أني راغب فيها . وزعمت ملفينا للفتاة أني متعلق بها وأن الحياء الذي يتميز به أولاد المسلمين هو ، وحده ، الذي يمنعني عن البوح بعاطفتي . واقنعت ملفينا جارتها بذلك ، ثم أقنعت امها به ، أيضاً . وتلقت الحريصة على تزويجي إشارة رضى من الأم الحريصة على التقاط عريس لابنتها كما تلقت وعد الام بالمساعدة على تذليل العقبات حين يحين أوان الجد . وبعد هذه التحضيرات ، فاتحتني ملفينا بالأمر دون ان تذكر لي انها فعلت شيئاً على الجانب الاخر ، أرادت ملفينا أن تجس نبضي ، ولأني ألفت توالي اقتراحاتها والزوغان منها ، فقد تصرفت بازاء اقتراحها الجديد بنصف جديّة ، واظهرت ممانعة مخاتلة . وانساقت ملفينا مع رغبتها ، ففسرت هذا

النوع من الممانعة تفسيراً ملائماً لها ورأت أنه ينطوي على الميل إلى القبول ، فتابعت جهودها مع أسرة الفتاة بهمة أكبر ، وأكدتْ للفتاة ذاتها على أني راغب في الزواج . وكنت قد نسيت الأمر كله ، حين فاجأتني ملفينا ، في احدى زياراتي لها ، بأنها أتمت إعداد كل شيء . قالت ملفينا ، بنبرة من ظفر بالسبق بعد مشوار مجهد : «ضمنت لك موافقة البنت وأسرتها ، وما عليك إلا أن تتقدم لخطبتها كما يفعل الناس المحترمون» . عندها ، توجب عليّ أن استنكر ما فعلته هذه الحريصة على تزويجي ، وقد فعلت ذلك بأشد العبارات حسماً وفظاظة ، غير أن غضبتي لم تثن ملفينا عما بدأت به ، وقد تركتني وذهبت إلى الجيران لتنبئهم بقدومي ، فما كان مني إلا ان تركت شقتها قبل عودتها . في ذلك اليوم ، فوجئت بالفتاة في الفندق ، جاءت وعلى وجهها إمارات من اعتزم الإقدام على أمر خطير وطلبت ان نذهب إلى اي مكان نستطيع فيه أن نتحدث بحرية ، ولم يكن في دمشق ، وقتها ، مقهى واحد محترم يمكن أن يختلي فيه رجل وامرأة دون مضايقة ، فاخذت زائرتي إلى نادي الجامعة . وهناك تحدثت الفتاة التي تعتقد بأني مصمم على طلب يدها ، بنبرة راجية ، وناشدتني ، معتمدة على شرفي وحسن تقديري للأمور ، أن أراعي وضعها وابتعد عن طريقها ، كي لا اعرضها للإحراج . وقد اتضح ان الفتاة غارقة في حب فتى من أبناء شعبها مقيم في لبنان وأن الفتى يعبدها عبادة . كما اتضح ان والد الفتاة يصر على ابعادها عن فتاها لأن الوالد متعصب لحزب الهاشناق وهو لا يطيق فتاها المنتمي إلى حزب الطاشناق ، والفتى لا يجرؤ على طلب يد فتاته بسبب احتدام الخصومة بين الحزبين ولكنه يترقب ان تتبدل الحال أو يقع ما ليس في الحسبان . ولكي تؤكد الفتاة لي على جدّية الأمر ، جلبت معها حزمة تضم رسائل الفتى التي يضمنها اشواقه ولواعج روحه ، فكان طريفاً ان تطلعني على هذه البراهين المكتوبة باللغة الارمنية وهي تظن أن اطلاعي عليها ضروري لاقناعي بالتوقف عن الجري وراءها .

منذ ذلك الوقت ، صرت أشد حزماً في وأد مشاريع ملفينا . غير أن العجوز المدفوعة بالرغبة في اتمام ما تراه صحيحاً لم تستسلم بسهولة . لم

تقر العجوز بأن حشر الأنف في شؤون الاخرين ، حتى لو كانوا من اقرب المقرّبين إليها ، أمر بغيض . وحين تكرر رفضي لاقتراحاتها ، انتهت هي إلى الاعتقاد بأني رجل معقد بازاء النساء ، ونسبت العقدة إلى التربية المحافظة التي تلقيتها في أسرتي . وقد صارحتني ملفينا باعتقادها هذا ، واضافت انها مصممة على تحريري من عقدتي ، مهما طال الزمن . وسببت لي مساعي ملفينا في هذا المجال مشاكل عديدة . غير أني ظفرت بثقة الجارة الأرمنية وصداقتها . وقد تكشفت شخصية هذه الفتاة المطوية على سرها عن طيبة واخلاص في الحب لا حدود لهما .

وبين الأسباب التي جذبتني إلى دمشق اكتشافي أن الموهبة الأدبية التي أومن بأني أمتلكها يمكن أن يعترف بها الآخرون . لا أحدثك هنا عن موهبتي في الكتابة السياسية فهذه سبق أن اعتُرف لي بها منذ الصغر، بل عن موهبتي الشعرية بالذات . وأنت تعرف أني نشرت عدداً قليلاً من القصائد عندما كنت تلميذاً في الثانوية : اثنتين او ثلاثاً في مجلة المدرسة ومثل هذا العدد في جريدة « الأيام» الدمشقية عندما كان الدكتور ممدوح حقي مديراً لتحريرها . لكن القصائد المنشورة لم تحدث أي صدى من أي نوع ، وقد تجاهلها القراء تجاهلاً حملني على اليأس من كتابة الشعر فكففت عنه . ثم بدأت حكاية مازن النقيب ، وهو اخو سمير صاحب الجورة ، والقصائد التي استعان بي مازن على كتابتها والاخرى التي حثني على كتابتها ليقدمها إلى الإذاعة باسمي . فمازن هذا ركبته منذ مطلع شبابه هواية كتابة الاغاني ، وتركز كل جهده ، بالمعنى الحرفي ، على العمل للظفر بتلحين اغانيه وبثها من الإذاعة . وتمتع مازن في هذا المجال بقدرة على المواظبة لا يتمتع بمثلها إلا المهووسون بهواية آسرة ، فكتب اغاني بالعامية واخرى بالفصيحة وقدمها الواحدة تلو الاخرى ، أو قل : الحزمة تلو الاخرى إلى المسؤولين في الإذاعة ، دون ان يحظى اي منها بالقبول . وصار الهاجس عند مازن مرضاً حملنا نحن المحيطين به إلى الاشفاق عليه . كان المهووس بكتابة الاغاني يجهل الايقاع والاوزان وكانت في لغته ركاكة ملحوظة ، فلم يتيسر له ان يكتب اغنية واحدة مقبولة او قصيدة خالية من

اخطاء النحو والوزن . ولما آنس مازن لديّ ما عده موهبة في كتابة الشعر ، أخذ يجيء إلي بما يكتبه لأقوم باصلاحه واجعل له وزناً مطابقاً لبحور الشعر . كان مازن يقع عليّ في هذه الزيارة او تلك من زياراتي لدمشق فيدعوني إلى الطعام والشراب ، في منزله أو في احد المطاعم ، ثم يأخذ ما يخرج من جلستنا من قصائد ويقدمه للاذاعة . لكن تدخلي لم ينفع ، فعرض مازن عليّ مرة ان يأخذ قصائدي انا ليقدمها باسمي ، وتكرر الامر مرة وثانية ، وكان في الواقع يحظى بنص جديد في كل زيارة جديدة لي . وفي الوقت الذي ظننت فيه ان هذا كله عبث بغير طائل ، فوجئت ذات يوم وانا اصغي للراديو في البطيحة بقصيدة لي ملحنة يؤديها احد المغنين . وحملني هذا على متابعة الاذاعة بحرص اشد ، فسمعت بعد ايام نصاً آخر لي مكتوباً على صيغة ما كانوا يسمونه سكتش اذاعي ، وقد لحن هو الآخر واداه كورال الاذاعة الموسيقي . وكان من شأن هذا بالطبع ، ان يبهجني ويرتفع بمعنوياتي إلى الاوج ، لولا الحقيقة التي صدمتني وهي ان النصين قدما للمستمعين على انهما من شعر مازن النقيب .

ولن يصعب عليك ان تتصور مقدار حنقي ازاء غبن كهذا الغبن وسرقة كهذه السرقة . وقد قررت ان افعل شيئاً لاستعيد حقي ، مضمراً ان احمل الاذاعة على الاقرار بموهبتي فاعود لكتابة الشعر . وامضيت اياماً وانا اصوغ رسالة للشاعر المشهور يوسف الخطيب المسؤول في الاذاعة ، وارتب البراهين التي تثبت ان كاتب النصين ليس مازن . واخترت براهيني مما يسهل ان يقنع شاعراً قديراً مثل يوسف . كان النص الاول ، مثلاً ، قصيدة غزلية نظمتها على وزن البحر الكامل وحين نسخت منها نسخة لمازن ارتكبت خطأ في النقل ادى إلى كسر البيت الاخير ، كان البيت في الاصل :

قاسيون سوف يظل يحكي ذكرنا للعاشقين على مدى الأيام

اما في النسخة التي حملها مازن فقد حل فعل « يبقى» محل « يظل» فانكسر به الوزن . وقد لحنت القصيدة واذيعت دون ان ينتبه احد لهذا

الخطأ . اما السكتش فكان موضوعه عن فلسطين وحنين ابنائها للعودة اليها واستعدادهم للتضحية . وقد تعددت بحور هذا النص وتفعيلاته . وفي رسالتي ليوسف الخطيب ، بيّنت هذا كله ثم ناشدته ان يختبر مازن فاذا تبين له ان مازن لن يكتشف الخطأ في القصيدة ولن يتعرف على أي بحر من بحور الشعر فله ان يصدقني وعليه أن يدرك أن مازن لم يكتب النص .

أرسلت الرسالة في البريد ، وانتظرت زمناً دون أن أحظى بجواب . لكن الإذاعة كفّت عن إذاعة القصيدة ، أما السكتش فظلت تذيعه دون أي اشارة إلى اسم مؤلفه . ومن جديد ، توقفت عن كتابة الشعر . اما ماجنيته من محاولتي لاستعادة حقي فهو معاداة مازن العنيفة لي وتحريضه لاهله واصدقائه كي يعادوني . ومن بين هؤلاء كان اكثر مَنْ اهتم بهم اثنين ، أم مازن وأخاه أبا وليد . اما الام فقد انحازت كلياً لابنها وأبت أن تصغي إليّ او حتى أن تستقبلني ، فخسرت حدب هذه السيدة عليّ وصداقتها لي ، إلى الابد . وام مازن هي ، على كل حال ، التي وفرت لابنها العون المجدي في نهاية المطاف . فقد استخرجت السيدة المقتدرة من محفوظاتها القديمة نص أغنية شعبية لا مؤلف معروفاً لها ، فقدم مازن هذا النص للإذاعة على أنه من تأليفه ، وأعطت الإذاعة النص لملحن استخلص من كنوز الفلكلور لحناً جميلاً سهل الأداء فصارأغنية شائعة ، هي هذه التي رددها كثيرون منذ ذلك الوقت : «قالوا لي كن! وأنا رايح جن أحبابي يمّه نار بروس الجبال» . وتحققت لمازن الشهرة التي توخاها ثم انطفأ بعد ذلك هوسه بالاغاني ووضع لنفسه هدفاً جديداً : ان يصير مذيعا . وأما ابو وليد فكان مقتنعاً بأني انا كاتب النصين الشعريين ، إلا انه عد شكواي على أخيه عملاً من اعمال قطع الرزق ولامني على ذلك ، دون أن يقاطعني ، ووجدتني بالاجمال ، مجروراً إلى معركة لم أختر موضوعها أو ميدانها ، وصار عليّ ان أكر وأفر ، مهاجماً ومدافعاً ، إلى أن طغت أحداث أخرى اهمّ على هذا الحادث ، وإن كانت علاقتي بمازن لم تصلح بعد ذلك ابداً .

سبب آخر انضاف إلى كل ماتقدم وانتهى بأن حملني على الإلحاح في المطالبة بنقلي إلى دمشق ، ذلك هو آلام المفاصل التي تركزت في ظهري

وازدادت شدة ، وازداد تواتر نوباتها حتى صار الالم متصلاً ، يزيد أو ينقص لكنه لا يختفي . كان الألم الذي ابتدأ في مفصلي الحوض عند التقائه برأس الفخدين قد انتقل إلى الفقرات السفلى ثم أخذ يزحف إلى اعلى ويعصف بي ليل نهار ويسمم عيشتي ويمنعني من الراحة في الصحو والنوم . وظل الاطباء الذين أراجعهم عند قولهم الأول من انها آلام روماتيزمية ناجمة من تهيجات عصبية ، دون ان يقدموا تشخيصاً أدق لها . ولم تزد وصفات الاطباء عن فيتامين أ المهدىء للأعصاب والحبوب المسكنّة للآلام التي أمعنت في ابتلاعها حتى غدت بغير مفعول . وكانت حياتي في البطيحة والتنقل بينها وبين دمشق لا يتيحان لي متابعة علاج منتظم . وادركت أن الظفر بالعلاج المنتظم لن يتيسر لي إلا إذا استقر أمري في العاصمة .

وهكذا بادرت الى تقديم طلب الانتقال ، مبكراً ، وابلغتني ادارة التعليم أن طلبي ، اذ يجيء بعد عملي في البطيحة أربع سنوات متوالية ، موافق عليه لا محالة . ولم يكد شهر أيار / مايو ١٩٦١ ينقضي حتى كانت شقة ملفينا تحتويني من جديد . وقد فارقت البطيحة فراقاً انتويت أن يكون بلا عودة . والمرة الوحيدة التي زرت فيها البطيحة بعد ذلك كانت المرة التي توجب عليّ فيها أن اشترك في حفل تأبين صديقي شهاب الأحمد . سقط شهاب شهيداً فتوج حياته بهذا التكريم الذي يليق به . كان ابو احمد قد اتم مع اثنين من زملائه المتدربين سرحة من سرحاته في الجليل ورجع وإياهما على طريق العودة إلى أن صاروا على بعد مئات الأمتار فقط من البطيحة . وهناك ، على سفح المطلة ، في وقت علت شمسه وصحا نهاره ، اصطدم الثلاثة بكمين إسرائيلي بدا أنه كان في انتظارهم . وقد أطلق الكمين زخة رصاصه الأولى فأصاب الرصاص ساقي أبي أحمد وأقعده عن الحركة واخطأ صاحبيه . وحين اخذ الجميع الارض وتشاوروا في ما ينبغي عمله ، كان ابو احمد ، وقد ادرك أن لا فكاك له بساقيه المعطوبين ، حازما مع الصاحبين اللذين يقودهما . أراد هذان الصاحبان المحبان لرئيسهما أن يحملاه ويسعيا للتخلص من الكمين ، فاعترض ابو

احمد لأن فرصتهما للنجاة مع الحمل ضئيلة . واختار ابو احمد ، بدل المجازفة بحياة صاحبيه ، ما يختاره القائد الشجاع ، فطلب منهما ان يكوّما أمامه كل ما يحملون من ذخيرة ، وأمرهما أمراً بأن يتوجها ، كل من ناحية مختلفة فيزحفا فيلتفا حول الكمين بصمت وينشدا النجاة ، فيما ينصرف هو إلى مشاغلة الكمين ومنع عناصره من ملاحقتهما اذا انتبهوا لهما . وهذا ما كان ، فقد ظل رصاص أبي أحمد يلعلع حتى نفدت ذخيرته . وعندما تجرأ الكامنون له على مداهمته ، رماهم ابو احمد بالقنابل الثلاث التي بحوزته ففتكت بهم جميعاً . ولما وصلت إلى المكان وحدة اسرائيلية جاءت لإنجاد الكمين ، كان أبو احمد قد نزف الكثير من الدم ووهنت قواه وصار مجرداً من أي وسيلة للدفاع . بالرغم من ذلك ، فان الوحدة لم تتقدم نحوه قبل أن تمطره برصاصها وتتأكد من انه أسلم الروح . ولم يلبث ان وصل صاحبا ابي احمد إلى البطيحة سالمين ورويا للناس قصة التضحية الجليلة التي أقدم عليها متوجاً بها مسلسل تضحياته الطويل . وصل النبأ إلينا في دمشق عن طريق آل الصرصور ، فأثار حماس هايل لتكريم الشهيد واستصدر هايل قراراً من عرب فلسطين بتنظيم تأبين يليق بالمجاهد الراحل .

وهكذا ، شهدت البطيحة هذا الاحتفال الأول من نوعه ، شهدت الفتيان المتعلمين الذين جاءوا من دمشق ، ووفود القرى والمخيمات الممتدة بين البطيحة ودمشق . واجتمع في أحد أفضية السهل حشد كبير ضم هؤلاء كما ضم معظم سكان المنطقة . وتعاقب على المنصة التي أقمناها وسط الحشد من فروع الأشجار خطباء كثيرون ، وكان هايل الذي يتحدث باسم عرب فلسطين علناً في تلك المناسبة من اكثر المؤبنين تأثيراً في الناس لأنه تكلم بلغة بسيطة وترك لمشاعره الصادقة ان توجه لسانه دون تزويق . أما أنا فقد سمح لي صديقي احمد بن شهاب ان أجلس مع أفراد العائلة ، وكان هذا أجل تكريم عفوي ظفرت به في حياتي . وبعد هذه الواقعة ، لم أر البطيحة مرة أخرى .

١٠ | بعد الانفصال، اختفاء تمنينا أن يطول

فور حلولي بدمشق ، جاءت سمية من عمان ، الطلعة الحلوة ، والأناقة المحتشمة ، والعينان اللتان تبرقان بأدفأ المعاني ، والمشاعر الحميمة التي تكتنف حضورها .

ومن جديد ، حل موسم التواصل وتأججت مشاعر الحب العذري وأوهامه اللذيذة ، واحتوانا ، سمية وأنا ، نادي الجامعة ، بيدر أحلامنا التي تنتعش في الموسم ، وصار في النادي ذلك المجلس اليومي ، وزاد عدد رواد المجلس ، أو قل : رائداته ، حتى تجاوز العشر ، وتطاولت ساعات اللقاء فصارت تشمل النهار كله وجانباً من المساء .

وكان هذا كله ، مفيداً ولذيذاً ، وتوثقت علاقتي بسمية ، احسست بوثوقها من ازدياد تعلقي بها واشتداد لهفتي على معاودة اللقاء وحرصي على أن احظى بإعجابها الدائم . كما أحسست بذلك ، على الجانب الآخر ، من تصرفها هي في المجلس على النحو الذي يظهر أني أخصها

وحدها دون الأخريات ومن ازدياد تدخلها في شؤوني الشخصية ، بما في ذلك اهتمامها المثابر بأن أبدو دائماً بمظهر لائق وأسلك سلوك مهذباً . وانقضى شهر التحضير للامتحانات والامتحانات ذاتها ، دون أن أحس بوقعه ، لأني عشت حالة نشوة مستمرة وانجذاب دائم إلى هذا الجو الخلاب .

كانت بين المواد المقررة لنا في تلك السنة مادة علم الجمال النظري ، أو «الستاتيك» ، وقد حاضر فيها أستاذان مختلفان في كل شيء ، وحدد كل منهما للطلاب مراجع تتناقض مع المراجع التي حددها الآخر . كان أول الأستاذين هو الدكتور عبد الكريم اليافي ، وانت تعرف شيئاً عن ثقافته الموسوعية وانفتاح عقله على تيارات الفكر كافة ومسلكه الليبرالي الصميم . اما الآخر فكان الدكتور محمد المبارك المؤيد لجماعة الأخوان المسلمين والمشبع بتأثير التراث السلفي الإسلامي والمتعصب له وحده . وكان الدكتور اليافي قد أعد دراسة فريدة تعمّقت جماليات الشعر العربي الجاهلي وأبرزت ما فيه من صور فاتنة وأحاسيس أخّاذة ، من موقع الإعجاب بهذا الشعر ، وجعل الدراسة مرجعاً لمادة علم الجمال التي يدرّسها . اما الدكتور المبارك فكان ، بحكم أيديولوجيته الدينية الإسلامية ، سلبي النظرة إلى كل ما يمتّ بصلة للجاهلية ، وقد كره ، خصوصاً ، هذا الشعر الجاهلي الذي يعده حسياً فظاً خالياً من أي روح أو جمال . وقد واجهت الطلاب ، بسبب تناقض الأستاذين ، مشكلة بدت عصيّة على الحل . فالمادة واحدة وإن درسها اكثر من أستاذ ، والامتحان فيها واحد ، والطالب لا يعرف مَنْ من الأستاذين سيتولى تصحيح ورقة إجابته ويجهل ، بالتالي ، كيف سيضمن النجاح . ويبدو أن بعض الطلاب الذين داوموا على حضور المحاضرات فاتح كلاً من الأستاذين بالأمر وأشار إلى تبلبله إزاء التناقض في نظريتيهما ومنهجيهما ، فلم يلقَ إلا الإجابة التي أكد كل أستاذ فيها أنه سوف يحاسب الطلاب في الامتحان وفق منهجه الخاص غير آبه بوجود المنهج المناقض . هؤلاء الطلاب راجعوا عمادة الكلية ، أيضاً ، فتلقوا إجابة لا تلغي مخاوفهم من أن يقعوا ضحية

الاختلاف بين أستاذيهم .

اما علم الجمال التطبيقي فتولى تدريسه موظف من موظفي المتحف الوطني هو ، على ما أتذكر ، عدنان الأخرس . لم يكن الرجل أستاذاً في الجامعة ولا كان منصرفاً للعمل الأكاديمي ، لكنه كُلّف بتدريس هذه المادة بسبب نقص الأساتذة على الأغلب . وكان كل مافعله هذا الأستاذ أن قام بصحبة المواظبين من الطلاب بزيارات لبعض متاحف دمشق ومنشآتها الفنية ومراسم عدد من مشاهير الرسامين ، وأتاح للطلاب أن يحاوروا مسؤولي المنشآت والرسامين الكبار . وقد أتيح لي في أسبوعي الدراسة الأخيرين أن أصحب الأستاذ والطلاب في زيارتهم لمرسم ناظم الجعفري ومرسم زميله نصير شورى واتناقش معهما . واجتذبت مساهمتي نظر الأستاذ عدنان الأخرس وحظيت بإعجابه حتى انه أدهشني وأدهش زملاء الدراسة حين راح يخاطبني مضيفاً الى اسمي لقب «الأستاذ» . أما مساهمة أستاذ المادة في النقاشات فقد أكدت لي على صحة الانطباع الذي كونه عدد من الطلاب من أنه لا يملك فكرة واضحة عن المادة التي تولى تدريسها .

هذا الوضع المبلبل إزاء مادة علم الجمال ، بجانبيها النظري والتطبيقي ، جعلنا في مجلسنا في النادي نولي عنايه خاصة بمراجعتنا لهذه المادة ونستقصي كل ما يتعلق بها من مراجع ، فنهيىء أنفسنا لشتى الاحتمالات . ولابّد أنك حزرت أني تطوعت لشيل العبء الأكبر من هذه المهمة . وقد أمتعني ذلك ، فالمادة ممتعة في حد ذاتها ، وموضوعاتها المتنوعة موحية . وقد حاولت خلال تخويضي في آفاق علم الجمال ، مع سمية وزميلات المجلس الأخريات وزملائه ، أن أظهر أستاذية من نوع آخر ، هي استاذيتي أنا ، وتبنيت ، ربما بدافع التميّز والتباهي ، أحدث ما وقعت عليه مما يرتبط بهذا العلم من نظريات وأفكار ، ووضعت ذلك كله في معارضة آراء الأساتذة الثلاثة .

ثم جاء وقت الامتحان في علم الجمال النظري ، فإذا بورقة الاسئلة

تتضمن موضوعاً واحداً لاغير ، نصاً طويلاً من شعر المتنبي ، وجملة واحدة تقول : «ادرس هذا النص بما لديك من ثقافة!» . تدخلت عمادة الكلية ، اذن ، بين الأستاذين المتنابذين ، فجاء هذا الموضوع الذي يجنب الطلاب ما بينهما من اختلافات . وكان طبيعياً أن انجح في امتحان موضوعه هو هذا الموضوع ، انا المولع بالمتنبي والقارىء للعديد من الدراسات والكتب التي تناولت أدبه . وقد نجح في الامتحان زملاء المجلس وزميلاته جميعاً . وفي الامتحان التطبيقي ، ورد سؤال واحد ، ايضاً ، وكان يدور حول الصراع بين القديم والحديث في الفن . وظننت أن هذا هو الموضوع الذي استطيع ان أجلي فيه ، فقدمت إجابة غطت أربع صفحات كبيرة ، وعرضت تاريخ الصراع بين القديم والحديث بما أعرف من وقائعه ونظرياته المتعددة ، وأضفت إليه ما ظننت أنه مهم ومبتكر من آرائي الشخصية ، وتوقعت ، بالطبع ، لا أن أنجح في الامتحان فحسب ، بل أن افوز بدرجة عالية وأحظى بثناء الأستاذ عليّ ، أنا الذي يعدني هو أستاذاً . غير ان النتيجة صدمت تفاؤلي ، فلائحة اسماء الناجحين التي نشرت في بهو الكلية لم تتضمن اسمي . وقد توهمت ان في الأمر خطأ ، فجريت إلى الديوان ، فتأكد لي أن اسمي مدرج بين أسماء الراسبين في المادة .

لا أدري ، بالضبط ، مالذي حلّ بي عندما فوجئت بهذه الصدمة القاسية ، ربما كان ذلك خليطاً من مشاعر الحنق وخيبة الأمل والإحساس بالغبن والاعتقاد بعدم أهلية الاستاذ لتدريس المادة . وقد وجدتني اجري ، مدفوعاً بمشاعري المستثارة ، من مبنى الجامعة إلى مبنى المتحف الوطني واقتحم الحجرة التي يشغلها الأستاذ عدنان الاخرس واصرخ في وجهه دون مقدمات محتجاً على هذه النتيجة . فوجىء الموظف المسكين ، ولعله خاف ، وأغلب الظن انه قدر أني ماكنت لأتجرأ عليه لولا أني مسنود من متنفذين في الجامعة أو في السلطة . وبذل الأستاذ جهداً كبيراً لتهدئتي ، وبدا متطامنا وهو يرجوني ، رجاء ، أن أعرض شكواي بهدوء . فلما أمكن أن أهدأ وأعرض شكواي بشيء من المنطق ، ابدى هو نفسه اندهاشه للنتيجة التي سبق ان قررها ، ثم تعهد ، بصورة قاطعة ، بأن ينجحني في

امتحان الدورة الثانية ، أياً كانت الإجابة التي سأقدمها .

في غضون ذلك ، كانت الحياة السياسية ، في سورية ، تقترب من درجة الغليان . وتبلورت في البلاد ثلاثة تيارات رئيسية : واحد ينطلق من قاعدة أن ليس بالإمكان أبدع مما هو قائم ، وهو تيار عريض ، يقف في قوامه القوميون العرب والبعثيون السابقون الذين افترقوا عن مواقف حزبهم وانضموا إلى الصفّ الناصري ، ويحيط به جمهور مفتون بزعامة عبد الناصر وغير معني بالهموم التي تشغل بال خصومه . وتيار ثان ينطلق من الحرص على بقاء الوحدة ويرى ان ضمان بقائها مرهون بتصحيح الاخطاء التي وقع فيها النظام ، وخصوصاً في مجال الممارسة الديمقراطية ، فهو يدعو إلى تصحيح الأخطاء كي تدوم الوحدة . وقد وقفت جمهرة البعثيين التي احتفظت بولائها لقيادة الحزب في صلب هذا التيار ، واستقطبت العديد من القوميين التقدميين الآخرين ، وحظيت بتفهم الأوساط الشعبية المستنيرة لموقفها . وكانت دعاية هذا التيار تكتسب المزيد من المؤيدين ، وخصوصاً في أوساط النخبة من المتعلمين والنشطاء السياسيين ، وفي الوسط الجامعي ، على نحو أشد تخصيصاً . وتيار ثالث يتربص بالوحدة ذاتها فيرصد الاخطاء ويضخمها ويغفل الايجابيات ويهيىء الأجواء لتقبل فكرة الانفصال التي يراها الجمهور بغيضة . وكان في قوام هذا التيار ناس الأحزاب السورية المحافظة وممثلو الاقطاع والرأسمالية الكبيرة الذين تضررت مصالحهم جراء تطبيق قانون الإصلاح الزراعي وتأميم البنوك والمنشآت الصناعية والتجارية الكبيرة ومَنْ يؤيدهم من رجال الدين . وكان الشيوعيون ، الذين وجّه النظام الناصري لحزبهم ضربة قاصمة واحتجز نشطاءهم في السجون أو ألجأهم إلى المنافي ، بين الداعين إلى الانفصال .

في هذه الأجواء ، ازداد انجذابي إلى البعثيين ، في حين بهتت علاقتي بتنظيم عرب فلسطين . والواقع أن حزب البعث كان يعبر في تلك الفترة منعطفاً حاسماً في تاريخه . فالدعوة إلى إعادة بناء التنظيم في سورية صارت طاغية وضاغطة على قيادة الحزب التي تدرك أن الشروع في إعادة التنظيم يعني إعلان حرب رسمية على السلطة التي تحظر الاحزاب . وكان

المؤتمر القومي الرابع للحزب قد انعقد في بيروت ولم يحضره من ممثلي بعثيي سورية إلا مَنْ كان عضواً في قيادة الحزب القومية . وقد رسم المؤتمر نهجاً يقوم على الدعوة لتصحيح أخطاء عهد الوحدة مع التشبث ببقائها . وقدم المؤتمر ترضية للفلسطينيين ، بدعوته إلى إقامة جبهة شعبية تضم القوى الفلسطينية كافة ، على غرار الجبهة التي قامت في الجزائر ، واظهاره الحرص على استقلال الجبهة عن الحكومات . وبهذا عارض المؤتمر مسلك النظام الناصري والأنظمة العربية الأخرى التي لا تبيح النشاط الفلسطيني المستقل . وقد أحدث النهج الذي رسمه المؤتمر اصداء إيجابية بين معظم البعثيين السوريين واصدقائهم ، إلا أنه استفز ذلك القسم منهم الذي كان ضيقه بعهد الوحدة قد بلغ الذروة وصار ميالاً إلى العمل من اجل الانفصال . وفي دمشق ، أيدت شعبة الطلبة العرب في جامعة دمشق ، وبضمنها ، كما تعلم ، البعثيون الفلسطينيون ، سياسة القيادة التي أقرها المؤتمر القومي وتحمست لها ، فزادت أهمية هذه الشعبة وأعضائها لدى القيادة وزادت بالتالي المهام الموكولة إليها . وأطلقت القيادة القومية يد قيادة الشعبة في العمل على صعيد البلاد بأسرها ، وأولتها صلاحيات تقرب من صلاحيات قيادة قطرية ، واعتمدت عليها لتحرض الجمهور ضد اخطاء الوحدة وضد التوجهات الانفصالية ، على حد سواء .

في هذه العملية ، هيأ وجود فرع الاتحاد العام لطلبة فلسطين ميداناً طيباً للنشاط . وكان الفرع مركزاً لاستقطاب الفلسطينيين الوافدين من أقطار عربية أخرى للدراسة في دمشق . وحمل نجاح تجربة الفرع الفلسطيني البعثيين على تشجيع الروابط الطلابية الأخرى وتوسيع نشاطهم فيها . وعرفت دمشق ، في هذا السياق ، النشاط المتميز لرابطة الطلبة اليمنيين ورابطة الطلبة الأردنيين ، وكذلك رابطة الطلبة الجزائريين الذين ازداد عددهم في دمشق مع اقتراب الجزائر من الظفر باستقلالها . وكانت شعبة الطلبة العرب البعثية هي التي تنسق عمل هذه الروابط مستفيدة من البعثيين واصدقائهم فيها . وكثيراً ما عكست بيانات الروابط ونشاطاتها الأخرى المواقف التي يريد البعثيون ترويجها ، بل كثيراً ما شهدت هذه

الروابط احتفالات البعثيين بالمناسبات التي تخصهم والتي لا يملكون حق الاحتفال العلني بها إلا بالتستر بشرعية الروابط .

وبين نشطاء شعبة الطلبة العرب ، تميّز عدد من الفلسطينيين الذي سعوا منذ ذلك الوقت لتوسيع التنظيم البعثي واجتذاب مزيد من الأعضاء لصفوفه وتمكنوا من بناء تنظيم سري محكم وفعال . وقد تأسست بتشجيع من هؤلاء ، أيضاً ، رابطة المعلمين الفلسطينيين التي ضمت معلمي مدارس الاونروا في العاصمة وصار للبعثيين نفوذ كبير في قيادتها ، وصرت عضواً في هذه الرابطة فور انتقالي إلى دمشق .

في هذه الفترة ، توثقت علاقتي الشخصية بعدد من البعثيين الذين يديرون هذا النشاط بدأب ودراية يستحقان الإعجاب . عرفت محمد بصل ، خريج كلية العلوم الذي عمل بعد تخرجه مدرساً في منطقة سبها في ليبيا ثم عاد للاستقرار في دمشق وعمل في مدرسة إعدادية تابعة للاونروا وأعطى وقته كله للنشاط العام . وعرفت عزيز خليفة خريج الكلية ذاتها ، وخلدون الشهابي موظف البنك ، وعاصم خليفة المهندس في البلدية ومفيد عبدوني الذي لم يلبث ان وجد عملاً في الكويت وظل يتعجل قدوم العطلة الصيفية ليعود إلى دمشق . كما عرفت عمر خليفة ، طالب كلية العلوم المغرم بالشؤون النظرية والتحليل واخاه محمد البعثي المثابر الذي جمع بين قيادة الطلاب وقيادة المعلمين وعمل الكثير لرابطتيهم . وعرفت سامي قنديل ، الطالب في كلية الصيدلة والقادر على المزج بين النشاط الجاد وخفة الدم واستقطاب الآخرين بهذا أو بذاك . وقد شكل هؤلاء وآخرون ممن لا تحضرني الآن اسماؤهم النواة الصلبة مما سيصبح في المستقبل التنظيم الفلسطيني في حزب البعث . وبدا واضحاً لمن يتعامل مع البعثيين أن محمد بصل هو المايسترو في هذه النواة وهو صلة الوصل بينها وبين القيادة العليا للحزب في بيروت .

ومحمد هذا هو الذي تولى الاهتمام بي وعمل على اجتذابي إلى تنظيمهم . ولم اكن ، بالطبع ، الوحيد الذي تطلع هذا البعثي إلى ضمه

لصفوف البعثيين . ولكني كنت أكثر من تمتع بعنايته . وقد قام محمد بذلك بطريقة جذابة وفعالة ؛ ادرك نهمي للقراءة فشجعني على المضي فيها وأباح لي أن أستعير ما أشاء من كتب مكتبته الخاصة الغنية ، ووجه اهتمامي إلى قراءات لم آلفها من قبل ، فعرفت على يديه الشعر الحديث فصرت اتدرب على التعاطي مع هذا الشعر بصوره وايقاعاته الخاصة أنا الذي نشأت ، كما نشأ جيلي ، على التعاطي السهل مع الشعر الكلاسيكي وحركته ومعانيه وايقاعاته المعطاة بسهولة . وشجعني محمد على الاهتمام بالشؤون النظرية ، وأعارني كتب المؤلفين العرب والكتب المترجمة لمفكرين أجانب ، وحثني ، خصوصاً ، على قراءة لينين وماركس وتروتسكي ، وكان يجادلني في ما أقرأ ويتأكد من قدرتي على الاستيعاب واستخلاص ماهو هام وجوهري . ونمى محمد لديّ هواية الاستماع إلى الموسيقى ، الكلاسيكي منها والحديث ، ونشط فضولي لمعرفة مكنوناتها . ومحمد هو الذي أرشدني إلى سلسلة المسرح العالمي ، فرحت التهم أعمال كبار المسرحيين التهاماً ، اقرأ المسرحية ، احياناً ، في ليلة واحدة ، وأجيء في اليوم التالي طالباً المزيد .

وعندما وافقت على الانتساب إلى التنظيم البعثي ، فهمت ان السرية التامة هي أشد ما يحرص عليه ناس النواة . وعنى هذا الا أجهر ببعثيتي ، بل اواصل التصرف على اساس أني عضو في عرب فلسطين . واتضح لي ان التنظيم البعثي اجتذب ، قبلي ، آخرين من عرب فلسطين ، وكان من هؤلاء محمود السلطي ومحمد زعيتر ومروان عبد الحميد ، أخو هايل . وقد قبل هؤلاء ، جميعهم ، الشرط ، فلم يقطعوا صلتهم بعرب فلسطين وتكتموا على بعثيتهم . ولما كان هذا الشرط منافياً لطبيعتي ، أنا الذي لايستهويه شيء كما يستهويه الجهر بمواقفه ، فقد أبيت الالتزام به ، وقلت إني مستعد لتحمل تبعات الجهر ببعثيتي . ثم انتهى الأمر إلى حل وسط بيني وبين منظميّ في البعث ، إذ وافق هؤلاء على أن اقطع صلتي بتنظيمي السابق وأن أكاشف هايل وأنيس ، وحدهما ، بعزمي على الانتماء للبعث وأكتم الأمر عمن عداهما ، واتصرف ، بعد ذلك ، على أساس أني مستقل

متعاطف مع البعثيين . منحني منظمّي هذه الميزة الاستثنائية لثقتهم التامة بأن هايل وأنيس سوف يكتمان السر حين يطلب منهما ذلك ولن يستخدماه ضدي أو ضد البعثيين في أي ظرف من الظروف .

وفي قعدة لا أنساها ، مع أنيس وهايل ، في منزل الأول ، في مخيم اليرموك ، كاشفت صديقي العمر بما آل إليه حالي ، وطلبت منهما أن يكفا منذ الآن عن اطلاعي على شؤون عرب فلسطين السرية ، وعرضت أمامهما مبرراتي للانتقال إلى البعث ، وكانت كلها تنطلق من اعتقادي بأن هذا الحزب يشكل مجالاً ارحب للنشاط ويحمل عقيدة أوسع من الفكرة المحدودة التي انطلق منها عرب فلسطين . وقد تقبل أنيس الأمر بواقعيته المعهودة ، وأبدى ارتياحه وتقديره الكبير لمبادرتي بكشفه لهما ، وعدّ ذلك دليل نزاهة ومؤشراً على الصداقة العميقة التي تجمعنا ، وتعهد بأن يظل الصديق الوفي كما كان من قبل وزيادة . واما هايل فغلب عليه الحزن ، فلجأ معظم الوقت إلى الصمت ، فلما تكلم ، بدأ بالتأكيد على ضرورة استمرار الصداقة بيننا ، ثم وجه إليّ نظرة مباشرة فيها خليط لا أستطيع أن اصفه من المعاني وقال : «أنت داخل في تجربة جديدة ، فلتجرب! اما انا فواثق من أنك ستعود إلينا ، ذات يوم» . ولم يكن هايل يعرف ما عرفته أنا من أن اكثر من ربع اعضاء الدزينة «داخل في التجربة» ، ولا جرؤت أنا على أن اخبره بذلك .

في تلك الفترة ، استغرقني العمل العام كلية ولم تعد ساعات اليوم الأربع والعشرون كافية لانجاز ما أتولاه من مهام . وقد جرت انتخابات الفرع فانخرطت فيها . حل موعد الانتخابات واحتدمت المعركة الانتخابية في جو مفعم بالحذر ، زادت رقابة أجهزة الأمن على نشاطات الفرع وأعضائه واشتد التضييق على البعثيين بصفة خاصة . وكانت قيادة الاتحاد العام الموجودة في القاهرة ، واغلب اعضائها من البعثيين ، تواجه ضغوطاً قاسية من السلطة في القاهرة ، وتتخوف من اقدام السلطة على اقفال الاتحاد أو تعطيل عمل أي فرع يفوز البعثيون فيه بالأغلبية . وقد أرسل سكرتير الاتحاد العام ، لطف غنطوس ، رسالة سرية إلى رفاقه البعثيين في

دمشق يبلغ إليهم فيها مخاوفه وينصحهم بأن يتبعوا تكتيكاً حذراً يموه حقيقة سيطرتهم على الفرع كي لا يتم اقفاله . ووضع التنظيم البعثي خطة الانتخابات في ضوء ذلك . فدعا إلى تشكيل قائمة موحدة تضم اثنين من البعثيين ومثلهما من القوميين العرب وخمسة من المستقلين . واستجاب القوميون العرب للدعوة لمعرفتهم ان البعثيين قادرون على انجاح أي قائمة يتبنونها . وكنت واحداً من الخمسة المعدودين مستقلين ، وكان المستقلون الاربعة الآخرون ، وبينهم عصام القاضي الذي صار رئيساً للفرع ، مثلي ، بعثيين مكتومين . وقد مرت اللعبة ليس على القوميين العرب ، وحدهم ، بل على أجهزة الأمن ، أيضاً ، واستمرت سيطرة البعثيين على أجهزة الفرع ونشاطاته وتحكموا فيها .

وها أنا ذا أتذكر واقعة عرضتنا للاحتكاك بأجهزة الأمن ، فتأكد لنا أنها لا تعرف الصفة الحقيقية للخمسة الموصوفين بالمستقلين ، فقد اعتقل الأمن السياسي زميلنا محمد خليفه بعد أن عثر على دليل في أوراقه الشخصية يشي بأنه يقوم بنشاط حزبي . لم يكن الدليل سوى المفكرة التي يسجل فيها محمد مواعيده ، وقد تكررت في هذه المفكرة كلمة اجتماع . وعرفت قيادة الحزب ان الرفيق المعتقل انكر التهمة الموجهة إليه ، فتحركنا في قيادة الفرع ، متجاهلين طبيعة التهمة ، ومصرّين على القول بأن زميلنا اعتقل بسبب نشاطه في منظمتي الطلاب والمعلمين الفلسطينيين . وكان بين ما قمنا به للضغط من اجل الافراج عن المعتقل إرسال برقية من قيادة الفرع إلى الرئيس جمال عبد الناصر . وقد صغنا البرقية بعبارات متطامنة حتى لا تستفز السلطة ورجونا الرئيس أن يفرج عن زميلنا لأن الامتحانات على الأبواب . لكن الصياغة المتطامنة لم تشفع لنا .

عدّ الأمن السياسي مجرد إقدامنا على ارسال برقية تطالب بالافراج عن معتقل استفزازاً واخذ علينا ان نص البرقية وزع في الجامعة على نطاق واسع . واستدعينا نحن أعضاء قيادة الفرع الثمانية إلى مكتب النقيب ياسين الغضبان الذي بدا ، كاسمه ، غضباناً ، حقاً ، لأن قيادة الفرع تجرأت على التشكيك باجراء أقدم عليه جهازه . وها أنا ذا أتذكر تفاصيل

ذلك اللقاء العاصف في مكتب الضابط المحتد . لقد تجاهل هذا الضابط وجود أعضاء حزبيين بيننا ، ووجه خطابه إلى الخمسة الذين عدّهم مستقلين . يومها ، تلقينا تقريعاً لا تنقصه الفظاظة ، لأننا سمحنا للبعثيين بأن يلعبوا بعواطفنا واستجبنا لاقتراحهم بإرسال البرقية . ويومها ، قال ضابط الأمن الذي يعلق فوق رأسه إطاراً يضم صورة كبيرة للرئيس أن لدى عبد الناصر من المهام ما هو اجلّ من أن نشغله بقصة بعثي يعمل على تخريب وحدة الامة العربية وتقويض أركان دولتها . وقد حذرنا هذا الضابط من تكرار الدفاع عن المنحرفين ، وقال إنه سيسامحنا ، هذه المرة ، آخذاً بالاعتبار أنها الأولى ، أما في المرات القادمة فلن نسلم من العقوبة . وأفاض الضابط ، بعد ذلك في الحديث عن عظمة دولة الوحدة ومنجزاتها وعظمة رئيسها ، وحثّنا ، نحن المستقلين ، على ان نكون خفراء للدولة مفتوحي العيون ضد أي نشاط يقوم به اعداؤها . وزودنا الضابط ، الذي لم يكلف نفسه مشقة الاستماع لرأينا ، برقم تليفون مكتبه ، وقال إنه يتوقع من المستقلين أن يبلغوا إليه مباشرة أنباء أيّ نشاطات يقوم بها هؤلاء الأعداء ، ثم ودّعنا مكرراً القول إنه كان لطيفاً معنا ولكنه لن يكون كذلك في المرة القادمة اذا ظهر ما يشي برضوخنا لهؤلاء . واراد عصام أن يقول شيئاً قبل انصرافنا ، غير أن نقيب الأمن أسكته وقال : «لا تنس انك موظف في وزارة الصحة وان اسرتك بحاجة اليك!» ، ثم اضاف بنبرة حملها المغزى الذي يريده : «وكذلك امتك ووطنك!» .

وقد ترتب على الفرع في ذلك الصيف جملة من الأعباء الطارئة فضلاً عن اعبائه العادية ، واقترن معظم الأعباء بالتحضير لحدثين كبيرين : أسبوع شباب جامعات الجمهورية العربية المتحدة المقرر عقده في دمشق ، والمؤتمر الوطني الثاني للاتحاد العام لطلبة فلسطين المقرر عقده فيها ، أيضاً .

وعندما جاءت سمية من عمان من أجل امتحانات الدورة الثانية ، كان لابد أن تلاحظ مدى انشغالي ، والمدهش ان ذلك ساءها ، والمدهش اكثر انها تقصدت ان تحاصرني باستيائها . وفاجأني موقف سمية أنا الذي كنت أظن أني أقوم بمهمة تاريخية وأنها لا بد أن تعجب بي . كان من رأي

سمية أن العمل العام عبث والاستغراق فيه مجازفة غير مضمونة العواقب وأن من الاجدى لي ولها أن انصرف لبناء مستقبلي الشخصي ، وكان هذا اول خلاف ، واهم خلاف ، يقع بيني وبين سمية . وقد تمسكت هي برأيها ، ولم تزد في كل مرة تجادلنا فيها حول الموضوع عن تكرار ما قالته في المرة الأولى ، ولم تقبل أياً من المسوّغات التي عرضتها في مجال الدفاع عن مسلكي ، ولم اقبل من جهتي أنا أن آخذ بنصائحها ، فانفتحت بيننا ، منذ ذلك الوقت ، بداية الشرخ الذي قدر له أن يمتد ويتعمق بمضي الوقت .

في أسبوع شباب الجامعات ، استقبلت دمشق دفقاً من الطالبات والطلاب المصريين ، وقد سلك هؤلاء سلوكاً يعكس روحهم الحيوية ومرحهم المتأصل في النفوس لكنه لا ينسجم مع تقاليد المدينة التي تحرص على آداب السلوك أو مع الجديّة الصارمة التي ألفها طلبة جامعة دمشق . ولا شك لديّ في أن المصريين والمصريات تصرفوا كما يتصرف أي شبان في رحلة ، فجدّوا وهزلوا وعملوا وعبثوا وأباحوا لأنفسهم من حرية الانطلاق ما يبيحه لنفسه أي مبتعد عن بلده . غير أن المحصّلة العامة لهذا السلوك ، حين يتعلق الأمر بمشاعر أهل دمشق وهم يراقبونه ، كانت سلبية . وقد نشطت قوى كثيرة لتضخيم السلبيات وتحريض السكان ضد المصريين . وكان هذا ، كما اتضح بعد قليل ، جزءاً من العمل الجاري للتمهيد للانفصال .

أما نحن فقد حرصنا على أن نستقبل المصريين بمودّة ، وقد نظمنا لقاءات عديدة ومتنوعة الأغراض ضمت طلبة فلسطينيين وآخرين مصريين . وأدرنا مع ضيوفنا حوارات حول شتى الشؤون المشتركة . وبين نشاطات أخرى نظمناها ، عقدنا أمسية في مقر فرعنا للاستماع إلى شعر الشعراء من الطلاب الضيوف ، وخصوصاً الشعر الذي يتطرق للشأن الفلسطيني . واتذكر أن كثيرين من طلابنا فجعوا أمام ضحالة المعلومات التي يملكها المصريون في هذا الشأن وسطحية الأفكار التي تشغلهم . وأتذكر شاعراً طالباً من أسيوط احتل المنبر وملأ فضاء المقر بصوته وهو يتلو قصيدة يتحدث فيها عن معاناة الفلسطينيين بوصفهم لاجئين مشردين

يعيشون ، كما وصفهم حرفياً ، عيشة أكرم منها عيشة الكلاب . يقيناً أن هذا الطالب انطلق من نية حسنة ، لكن جمهور مستمعيه الرافضين أصلاً للتعاطي مع قضية فلسطين كقضية لاجئين ، ثار ضده ثورة عارمة وأجلاه عن المنبر وأرغمه على الاعتذار عن خطيئة لايدرك المعتذر طبيعتها .

وها أنا ذا أتذكر من وقائع ذلك الأسبوع واحدة من أطرفها ، بطلها الشاعر الفلسطيني الطالب البعثي محمود صبح . كان محمود ، بين طلبة جامعة دمشق «شيخ شباب» يملأ أفضية الجامعة بمرحه واشعاره ويجتذب الكثيرين إلى مجالسه . وكان بين نشاطات الأسبوع مهرجان للشعر يتبارى فيه شعراء الجامعة وينال أحسنهم جائزة ويظفر بلقب شاعر الجامعات . وقد أعدّ محمود نفسه بالطبع للمشاركة في هذا المهرجان ، ولم يكتف بذلك ، بل جزم ، في مقابلة صحافية نشرت قبل ابتداء الأسبوع ، بأنه سيظفر بالجائزة ، متحدياً ، بذلك ، مَنْ يعرف ومَنْ لا يعرف من منافسيه . وكنا ، من ناحيتنا ، جاهزين لدعم محمود ، فهو فلسطيني ، وهو بعثي ، وهو بين طلاب الجامعة من المتميزين بشعره الخطابي الحماسي ، لكنه لم يكن ، في رأينا ، أجود شعراء الجامعات السورية والعربية كلها ولا كان مضموناً ، بالتالي ، أن يظفر بالجائزة ، فعددنا تحديه ورطة أوقع نفسه فيها وأوقعنا معه . وعندما راجعنا محمود بشأن تصريحه ولُمناه على تسرعه ، جاء جوابه تأكيداً على أنه ما من أحد غيره سيفوز بالجائزة ، وقال إنه لا يطلق كلاماً عابثاً بل ينطلق من معرفته بطبيعة لجنة التحكيم وأنه أعد القصيدة التي سترغم هذه اللجنة على تفضيله على الجميع . وأبى محمود أن يطلعنا مسبقاً على القصيدة وقال إن طبيعتها توجب أن تفاجىء مستمعها . والواقع اننا لم نطمئن لهذا التأكيد ، فنحن ، ايضاً ، نعرف طبيعة اللجنة التي ضمت غالبية كبيرة من الأساتذة المحافظين ، وقد استبعدنا ان تؤثر لجنة محافظة طالباً بعثياً بجائزتها ، وخشينا أن يلجأ محمود ، في حرصه على الظفر بالجائزة ، الى منافقة هؤلاء المحافظين ، فيضعنا ، نحن أنصاره التقدميين ، في موقف حرج . بالرغم من ذلك ، قمنا بكل ما يلزم من دعاية وتحشيد وأمّنا حضور عدد كبير من المستمعين

المساندين لرفيقنا . وجاءت اللحظة التي نودي فيها على اسم محمود فملأنا أجواء المدرج بالتصفيق والتحايا ، واتجه هو إلى المنبر بمهابة وخطوات وئيدة على إيقاع تصفيقنا . وكان على المنصة صف طويل من العمائم والطرابيش التي تعلو رؤوس اعضاء اللجنة المسربلين بسمت الترقب والحكمة . وقد أخذ هؤلاء بالاستقبال الذي حظي به محمود ، حتى إن الطرابيش والعمائم مالت نحو بعضها وتهامس أصحابها ، فيما راحت عيونهم تراقب المتجه نحو المنبر .

فرد محمود قامته على المنبر بكامل امتلائها ، ثم فرد صوته بأجلى طبقاته ، وما أن أتم تلاوة الأبيات الأولى حتى ارتجت القاعة بالتصفيق وتماوجت الرؤوس المعممة والمطربشة والعارية . اختار محمود ايقاع البحر الكامل ، أنسب الإيقاعات للخطابة ، وموضوع الفتح الإسلامي الذي يوائم المحافظين ويعتز به القوميون ، واستند إلى مقولة إن إرادة الشعب من إرادة الله التي يعشقها الديمقراطيون ، وجلجل مطلع قصيدته بسؤال مفخم :

لِمَ لا يزاحم منكباي الأنجما   وأمدّ أجنحتي على عرض السما
لِمَ لا وأقداري تحاك بقبضتي   ورغائبي تغدو قضاءً مبرماً

ثم أجاب على السؤال بتنغيم نداء «الله اكبر» الذي انطلق في أرجاء المعمورة ناشراً ما قال إنه نشره من هداية وعلم وثقافة وعمران .

وجال محمود مع النداء على امتداد الجغرافيا والتاريخ ، واستحوذ ليس ، فقط على رضى اللجنة والجمهور ، بل على إعجابهما الشديد ، أيضاً . وكان يكفي أن يرى أحدنا العمائم والطرابيش وهي تتمايل منتشية مع إيقاع القصيدة حتى يحزر أن محمود ظافر بالجائزة لا محالة . لقد نالها محمود بإجماع الأصوات .

وما ان انتهت نشاطات الأسبوع وانجلت أغبرة الصراعات العلنية والخفية التي دارت حوله ، حتى توجب علينا أن ننصرف ، بكليتنا ،

للإعداد للمؤتمر الطالبيّ الفلسطيني . وقد تقرر أن يبدأ المؤتمر عمله في السابع والعشرين من أيلول / سبتمبر من ذلك العام . مما عنى أن الوقت المتبقي كان قصيراً وعلينا أن نسابق الزمن لننجز التحضيرات اللازمة له .

هنا ، عليّ أن أقول لك إن الإعداد لهذا المؤتمر المهم جرى في ظل احتدام الأزمة المعروفة التي سببها احتدام الخلاف بين عبد الحميد السراج رئيس المجلس التنفيذي في الإقليم السوري والمشير عبد الحكيم عامر ، نائب رئيس الجمهورية العربية المتحدة الموكل من قبل الرئيس بمعالجة شؤون سورية . كانت شكاوى الناس من تسلط السراج وأجهزته قد كثرت ، وكان الرجل قد شكل مركز قوة يسعى لأن يستفرد بالنفوذ في سورية ، فعمد عبد الناصر إلى إرسال المشير إلى البلد كي يضع حداً لنفوذ السراج . وقد اصطدم الرجلان وتنابذت الأجهزة التابعة لكل منهما ، وحاول كل فريق أن يستقطب أكثر ما يستطيع من الأنصار في مواجهة الفريق الآخر . كنا ندرك أن الوضع حساس ، ولم تكن لنا أي مصلحة في مساندة السراج وأعوانه ، هو الذي تكشف عن مجرد متعطش للسلطة مدافع عن مواقع نفوذه . كما لم يكن لدينا أي دافع للقيام بأي عمل من شأنه إضعاف دولة الوحدة . وقد أبدت السلطة المركزية اهتماماً خاصاً بالمؤتمر الفلسطيني وكلفت الوزير المصري الشهير كمال رفعت بمتابعة شؤونه . وأدرك كمال رفعت أن السيطرة على المؤتمر معقودة للبعثيين فعرض على القيادة البعثية في الاتحاد مساومة قوامها ان يتجنب المؤتمر اي مظهر من مظاهر المعارضة لدولة الوحدة وزعامتها مقابل قيام السلطة بتسهيل انعقاده ، ودعمه مادياً ومعنويا ، والكف عن التضييق على نشاط البعثيين ووجودهم فيه . وقبلت قيادة الاتحاد البعثية هذه المساومة . وصدرت من جانب السلطة بوادر حسن نية مبكرة ، فأمرت الصحف وأجهزة الإعلام الأخرى بتغطية أخبار الإعدادات الجارية لعقد المؤتمر ، وتساهلت في منح تأشيرات الدخول للقادمين إلى دمشق من اعضائه ، وتم الإفراج عن محمد خليفة ومعتقلين آخرين ، وقدم كمال رفعت من ميزانية وزارته مبلغاً من المال تبرعاً منه لتغطية النفقات . وضغط الوزير على اصدقائه في حركة القوميين العرب

كي لا يحولوا معارضتهم للبعثيين إلى صراع معهم . هذا الموقف المتفهم المتسم بالود قابله الموقف المتشنج الذي اتخذه السراج واجهزته ، فأوقعنا في التناقض بين أجهزة الدولة الواحدة ، وفرض علينا ان نتسلح بالحذر والحكمة كي ينجح المؤتمر وينتهي بسلام .

وفي الحزب ، كان الاهتمام كبيراً بالمؤتمر . وتلقينا من القيادة تعليمات دقيقة تحثنا على أن نجعل منه حدثاً ديمقراطياً مشهوداً في البلد وأن نحرص ، في الوقف ذاته ، على عدم اتيان ما يضرّ بقضية الوحدة ذاتها .

وأوكل الحزب إلى عضو القيادة القومية المنتخب حديثاً ، عبد الرحمن منيف ، مهمة توجيه عمل الحزبيين في المؤتمر . وكان عبد الرحمن الذي لم ينفصل عن مقاعد الدراسة إلا منذ وقت قصير واسع الخبرة في شؤون الحركة الطالبية العربية ، وقد جاء إلى دمشق ، سراً ، من بيروت ، وتدبر التنظيم إقامته في مكان يسهل عليه الاتصال فيه ، ليتولى مهمته عن قرب ويكون مرجعاً نعود إليه حين نحتاج لمرجع حزبي كبير .

كان من المفروض أن يضم المؤتمر قرابة مائتي عضو منتخب يمثلون فروع الاتحاد كافة ، وأن يستقبل مثل هذا العدد من المراقبين والضيوف وممثلي الاتحاد العالمي للطلاب والاتحادات الوطنية العربية والأجنبية . وقد حشدنا في دمشق من أعضاء الفرع حوالي مائتي طالب وطالبة ليكونوا في خدمة الوافدين من الخارج وليؤدوا الأعمال الكثيرة الأخرى . فاذا اضفت إلى هذه الأعداد أو تلك الذين اجتذبهم المؤتمر دون أن تكوّن لهم مهام محددة فيه ، فستدرك أن حشداً لا يقل عدده عن ألف طالب تكون في تلك الفترة وواظب على التردد على مقر الفرع لمتابعة المهام والاخبار والتطورات بين يدي انعقاد المؤتمر . والحقيقة أن الإعدادات تمت بصورة مرضية تماماً ، فوجد كل وافد مكان إقامة ، ونظمت عملية الأكل في عدد من المطاعم التي تقع بين مقر الفرع ومبنى الجامعة حيث سينعقد المؤتمر ، واعدّ لكل عضو ولكل ضيف ملف ضم ما يلزمه من أوراق ، وجند الذين يتقنون لغات أجنبية لمرافقة الضيوف غير العرب ، وتشكل مكتب للاستعلامات حاضر لتأدية

خدمات شتى .

جرى كل ذلك ، فيما الأزمة التي عنوانها الصراع بين السراج وعامر آخذة في الاحتدام . ولأن وسائل الإعلام المتداولة في البلد لم تكن تتطرق لوقائع هذه الأزمة ، لامن قريب ولا من بعيد ، ولأننا كنا مستغرقين تماماً في التحضيرات ، فإننا لم نتنبه لما كان يجري من حولنا إلا أقل الانتباه ، وقد تركز جهدنا كله على انجاح المؤتمر .

والحقيقة أن حفل الافتتاح كان حدثاً مشهوداً ، حشد البعثيون أقصى قوتهم في المدرج الكبير في الجامعة ، وفعل القوميون العرب الشيء ذاته . ورعى الوزير كمال رفعت الحفل وألقى فيه كلمة طيبة ، وتحدث سواه ، من قيادة الاتحاد ومن الضيوف ، وتصرف الجمهور بحماسة وكياسة ملائمتين . وكان هذا كله نجاحاً بيّناً لجهودنا ، وأمكن لممثل الحكومة أن يشهد بعينيه كيف أن القوة الغالبة هي للبعثيين . وتحمس كمال رفعت فاختلى بعد الافتتاح بزهير الخطيب ولطف غنطوس واقترح أن يتحول التعاون الذي تجلى في المؤتمر إلى فاتحة لإزالة سوء التفاهم بين السلطة وقيادة حزب البعث . وقد صحبت لطف إلى الشقة التي يقيم فيها عبد الرحمن منيف حيث جرى التداول بهذا الاقتراح . وكان عبد الرحمن أحكم منا ، نحن الذين أخذنا الحماس لهذه المبادرة ، فلاحظ قبل أي شيء آخر ، انها لا تعدو كونها بادرة شخصية من الوزير مبعثها تأثره بالجو الذي شهده اثناء الحفل واعجابه بسلوك البعثيين فيه ، وخصوصاً تجنبهم القيام بما يستفز السلطة . ونبهنا عبد الرحمن إلى توقيت المبادرة ، ولاحظ انها تجيء في وقت تسعى السلطة المركزية فيه إلى تأمين اصطفاف واسع في سورية حول المشير عامر لمواجهة السراج ، وطلب منا ، في ضوء هذا ، أن نتشبث بموقفنا وسلوكنا المقررين من قبل ، وننتظر إلى أن تجيء من جانب السلطة إشارات أعمق من هذه في الدلالة على الرغبة في التعاون وتصدر المبادرة عمن هم اهم من كمال رفعت ، وسيكون عندها لكل حادث حديث . ولم يخف عضو القيادة القومية قناعته بأن العلاقة مع عبد الناصر صارت أعقد من أن تحلها طيبة كمال رفعت .

في تلك الليلة ، لم يذهب أي منا إلى فراشه قبل الفجر . وقد أثرت الأجواء الايجابية فينا فزهت أحلامنا وطاب نومنا . وعندما انتزعتنا أنباء الانقلاب الانفصالي من هدأة النوم ، كانت مفاجأتنا به صاعقة !

وانت تعرف أن الانقلاب العسكري الذي انتهى بفك دولة الوحدة وقع صبيحة الثامن والعشرين من أيلول / سبتمبر ١٩٦١ . وكنا نتهيأ لمباشرة مداولات مؤتمرنا ، بعد حفل الافتتاح الناجح الذي تم في الليلة السابقة ، حين أصدر الانقلابيون بلاغهم الأول وأذاعته الإذاعة . لم يوضح البلاغ هوية الانقلابيين ، ولم يحمل اسم أي منهم ، ولا أظهر ما اذا كانوا عازمين على فك الوحدة أو انهم سيكتفون بتحقيق عدد من المطالب . وللوهلة الأولى ظننا أن السراج هو صاحب الانقلاب .

وكان طبيعياً أن يدفعنا الخوف على مصير الوحدة ، فضلاً عن كرهنا للسراج وسلوكه ، إلى التجمع ومحاولة القيام بشيء ما ضد الانقلاب . ولم يتغير دافعنا هذا بعد ان أبلغ إلينا ان الانقلاب من إعداد حفنة من الضباط الذين لا صلة للسراج بهم . ومنذ ساعات الصباح ، احتشد مئات الطلبة ، من المقيمين والوافدين ، في مقر الفرع ، وتحول المقر إلى منتدى صاخب تدوولت فيه شتى الآراء وسيطرت عليه شتى انواع المخاوف . وقد ضم الحشد ، بين من ضم ، أنصار الفئتين الرئيسيتين : البعثيين الذين يقبلون الانتقادات الموجهة لسلوك سلطات الوحدة ويأبون التفريط بالوحدة ذاتها ، والقوميين العرب الذين يركزون اهتمامهم على الوحدة ويأبون الخوض في أي حديث عن أي أخطاء . واحتدم الجدل بين الفريقين ، وشارك فيه ممثلو القوى التي تتماوج بينهما أو حولهما .

جرى ذلك في ظل الوقع السريع للتطورات الجارية وتواتر الأنباء المذاعة أو المنقولة حول نوايا الانقلابيين وإجراءاتهم . لم يكن بين المحتشدين مَنْ يؤيد فك الوحدة ، ولم يكن بينهم أحد متحمس للانقلاب ، لكن الخلافات لم تصبح بسبب ذلك قليلة .

لقد تداعى الجميع إلى التظاهر ، وأملوا بأن تحث تظاهرتهم الجمهور على

التحرك ضد الانقلاب . غير ان الخلاف نشب للتوّ حول الشعارات التي ينبغي رفعها . وأتذكر الحوار الصاخب الذي دار بيني وبين تيسير قبعة في باحة المقر وسط الضجيج الذي يملأ الباحة ، فقد اقترحت ، أنا ، ان تتركز هتافاتنا على موضوع الوحدة دون التطرق بخير أو بشرّ لاسم عبد الناصر . وحاججت بأن من شأن التركيز على الوحدة أن يجتذب كل المؤيدين لها بمن في ذلك الذين ضاقوا بسلوك الحكام واستاءوا من مظاهر تأليه الفرد ، في حين ان التركيز على اسم عبد الناصر سوف يقلل عدد المستجيبين لتحريضنا ضد الانقلاب . أما تيسير فاقترح ان نجهر جميعنا بهتاف واحد نركز عليه : ناصر ، وحاجج بأن لاسم عبد الناصر سحراً خاصاً وما دمنا بحاجة إلى تعبئة سريعة ضد الانقلاب فمن المفيد ان نستغل تأثير هذا السحر . وبين متشبث بالهتاف للوحدة ، ومتشبث بالهتاف لعبد الناصر ، طال الجدل ، وعنف ، وضاع وقت ثمين ، دون ان تتبلور قناعات مشتركة ، وبدا ان الحشد بصدد الانقسام والخروج في مظاهرتين منفصلتين . وفجأة ، اذاع الراديو بلاغ الانقلابيين التاسع الشهير ، اذيع البلاغ ، على ما اتذكر ، قرابة الساعة العاشرة ، فبدا ان اتفاقاً ما بصدد أن يبرم بين المشير عامر والانقلابيين ، وان هؤلاء لا ينوون فصل وحدة مصر وسوريا .

اثار البلاغ حماساً منقطع النظير ، وتجدد الجدل في الحشد ، وجددت اقتراحي فجدد تيسير اقتراحه ، وبدا اننا ندور في حلقة مفرغة وان تكن حلقة من لهب ، إلى أن أنقذنا متكلم على الهاتف قدم نفسه على انه ضابط في الشرطة العسكرية محب للوحدة ثم أبلغ إلينا أن أنباء حشدنا في المقر الفلسطيني وصلت إلى الانقلابيين ، وأن الاوامر صدرت للشرطة العسكرية بالتوجه إلى مقرنا واعتقال الموجودين فيه . بعد هذا الانذار ، تدفق الحشد خارجاً من المقر باندفاعة عفوية ، وتشكلت منه مظاهرة يهتف بعض ناسها للوحدة ويهتف الآخرون لعبد الناصر ويمزج البعض بين الاثنين . وبتأثير الجو الذي أحدثه البلاغ التاسع والأمل الذي جدده بالابقاء على الوحدة ، انضم إلى المظاهرة ناس كثيرون من سكان المنطقة والعاملين فيها .

وتوجهت الجموع ناحية البرلمان وهي توالي الهتاف . كما توجهت إلى الهدف ذاته جموع أخرى مماثلة من مختلف أنحاء المدينة . وأحاط ما يقرب من خمسة الآف متظاهر بمبنى البرلمان وانتشروا في الأفضية المجاورة له . غير أن وقفتنا أمام المبنى لم تطل ، فلم يلبث أن أقبلت وحدات الشرطة العسكرية بهدف تفريق المتظاهرين . كان بلاغ جديد قد صدر ، فجبّ مفعول البلاغ التاسع ، وحزم قادة الانقلاب العسكريون أمرهم فقرروا مواجهة الجمهور الغاضب بالقوة .

وأتذكر أني كنت احمل سامي قنديل على كتفي وهو يهتف للوحدة ، حين أقبلت نحونا كوكبة من الشرطة يتقدمها ضابط بنجمتين على كل من كتفيه . واستعان سامي بفطنته فأخذ يهتف : «جيش وشعب وشعب وجيش بدهم وحدة عربية!» ، وكرر الهتاف ، موقعاً إياه على نغمة راقصة جعلتني أرقص وأنا أحمله وجعلته يرقص على كتفي . وكان سامي ما يزال يهتف ويهتز حين وصل إلينا الضابط وعسكره وفي نيتهم إلقاء القبض علينا ، فأوقفنا الرقص وتوارينا وسط الحشد ، ثم فررنا مع الفارّين .

نجحت الشرطة العسكرية في تفريق المتظاهرين واعتقلت أعداداً كبيرة منهم .

وداهمت هذه الشرطة مقر الفرع بالفعل . كان محمد خليفة قد تخلف هناك مع بعض الأعضاء بعد أن فطن إلى ضرورة اخفاء سجلات الفرع كي لا تقع في أيدي الشرطة . وقد قام محمد بنقل السجلات والأوراق المهمة إلى شقة في مبنى مجاور يسكنها بعض معارفه ، وعندما عاد إلى المقر بهدف نقل أشياء أخرى كانت الشرطة قد أحتلته فالقت القبض عليه وعلى الذين معه . وقبضت الشرطة في المقر على كل من جاء اليه من الطلاب في ذلك اليوم ، حتى بلغ مجموع المعتقلين المائة . وكان من شأن هذا العدد أن يرتفع أكثر فأكثر لو لم نفطن للأمر فنوصل التحذيرات المناسبة لجميع الطلاب ونضع مراقبين منا عند مداخل الازقة الموصلة إلى المقر كي نحذر المتجهين إليه . ولما يئست الشرطة من الظفر بصيد جديد ،

غادرت مقرنا وأقفلته وختمت أقفاله بالشمع الأحمر .

انتهى ذلك اليوم ، كما تعرف ، بترحيل المشير عبد الحكيم عامر والمناصرين له ، وبدأ العهد الذي اشتهر في سورية باسم عهد الانفصال ، وشرع المستولون على السلطة في العمل لتثبيت مواقعهم واستقطاب تأييد الجمهور لهم أو الضغط على ممثلي الجمهور ليعلنوا مثل هذا التأييد .

ولأن الفلسطينيين ظهروا بين أكثر الأطراف تشدداً في رفض الانفصال ، فقد صبت السلطة الجديدة ضغوطاً قاهرة لحمل ممثلي الاوساط الفلسطينية على إصدار بيانات التأييد . هذه الضغوط لباها عدد من المنافقين ورضخ لها آخرون ، فصدر اكثر من بيان . وكان أشهر البيانات ذلك الذي حمل تواقيع قادة الاتحاد القومي الفلسطيني وفي مقدمتهم رئيس الاتحاد ، الدكتور أسامة النقيب . وبحثت أجهزة الأمن عنا ، نحن ممثلي الفرع ، مؤمّلة ان ترغمنا على إصدار بيان مماثل . وعرف الحزب بذلك . وضمني اجتماع ترأسه عبد الرحمن منيف ، وتلقيت التعليمات بأن تمتنع قيادة الفرع عن إصدار أي بيان يؤيد الانفصال مهما قست الضغوط . ولأن إقدام السلطات على اعتقال أعضاء قيادة الفرع في حال امتناعهم عن إعلان التأييد كان مؤكداً ، فقد صدرت لنا الأوامر بالاختفاء حتى لا نقع في القبضة القاسية ونتعرض للتعذيب .

وقدّروا في الحزب أن اهتمام السلطة بالبيانات المؤيدة ، وان كان سيستمر لبعض الوقت ، فإنه لن يدوم إلى الأبد ، فقدروا ، بالتالي ، أن اختفاءنا لن يطول لأكثر من اسبوع . وشاقنا الامر ، فاندفعنا لتنفيذه مبتهجين . والحقيقة أن الصدف يسرت لنا ظروف اختفاء طيبة من المشكوك فيه أن يقع اي مختف على ما هو أفضل منها . فقد كان وليد الكبير ، الذي انتسب هو الآخر إلى الحزب ، قد انتقل ، بعد المحنة التي تعرض لها ، من القنيطرة إلى دمشق وعمل مراقباً في القسم الداخلي ، المخصص للطلاب المقيمين ، في الكلية العلمية الوطنية . وكان هذا القسم يشغل الجانب المخفي عن الطريق العام من المبنى العائد للكلية عند التقاء

سوق الهال مع شارع سوق ساروجه . ولأن الدراسة لم تكن قد استؤنفت بعد ، منذ عطلها الانقلاب ، فقد صار بإمكاننا أن نستخدم المبنى الفسيح كله ونبيت في القسم الداخلي ، ونستخدم ما يضمه من مكتبة وأدوات رياضة ونأكل المؤن المخزونة فيه ، دون أن نلفت الأنظار . وبامتلاكه حرية الحركة الدائمة ، شكّل وليد صلة الوصل بيننا وبين الخارج . وهكذا صار بإمكاننا أن نستريح ، ونأكل ونشرب ، ونقرأ ، ونلهو ونسهر ، ونسمع الراديو ، ونتابع الصحف ، ونستقبل الزوار ، كل هذا ، ونحن نعد ايام اختفائنا فترة تضحية من اجل القضية .

ولا أنسى كم استمتعنا بالفواكه الطازجة ، وخصوصاً منها البطيخ ، التي كان وليد يجلبها من سوق الهال كل يوم .

في هذا النعيم ، أقمنا أسبوعاً كاملاً ، عصام القاضي ، رئيس الفرع ، وسامي قنديل ، أمين سره ، وانا وبقية الأعضاء البعثيين . ولو تعلق الامر برغبتنا ، وحدنا ، لآثرنا البقاء فترة أخرى . غير ان حاجتنا للالتحاق باعمالنا تغلبت على رغبتنا ، فالتحق عصام بعمله في وزارة الصحة ، وذهبت انا إلى المدرسة التي أعلم فيها في حي الشيخ محي الدين ، ورجع الآخرون ، كل إلى مشاغله . لكن لم يمض يوم أو يومان حتى استدعي عصام لمقابلة ضابط في الأمن يحمل رتبة عقيد ويتخذ لنفسه مكتباً مؤقتاً في مبنى المديرية العامة لشؤون اللاجئين الفلسطينيين . هذا العقيد ، الذي يبدو أن أمور الفلسطينيين السياسية أوكلت له ، طلب من عصام ان يجمع قيادة الفرع لتصدر بيان تأييد للعهد الجديد ، وبرر الطلب بأن الطلاب الفلسطينيين يتظاهرون ضد العهد فيتعرضون للمخاطر ، ومن شأن بيان القيادة أن يساعد في حملهم على الهدوء . وقد حاول عصام أن يزوغ ، فقال للعقيد ان مقر الفرع مقفل ومختوم بالشمع الأحمر والنظام لا يبيح لقيادة الفرع أن تجتمع خارج المقر . غير ان العقيد قاطع عصام بفظاظة ، معلناً ان نظام الفرع لا يهمه ، وأن ما يهمه هو الحصول على البيان المطلوب ، حتى لو اجتمعت القيادة في جهنم .

كانت صلتنا بالعضوين القوميين في قيادة الفرع قد انقطعت منذ فرقتنا المطاردة ، وكان محمد خليفة ما يزال معتقلاً ، فاجتمعنا ستة من البعثيين في منزل في شارع بغداد قريب من مؤسسة اللاجئين . وكانت تعليمات الحزب واضحة ، وكذلك عواطفنا : أي شيء عدا تأييد الانفصال . وقد سيطر علينا احساس عال بالمسؤولية يفوق في مستواه عمر أي منا . وبعد تداول طويل ، صغت أنا مشروع نداء موجه إلى الطلبة الفلسطينيين في دمشق من قيادتهم ، سميناه نداء لأنه كان كذلك ، ولأننا تجنبنا تسمية بيان التي طلبها ضابط الامن حتى لا نبدو راضخين له . وتجنبنا ان ترد في النداء أي عبارة تسيء إلى عهد الوحدة أو تمدح العهد الجديد ، واكتفينا بأن دعونا الطلبة إلى اتباع الوسائل القانونية في التعبير عن آرائهم ومواقفهم ، وقلنا ان قيادة الفرع تلقت تحذيرات قاطعة بأن حياة الذين يتظاهرون من الطلبة سوف تتعرض للخطر . وكنا ندرك ان هذا البيان لن يرضي العقيد الذي ينتظره ، فأملنا ان نكسب مزيداً من الوقت بمماحكته . وتحوّطنا لمختلف أشكال رد الفعل ، فرتبنا الأمور بحيث يحمل سامي وأنا البيان إلى العقيد في مقره ، فيما يترقبنا آخرون قريباً من المقر ، حتى اذا اعتقلنا عرف الزملاء بذلك وتدبروا أمورهم .

وفي المكتب الذي توجهنا إليه في العاشرة مساء ، وجدنا العقيد في الانتظار . كان الرجل كما بدا لي تحت ضوء النيون الذي يغمر الحجرة مجهداً ، قرفاً ، بطيء الاستجابة لأي شيء ، تلقانا ببرود تام ، ورد على تحيتنا بجمجمة مستهينة ، دون أن يقف لنا أو يبدل قعدته أو ينحي يده اليسرى من تحت ذقنه ، ومد نحونا نظرة مسترخية لا يبين فيها أي معنى . ولما أخرج سامي من جيبه الورقة التي جئنا بها ومدها ناحية الرجل ، لم يتبدل شيء في قعدة هذا الضابط ، وكل ما في الأمر أنه مد يده اليمنى وتناول الورقة وفردها بأصابع هذه اليد ، وبقيت يده الأخرى تحت ذقنه . وألقى الرجل على الورقة نظرة مجانبة ، فلاحت على ثغرة معالم ابتسامه ساخرة لم تكد تبين حتى انطفأت ، ثم سألنا ، فجأة : «الا تريدون ، ايضاً ، فنجان قهوة؟! . كما وكان في نبرة السؤال سخرية واضحة ، تجاهلناها

واعتذرنا اعتذار من تلقى عرضا جاداً . عندها ، فقط ، بدرت عن العقيد حركة فيها شيء من النشاط ، اذ انه اعتدل في جلسته ، واراح ظهره على كرسيه واخرج من جيبه نظارة قراءة ، والقى على الورقة نظرة متمهلة . وبعد أن أتم العقيد القراءة ، أعاد النظارة إلى جيبه ، واحتفظ بالورقة بين أصابعه ، ثم تأملنا بنظرة معجونة بمشاعر شتى . وطال صمت العقيد ، فلما نطق قال بنبرة أسيانة : «متعبون انتم ، تظنون انفسكم مهمين وتبحثون عن بطولات . أي أوهام تحملون في عقولكم . ألم تروا أن وحدوييكم الكبار كانوا أسرع مَنْ وقع على بيانات التأييد؟!» . ثم صمت العقيد مرة اخرى وهو مطرق ، وحك جبينه بأظفر سبابته ، ولما عاد إلى الكلام قال دون أن يرفع رأسه ناحيتنا : «إلى جهنم ، بيانكم وانتم ، الوحدة والانفصال . خذوا هذه الورقة إلى إذاعة صوت العرب فهي مكتوبة لها ، انقلعوا !» ؛ قال ذلك دون أن يعيد لنا الورقة . وتعجلنا نحن الانصراف دون أن نأخذ ورقتنا . وكنا مدهوشين نكاد لا نصدق أننا نجونا بهذه السهولة .

بعد أيام من هذه المقابلة ، استقبل عصام في مكتبه في وزارة الصحة زائراً لا يعرفه . قدم الزائر نفسه على انه موظف في مكتب العقيد ، وأنه ، هو نفسه ، وحدوي متخف أعجب بموقف قيادة الفرع فجاء ليعبر عن اعجابه ويحثنا ، نحن زملاءه الوحدويين ، على الثبات . هذا الزائر شرح لعصام سر تساهل العقيد معنا ، فقال ان «المعلّم» أخذ بثباتنا بعد أن رأى ما رأى من تخاذل الآخرين فاحترمنا . وفهم عصام من الزائر أن سلطة الأمن قررت ابقاء مقر الفرع مغلقاً وحظر نشاطاته إلى أجل غير مسمى .

في غضون ذلك ، تلقينا ، بذهول شديد ، نبأ مشاركة زعيمي الحزب ، اكرم الحوراني وصلاح البيطار ، في اجتماع السياسيين السوريين وتوقيعهما ، كليهما ، على البيان الذي اصدره هؤلاء ، الذي مثل اهم وثيقة مؤيدة للانفصال .

ولكي أكون أكثر دقة ، عليّ ان اقول لك ان وجود أكرم الحوراني في الاجتماع مع حماسته للانفصال لم يفاجئنا ولم يدهشنا ، فقد كنا نعرف

مدى كرهه لعبد الناصر وما آلت اليه آراؤه بصدد وحدة مصر وسورية وضرورة فكها حتى تتحرر سورية من سيطرة الزعيم المصري . اما ما فاجأنا ، كليّة ، وأثار دهشتنا البالغة ، فكان وجود اسم صلاح البيطار على البيان . وقد تصورنا ، في البداية ، أن في الأمر خطأ أو خديعة وملنا إلى الاعتقاد بأن الاسم اقحم بين أسماء الموقّعين دون علم صاحبه . كنت قد زرت صلاح البيطار ، وهو الرجل الثاني في قيادة حزب البعث ، أثناء التحضير للمؤتمر الطالبي الفلسطيني بصحبة عدد من البعثيين الآخرين وسمعت بأذنيّ توجيهاته لنا بأن نحرص على ما يدعم استمرار الوحدة . وكنت قد قابلت البيطار مرة اخرى ، في داره في حي الشعلان ، بصحبة محمد بصل ، فور وقوع الانفصال وسمعت منه ما يكفي لأنه عدّ الانفصال جريمة لا يجوز غفرانها . فكان من الطبيعي ، إذن ، أن أشكك كما شكك كثيرون غيري بصحة تأييده للانفصال ، وأن أذهل ، بعد ذلك ، حين تأكد لي ، كما تأكد لغيري ، ان توقيعه صحيح .

لقد انداحت تأثيرات موقف الزعيمين البعثيين من الانفصال واسهمت في توزيع البعثيين ، وخصوصاً السوريين منهم ، على تيارات عدة ؛ فأيّد تيار منهم الانفصال تأييداً كاملاً وانخرط ، بهذه الصفة ، في اللعبة السياسية التي تبعته ؛ واتخذ تيار آخر مواقف ناصرية وهو الذي انتهى إلى تشكيل عدة منظمات تحمل هذه الصفة وتتحالف مع القوميين العرب وتعد كل ما جرى ويجري في سورية منذ يوم الانفصال غير شرعي . وتجمعنا ، نحن ، مع مَنْ تجمع ، حول موقف قيادة الحزب القومية التي أدانت وقوع الانفصال ودعت إلى العمل من أجل إعادة الوحدة وفق أسس جديدة تضمن استمرارها . والواقع أن صلاح البيطار ، بخلاف الحوراني ، كان ، وبقي ، في عداد صانعي موقف القيادة القومية هذا ، ولم يكن توقيعه على البيان المؤيد للانفصال سوى زلّة . وقد احّس الرجل بزلته فور وقوعها وبادر إلى الاعتذار ، اعتذر للحزبيين الذين راجعوه ، وقدم اعتذاراً علنيا ، وعرض الرجل مسوّغات كثيرة تفسر ارتكابه لهذا الخطأ ، واتهم أكرم الحوراني بأنه هو الذي استدرجه إلى الاجتماع وتحايل عليه حتى وضع توقيعه مع

الموقعين . وشاع في بعض الأوساط أن توقيع البيطار على البيان تم نتيجة مساومة انعقدت بينه وبين قادة العهد الانفصالي ، فقد وعده هؤلاء بأن يأذنوا بصدور جريدة « البعث» ويبيحوا للحزب أن ينشط علناً في البلاد ، مقابل تأييد زعماء الحزب لحركتهم .

هذه الاشاعة ، التي لم يتوفر ما يؤكد صحتها كما لم يتوفر ما يدحضها دحضاً قاطعاً ، نفاها البيطار في احاديثه اللاحقة معنا ، فيما ظل يكرر الاعتذار ويجهد ، بتصريحاته الجديدة ونشاطاته ، لتحسين صورته أمام معارضي الانفصال . والحقيقة أن مساعي البيطار لتحسين صورته أحدثت شيئاً من التأثير وجعلت من الممكن أن يظل الرجل في قيادة الحزب ، لكنها لم تبدل الصورة كلياً . وقد بقي على البيطار ، طيلة السنوات اللاحقة ، أن يدفع ثمن زلته . أما اكرم الحوراني فإن أمره اختلف عن أمر صاحبه . كان روّاد مجالس أكرم الحوراني في السنتين السابقتين يسمعون منه آراء تصل إلى حد اتهام عبد الناصر بأنه عميل رسمي للمخابرات الأمريكية وتصف عملية وحدة سورية ومصر بأنها تمت نتيجة مؤامرة نظمتها هذه المخابرات . وكان هذا الكلام الذي لا يعدّ في الحسابات السياسية اكثر من لغو مجالس قد حدد للحوراني صورة الرجل الحاقد المستعد لتدمير أي شيء حين لا يتفق مع مزاجه . وكل ما فعله الحوراني بعد الانفصال انه نقل حديث المجالس هذا إلى العلن ووجد مَنْ ينشره في سياق المعركة مع عبد الناصر والناصريين ، دون ان يكون الناشر بالضرورة مؤمناً بالكلام أو معجباً بصاحبه .

ومهما يكن من أمر المسؤوليات الشخصية في هذا المجال ، فان تباين مواقف التيارات المنحدرة من البعث ازاء مسألة الوحدة والانفصال جعل من المتعذر أن يلتقي البعثيون السابقون كلهم في تنظيم واحد . صحيح أن محاولات عديدة جرت لرأب الصدوع ، إلا أن الأمر انتهى إلى توزيع البعثيين على التيارات التي سبق أن عددتها لك . وكان في داخل كل تيار تلوينات مختلفة ، فالتيار الذي ايد الانفصال ضم يمينيين سافرين يأخذون على البعث كله انه يساري ، كما ضم اشتراكيين قوميين عرب يتميزون

عن امثالهم باستغراقهم في شؤون سورية وحدها ، كما ضم ، أيضاً ، يساريين ماركسيين اجتذبهم هذا التيار لسبب أو آخر . اما التيار المنحاز إلى الناصرية فقد انتهى أمره إلى التوزع على اثنتين من المنظمات الرئيسية وعدد كبير من التفرعات والشِلل .

وحده تيار الوسط ، إن جاز التعبير ، على ما ضمه من تكوينات وتنويعات في المواقف والآراء ، هو الذي انتهى إلى التماسك والتجمع في التنظيم الذي حمل اسم الحزب من جديد واستمر في العمل تحت رايته ، وهو الذي احتفظ بالصلة مع منظمات الحزب في الاقطار العربية الاخرى ، فأعاد الحياة إلى حزب البعث العربي الاشتراكي .

تأثر الاعضاء الفلسطينيون ، دون شك ، بالتطورات المتباينة التي عصفت بصفوف البعثيين في سورية ، فوجد بين هؤلاء الأعضاء مَنْ مال إلى موقف الحوراني أو غيره ، إلا أن كتلتهم الغالبة بقيت ملتفة حول الحزب ملتزمة بنهجه الإيجابي تجاه الوحدة . والذين أيدوا الحوراني من هؤلاء ، أو تأثروا باطروحاته وكانوا أعضاء في التنظيم السري آثروا البقاء في التنظيم والاستفادة من الحرية السائدة في مناقشات حلقاته ليدافعوا عن آرائهم فيه ؛ لم يشذ عن ذلك إلا عدد محدود منهم . وبهذا ، انعكس تأثير الخلافات الجارية وسط التيارات البعثية على التنظيم واشتد الجدل داخله وشاب العلاقات بين أعضائه ذلك التوتر المتسم بالتنابذ الذي تشهده منظمات الأحزاب في المنعطفات الكبيرة ، عادة .

لم تقتصر البلبلة على صفوف البعثيين ، وحدهم ، بل إن البلد بكامله شهد حالة من البلبلة لم يسبق لها مثيل . ولا ابالغ لو قلت لك ان كل عامل في الحقل العام كان في داخله مبلبلاً بين آراء عدة ، حتى لكأن الانفصال الذي مزق وحدة مصر وسورية قد مزق ، ايضاً ، نفس كل مواطن .

وفيما توجّب على اعضاء التنظيم ان يحاربوا معاً وان يواصلوا ، في الوقت ذاته ، الجدل مع بعضهم البعض ، كثرت مشاغلي وزاد عدد المهمات

المنوطة بي أو التي أبادر إلى توليها من تلقاء نفسي ، وذلك إلى حد لم يبق لي الوقت اللازم للاهتمام بأي شأن شخصي .

في هذا الجو الذي استهواني الاستغراق فيه ، صار اهتمام ملفينا بي واصرارها على تزويجي وفق ذوقها ورغبتها هي الأخرى في أن اكفّ عن الانشغال بالشأن العام ، قيداً على حركتي أضيق به . لقد طلبت من هذه المرأة ، ذات يوم ، أن تعدني ابنا لها وفرحت باستجابتها وأعجبني مسلكها في البداية . غير أنها ، وقد أعطت لنفسها حقوق الأم ، لم تكف عن توسيع هذه الحقوق ، فإذا انا معرض لاستبدال سطوة الأهل الذين فررت منهم بسطوة المرأة التي لجأت إليها . وكان من الطبيعي ان أجدني ، في نهاية المطاف ، مدفوعاً إلى الابتعاد عن ملفينا قبل أن يتحكم قيدها برقبتي ، وذلك بالرغم من التضحية التي أتكبدها حين أخسر الإقامة المريحة في شقة ملفينا والرعاية الحادبة التي تحيطني بها . ثم طرأ ما حملني على أن أحسم أمري ؛ فقد تعرفت على رفيق في التنظيم اقتضت ظروفه ان نسكن معاً وأن أدفع وحدي أجرة سكننا ، مما ساحدثك عنه لاحقاً ، فانتقلت بصحبة الرفيق إلى سكن جديد .

ولا شك في أن انفصالي عن ملفينا قد ساءها كثيراً ، إلا اني جهدت لتخفيف الاستياء بحرصي على أن أزور المرأة التي لا أنسى فضلها عليّ وأطلعها على ما تهتم به من شأني واتفقد احوالها وأطيب خاطرها ، عازياً انتقالي من شقتها إلى أسباب قاهرة لا أملك الافصاح عنها .

اما الموضوع الذي شغلنا أكثر من غيره ، في بداية عهد الانفصال ، فهو العمل لاعادة فتح مقر الفرع المغلق والإفراج عن زملائنا المعتقلين . كنا بحاجة ماسة لهذا المقر ، وما كان من الممكن ان نتخلى عن عشرات الزملاء الذين اقتيدوا إلى السجون . وكانت الجامعة تغلي بالاضطرابات والصدامات بين تيارات الطلبة المختلفين : يتظاهر المطالبون بعودة الوحدة ، بمناسبة وبغير مناسبة ، فيتظاهر خصومهم ، وتقع الاحتكاكات بين الجانبين . وتتخذ سلطات العهد الجديد إجراء لا يعجب جمهور الطلبة

فيجدّ هؤلاء في مقاومته فيصطدموا مع الشرطة وتستقبل السجون فريقاً منهم ، فتنشأ أسباب جديدة للتظاهر والاحتجاج المشروع . هذا الجو كان ملائماً لحركتنا ، سواء من اجل فتح المقر واستعادة نشاطنا المشروع فيه أو من اجل التعبير عن مواقفنا إزاء الأحداث الجارية . وظهر الطلبة الفلسطينيون في مقدمة النشطاء ؛ كان معظمهم من مؤيدي الوحدة ، فتوزعوا بين الناصريين والبعثيين ، وكان عدد المعتقلين في تزايد مستمر . ولو بقي المقر مغلقاً لفقدنا القدرة على توجيه نشاط طلبتنا . وهكذا جعلنا فتح المقر مطلباً ملّحاً ، ورحنا ننشط من أجل استقطاب التأييد لهذا الطلب . وقد اتبعنا أسلوب التحريض لإثارة الموضوع وابقائه حياً باستمرار والضغط على السلطات ، ودأبنا في الوقت ذاته ، على مراجعة المسؤولين ، دون توقف ، والإلحاح على ضرورة استعادة مقرنا .

وفي مراجعتنا للمسؤولين ، اخترنا أن تتركز اتصالاتنا مع الجهات السياسية والإدارية ، متجنبين الاتصال بأجهزة الأمن ، مع معرفتنا بأنها هي التي أغلقت المقر . تعمدنا أن نفعل هذا لأننا لم نشأ أن نقر للأجهزة الأمنية بأي حقوق تتعلق بعمل الفرع الذي هو ، حسب القانون السوري ، جمعية مرخصة . وكان بين الذين توجهنا اليهم في هذا الشأن المدير العام للمؤسسة العامة للاجئين الفلسطينيين . كان هذا المدير ، وقتها ، هو الأستاذ سليم اليافي ، وهو سوري ، ناصري معروف ، عيّن في المنصب زمن الوحدة ، فلما وقع الانفصال انضم لمن أصدروا بيانات التأييد له متنكراً للناصرية ، فبقي في المنصب . كنا ، في البداية على الاقل ، نأمل في أن نجد لدى هذا الناصري تعاطفاً مع مطلبنا ، فلما خاب أملنا ، قررنا ان نضغط عليه . جئنا ، عصام القاضي وانا ، إلى مكتب اليافي ، أول مرة ، وابلغنا سكرتيرته أننا مندوبان من قبل قيادة الفرع لمراجعة المدير بشأنه . فدخلت السكرتيرة إلى حجرة المدير وعادت لتقول لنا بنبرة مضطربة إن المدير غير موجود . فجئنا ، كلانا ، ثانية ، بعد أيام ، وتكرر القول ان المدير غير موجود . وفي المرة الثالثة ، استقصينا الامر لدى معارفنا من موظفي المؤسسة المتعاطفين معنا ، فلما تيقنا من ان الرجل في حجرته ذهبنا إلى

السكرتيرة ، ولما سمعنا الإجابة ذاتها تأكد لنا أن الرجل يتهرب من مواجهتنا . هنا ، بلغ حنقنا الذروة ، وقلنا للسكرتيرة إننا نعرف أن معلمها موجود ونحن نستنكر احجامه عن استقبال ممثلي طلبة فلسطين ، خصوصاً حين نجيئه في شأن عام وليس شخصياً . ودفعني الحنق ، وقل ، أيضاً ، الإحساس بالقوة الناجمة عن سعة التأييد الذي نحظى به ، إلى تسجيل احتجاج خطّي ، فتركت عند السكرتيرة رسالة موجهة للمدير احتج فيها على معاملته المهينة لنا ، وختمت الرسالة بعبارات جعلها الإحساس بالتذمر فظة ، فقلت انا سنضع الأمر بين يدي طلبة الفرع وإننا نثق بأنهم لن يسكتوا على هذه الإهانة .

هذه الرسالة شكلت فاتحة لسلسلة من ردود الفعل التي انتهت بفتح المقر . فالأستاذ سليم عدّ الرسالة تهديداً ، فأحالها ، بهذه الصفة ، إلى أجهزة الأمن المختصة ، مرفقاً إياها مطالبته بكف أذانا المفترض عنه . ثم تنقلت الرسالة بين أجهزة عدة إلى أن استقر أمرها لدى جهاز الأمن السياسي . هنا ، كان النقيب ياسين الغضبان ، الضابط الذي سبق له أن استدعانا وقرعنا أيام الوحدة عندما طالبنا بالإفراج عن زميلنا محمد خليفة ، مايزال يشغل المنصب ذاته الذي شغله من قبل . وفي الحجرة ذاتها التي شهدت لقاءنا السابق ، ودون أن ينقص منها شيء سوى صورة الرئيس عبد الناصر ، ضمنا مجلس جديد مع الضابط الذي بدّل ولاءه من دون أن يتبدل منصبه . استدعانا الغضبان ، نحن الخمسة المعدودين مستقلين في قيادة الفرع . وبدأ الضابط الحديث برواية مزاعم مستفيضة عن دوره هو شخصياً ودور جهازه في تحذير الرئيس عبد الناصر من مغبة سلوكه إزاء سورية ، وكان كلما جاء على ذكر عبد الناصر يومي إلى مكان الصورة المنزوعة ، ناسياً ، على ما يبدو ، أنها لم تعد في مكانها . قال الغضبان بنبرة لا تفتقر إلى التبجح ، ان لسانه جف وإن يده كلّت لكثرة ما تحدث وكتب وهو يصور للرئيس عبد الناصر ضيق المواطنين بغياب الديمقراطية وتذمرهم ازاء المظالم التي يتعرضون لها في عهده ، ليقول بعد ذلك ان احجام الرئيس عن الاستجابة لتقاريره أوصله هو وضباط جهازه

إلى اليأس . ولك أن تتصور مقدار دهشتنا ونحن نستمع إلى هذا المتبجج بالحرص على الديمقراطية ، وهو الذي كان أحد أدوات القمع ، وهو الذي سبق له شخصياً أن قرّعنا لاننا أرسلنا برقية لعبد الناصر نطالب فيها بالافراج عن زميل معتقل . نسب الغضبان لعهد عبد الناصر في سورية أقبح الشنائع ، ثم انتقل إلى الإشادة بمزايا العهد الجديد . كان كلامه ، في هذا المجال ، أدعى إلى الدهشة من كلامه السابق . ولعله فطن إلى موقفنا من هذه الديمقراطية نحن المستدعين من قبله ، المطالبين بفتح مقرنا المغلق بقوة القمع والافراج عن زملائنا المعتقلين دون محاكمة أو تحقيق ، فقد اخذ يبرر كلٍ ما واجهناه من قمع في العهد الجديد بقوله إن السلطة مضطرة اضطراراً لمواجهة الشغب الذي يحدثه الناصريون في البلد ، مدرجاً البعثيين في عداد الناصريين ، وليس بمقدور هذه السلطة ان تكون رحيمة إزاء الذين يريدون إعادة الديكتاتورية إلى البلاد . أطلق الحماس للقمع الجديد ، المنسجم مع طبيعة المتحدث ، لسان النقيب على راحته ، فأخذ يعدد أشكال ما يعده شغباً وأشكال ما يعده إجراءات السلطة لمواجهته ، مستقصياً أدق التفاصيل . وبهذا ، بلغ النقيب ذروة الإدهاش ؛ فكلامه ذاته رسم صورة لبلد ليس فيه إلا شعب مشاغب وسلطة تقمع هذا الشعب .

ثم جاء النقيب إلى السبب الذي حمله على استدعائنا ، فأخرج الرسالة من الملف وذكّرنا بها ، وتلا علينا فقرات من الشكوى التي أرفقها اليافي بها . ثم سارع النقيب إلى طمأنتنا ، فقال انه لا ينوي معالجة الأمر بالعقوبة بل بالتفاهم ، وأوضح أن رغبته في التفاهم هي التي حملته على استدعائنا نحن المستقلين وحدنا واستبعاد ممثلي البعثيين والقوميين العرب .

بكلمات أوجز : عرض النقيب علينا مساومة ، فحواها أن يأذن بفتح المقر واستئناف النشاط فيه ويسعى للإفراج عن غير الحزبيين من المعتقلين من أعضاء الفرع مقابل تعهدنا بالتعاون مع جهازه لمقاومة نفوذ الحزبيين وتنظيم انتخابات لايفوز فيها أي من هؤلاء ، وذلك كله ، كما قال النقيب ، من أجل مصلحة البلد الذي يستضيف الفلسطينيين على الرحب والسعة

ومصلحة الفلسطينيين انفسهم . وقال النقيب ان المستقلين يشكلون أغلبية أعضاء الفرع وإننا نحظى بسمعة طيبة بينهم ، فإذا ضممنا جهودنا إلى جهود جهازه ، واستفدنا من التسهيلات الكثيرة التي سيضعها تحت تصرفنا فهو يضمن أن نربح المعركة ضد الحزبيين .

إلى هنا ، كان ضابط الأمن قد تكلم لأكثر من ساعتين ، غير متيح لأي منا أن يقاطعه . فلما أتيح لنا أن نقول شيئاً ، تكلم عصام .

انتقى رئيس الفرع عباراته بمهارة ، فتحدث قبل أي شيء آخر عن رسوخ التقاليد الديمقراطية في الفرع ، وأعاد إلى ذهن النقيب أن الانتخابات التي شهدها الفرع اتسمت على الدوام بمقدار رفيع من الحرية ، بالرغم مما يعرفه النقيب ذاته عن محاولات أجهزة السلطة التدخل فيها ومن وجود القوميين العرب المتعاونين آنذاك مع السلطة . وقال عصام ان طلبة فلسطين حساسون إزاء تدخل من أي سلطة في شؤونهم ، ولابد ان يسقطوا أي مرشح يشتمّون من سلوكه أنه متعاون مع السلطة . وضرب عصام ، مجدداً ، المثل بحال القوميين العرب ايام الوحدة ، فقال انهم فشلوا تكراراً في الفوز في الانتخابات ، بالرغم من انهم رشحوا لها خيرة العناصر المناضلة المتفانية في خدمة الطلاب . وأكملت أنا ما بدأه عصام ، فأكدت على أني سأتحدث بصراحة تامة مع معرفتي أني أمام ضابط أمن قد يستخدم كلامي ضدي . ثم قلت إننا حظينا بثقة الطلاب ليس لأننا أكفأ من سوانا ، بل لأنهم عرفوا ، بالخبرة ، أننا من النوع الذي لا يساوم على حريتهم أو مصالحهم . واكدت على اننا سنخسر هذه الثقة في اللحظة التي نقبل فيها المساومة ، ولو فرضنا ، جدلاً ، اننا سنقبل عرض النقيب فمن المؤكد ان الجهود ستذهب بعد ذلك هباء ، لأن الطلبة سيختارون قيادتهم من بين المرشحين المناوئين للسلطة ، حزبيين كان هؤلاء أو مستقلين . ثم تساءلت ، متسلحاً بابتسامة عريضة ، ما الذي يحمل النقيب على الظن بأننا سنقبل المساومة ، واذا كنا ، كما يعرف هو جيداً ، قد رفضنا أن نكون تابعين لسلطة الجمهورية العربية المتحدة ، على ما كان لهذه السلطة من عظمة وعلى كثرة المسوغات الوطنية التي تسوغ التعاون معها ، فكيف

نتعاون مع السلطة الجديدة التي يعترف النقيب ذاته بأن معظم الشعب يقاومها . وهنا شاء النقيب ان يقاطعني ، فقلت بإصرار ، إني لم أتم كلامي ولم أصل إلى بيت القصيد ولا أريد لحديثي أن يتوقف عند نقطة مقفلة ، لأني ، مثل النقيب ، راغب في أن نخرج من هذا اللقاء متفاهمين . وقلت ، بعد ذلك ، إني أعرض مساومة تقوم على أسس واقعية ، فجهاز الأمن قادر على ان يبقي نشاط الفرع محظوراً ، لكن هذا لن يجلب نفعاً لأي أحد ، ثم ان حرمان طلبتنا من استخدام مقرهم لا يمنعهم من النشاط في المجالات الأخرى ، فليفتح المقر وليؤذن لنا بالنشاط ، ونحن نتعهد بأن تجري النشاطات في الأطر التي يبيحها القانون ، وحدها .

بعد حديثي ، جرت مناقشة طويلة ، ملتوية ، أحياناً ، ومستقيمة ، أحياناً أخرى ، وشاقة ، في الأحوال كلها . وقد تشبثنا ، نحن الخمسة ، بالموقف الذي عرضناه ، ولم تفلح مناورات النقيب في حملنا على التواطؤ معه ضد أيما طرف . وجاءت لحظة بدا فيها أن الجدال يدور في حلقة مفرغة وأن لا أمل بالتوصل إلى اتفاق . في هذه اللحظة بالذات ، وقف النقيب ، فجأة ، وهتف بنبرة خلط فيها الجد بالهزل : «لا شك في أنكم من أصعب من تعاملت معهم ، لكنني لا أقطع الأمل ، فهيّا معي ، سأفتح لكم المقر الآن ، وليكن ما يكون!» .

كان الظلام قد احتل الزقاق حين بلغنا المقر . وقد استعان النقيب ياسين بمصباح بطارية ليكشف مكان القفل المختوم بالشمع الأحمر ، وفتت الشمع . وأخرج عصام سلسلة مفاتيحه وأدخل واحداً منها في القفل ، فانفتح الباب وهو يصّر صريراً متصلاً ونحن نلجه الواحد تلو الآخر . وبدت آثار العبث الحاقد الذي تعرض له المقر واضحة بجلاء لا يحتاج ابرازه إلى أي شرح . وكان من أقسى ما رأيناه ما وقع لصورة الحاج امين الحسيني . فهذه الصورة ، التي كانت معلقة في البهو في اطار فاخر ، أنزلت من مكانها وديست بالأقدام واختفى إطارها . وقد صمت النقيب الذي لابد أنه استقرأ رد فعلنا ونحن نرى آثار الأقدام على الصورة ، وتعجل تحويل نور مصباحه عن المشهد . وعندما ضمتنا حجرة الإدارة ، قال هذا النقيب ، بنبرة بدت لي مواسية : «اتمنى لكم بداية موفقة» ، ثم انصرف .

١١ معركتان انتخابيتان، خبرات وعبر

عادت الحياة الى منظمتنا الطالبية ، وصار أمامنا الكثير مما ينبغي عمله لتنشيطها ، كنا سعداء باستعادة المقر ، مفعمين بالحماس لأن ضغوطنا أفلحت .

وإذ انفتحت مع الانفصال أوسع الأبواب لعودة الصراعات السياسية والاجتماعية الى البلاد ، فقد تعذر أن تقف منظمتنا بمعزل عنها . ومنذ أعيد الاعتبار للحياة الحزبية . تداعت الأحزاب القديمة لاستئناف النشاط العلني . ونشأت أحزاب جديدة . فازدادت ألوان الصورة تنوعاً وعدداً ، واحتدمت شتى انواع الصراع . وعلى الجانب الفلسطيني ، وجد ناس كثيرون أنفسهم مدفوعين للانخراط في نشاط الأحزاب . وآثر آخرون كثيرون ، أيضاً ، التوجه الى تأسيس منظمات فلسطينية مستقلة متخصصة في العمل لقضية فلسطين . ولم يعد أمر تأسيس المنظمات الفلسطينية المستقلة مرهوناً ، كما كان شأنه في أوائل الخمسينات ، برغبة حفنات متباعدة من تلاميذ المدارس او مَنْ على شاكلتهم . بل تحول الأمر الى

عمل يتولاّه ناس من مختلف الأعمار والمشارب وتتشكل له ، وبه ، حركة متزايدة الاتساع متعاظمة الفعالية . وقد فرضت هذه الحركة نفسها منذ أوائل الستينات ، وصارت تظاهرة صاعدة يدعمها جمهور واسع ، وتفرض حضورها ، بصورة أو بأخرى ، وبمقدار أو بغيره ، على الجميع .

والواقع أن الفرع نال نصيبه من هذه النشاطات جميعها ، وتلقى تأثيراتها على مجالات نشاطه المتعددة . هنا ، قد يجدر أن أذكر لك أن الفرع بقي ، بعد حل الاتحاد القومي الفلسطيني ، المنظمة الفلسطينية الصرفة الوحيدة المصرح لها بالعمل قانونياً . صحيح أن رابطة معلمي مدارس الأونروا بقيت موجودة ، غير أن هذه الرابطة لم تشكل إطاراً للنشاط الأعم ، كما هو شأن المنظمة الطالبية .

إن الذي شكل هذا الاطار ، في ذلك الوقت ، هو الفرع . وهكذا لم تكن ارادتنا ، وحدنا ، هي التي اعلنت التوسع في نشاطات الفرع ، بل توسعت هذه النشاطات نتيجة تضافر إرادات الجميع وبسبب حاجتهم الى الإطار المتاح وحرصهم على صيانته وتطويره ، باستمرار .

وفي حزب البعث ، ترافقت عملية إعادة التنظيم الحزبي السوري وبنائه وتجديد حياته مع تفاقم الانقسامات والاحتكاكات بين تيارات البعث العديدة . ووجدنا أنفسنا منخرطين في هذه العملية ومرغمين على تحمل الكثير من تبعاتها . وزادت ، الى حد لم يسبق له مثيل ، المهام التي أوكلتها القيادة الفومية الى الفلسطينيين والعرب الآخرين من أعضاء التنظيم السري . فوجدنا أنفسنا طرفاً أصيلاً في الخلافات . وانعكس هذا ، بإرادتنا او بغير إرادتنا ، على عمل الفرع ، مثلما انعكست عليه ، أيضاً ، تأثيرات علاقات البعثيين الإيجابية والسلبية مع الأحزاب والمنظمات الأخرى .

ومع تداخل هذا كلّه ، شرعنا في الإعداد لانتخابات جديدة في الفرع . لم يكن وضعنا ، بوصفنا بعثيين ، ملائماً للدخول في معركة انتخابية ، غير ان الطلاب الفرحين باستعادة فرعهم بدوا تواقين لإجراء الانتخابات في موعدها الدوري . وكان هذا عاملاً مؤثراً ، انضاف إليه ضغط القوميين العرب والناصريين الآخرين الذين رأوا ان انشغال البعثيين بانقساماتهم

يتيح للناصريين فرصة طيبة للفوز . ولو حلنا دون اجراء الانتخابات ، نحن الذين كان بامكاننا ان نتذرع بالظروف لتأجيلها ، لخسرنا ثقة الطلاب فينا . وقد أجرينا حسبة للقوى ، فوجدنا أنها تكاد تكون متعادلة مع رجحان ضئيل لكفة الناصريين .

لقد تمتع الناصريون ، منذ الانفصال ، بالميزة التي كانت للبعثيين ، اذ انهم صاروا في الصف المعارض للسلطة . وكان هؤلاء ، الى ذلك ، موحدي الموقف في المناداة بعودة الوحدة ، فكسبوا ولاء غالبية الجمهور الوحدوي . اما البعثيون ، الذين تتبادل قياداتهم المتعددة الاتهامات وتشهر ببعضها البعض ، فكان بإمكان الوحدويين ان يتهموهم بأنهم مع الانفصال ، مثلما كان بإمكان الانفصاليين ان يتهموهم ، أيضاً ، بأنهم مع الوحدة .

وفي غضون ذلك ، أعلن قادة العهد الجديد اعتزامهم اجراء انتخابات عامة في البلاد . وجرى بين الفرقاء البعثيين محاولات لدخول الانتخابات بقوائم موحدة وبرنامج سياسي واحد ، لكن حجم التباين الكبير بين الآراء والمواقف حال دون توحدهم . فدخلت كتلة اكرم الحوراني الانتخابات وحدها ، ودخل الفرقاء الناصريون من البعثيين ، وحدهم . وأعدّ الذين انضموا الى التنظيم الحزبي الموالي للقيادة القومية انفسهم لدخول المعركة منفردين . وسارت المعركتان الانتخابيتان ، الطالبية والعامة ، جنباً الى جنب ، وألقى كلاهما على عواتقنا أعباء جديدة ، خصوصاً أننا خضناهما مثقلين بالمخاوف من الفشل .

في ذلك الوقت ، جاءت سمية إلى دمشق ؛ اختلقت سبباً للحصول على اجازة وجاءت كي تراني . وأدركت سمية للتو إلى أي حد أنا غارق في الشأن العام ومهمل لشؤوني الخاصة . وتأكد لسمية ذلك حين طلبت مني المساعدة لمعرفة نوع المحاضرات التي ألقيت على طلاب صفنا في الجامعة والبرامج المقررة فاتضح لها اني لا أعرف عن الامر لا قليلاً ولا كثيراً . وقد أظهرت سمية استياءها بوضوح ، وتحدثت بطريقة تنطوي على تحذيري من تأثير مسلكي على مستقبل علاقتي بها ، فكان عليّ ان اختار بين الاستمرار في صحبتها مع الالتفات لمستقبلنا الشخصي او الاستمرار

في النشاط الذي ترى ، هي ، انه لا يجلب الا البلايا . وقد غاظني موقف سمية ، فامعنت في مناكفتها ، ودعوتها الى الانتساب للفرع والاشتراك في الانتخابات . ولم تقل سمية شيئاً للإجابة على دعوتي ، لكنها ذهبت ، دون اعلامي ، الى مقرّ الفرع وقدمت طلب الانتساب وتبرعت بمبلغ من المال ، ثم جاءت لتنبئني بذلك وتقول ان هذا هو حدّ الواجب المطلوب ، أما تبديد العمر كله في العمل العام فليس سوى ولع بالنجومية يخفي الانانية والعُقد التي لا يعرف طبيعتها إلاّ الله . وأعادت سمية تخييري بين الحدّين اللذين لا ترى وسطاً بينهما . ورحلت عني غاضبة . واظهرت ، من جانبي ، أني غير عابىء بغضبها .

دعونا القوميين العرب للتقدم الى الانتخابات ، في الفرع ، بقائمة مشتركة ، تضم أربعة من البعثيين وأربعة منهم هم ويرأسها مستقل يتفق الطرفان عليه فيصبح رئيساً للفرع . غير أن القوميين العرب رفضوا هذه الدعوة رفضاً حازماً وشكلوا قائمتهم فضمت عدداً من نجوم العمل الطالبي ممن اقترنت اسماؤهم بشهرة تصديهم للانفصال . وكان من هؤلاء ، على ما اتذكر ، . تيسير قبعة وابراهيم الراهب وزكريا ابو سنينة وداود رحمة ، وجعلوا دعايتهم من بند واحد : إعادة وحدة مصر وسورية دون شروط . وشكّلنا نحن قائمتنا من البعثيين واصدقائهم ، وجعلنا لها برنامجاً واءم بين الآراء المتعددة في صفوف البعثيين ، فطالب بالوحدة الاتحادية القائمة على شروط تضمن استمرارها . وهكذا ، تقابلت قائمتان كاملتان ، تسعة ازاء تسعة . وكانت واحدة من اشد المعارك الانتخابية التي شهدتها الساحة الطالبية الفلسطينية . وبالرغم من وجود مرشحين في قوائم أخرى فقد حصل استقطاب شديد حول القائمتين الرئيسيتين ، وحدهما . فلما تمّ فرز الأصوات ، اتضح أن ثمانية من قائمة القوميين العرب التسعة قد فازوا . أما قائمتنا ففاز منها شخص واحد ، فقط ، وكان هذا الفائز هو أنا . وكان الفرق بين معدل الاصوات التي حصلت عليها كل قائمة ضئيلاً للغاية ، أربعة أو خمسة ليس أكثر . وعنى هذا بالنسبة لنا أن القائمة البعثية كانت ستفوز بكاملها لو لم يقاطع الانتخابات عدد من بعثيينا ممن

احتجوا على البرنامج .

وفي هيئة قيادية اواجه فيها ، بوصفي بعثياً ، ثمانية من القوميين العرب ، وجدت نفسي في وضع لا يحسدني عليه أحد . وكان القوميون العرب مشهورين ، آنذاك ، بحدة السلوك والفظاظة في تعاملهم مع خصوم حركتهم . فلك ان تتصور حالي في هيئة كان ألطف مَنْ فيها تيسير قبعة الذي يعد الصرامة خلقاً لا بدّ من توفره للمناضل ، وكنت أنا فيها المعارض الوحيد ، وذلك خلال عام كامل . لقد كان ذلك ، كما ينبغي ان يقال ، عاماً لا ينسى ، ولكنه كان ، ايضاً ، العام الذي تأسست فيه خبرتي في المعارضة داخل الهيئات .

وعلى صعيد الانتخابات العامة ، قرر الحزب أن يرشح لعضوية مجلس النواب اثنين في دمشق : صلاح البيطار ونذير النابلسي . كان البيطار ، كما تعلم ، زعيماً مشهوراً لعب دوراً أول في تأسيس الحزب وقيادته كما لعب دوراً كبيراً في الحياة السياسية العامة منذ اوائل الاربعينات . وكان هذا الرجل ، وهو ابن حيّ الميدان الدمشقي وسليل أسرة تتمتع في المدينة بسمعة طيبة ، يحظى ، بالإضافة الى تأييد الحزب ، بتأييد جمهور واسع من الفئات الوسطى التي ترى فيه ممثلاً لها حريصاً على مصالحها . وكان من الممكن ، بالاعتماد على هذا كلّه ، أن يظفر البيطار بالعدد الكافي من الأصوات ، بالرغم من المقاومة العنيفة التي جوبه بها من أحزاب اليمين وأحزاب اليسار . إلا أن نقطة الضعف المقلقة تمثلت في تذبذب موقف البيطار إزاء مسألة الوحدة . اما نذير النابلسي فهو سائق سيارة من سكان المنازل الفقيرة المقامة على سفح جبل قاسيون . وكان نذير ، او الحاج نذير كما يدعوه أصحابه ، نقابياً مرموقاً احتفظ بمحبة سائقي السيارات له وتزعم نقابتهم على مدى سنوات طويلة وشكّل مع خالد الحكيم ثنائياً نقابياً مشهوراً بحيث لا يذكر أحدهما الا ذكر الآخر . وقد عرف عن نذير تفانيه في خدمة الحركة النقابية وصلابته في رفض المساومة على مصالحها وحريتها . وبمزايا كهذه المزايا ، تصورنا ان وجود نذير بجانب البيطار سوف يستقطب عدداً من أصوات العمال وناس الأوساط الفقيرة فتتأكد فرصة

البيطار في النجاح . والحقيقة ان وجود الحاج نذير ، ببلديته المحبّبة ، وطباعه السمحة ، وخبراته المتنوعة ، واستعداده لخدمة الصغير والكبير ، وتواضعه الذي لا حدود له ، قد اجتذبنا ، نحن شبّان الحزب ، للتفاني في خدمة المعركة الانتخابية أكثر مما اجتذبنا وجود البيطار . وكان مرح نذير الدائم هو الذي يخفف وطأة التقطيبة المزمنة التي لا تفارق وجه صلاح البيطار إلا في أندر الحالات .

تجندنا للمعركة ، اعداداً كبيرة من البعثيين المنظمين وغير المنظمين ، من الدمشقيين او المقيمين في دمشق من ابناء المحافظات الأخرى . وتبرع أحد قدماء البعثيين بمنزله في حيّ عين الكرش فتحول المنزل الى مقرّ مركزي لادارة الحملة الانتخابية ، وتبرع آخرون بمنازلهم في أحياء أخرى ، فصارت مقرّات فرعية ينطلق منها النشاط الدائب الذي تولاه الجهاز الحزبي بحماس شديد . وقد وجدتني في عداد الفريق الذي يعمل في المقرّ المركزي في عين الكرش ، وكنت أقوم بشتى الأعمال ، مثلي مثل غيري من المتطوعين في المقر . وحدث اكثر من مرة أن أسهمت في عمل المجموعات التي تتولى توزيع المنشورات الدعائية او الصاق صور المرشحين في الشوارع . واتاح لي التواجد في المقر طيلة الشهر الذي استغرقته الحملة ان اعرف عن قرب شديد عدداً كبيراً من نجوم الحزب الذين كنت اسمع بأسمائهم ولا التقيهم . فتهيأ لي ، بهذا ، ان ألمس الفارق الذي كثيراً ما يقوم بين سمعة النجم المتولدة عن الحكايا المتداولة بشأنه وحقيقة أمره حين تحتك به عن قرب . وأنا أشهد أن هذا الفارق كثيراً ما يكون كبيراً وباعثاً على خيبة الأمل . اما صلاح البيطار نفسه فكان زعيماً سياسياً قدّ سمعته ، بل أكثر ؛ كان يتقن التصرف قائداً ويعرف كيف يستخدم مكانته الكبيرة حين يستلزم الأمر استخدامها ؛ ولكنه ما كان يتعفف عن متابعة أصغر شأن إداري إذا احتاج الأمر لخبرته في هذا المجال . ولم يكن البيطار من النوع الذي يجتذب الانصار بادعاء التواضع ازاءهم وإزجاء المجاملات لهم او بالتودد اليهم وغضّ النظر عن هفواتهم او بأي من هذه الوسائل المماثلة التي يستخدمها الزعماء التقليديون . ولا كان البيطار من ذوي

الطبع الودود ولا من الذين يجتذبون المريدين بكرم موائدهم أو بحلاوة ألسنتهم؛ كان من النادر أن ترى هذا الرجل متبسطاً في جو شخصيّ طلق، والأندر منه أن تراه مسترخياً او مستريحاً او منصرفاً الى لذائذ الطعام والشراب. في مقابل ذلك، ألف البيطار أن يولي ما يتولاه من مهام جل وقته وجدّه وانتباهه، وكان يتعامل مع الصغير والكبير بروح الانصاف فيعطي لكل ذي حق حقّه. كما كان حريصاً على أن تجيء توجيهاته وتعليماته وأوامره دقيقة ومفهومة من قبل العاملين معه، مثلما كان حريصاً على التأكد من أن أعوانه قاموا بتنفيذها على الوجه المطلوب. بكلمات أخرى، كان البيطار من نوع القادة الذين قد لا تحبهم حباً شخصياً ولا تتفق معهم حول هذا الرأي او ذاك، ولكنك لا تملك إلا أن تقدر جدّيته ومواظبته على العمل وإخلاصه لآرائه وتحترم حرصه على أن يقوم بقسطه من الجهد العام وإعطاء المثل بنفسه في هذا المجال.

وما أكثر الخبرات التي يستطيع المرء أن يكتسبها حين ينخرط في معركة انتخابات عامة، وما أكبر الفارق بين خبرات هذه الانتخابات والانتخابات الطالبية! فأنت مع الطلاب إزاء حالة تعرف تفاصيلها كاملة، تعرف أسماء الناخبين والكليات التي يدرسون فيها وأماكن سكنهم كما تعرف ميولهم والتيارات التي تتوزعهم وشتى الأمزجة التي توجه سلوكهم. ومع الطلاب، يستطيع المرشح النشيط او مجموعة المرشحين المتعاونين ان يتصلوا بالناخبين واحداً واحداً، فيصير بالإمكان التعرف على مستلزمات الحملة الانتخابية بكاملها والتنبؤ بنتائجها بنسبة كبيرة من الدقة. أما في الانتخابات العامة فأنت إزاء جمهور هلامي متعدد الاهتمامات والأمزجة تتفاوت حظوظ أفراده من التعليم والثقافة وتتعدد انماط سلوكهم واستجاباتهم تعدداً كبيراً. وهو جمهور متطلب وطلباته اشد تنوعاً من طلبات أي جمهور طالبي. ثم إن المتنافسين، أفراداً وجماعات، على كسب ود هذا الجمهور كثيرون كثرة لا تقع على مثلها بين الطلاب. لقد انضممت إلى الحملة الانتخابية وأنا أظن أن موقف الحزب المتوازن بين الناصريين المفرطين في الحماس، والانفصاليين الممعنين في معاداة

الوحدة ، سوف يجلب لمرشحي الحزب أصوات العقلاء من كل القطاعات . كما ظننت ان دعوة الحزب الى الاشتراكية وتميّزه عن الاشتراكيين الآخرين برفضه للانفصال ووجود العامل النقابي نذير النابلسي سوف تجلب للحزب أصوات أكثرية العمال . إلا أن المعايشة الواقعية للناس أثناء الحملة أخذت تفتح عيني وبصيرتي على التعقيدات الشديدة والدوافع المتداخلة التي توجه السلوك الانساني ، فحررتني من أوهام كثيرة كان لها في نفسي منزلة المعتقدات الراسخة .

وها أنا ذا أتذكرني مع رفاق آخرين ونحن نتجول في منطقة سوق ساروجة لنعلق صور مرشحينا على الجدران . كنّا قد انتهينا الى شبكة من الأزقة الفرعية المتداخلة حين بلغت الساعة السابعة مساء فحلّ الوقت الذي توجب التعليمات الحكومية ان نتوقف فيه . كان الظلام قد اكتسح هذه الأزقة ولم يكن بمقدور مصابيح الكهرباء الضعيفة ان تنيرها . وظننّا أننا غير ملزمين باتباع التعليمات الرسمية في مكان معتم ومنعزل ، واستبعدنا أن يجيء الى هذه المكان أي من المراقبين الحكوميين ، فأبحنا لأنفسنا متابعة تعليق الصور بأمل أن نفرغ مما نحمله منها . لكن حارساً ليلياً عجوزاً مقبلاً لاستلام نوبة حراسته في المكان رآنا ، فنبهنا الى انتهاء الوقت وطلب منا أن نتوقف عن ما نحن فيه . تحدث الحارس بنبرة روتينية لا تشي بأي اهتمام خاص بنا أو بعملنا أو بتطبيق تعليمات الحكومة . بل إن الحارس أبلغ إلينا طلبه ثم مضى ناحية الكوخ المخصص له قبل أن يتأكد من استجابتنا له . وقد أوهمني مسلك الحارس هذا أنه لن يصرّ على تنفيذ طلبه ، فحثثت رفاقي على متابعة العمل . عندها ، انتهرنا الحارس انتهاراً ، بنبرة خالطتها فظاظة موظف أمن محترف ، وانذرنا بأنّ مآلنا سينتهي الى الاعتقال ما لم نتوقف على الفورً . وازاء التبدل المفاجيء لي في موقف الحارس ، وجدتني مدفوعاً الى التفلسف ، ولعلّي أردت أن اختبر فكرتي بشأن موقف الكادحين ، فرحت أشرح للحارس شيئاً عن المرشحين اللذين نعلق صورهما مشدداً على أنهما من انصار الكادحين من أمثاله . وما كدت اصل الى هذه النقطة في حديثي حتى هبّ الرجل المستند الى

جدار كوخه واقفاً إزائي ، ورمقني بنظرة تفحصتني من القدم الى الرأس ، وحمّل نظرته هذه أقصى ما يمكن ان تفصح عنه العينان من استهانة ، وكان التعبير واضحاً حتى لقد كفّ لساني عن الكلام قبل ان أتم شرح فكرتي . فلما صمتُّ أنا ، انفجر العجوز : «كمّل! كمّل! لماذا تسكت ، الكادحون ، وانصار الكادحين؟ شيء لله يا كادحون! ما الذي يفعله النواب للكادحين ، النواب ، والوزراء ، والرؤساء؟ كم عمرك؟ عشرون ، خمسة وعشرون؟ أنا عمري يقترب من الستين سنة . وانا حارس منذ اربعين سنة . رأيت كل الانتخابات التي جرت في البلد . ومرّ عليّ مرشحون من كل الأنواع ، وسمعت وعوداً عددها اكبر من عدد الشعر الباقي على رأسي ، فماذا كانت النتيجة؟ هل تحسنت أحوالي؟ هل تحسنت أحوال البلد؟ انظر الى هذا الكوخ ، عمره من عمري في الوظيفة ، كان جديداً ولكنه اهترأ وهو لا يصد الآن برداً ولا حراً ، ولا يحجب ريحاً أو مطراً . حال البلد مثل حالي ومثل هذا الكوخ ، من سيىء الى أسوأ . وقريباً يصير عمري ستين فارتمي في الدار ، لا معاش ولا تعويض ، فهل تظن ان بيطارك سيعطيني من معاشه في البرلمان!» .

طرح الحارس سؤاله الأخير بنبرة جعلها السخط الدفين فاجعة ، ثم صمت لحظة فبدا كأنه يستجمع أفكاره ، وهمّ بأن يستأنف الكلام لكنه أحجم قبل ان يقول شيئاً . وبدل الكلام ، قذف الحارس من فمه بصقة ضمنها ، كما بدا لي ، رأيه في كل ما يجري . بعدها ، فقط ، لانت النبرة : «لمّوا أشياءكم وانصرفوا ، لا تتعبوني ولا اتعبكم!» . ثم نحّى الرجل نظره عنّا وانطوى على نفسه ، غير عابىء ، بعد ، بما نفعله . اما نحن فلممنا ، بالفعل ، أشياءنا ، وانصرفنا عنه صامتين .

وفي زيارة قمت بها بصحبة البعثي الدمشقي خيري النشواتي ، احد مسؤولي الحزب ، لواحد من معارفه في حيّ المزرعة ، وجدتني في حضرة موظف متواضع المركز في إحدى الإدارات الحكومية . وقد رحب الرجل بنا ترحيب مَنْ يعرف أننا قادمان اليه لأسباب انتخابية ، فراح ينتقي العبارات التي تحمل الكثير من المجاملة لكنها لا تلزم قائلها بشيء محدد إزاء زائريه .

عندما قال خيري لمضيفنا إننا جئنا لتذكيره بمرشحي الحزب في الانتخابات وحثه على انتخابهما ، أجاب الموظف : «تعرفون ان الانتخابات سرية . وفي اللحظة المناسبة يتبع الإنسان ضميره» . وشاء رفيقي ان يحصل على وعد صريح من الرجل بانتخاب البيطار والنابلسي ، فلم يظفر إلا بإجابات من هذا النوع . وشدد خيري ضغوطه على ابن حيّه ، دون طائل ، فانتهى بتوجيه هذا السؤال اليه : «لا تريد أن تنتخبهما ، هذا حقّك ، فهل تصارحني ، بحكم الجيرة والصداقة ، بالسبب ، ان معرفة السبب مفيدة لنا وأنت تساعدنا كثيراً بمجرد قول الحقيقة؟» . واستجاب مضيفنا لنبرة الرجاء الحارة ، فقال : «نذير نابلسي رجل لا أعرف خيره من شره ، وأنا أفضل المجرّبين ، أما الأستاذ صلاح فهو أشهر من نار على علم ، لكني لا أنسى أنه صوّت عندما كان عضواً في البرلمان على تعديل على قانون فتسبب التعديل في حرماني من الترفيع سنتين ، فخسرت عشر ليرات كاملة كل شهر» . وشاء رفيقي أن يحول انتباه المضيف عن هذا الشأن الشخصي الصغير الى الشؤون الكبيرة التي تشغل البلد ، فذكره بمواقف البيطار ضد الصهيونية والاستعمار وبكفاحه من أجل الوحدة العربية ودعوته الى الحريات . وقد أصغى الرجل للحديث إصغاء المتأدب ، فلما لاحظ أن زائره يمعن في حديث طويل ، قاطعه برزانة : «كلامك على رأسي ، لكن المرشحين كلهم يعلنون انهم ضد الصهيونية والاستعمار ومع حقوق الشعب ، المعوّل ليس على الكلام ، المعوّل على التجربة ، وقد جرّبت بيطارك فآذاني ، ولا أنسى هذا» .

اما اليوم الذي شهد الانتخابات فقد شهدنا فيه أوقاتاً عصيبة . كان على كل واحد من المنخرطين في الحملة ان يبلغ بجهده الذروة ، وقد جاء هذا بعد أسابيع متصلة من العمل المضني ، ففارت الأعصاب ، وبلغت الحساسيات اقصى حدتها . وكان من شأن أوهن سبب أن يهيجنا ويدفعنا الى التصايح ، فكيف وقد تواترت الأسباب الوجيهة التي تدفع الى الهياج! في مساء ذلك اليوم ، بعد ان أقفلت الصناديق ، ترتب عليّ ان أسهر مع الذين سهروا في المقر المركزي للحملة من أجل متابعة أنباء فرز الأصوات

في دمشق والمحافظات الأخرى . وأظهرت وقائع الفرز ، منذ البداية ، أن نذير النابلسي لا يملك أي فرصة للنجاح فتعلق الأمل بالفرصة المتاحة للبيطار ، ثم أظهر تقدم عملية الفرز إنها فرصة متأرجحة . وهكذا تابعنا العملية بأعصاب مشدودة تزداد التهاباً لحظة بعد لحظة .

كنت أجلس بقرب الهاتف ، فتوجب عليّ أن أردّ على مكالمات المتلهفين لمعرفة توقعاتنا . في البداية ، رحت أعطي أجوبة متفائلة ، لكنني عدلت الإجابات مع تقدم عملية الفرز فصرت أعطي أجوبة غامضة فلا أظهر أننا نتوقع الفشل ولا اتورط بتأكيد النجاح . وفي ساعة متأخرة في الليل ، تلقينا من أنباء الفرز ما يرجح فشل البيطار ، أيضاً . وتصادف ان تلقيت بعدها مباشرة مكالمة من الدكتور مدحت البيطار وهو قائد حزبي ألجأه التعب الى منزله وراح يتابع الأنباء بالهاتف . كما تصادف أن الواقف بجانبي وأنا أكلم الدكتور مدحت كان واحداً من اقطاب الحزب العسكريين هو العقيد المتقاعد عدنان صادق ، وهو رجل التقيت به أثناء الحملة ، أما قبل ذلك فقد سمعت الكثير من الحكايات التي تصف مواقفه وجرأته ودوره الكبير في توطيد نفوذ الحزب داخل الجيش . وكان هذا العقيد ممن ينطبق عليهم القول «تسمع بالمعيديّ خير من أن تراه» أو ممن يخيب أملك بهم حين تتعرف عليهم شخصياً بعد أن تكون الحكايات قد خلقت في ذهنك صورة براقة عنهم . والحقيقة أني لما تعرفت على العقيد في المركز الانتخابي لم احتج الى تدقيق كثيرٍ كي استنتج ان قدراته وكفاءته لا تعادل السمعة التي أحاطت به قائداً مقتدراً . وقد تأكد استنتاجي هذا بمضيّ الأيام وانتهيت إلى الإعتقاد بأني إزاء شخص عادي تماماً ولكنه مفتون بالسمعة المحيطة به ومتشبث بأن يتصرف على أساسها وأن يعامله الآخرون بوصفه شخصاً متميزاً . كان الضابط ، الذي احيل الى التقاعد اثناء حملة تصفية الضباط البعثيين الكبار من الجيش في عهد عبد الناصر ، مفرط التأنق في ملبسه مثلما هو مفرط العناية بشاربيه ؛ وكان يصطنع في حديثه نبرة الآمر التي ألفها في الجيش حتى حين لا يكون لهذا أي مسوغ . وكان هذا كله قد حملني على الضيق بالعقيد دون أن

أجد سبباً او مناسبة للإفصاح عن ضيقي . وقد استمع هذا العقيد لحديثي الهاتفي مع الدكتور مدحت ، دون ان يعرف مَنْ هو المتحدث على الناحية الأخرى من الخط ، وساءه أن يسمعني وأنا اقول لمحدثي : «إن الحالة لا تدعو الى التفاؤل» لأني لا أملك أن أكذب على قائد حزبي ، فاذا به ، أي العقيد المستاء ، يندفع ناحيتي وفي نظرته حنق يكفي لإخافة كتيبة وينتر السماعة من يدي ويضعها فوق الجهاز بعنف ، ثم يطلق العنان لسيل من الشتائم يقذفني بها بغير حساب . فاجأني انفجار العقيد على هذا النحو فعقد لساني للحظات . كنت أعرف أن أعصاب الرجل مستوفزة ، لكن أعصابي ، أنا الآخر ، كانت هي الأخرى مستوفزة ، أيضاً ، ولم ألبث ان صرخت في وجهه : «اخرس! وإلا جعلتك عبرة لكل منفاخ في هذا الحزب!» . وبدوره ، فوجىء العقيد برد فعلي فلم يدر ماذا يقول . ولا بد ان جرأتي عليه قد أدهشته ، واذا به يرفع يده ، ناوياً ضربي . عندها ، افلتتْ اعصابي من أي زمام ، أمسكتُ بالساعد الممتد نحوي وشرعت في ليّ الذراع المعتدية قبل أن تنالني الضربة الموجهة لي . وبدا أننا مقبلان على عراك طاحن . إلا أن المحيطين بنا تعجلوا الفصل بيننا قبل أن يتفاقم العراك ، وأحاط بي مَنْ راح يهدئني كما أحاط بالعقيد مَنْ راح يهدئه . وكان هذا هو رد الفعل الطبيعي المتوقع في مثل هذه الحالة ، إلا أنه أحنق الرجل المأزوم . لقد رأى العقيد في مبادرة الرفاق الى فصلنا عن بعض ودعوتنا كلينا الى الهدوء انهم يساوون بيني وبينه في المنزلة والمسؤولية ، فأحنقه ذلك ، فواصل شتمي عن بعد ، مستخدماً العبارات التي تظهر استهانته بمكانتي : «مَنْ انت حتى تتطاول عليّ ، نوكل اليكم خدمة فتظنون انكم صرتم مسؤولين!» ، وواصلت الرد عليه بما يظهر رأيي في حنقه وغروره : «ومَنْ أنت حتى تبيح لنفسك التعالي ، وضعت الظروف على كتفك ذات مرة عدداً من النجوم النحاسية فتوهمت أن كل شيء صار مباحاً لك ، ما انت الا أحمق مغرور!» .

اجتذبت الضجة الأستاذ صلاح والذين كانوا معه في حجرة مكتبه ، فخرجوا إلينا . وبالرغم من حراجة الظروف وتأخر الوقت ، استقصى

الأستاذ صلاح تفاصيل المشاجرة بكثير من التدقيق والتبصر ، سمع من العقيد وسمع مني وسمع من الآخرين . ومن حسن حظي أن محمد بصل كان بين شهود الواقعة وقد قدم شهادته على نحو وضع الأمور في نصابها الصحيح ، فقيمني تقييماً شديد الإيجابية وركز على واقع أني حزبي منضبط ، متفان في أداء الواجب ، جمّ النشاط ، متدرب على التصرف في الظروف الصعبة ، وأن الذين استمعوا الى إجاباتي على اسئلة المتكلمين بالهاتف كانوا ، جميعهم ، معجبين بأسلوبي الذي لا يبث روح التشاؤم ولا يجافي الحقائق التي سيعرفها السائلون بعد قليل . وقد ندد محمد بما اظهره العقيد من استهانة بمكانتي وقال له انك دخلت الحزب في ايام عزّه . أما هذا الشاب فجاء الينا في فترة الانحسار وَقَبِل ان يتدرج في التنظيم من أول السلم مع أنه كان قبل ذلك قائداً في تنظيم آخر . لقد أعفتني شهادة محمد من قول أي شيء في تفسير مسلكي . وأظهر الأستاذ صلاح تفهماً واضحاً لما قاله مسؤولي الحزبي . أما العقيد فبدا عليه انه يتعرف عليّ من جديد ، صحيح أنه دافع عن مسلكه وخطّأ تصرّفي ، إلا ان اندفاعته في مهاجمتي صارت كليلة . وعندما نادانا الأستاذ صلاح واختلى بنا في حجرته وطلب منّا ان نتصالح ، كنت قد استعدت سيطرتي الكاملة على نفسي وقدرتي على المحاججة دون انفعال . وطلبت ان يعتذر العقيد لي علناً وسط الجمع الذي شتمني أمامه ، وقلت إني أترك للحزب ، بعد ذلك ، أن يقدّر العقوبة التي يستحقها مَنْ يتطاول على رفاقه . وكان هذا بالطبع كثيراً ، غير اني تشبثت به لا لشيء إلا لأتجنب المصالحة .

سقط مرشحا الحزب في دمشق ، فيما فاز عدد قليل من مرشحي الحزب في محافظات أخرى . أما في حماه ففاز أكرم الحوراني وقائمته بمقاعد المحافظة كاملة . لم يحدث هذا لان مدينة دمشق وحدوية عاقبت البيطار على تأييده للانفصال ، ولا لأن حماة انفصالية كافأت الحوراني ، بل حدث بتأثير عوامل كثيرة متداخلة هي العوامل التي تحدد خيارات المواطنين المتعددة في الانتخابات . وهي عوامل لا يشكل الموقف من الوحدة ، رفضاً أو قبولاً ، إلا واحداً منها . ولم يكن سقوط البيطار مهيناً ،

فقد فاز بعدد من الأصوات جَعلتْه الأول او الثاني بين غير الفائزين بالمقاعد، بفارق ضئيل عن آخر الفائزين. وقد استوعب البيطار دلائل هذه النتيجة بوجهيها الإيجابي والسلبي، وأدرك الحزب أن قلوب الجمهور ليست مقفلة إزاءه ولكن الأمر يحتاج الى جهود إضافية لا بدّ من بذلها كي يستعيد المكانة التي كانت له من قبل. والحقيقة ان البيطار انخرط بكليته، بعد الفشل في الانتخابات، في العمل الحزبي والعمل العام، فكنت لا تراه في أي وقت من الأوقات، من الصباح الباكر الى منتصف الليل، الا منصرفاً لأداء عمل أو انفاذ مهمة. بالرغم من ذلك، ومع قوة تجلّد الرجل، فقد أحدث الفشل شرخاً في نفسية القائد الذي تجاوز مرحلة الشباب، شرخاً لم يبدأ كبيراً، لكنه كبر بمضيّ الوقت وتوالي التطورات التي عصفت بالبلاد بعد ذلك. وأرجو ألا تعدّني مبالغاً لو قلت لك إن فشل البيطار في انتخابات ١٩٦٢ العامة، بالذات، قد اوجد عنده شيئاً من التهيب من مواجهة الجمهور وزعزع ثقته بالنهج الديمقراطي القائم على الانتخابات، بعد أن أمضى ما سبق من عمره داعية مثابراً لهذا النهج، وجعله أميل الى حلّ المعضلات العامة بالتفاهم مع ناس النخبة. وقد لفت نظري، وقتها، التفسير الذي عرضه صلاح البيطار لفوز قائمة الحوراني بكاملها في حماه، وقد حرص على أن يشرح لنا رأيه بالتفصيل بدعوى خشيته من أن نظن أن نجاح الحوراني يعني تأييد الجمهور للانفصال. وقال البيطار، في معرض شرحه، إن الحوراني عقد صفقة مع قادة الانفصال فابقوا حماة وريفها منطقة انتخابية واحدة مقابل تأييده لحركتهم. واعتمد الحوراني على نفوذ جماعته القديم والراسخ في الريف وهو النفوذ الذي تأسس منذ ما قبل اندماجهم بحزب البعث، وتفوق بأصوات الريف على أصوات المدينة التي انصب معظمها لصالح خصومه. ثم قال البيطار ان الحزب رفض ان يدخل في دمشق أو في أي محافظة اخرى في مساومات مع الانفصاليين ومؤيديهم، مثلما رفض ان يتنازل عن موقفه المعارض لأي مساس بالمكتسبات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي تحققت في عهد الوحدة. ونبهنا البيطار إلى ان معركة الحزب القادمة ستكون متداخلة

المواقع كما ستكون قاسية ومتعددة الجبهات ، وقال ان المتمسكين بالموقف البعثي الصحيح مطالبون بأن يتصدوا في آن واحد للانفصاليين ومؤيديهم على اليمين واليسار ولضيّقي الأفق من الوحدويين على اليمين واليسار ، أيضاً . وتنبأ البيطار بأن الحزب سوف يربح المعركة في نهاية المطاف اذا تشبث بسياسته المتوازنة ، وان الخليط من القوى غير المتجانسة التي تؤيد الانفصال لن يصمد طويلاً . وقدم البيطار تحليلاً شاملاً للوضع في الجيش وبيّن أن قيادته المؤيدة للانفصال لا تمثل غالبية العسكريين ولا تملك المكانة الكافية لتطويع السياسيين . وكان البيطار واثقاً من ان التجمع القائم حول قيادة الجيش والمبني على مصالح انتهازية صرفة وغير متوافقة ليس هو التجمع المهيأ لفرض هيمنته على بلد مثل سورية .

لقد كان تسليحنا بنظرة مستقبلية متفائلة شديد الأهمية للاحتفاظ بقوة اندفاعنا ، خصوصاً في ذلك الوقت الذي اضطربت فيه الصورة وتداخلت المواقع .

١٢ حركة فلسطينية ناشطة عاينتها وتأثرت بها

لا شك في أن تجاوز المجتمع الفلسطيني للظروف القاهرة التي فرضتها نكبة ١٩٤٨ ونجاح معظم ناسه في تدبير شؤون معيشتهم وحاجاتهم الضرورية والخبرات التي راكمتها تجارب الصواب والخطأ، في الخمسينات، هي التي شكلت الأساس الملائم لبروز ظاهرة العمل لإقامة منظمات خاصة بالفلسطينيين وحدهم، أو لما اندرج تحت عنوان العمل لإعادة بناء الكيان الوطني الفلسطيني، في أوائل الستينات. غير أن وقوع الانفصال وحصول الجزائر على استقلالها أحدثا تأثيراً كبيراً جداً في مجال حفز المحاولات الجارية لإقامة المنظمات. فالانفصال، بما هو حدث سلبي فاجع، زعزع آمال كثير من الفلسطينيين في الاعتماد على دولة الوحدة الكبيرة وقدرتها على التغلب على اسرائيل، وحرّر مزيداً من العقول من الأوهام المرتبطة بالدور العربي في معركة تحرير فلسطين. واستقلال الجزائر، بما هو، على النقيض، حدث ايجابي، نمّى على الساحة الفلسطينية الدعوة الى اقتداء الفلسطينيين باشقائهم الجزائريين، من حيث العمل لتحرير الوطن

بالاعتماد على النفس وانتهاج السياسة التي تمنع الدول العربية من التدخل في شؤونهم الداخلية .

والواقع ان ثورة الجزائر الوطنية ، المعتمدة بالأساس على امكانية شعبها ، قد تمكنت من القضاء على اسطورة اعتبار الجزائر جزءاً من فرنسا واعادت الامور الى نصابها الصحيح . فكان لنجاح الثورة الجزائرية وقع السحر على الفلسطينيين الذين تعدّ اسرائيل ارضهم ارضاً لها وتحرمهم من حقوقهم فيها . وليس من قبيل الصدفة ان المنظمات الفلسطينية الناشئة ، صغيرها وكبيرها ، حملت اسم جبهة أو ما يماثلها ، فقد اقتدت باسم جبهة التحرير الوطني الجزائرية .

وحين يذكر المرء الأحداث السلبية التي استخلص الفلسطينيون منها العبرة الصحيحة ، فلا بد أن يرد الانفصال في أولها ؛ اما حين يعدّ الاحداث الإيجابية التي أجّجت روح الكفاح الوطني المتجدد في صفوف الفلسطينيين فان الحدث الجزائري يرد في المقدمة .

لا يعني هذا القول ان التأثير المشار إليه قد فعل فعله للتوّ ، أو أن التجارب التي جرت بتأثيره تحررت من أسر الماضي او كانت كلها صحيحة . وكل ما في الأمر ، وأهم ما فيه ، ان هذا التأثير بقي حاضراً ملموس الفعالية في خطوات الفلسطينيين التالية ، ما كبا منها على الطريق وما استكمل الشوط الذي بدأه .

وعندما أعلن ظفر الجزائر بالاستقلال ، عمت البهجة سورية كلّها ، وخصوصاً الأوساط الفلسطينية فيها . وقد تنوعت مظاهر التعبير الشعبي عن هذه البهجة ، فخرجت المظاهرات العديدة الى الشوارع ، وانعقدت المهرجانات الاحتفالية في غير مكان ، وانهالت برقيات التهنئة على القيادة الجزائرية ومكتب الجزائر في دمشق . وعندما لاحظنا ، في قيادة الفرع ، أن جماعات فلسطينية كثيرة تتوجه متفرقة الى مقر البعثة الجزائرية من أجل تقديم التهنئة ، اقترحنا أن يتشكل وفد كبير يضم ممثلي القوى والتنظيمات المتعددة ليقدم التهنئة باسم فلسطينيي دمشق . وأجرينا الاتصالات اللازمة

مع ممثلي مختلف الفعاليات السياسية والاجتماعية الفلسطينية ، الى أن أمكن تشكيل الوفد على الوجه المرضي ، وكنت مع غيري من قادة الفرع في عداده . وفي مقرّ البعثة ، أعد لنا الشيخ محمد الغسيري استقبالاً خاصاً ، ثم أنهى الاستقبال بكلمة حثّ فيها الفلسطينيين على الاحتذاء بأشقائهم الجزائريين ودعاهم الى التوحد في جبهة وطنية مستقلة عن الدول العربية لتتولى قيادة كفاحهم من أجل التحرير .

وكان الصدى الذي احدثته هذه الدعوة مجلجلاً وفورياً ، وشاء بعض اعضاء الوفد ان نشرع في التباحث للتو من أجل تشكيل الجبهة ، وأيده آخرون . وفي الشارع ، أمام المقر الجزائري ، على سور حديقة المزرعة ، وقف المجاهد القديم المعروف ، أبو ابراهيم الصغير ، خطيباً ، وأصر على أن يتوجه أعضاء الوفد فوراً الى داره ليبدأوا البحث المطلوب . كان من الصعب علينا ان نعترض على دعوة تصدر عن مثل هذا الحماس ، كما كان من الصعب أن نقبلها نحن المنتمين لحزب والمطالبين بالعودة الى قيادته قبل ان نخطو خطوة سياسية مثل هذه الخطوة . وقد حاولنا ان نقلل من الحماس الفوري بدعوى ان الأمر يحتاج الى تفكير ودراسة واعداد المقترحات التي سيتداولها المعنيون به . وطالبنا بإرجاء الاجتماع الى الأسبوع التالي ، حتى يعود كل منا الى مرجعه ثم يجيء الى الاجتماع وهو مفوض من قبله ، الا أن أبا ابراهيم الصغير ، الذي تصدى لمعارضة افتراضنا واتهمنا بتثبيط الهمم ، ألهب حماس الآخرين ، وحلف بالطلاق أنه لن يبرح المكان إلا إذا وافقنا على اقتراحه ، ونجح في اجتذاب الجميع الى داره في مساء ذلك اليوم بالذات . وهكذا ، انتقل إلى دار المجاهد المتحمس قرابة ثلاثين شخصية من وجهاء الفلسطينيين في العاصمة السورية ، من مختلف المشارب والنزعات والمهن والأعمار . وأعدّ ابو ابراهيم ، بهذه المناسبة الفريدة ، وليمة فاخرة تناسب مقامات زواره ، فدارت القهوة العربية ، وتحلّق الناس حول المناسف ، وأتوا على صواني الكنافة النابلسية ، فأتى ذلك كلّه على الكثيرمن عزائمهم . فلما بدأ الحديث السياسي الذي احتشد الناس من اجله ، دار الكلام بكلال ، واظهرت خلافات الرأي العديدة أن المسألة

أعقد من أن يتم حلّها في جلسة واحدة، وبرزت الحاجة الى تكرار الاجتماع. هنا، بادر المجاهد الصفدي القديم وتاجر الملابس المشهور، سعيد عزيز، فدعا الناس الى عشاء في منزله في الأسبوع التالي، على أساس أن يتابعوا، هناك، الحديث الذي بدأوا به. وتكرر في الاسبوع التالي في منزل سعيد عزيز ما حدث في منزل أبي إبراهيم، تراخى الحديث السياسي لحساب المجاملات الاجتماعية، ثم بادر احد الاغنياء فدعا الناس الى عشاء ثالث في الأسبوع التالي. وهكذا، توالت الولائم، وتراجع البحث عن تشكيل الجبهة، في وسط هذه المجموعة، إلى أن تلاشى.

واذا لم تكن محاولة كهذه المحاولة قد نجحت في تشكيل جبهة، فلأن الأوان لم يكن قد حان ولا كانت الظروف قد نضجت ولا كان لأسلوب الحلف بالطلاق ان يقيمها. اما الذي أفلح الفلسطينيون في تشكيله منذ ذلك الوقت فهو المنظمات الفدائية العديدة التي دعت الى تجاوز الأحزاب واعتماد الكفاح المسلح منهجاً للتحرير، متجاوزة تجربة عرب فلسطين الأولى، بشروعها في الاعداد لممارسة هذه النوع من الكفاح إعداداً فعلياً. وسأقص عليك حكاية تأسيس واحدة من هذه المنظمات أتيح لي أن أشهد نشأتها وأسهم فيها ببعض الجهد. والمنظمة هي تلك التي حملت عند تأسيسها اسم «جبهة التحرير الفلسطينية» والتي أسسها أحمد جبريل وعدد من رفاقه العسكريين والمدنيين، في فترة الانفصال.

انتسب الفلسطيني احمد جبريل الى الجيش السوري في ظروف لا أعرفها؛ وشاع ان علاقة قربى، عن طريق الأم، تصله بعائلة الغزي الدمشقية وهي العائلة التي كان منها سعيد الغزي، احد رؤساء الحكومات السورية. وحين تعرفت عليه، كان احمد قد ترفع الى رتبة ملازم أول وصار مدرباً على المتفجرات في المدرسة العسكرية التي يتخرج فيها رتباء الجيش، أي ضباط الصف فيه. وفي هذه المدرسة، تعرف أحمد على عدد من الفلسطينيين المنتسبين اليها ممن استدعوا للخدمة العسكرية الإلزامية. وكان من هؤلاء زميلي في عرب فلسطين الذي سبقني في الانضمام الى

حزب البعث ، محمود السلطي ، وهو الذي عرفني على مدربه . وقد ضمتنا ، محمود وانا وآخرين ، جلسة مع أحمد التأمت بناءً على طلب الأخير ، واستمرت من اول المساء حتى شروق الشمس . في هذه الجلسة ، تحدث أحمد باستفاضة عن التنظيم الفلسطيني السّري الذي يقوم بانشائه ، فأدهشني وحاز على إعجابي الشديد . أنبأنا أحمد أنه بدأ في بناء هذا التنظيم منذ سنوات ، وأنه قطع مراحل متقدمة في بنائه ، وأن أعضاء التنظيم موجودون ، الآن ، في عدة بلدان عربية وأجنبية . وأسرّ احمد الينا بأنه اقام علاقة مع الصين الشعبية ، وأن الصين استقبلت مئات من أعضاء التنظيم ووفرت لهم فرصة التدريب على العمل المسلح ولن يلبث هؤلاء أن يعودوا ليقودوا هذا العمل . وتفنن أحمد في ابهارنا بمنجزات متحققة نسبها الى تنظيمه ، فقال انه فرغ من اعداد دراسات وافية تحدّد الأحوال الديمغرافية للمجتمع الفلسطيني وتبين توزع القوى والتيارات والآراء فيه وتستخلص انجع الوسائل لتجنيده في معركة التحرير القادمة . وذكر احمد ، في هذا السياق ، أن التنظيم يملك قوائم بأسماء البالغين من الفلسطينيين وقد صنفوا في ثلاث فئات ، أدرجت أسماء كل فئة منهم في قائمة تحمل لوناً مميزاً لها ، وقال ان القائمة السوداء تضم اسماء الذين تهيئهم طبائعهم لمناهضة الثورة المقبلة ، والقائمة الحمراء تضم اسماء الذين سيؤيدونها ، اما القائمة الثالثة ، وهي الخضراء ، فتضم أسماء المترددين الذين ينبغي تنشيط العمل بينهم لاجتذابهم الى صفوف الثورة . وحكى احمد حكايات كثيرة توحي بأن تنظيمه يمتلك وسائل مالية وعسكرية كبيرة ، وأنه قادر على امتلاك المزيد منها ، ولم يبق امامه الا استكمال التدريب وتنظيم الصفوف . وبهذا ، وبالكثير مما يشبهه ، مما استمعت اليه في تلك الليلة ، ألهب أحمد خيالي ورسم أمامي صورة حَوَتْ كل ما حلمت بتحقيقه ، منذ كنت طفلاً ، بين يدي العمل لتحرير فلسطين ، وزيادة . ولّما ادرك احمد انه حاز على إعجاب سامعيه ، دعانا للانضمام الى التنظيم ، غير مغفل التنويه بأن هذا هو الواجب الوطني الذي لا مفرّ من القيام به . وشاء احمد ان يشجعنا ، بوصفنا طلاباً نشيطين في الاتحاد

العام ، فذكر لنا انه زار القاهرة واتصل بالبعثيين من قادة الاتحاد واتفق معهم على التعاون . وذكر ، في هذا السياق ، اسمي رئيس الاتحاد ، زهير الخطيب ، وامين سره العام ، لطفي غنطوس ، وقال ان الاثنين وعداه بوضع خطة مفصلة لهذا التعاون .

وعندما غادر احمد المجلس ، موصياً إيانا بأن نغادره بعده متفرقين كي لا نلفت الأنظار ، كان قد استولى على مشاعرنا بحديثه الأخاذ ، وكنت ، أنا الذي تجدد هوسي بالعمل السري ، قد صرت مستعداً للاستجابة لدعوته . ولما تشاورنا حول ما سمعناه من الرجل ، أثار البعض احتمال ان يكون هذا الضابط كاذباً ، فكان جوابي : «لو ان تسعين بالمائة مما ذكره احمد كذب فإن العشرة بالمائة الباقية كافية لإقناعي» .

في ذلك الوقت ، كنت ، على ما اتذكر ، قد انتقلت في التنظيم البعثي من رتبة عضو متدرب الى عضو عامل والحقت بحلقة جديدة يرأسها البعثي القادم من غزة الذي يدرس في كلية التجارة أميل صبيح . وقد نقلت انطباعاتي الإيجابية عن لقائي بأحمد الى أميل ، ونقل أميل الأمر الى قيادة التنظيم ، فجاء الجواب بالإذن لي بالالتحاق بجبهة التحرير الفلسطينية والتحقق مما اذا كان واقع تنظيم احمد هذا مطابقاً لأقوال مؤسسه .

وهكذا ، ضمتني حلقة للتدريب على السلاح مع أربعة آخرين كلهم من الاعضاء في الفرع ، وصار فضل شرورو رئيساً للحلقة وموجهاً لها ، وتولى احمد تدريبنا على المتفجرات كما تولى غيره تدريبنا على استخدام البنادق والمسدسات . ومن أجل ذلك ، كنّا نلتقي في أماكن معزولة ، في جبل قاسيون وأطراف المدينة الأخرى ، أو في المنازل ، ساعتين أو اكثر كل يوم . وقد اتضح أن ضابط المتفجرات الداعي لتحرير فلسطين بالكفاح المسلح مدرّب فذّ وقد تعلمت على يديه ، في فترة قصيرة للغاية ، كيف أنصب الالغام وأفخخها وكيف انتزعها واتجنب أذاها ، وعرفت شتى أنواع الألغام ومقاييسها ، من اللغم المضاد للافراد الى اللغم المضاد للدبابات ،

وبرعت في هذا كلّه .

وقد اهتم احمد ، الى جانب اهتمامه بالمتفجرات ، بتدريب الأعضاء على السير لمسافات طويلة في الظروف القاسية . وكان هذا أشق ما توجب عليّ القيام به ، انا الذي تفتك بي آلام الظهر فتجعل السير الطويل بالنسبة لي أقرب الى التعذيب . وقد جعلتني الكبرياء والرغبة في اداء كل ما يؤديه الاعضاء الآخرون حريصاً على اخفاء مرضي عن القيادة والقيام بمهام المسير بكاملها . وكانت دواعي السرّية تفرض ان نسير فرادى ، فصرت اتعذب دون أن أجد مَنْ يواسيني ، فاحتسب ذلك لنفسي في باب التضحيات التي يتوجب على الثوري ان يتكبدها دون ممانعة . وأتذكر مرة اقتضت مهمة سيري فيها ان انطلق في الساعة الثانية ظهراً ، في شهر تموز / يوليو ، من ساحة السوق في ضاحية المزة ، فآخذ الطريق المتجه الى القنيطرة واجتاز المعظمية ومفرق قطنا ، ثم انعطف في طريق فرعي على اليسار وأسير في هذا الطريق نصف المعبّد حتى أبلغ الطريق الذي يصل دمشق بدرعا ، فاعود عبره ، وأجيء الى مقرّ الفرع . وعنى هذا أن اقطع مسافة سبعة وعشرين كيلو متراً في مشوار واحد . وكان من المفهوم أن المسؤولين عن التدريب سيضعون مراقبين على الطريق ليتأكدوا من دقة ادائي للمهمة . وقد سرت تحت قرص شمس لهّابة في جوّ اقتربت درجة حرارته من الأربعين ، دون مظّلة ودون ماء . وبعد أن تجاوزت مفرق قطنا وصار الطريق خالياً من المشاة ولم يعد يعبره من السيارات إلا عدد قليل ، استوقفني شخص يجلّل رأسه بكوفيّة ويحمل مطرة ماء ، وسألني عما إذا كنت أحمل ولاعة ، فأجبته بنعم وسألته بدوري عما إذا كان يريد ، أيضاً ، سيجارة ، فقال : «لا» ، ثم اضاف : «أنا لا أبدل نوع دخاني حتى لو اضطررت للبقاء بغير تدخين» ، ثم اخرج من جيب قميصه نصف سيجارة ، فاشعلتها له ، فسحب نفساً عميقاً ، ثم قال : «لعنة الله على الذين يبيعون التبغ المغشوش لخلق الله» . وكان هذا هو الحوار المتفق عليه ليؤكد ان الشخص الذي استوقفني هو المكلف بمراقبة سيري والمخول بأن يحلّ اي مشكلة طارئة قد تواجهني . وبالرغم من ان بلعومي كان قد جفّ

من العطش فاني لم اجرؤ على طلب جرعة ماء من صاحبي المراقب هذا ؛ امتنعت عن الطلب لاني خشيت ان اظهر عطشي فيسجله المراقب نقطة سلبية ضدي . وبعد ان انعطفت في الطريق نصف المعبد ، صار العطش أقوى من طاقتي على الاحتمال ، وتركز اهتمامي كلّه في ان أظفر بجرعة ماء . وتذكرت انهم حين أمروني بالسير طلبوا مني ألاّ احمل شيئاً مما يؤكل او يشرب ، لكنهم لم يحظروا علي أن أتدبر أمري على الطريق . ولم أكن واثقاً مما اذا كان مسموحاً لي ان اشرب لو عثرت على الماء ام ان الشرب محظور . وتغلبت الحاجة على الشكّ ، ولما رأيت ، غير بعيد عن الطريق ، بضعة بيوت من الشعر ، انحرفت نحوها ، وجريت جرياً حتى بلغتها ، فشربت ، ثم استأنفت السير في الاتجاه المحدد . اما عندما صرت على طريق العودة الى دمشق ، وكانت آلام الظهر قد صارت أقسى من الطعنات ، فقد راودتني نفسي أن أستوقف احدى السيارات واتم المشوار راكباً ، لكن خشيتي من افتضاح أمري لدى المراقبين المفترضين جعلتني أتردد ، فتحاملت على آلامي بأقوى ما أملك من إرادة وسرت حتى بلغت الطرف الجنوبي لقرية القدم . هناك ، كان التعب والألم قد هدّا قواي واستنفدا كل ما لدي من طاقة على الاحتمال . وما أن وقعت عيني على الباص الذي ينقل الركاب من القدم الى وسط المدينة حتى توجهت إليه والقيت جسدي على أحد مقاعده ، غير عابىء بأيّ نتائج . وفي وسط المدينة ، كررت الأمر ، فركبت الباص الذي يوصلني الى مقرّ الفرع ، وقد انتويت ان أصارحهم بوجود مرضي لو عاتبوني على خوَري .

وأدركت وأنا ألج مقرّ الفرع أن هيئتي لا بدّ ان تعكس ما أنا فيه من كلال ، فألقيت بنفسي على اول كرسيّ في الباحة حتى لا تفضحني حركتي . وحين سألني أحدهم عن أثر الشمس الواضح على جلدي ، قلت اني امضيت بضع ساعات في المسبح واني قادم منه لتوي . غير أن السائل أمسك بذراعي وحك الجلد المكشوف باظفره ، ثم ابتسم ابتسامة المتشكك وربت على كتفي دون أن يقول شيئاً .

في اليوم التالي ، عندما جرى تقييم ادائي للمهمة ، سجلوا عليّ خطأ

واحداً هو التعليل الذي قدمته لوجود آثار الشمس على جلدي . وقتها ، عرفت أن تأثير الشمس على الجلد المبتل بالماء مختلف عن تأثيرها على الجلد الجاف ومن السهل اكتشاف الفارق بينهما . وتعلمت أنه يكفي ان تحك الجلد ، فاذا بقي لونه ثابتاً فمعناه انك كنت حقاً في المسبح ، اما اذا بيّض الحك الجلد فهذا يعني أنك تعرضت للشمس دون ماء . أما تدبري لماء الشرب فعدوه لصالحي ، ذلك ان هذا هو بالضبط ما توخوه حين سيروني بغير ماء . واما انتقالي بالباص في الكيلومترات الأخيرة فلم يعرفوا به ولم اتطوع بابلاغهم عنه . وقد سوغت ، امام ضميري ، احجامي عن الابلاغ برغبتي في أن لا أقرّ أمامهم بمرضي ، أي برغبتي في الاستمرار في أداء المهام الشاقّة .

وفي مرة تالية ، تعمدوا ان يسيّروني على أرض جبلية ، فعبرت في عزّ الشمس ، كما في المرة الأولى ، ظهور المرتفعات التي تسوّر مدينة دمشق من شمالها . بدأت السير من آخر الخط في المهاجرين وعبرت ظهر جبل قاسيون ، وأسلمتني كل قمة الى التي تليها حتى وصلت نقطة محددة في كروم الزيتون الممتدة بين حرستا ودوما ، ثم انحدرت الى الطريق العام العائد الى دمشق . وقتها ، تمكنت من متابعة السير حتى مفرق القابون ، ثم لم تبق لدي أية قدرة على الاحتمال ، فأخذت الباص ونزلت عند منزل احمد جبريل ، وكان ، آنذاك ، في شارع بغداد الراجع ، من ناحية الديوانية ، خلف مبرّة الايتام . وأمام احمد وزوجته التي أسهمت في تأسيس التنظيم ، وجدتني مدفوعاً للبوح بما اخفيته . تخلّيت عن الكبرياء ، او قل : عن العناد ، وتحدثت عن مرضي واعترفت بضيقي من اللجوء الى الكذب . والحقيقة أن أحمد تأثر بحديثي تأثراً لم أتوقعه منه ، وبدت عليه الدهشة من اصراري على تنفيذ مهام السير مع ما أتكبده من آلام ، بل إن أحمد قرعني ، وان يكن بغير جفاء ، لإخفائي حقيقة مرضي ، ثم ابلغ اليّ انهم سيكفوا عن تكليفي بالمسير أو بأي تدريبات بدنية شاقة . ولما أبديت ما حملتني الكبرياء على ابدائه من اعتراض ، تشبث احمد بموقفه ، وأضاف أني سأكلف بمراقبة السائرين ، وهذا كافٍ .

وكنّا ما نزال نتجادل حول هذه النقطة . حين انضمّ الى مجلسنا الرائد الفلسطيني المتقاعد علي بشناق «أبو باسل» ، وهو واحد من ضباط الدورة الشهيرة الذين سرّحوا من الجيش في زمن الوحدة . لم أكن قد تعرفت على هذا الضابط من قبل ، الا اني كنت اعرف عنه الكثير ؛ كان الرجل مشهوراً بأنه من أمهر الرماة على المسدس ، وقد سبق له ان فاز بالمرتبة الثانية في بطولة الرماية في المسابقة التي تضم الرماة من دول حوض البحر الأبيض المتوسط وحظي بسبب ذلك بشهرةٍ واسعة ، وخصوصاً في الوسط الفلسطيني الذي ألف ناسه أن يعتزّوا كثيراً بأبنائهم المتفوقين ، وكان ، في حدود علمي وكما شاع بين الفلسطينيين ، العربيّ الوحيد الذي ظفر بهذه البطولة . وقد لفت نظري ان احمد لم يبدل مجرى الحديث الذي كنا فيه عندما انضم «ابو باسل» إلينا ، فاستنتجت من ذلك ، وكان استنتاجي صحيحاً ، أن الرجل واحد من قادة الجبهة . وقد أبدى «أبو باسل» الذي اتضح انه متابع لنشاطاتي اهتماماً شديداً بشأن صحتي ، ولاحظ أنه من غير المألوف أن تحلّ آلام الظهر بشاب في مثل سني ، فلا بدّ ، اذن ، ان يكون في الأمر ما يدعو الى الحذر الشديد ، ولا بدّ من أن اتبع علاجاً جاداً لاكتشافه . وانتهى الجدل بإلزامي ، بأمر من القيادة ، حسب تعبير أحمد ، بأن اهتم بمعالجة المرض ، وتفتقت الاجتهادات عن ضرورة دخول المستشفى ، وكان من اليسير عليّ أن أدخل مستشفى الجامعة بوصفي طالباً فيها وانال علاجاً مجانياً . وتعهد «أبو باسل» بأن يوصي بي مَن يعرف من المسؤولين عن المستشفى حتى يشددوا العناية بي . لقد بدا الرجل الذي التقيه لأول مرة حفياً بي ، فأسعدني هذا وشجعني على الاستجابة لاقتراحه .

في المستشفى ، امضيت أسبوعاً بكامله ، ليس لأن تشخيص مرضي أو علاجه اقتضيا هذه المدّة ، بل لأن الأمور هناك تسير ببطء ، وخصوصاً في قسم الطلاب . كان هذا القسم يشغل بضع حجرات في مبنى يتوسط مباني المستشفى المعروفة . وكانت للقسم الذي لا يستقبل الا المرضى من طلبة الجامعة منزلة خاصة ، فالاطباء المقيمون ، وأغلبهم من طلاب كلية

الطب المتميزين ، وكذلك الممرضون يتجنبون الدخول في مشاكل مع النزلاء ولا يتشددون في المراقبة . هذا الوضع أتاح لنا من الحريات ما لم أكن أحلم بوجوده في مستشفى ؛ كنّا نسهر في الليل الى أي وقت نشاء وننهض في الصباح عندما نريد ، نقبل الوجبات المعدّة او نجلب طعامنا من الخارج ، حسب مزاجنا ، ونستقبل الزوار في أي وقت من أوقات النهار أو الليل ، نلعب الورق في الحجرات أو في الممرّ ، ونتجادل هنا وهناك بهدوء أو بصخب ، ولا نتعفف عن مشاكسة الممرضات وملاحقتهن بعروض الحبّ . وكنّا نغادر المبنى وقت نشاء ، فنزور المباني الأخرى أو نتجول في الحدائق وندس أنوفنا في أي شيء ، نجادل العاملين في اختصاصهم او نستدرجهم الى الجدل في السياسة ، فنستكشف ، ونتسلى ، ونمضي الوقت بأمتع ما تسمح به الظروف . وفي واحدة من جولاتي ، تذكرت الحجرة التي اختبأت فيها يوم طاردنا الدرك والشرطة في أواخر عهد الشيشكلي . فبحثت عنها حتى وجدتها وجئت إليها مدفوعاً بالرغبة في تجديد تلك الذكرى العزيزة عليّ . كانت الفتاة التي تخيط المراييل ، وهي التي أنقذتني من المطاردة ، ما تزال هي التي تشغل الحجرة وتقوم بالعمل ذاته ؛ كانت قد كبرت ، بالطبع ، وكست امارات النضج التام وجهها وجسدها ، فوجدتني ازاء سيدة دمشقية عاملة مكتملة الشخصية وفي هيئتها ما يشي بأنها حامل . وكانت هذه السيدة ، حين ولجتُ الحجرة ، منصرفة كلية الى العمل ، فلما ذكرت لها سبب تطفلي على حجرتها ، اولتني شيئاً من الاهتمام ، وقالت إنها تتذكر واقعة اختفاء عدد من الطلاب في الحجرة ، إلا انها لا تتذكر أياً منهم بشخصه ، ثم عقبت : «لم تتغير الأحوال كثيراً منذ ذلك الوقت ، كل ما في الأمر أني لا أجد الجرأة الآن على اخفاء أحد . الزواج ، انت تعرف ، والأولاد ، مسؤوليات ، لم نعد مثلما كنّا» . وحاولت ، أنا العاطل يومها عن أي عمل ، أن استدرج حاميتي القديمة الى حديث طويل ، لعلي أوقد ما خبا في ذاكرتها وروحها ، فلم افلح . تمترست محدثتي بأدبها المتحفظ وآثرت أن تظل ذاكرتها مقفلة ، ولم تبد ما يشي بالرغبة في اطالة الحديث . بالرغم من ذلك ، كررت المحاولة ، وأظهرت

استغرابي لغياب تفاصيل واقعة هامة كهذه الواقعة عن ذاكرتها ، وقلت لها انها انقذت خمس شبان من سجن محقق فكيف يمكن أن تنساهم . وللحظة واحدة التمع شيء في عيني السيدة ثم انطفأ ، وقالت وهي تنصرف ثانية الى ماكينة الخياطة : «كرّمك الله ، أي شيء يمكن أن يبقى في ذاكرة خيّاطة تأكل هذه الماكينة صباها بغير رحمة!» ، ولم تنطق بشيء بعد ذلك .

انصرفت ، وعدت الى حجرتي حاملاً هذا النوع من خيبة الأمل الذي تحسّه دون ان تتبين له سبباً معقولاً . وقد حملني مزاجي المتعكر على الاعتكاف في سريري ، وفجأة ، دخل الحجرة زائر غير متوقع ؛ كان هذا هو لطف غنطوس ، قدم من القاهرة وعرف أني في المستشفى وأثارته حكايتي مع تنظيم احمد جبريل فتعجل زيارتي . وها أنا ذا لم أنس شيئاً من الحديث الذي سمعته من لطف في تلك الزيارة .

كانت لهذا الشاب ، الذي لعب دوراً مثابراً في تأسيس الاتحاد العام لطلبة فلسطين وتطويره وتوسيع علاقاته العربية والعالمية وإحكام سيطرة حزب البعث على قيادته ، شخصية متينة وجذابة . نشأ لطف ، كما نشأنا نحن ، في الفترة التي تلت هجرته من فلسطين مع اسرته ، إلا إنه تميز عن أمثالي بالرعاية التي حظي بها في أسرة ميسورة الحال ، فلم يعرف الفقر والتشرد اللذين كابدناهما . كان ابو لطف موظفاً حسن الدخل في العراق ، فوفر لابنائه حياة مريحة ومكنهم من متابعة تعليمهم الى المستويات التي تروق لهم دون ان يضن عليهم بالمصاريف ، كما وفّر لشخصياتهم ما يمكن توفيره في ظروف تلك الايام من النمو الحر والتكوين المستقل . وكنت اشهد دائماً فضائل الأب على ابنائه في سلوك الابن ، فلطف كان دائم الأناقة ، يختار ملابسه من احدث الازياء ويتقن آداب السلوك العصري ، كما كان دائب النشاط واضح الاهداف ، يقول ما يريد الافصاح عنه دون تلجلج ويذهب الى ما يتوخاه بغير تردد . وقد مثلت شخصية لطف ، بالنسبة لي ، في حينه ، صورة الشاب الفلسطيني متقدم الذهن والطباع الذي أحلم أن أكونه دون أن أبلغ ذلك . وكان هذا الشاب يكشف في كل

ما يأتيه عن خبرة واسعة ومعرفة عميقة . اجتذبت الدعوة القومية لطف واختار ان ينضم الى البعثيين منذ كان تلميذاً في بغداد ؛ جذبه إليها نفوره من القوميين العرب الذين كان يعدهم متخلفين وكرهه للشيوعيين الذين يأخذ عليهم قبولهم بتقسيم فلسطين ويعدّه خيانة . وكانت للطف صلة حزبية بي عبر عضويته في اللجنة البعثية التي تشرف على عمل البعثيين في الاتحاد . وبهذه الصفة ، جاء لطف خصيصاً ليروي لي ما يعرفه عن تنظيم أحمد جبريل ، ويحذرني من الاندفاع في الولاء له .

وبطريقته الخاصة في الحديث ، بدأ لطف كلامه بما يدهش ، فأعاد على مسامعي كل ما سمعته انا من احمد عن اهمية التنظيم وقدراته وامتداده هنا وهناك في أرجاء المعمورة ، فعل لطف هذا بصيغة تقريرية ، متجاهلاً دهشتي ازاء معرفته بكل هذه المعلومات . وكانت الدهشة قد بلغت تمامها حين وجّه اليّ لطف سؤالاً بنبرة ملغزة : «ألم يكن هذا هو ما رواه احمد لك عن تنظيمه؟» . فلمّا أقررت بتطابق الروايتين ، قال لطف بنبرة جازمة : «هذه الحكايات كلّها ، من اولها الى آخرها ، كذب في كذب» . ولما اظهرت تعابير وجهي ، كما تتوقع انت ، ما يزيد عن الدهشة ، وقبل ان افوه بكلمة ، اتبع لطف الطريقة التي لا يتقنها احد مثله ممعناً في اثارتي ، فقال : «نعم ، كذب ، وانا بالذات مصدر هذا الكذب» .

فلما قبل لطف ان يتكلم دون تلغيز واستقام الحديث ، سمعت أولى الحكايات التي سيتكرر استماعي لمثيلاتها فتعلمني ان ادقق في اي رواية أسمعها من قادة العمل السري الفلسطيني وغير الفلسطيني قبل أن أتبناها . وانا عازم على أن لا أحرمك من معرفة هذه الحكاية .

قبل أن أعرفه ، وصل أحمد جبريل ، ذات مرة ، وربما كان ذلك في إطار مهمة عسكرية اوكلت له ايام الوحدة ، الى القاهرة . وقد حمل احمد معه مشروعه لإقامة تنظيمه المسلح لتحرير فلسطين ، مؤملاً أن يتصل بقادة الاتحاد ليقنعهم بالتعاون معه لتحقيق المشروع . وكان أحمد ، كما أظهر سلوكه ، اسير الهواجس التي يتسربل بها زوار العاصمة المصرية من امثاله ،

فتصور أن أجهزة الأمن المصرية تراقبه وتتبع خطواته ، وتحوّط لذلك ، فأحاط نفسه ومشروعه بأقصى ما يمكن من السرية والغموض . وقد بدا سلوك أحمد ، مع ما ينطوي عليه من افتراض ضمني بأنه شخص بالغ الاهمية ، مثيراً للسخرية في عيون قادة الاتحاد المجربين الذين عاشوا طويلاً في القاهرة وخبروا القدرات الفعلية لأجهزة الأمن . ولم يحمل هؤلاء احمد ودعوته على محمل الجدّ ولا وثقوا به ، بل قرروا ان يهزأوا به وبهواجسه ، وكان من بين وسائلهم لتحقيق هذا الغرض العمل على دفع احمد للغرق في مزيد من الهواجس . وهكذا ، واعد لطف وزهير الخطيب ، المتظاهران بالاستجابة للدعوة الى التعاون ، زائرهما احمد اكثر من مرة على اللقاء ، وحددوا الأماكن والمواعيد على نحو يستخلص احمد منه ان الرقابة شديدة عليهما وانهما يتوخيان التفلت منها ، ثم لم يجيئا الى أي موعد تاركين لأحمد أن يستخلص انهما عجزا عن الافلات . وفي احدى المرات ، طلب لطف من احمد ان يلاقيه في «جرُوبّي سليمان» وهو مقهى شهير في المنطقة التجارية في مركز المدينة . وكان احمد يقيم في فندق سكارابيه الذي لا يبعد عن المقهى اكثر من خطوات ، ولان احمد يجهل جغرافية المدينة ، نصحه لطف بأن يستخدم التاكسي فيذهب الى ميدان العقبة ، ثم يبدل التاكسي ويذهب الى ميدان الدقي ، ثم يأخذ تاكسي ثالثاً الى ميدان الحسين ، ويتجه من هناك بتاكسي رابع الى المكان الموعود وذلك ، كلّه ، بدعوى الحاجة الى التأكيد من ان احمد سيصل الى جروبي بعد افلاته من مراقبيه . هذه المرة ، جاء لطف وزهير الى جروبي ، سبقا أحمد الى المكان وكانا يعتمران قبعتين ويضعان على عينيهما نظارات سوداء ويحيطان نفسيهما بجو مدروس من الغموض . هناك ، استمع لطف وزهير الى ما عرضه احمد بشأن مشروعه . وقد بالغ الملازم الاول العازم على إقامة تنظيم لتحريرٍ فلسطين بالسلاح ، في بسط تصوراته حول مستقبل المشروع وذكر أشياء كثيرة عن الانجازات التي يتطلع الى تحقيقها على هذا الصعيد او ذاك ، وكان منها تطلعه الى دراسة طبيعة المجتمع الذي يعمل فيه وامله في ان تدعم الصين الشعبية العمل لتحرير فلسطين ، على أساس

أن الاتحاد السوفياتي سيستنكف عن ذلك ما دام معترفاً باسرائيل . وتأكد للقائدين الطلابيين المجربين ما هجسا به من قبل من ان زائرهما لا يحمل أكثر من التصورات التي تدور في أذهان كثيرين سواه ، فمضيا في تنفيذ عزمهما السابق منطلقين من روح الاستهانة بأحمد الذي لم يثقا به والذي جاءهما من دمشق دون تزكية من أحد ودون معرفة سابقة . وهكذا ، اندفع لطف ذو الخيال واللسان الذي لا يتلجلج حتى وهو يكذب ، فأظهر لزائره أنهم في قيادة الاتحاد قد سبقوه كثيراً في المجال الذي يسعى اليه . وقال لطف لأحمد إن قيادة الاتحاد تتستر بشرعية الاتحاد للتغطية على العمل السرّي الذي شرعت به منذ سنوات . وعدد لطف لأحمد المنجزات التي حققها عمله السري ، فحكى عن طلاب بالمئات يتدربون على السلاح في الصين ، وعن قوائم حمراء وخضراء وسوداء تصنف الفلسطينيين حسب نوع ارتباطهم بالثورة المرتقبة ، وما الى ذلك مما طاب للطف ان يدهش به جليسه ويزايد عليه فيه . ولما عرض احمد دعوته للتعاون ، تلقى إجابة غامضة ، ثم عاد الى دمشق ليروي لي ، ولأمثالي ، ما اجتذبنا إليه من أحاديث المنجزات التي لم يكن اي منها قد تحقق ، لا على يديه ولا على يدي غيره .

هل كان أحمد جبريل ساذجاً حقاً فصدق ما حُكِيَ له ثم لم يزد على ان نسبه لنفسه ، أم أن الرجل كان اخبث من محدثيه فاكتشف كذبهما ، ثم استفاد منه في الدعاية لتنظيمه الناشىء؟ الاحتمالان ، عندي ، واردان ، وان بقي من الضروري أن نميّز بين كاذب ساخر وآخر مضلل .

وقد تصادف ان زارني أحمد بعد انصراف لطف . وكنت ، وقتها ، في قاع الاحساس بخيبة الأمل والحنق على نفسي لأني تصرفت كأبله . ولسوء حظ أحمد ، وربما لحسنِ حظي ، حمل لي زائري ، في ذلك اليوم بالذات ، ما عدّه ، هو ، تكريماً من التنظيم لي واعترافاً بكفاءاتي وما عددته ، أنا ، برهاناً على ضآلة حجم التنظيم الذي تعلقت به . وقد انتظر أحمد حتى اختلينا في ركن معزول في الحديقة ، واخرج من جيبه مغلفاً طلب مني ان افضّه ، فوجدت فيه ورقة مروسة باسم المجلس الوطني لقيادة

الثورة وعليها كلام مطبوع بالآلة الكاتبة يبلغ اليّ ان هذا المجلس قرر تسميتي أميناً لسرّه . وما كنت بحاجة ، بعد ، لأي سبب جديد كي أقطع صلتي بهذا التنظيم ، اذ ما معنى ان اعيّن اميناً لسر القيادة بعد شهور ثلاثة فقط من انتسابي للتنظيم ، إن لم يكن التنظيم هزيلاً وان لم يكن كل ما سمعته عن إنجازاته وامتداداته محض خيال؟! .

ولم تتأثر علاقتي بأحمد جبريل بعد أن كاشفته بما عرفته عن مبالغاته . والحقيقة اني تعمّدت في مكاشفتي له أن انتقي الكلمات التي ترسم موقفي دون ان تجرح احمد ، الا اني لم البث أن اكتشفت ان تأدبي في الكلام لا لزوم له ، فاحمد لم ينكر ان ما رواه لنا انطوى على مبالغات مقصودة ؛ وقد برر الرجل ذلك بأن للتعبئة المعنوية متطلباتها وأضاف اني انا نفسي كنت سافعل ذلك لو توليت مسؤولية القيادة . وعرض احمد يومها ان نظل اصدقاء ، وقبلت عرضه بتفهم ، واستمرت صداقتنا زمناً طويلاً وتوثقت فيما صار هو وتنظيمه مشهورين . وكان مما عزز هذه الصداقة أن البداية التي حدثتك عنها أذنت لنا بأن ندير على الدوام أحاديث صريحة ، وان معظم من عرفت من قادة العمل الفلسطيني المسلح غير احمد كان يفعل الشيء ذاته ، يبالغ بمقدار أو بآخر ، فإذا راجعته نسب المبالغة الى مقتضيات التعبئة المعنوية .

شيء آخر أثقلت عليّ معرفته في ذلك اليوم الذي لا أنساه . فقد جاء المشرف على علاجي ، الدكتور محمود سعدة ، وعرض تشخيصه لمرضي كما استخلصه من الصور والتحليلات التي اجريت لي . قال الدكتور بنبرة متعاطفة : «اسمع يا بني! عليّ أن أصارحك بأنك تحمل مرضاً لا علاج له ، انه مرض نادر يسمونه داء بختييرف ، وهو يصيب الفتيان فتتكلس غضاريف فقراتهم ، دون توقف ، ويحدث التكلس هذه الآلام الفظيعة» . وبيّن لي الدكتور أن الآلية التي يتم بها التكلس مجهولة مثلما هي مجهولة ، أيضاً ، اسباب المرض ، ونصحني بأن انتبه لنفسي واتجنب ثلاثة اشياء ، قال : «تذكر جيداً ، ثلاثة اشياء : البرد ، والإجهاد ، والتوتر» . اما الآلام ، كما قال الدكتور ، فليس لها إلا المسكنات ، وإن كان من الأفضل

أن اقتصد في استخدامها كي لا اسيء الى معدتي . هذا التشخيص الذي صدقت صاحبه في حينه والذي افهمني أن الآلام ستصاحبني مدى الحياة أفادني في شيء واحد هو الركون الى اليأس من العلاج والكفّ عن مطاردة فرصه وتوطيد النفس على تقبل أمر واقع لا فكاك منه .

في تلك الفترة ، تلاشى تنظيم عرب فلسطين ، كما تلاشت التنظيمات الصغيرة المماثلة التي نشأت في الخمسينات مفسحة المجال امام التجارب الجديدة . اجتذب البعث ، كما اجتذب القوميون العرب بعض اعضاء التنظيم ، كما سبق لك أن عرفت ، وسافر أنيس الخطيب الى السعودية بعد ان ظفر بوظيفة معلم مدرسة فيها وانتهى أمره بالتعرف على «فتح» والانضمام إليها . واجتذب استقلال الجزائر صبحي عرب فسافر الى البلد الذي تعود اليه جذوره القديمة ، ثم لم يلبث ان حصل على الجنسية الجزائرية وعمل في التدريس وأخذ يرسل من موارده ما يساعد أسرته في دمشق على تحسين حياتها . أما هايل عبد الحميد فقد سافر الى المانيا الاتحادية ، بأمل ان يدرس في الجامعة ، وانشأ هناك منظمة حملت اسم طلائع العودة ، ثم تعرف على هاني الحسن وعبد الله الافرنجي وانتهى أمره ، هو الآخر ، وأمر منظمته بالاندماج مع «فتح» .

لم تكن جبهة التحرير الفلسطينية التي أنشأها أحمد جبريل وعلي بشناق ورفاقهما المنظمة الوحيدة المسلحة على الساحة الفلسطينية في سورية ، فقد نشأت منظمات اخرى كان عقد الواحدة منها يلتئم وينفرط ثم يلتئم من جديد بالصيغة السابقة او بصيغة اخرى . وبدأ الأمر أشبه بحركة توشك أن تصير شاملة وتتجه للالتقاء بالحركات المماثلة التي نشأت في البلدان الأخرى التي يتجمع فيها فلسطينيون . وهكذا ، اخذت المنظمات الوطنية الفلسطينية تشكل منافساً متزايد القوة للأحزاب القومية العربية وتشق طريقها لقيادة شعبها المشتت وتتدرب ، في حرارة التجربة ، على التغلب على المصاعب والعقبات العديدة التي تعترض تنظيم الفلسطينيين .

هذه الحركة ، المتأثرة ، كما ذكرت لك سابقاً ، بالعاملين الكبيرين المستجدّين ، فشل تجربة الوحدة ونجاح الثورة الجزائرية ، كان بمقدوري أن أرقب تفاصيلها من موقعين : موقعي في اتحاد الطلاب وموقعي في التنظيم البعثي الذي ضمّني مع عدد من نشطاء الفلسطينيين . وقد فعلت ذلك بكثير من الانتباه ، حتى ليمكن القول إن ما فاتتني معرفته من شؤون هذه الحركة لم يكن إلا أقلّها أهمية .

١٣ أولى الخطوات: فرقة خاصة بالبعثيين الفلسطينيين

تشبثت قيادة حزب البعث بتطبيق نظرتها القومية العربية على صيغ التنظيم الحزبي ، فكان على عضو الحزب ، أيا كان البلد الذي نشأ فيه أو جاء منه ، أن يندمج في منظمة الحزب في البلد الذي يقيم فيه ، سواء كانت اقامته دائمة او مؤقتة . وقد انطبق هذا على الاعضاء الفلسطينيين ، أيضاً ، فشكلوا ، كما عرفت حتى الآن ، جزءاً من شعبة الطلبة العرب في جامعة دمشق حين لم يكن للحزب في سورية منظمة غيرها ، ثم صار عليهم أن يندمجوا في منظمات الحزب المحلية في الأحياء التي يقيمون فيها عندما اعيد بناء الحزب في البلاد .

وكان من المتعذر أن يظل فلسطينيو الحزب ، جميعهم ، بمنأى عن تأثيرات الحركة العامة لتأسيس المنظمات الفلسطينية المستقلة وعن تأثير التوجه العام لتأكيد خصوصية الوضع الفلسطيني وابراز الشخصية الفلسطينية . وقد أفصحت هذه التأثيرات عن نفسها ببروز دعوة بين البعثيين الفلسطينيين تنادي بتجميعهم في منظمة خاصة بهم داخل

الحزب ، فكنت أنا بين أوائل الدعاة الساعين الى هذا الهدف . انطلقت هذه الدعوة ، أول ما انطلقت ، من واقع الحال في الحزب ، كما بدا عند وقوع الانفصال . فأعضاء شعبة الطلبة العرب الفلسطينيون كانوا من انشط اعضائها ، وكان هؤلاء بحكم إقامتهم الدائمة في البلد أكثر الأعضاء استقراراً في التنظيم . ثم إن هؤلاء تميّزوا بتركيزهم على العمل في اطار اتحاد الطلاب الفلسطينيين ، وعزز هذا التميز نجاحُهم الظاهر في هذا العمل . وهناك ميزة اخرى وفرها واقع الحال للأعضاء الفلسطينيين ، نشأت عبر الدور الكبير الذي لعبه هؤلاء حين كان عمل الحزب التنظيمي مقتصراً على شعبة الطلبة العرب . وقد تعززت هذه الميزة حين أوكل للشعبة ، وفي صلب قوامها الفلسطينيون ، دور كبير في إعادة بناء الحزب في سورية . وتمثلت هذه الميزة ، اجلى ما تمثلت ، في الدالة الكبيرة التي صارت للبعثيين الفلسطينيين لدى قيادات الحزب ، اثناء عملية اعادة التنظيم وبعدها . لقد اتاحت المساهمة في هذه العملية لكل فلسطيني في الحزب أن يكون على صلة شخصية بعدد كبير من الاعضاء السوريين ، وبضمن هؤلاء الأعضاء الذين تولوا قيادة الحزب على مختلف المستويات ولعبوا ادواراً كبيرة في حياة الحزب والبلد . لقد عرفت شيئاً عن العلاقة ، مثلاً ، مع صلاح البيطار الذي كان يقدر في الأعضاء الفلسطينيين نشاطهم الجمّ وتضحياتهم ومواظبتهم على اداء الواجب ويحرص على الاحتفاظ بعلاقة طيبة معهم حتى حين يختلف هو وإياهم حول هذا الشأن أو ذاك . ولكي أوضح لك الأمر اكثر ، سأضرب مثلاً آخر ، علاقتنا بالدكتور نور الدين الاتاسي الذي سيصبح في وقت لاحق عضواً في قيادتي الحزب القطرية والقومية ووزيراً ونائباً لرئيس الوزراء ثم رئيساً للدولة . كان الدكتور نور الدين في عهد الوحدة طبيباً في مستشفى المجتهد الحكومي في دمشق وقد انقطعت صلته بتنظيمه الحزبي منذ حلّ الحزب . والأعضاء الفلسطينيون هم الذين هيأوا للدكتور نور الدين أن يظل على اطلاع على شؤون الحزب ، فكانوا يزورونه ويحملون اليه النشريات ويزودونه بالأنباء ويطلبون منه التبرع للحزب ، فيدفع تارة ويرفض تارة اخرى . وقد اتاحت لهم هذه الصلة أن يعرفوا

الرجل عن قرب وأن يتعرفوا على نقاط ضعفه وقوته ، واتاحت له ان يشهد فضلهم على الحزب في أصعب الأوقات . فلما عاد الدكتور نور الدين الى التنظيم وتقدم في مراتب المسؤولية كان بمقدور البعثيين الفلسطينيين ، ايا تكن مراتبهم ، ان يعتمدوا عليه بصفته صديقاً أو قل : أن يمونوا عليه ، وان يتعاملوا معه بنديّة وانفتاح . وقد يفيد ان اذكر لك مثلاً آخر ، عبد الله الأحمر ، فهذا البعثي من سكان بلدة التلّ القريبة من دمشق رغب في العودة الى الحزب عندما اعيد البناء ، وكان عليه من أجل ذلك ان يظفر بموافقة المخوّلين بالقرار بهذا الشأن . وقد عرف البعثي التلاّوي ما عرفه سواه من ان للاعضاء الفلسطينيين نفوذاً حاسماً ، فاختار ما وجده اقصر الطرق وتوجه اليهم . وقد أنسى اشياء كثيرة غير اني لا أنسى سلال التين التي كان عبدالله الاحمر الشابّ يجيء بها الى منزل محمد بصل .

كان الشاب القادم من البلدة المشهورة بإنتاج التين يملأ سلته من أجود الثمر مخفياً تحته ما يكلف بنقله سراً الى القيادة ومتأثراً بتقاليد الريف الذي نشأ فيه وظاناً ان الهدية الطيبة تليّن القلوب ، ويسري مع الصباح الباكر كي يصل بتينه طازجاً . وكنّا نظفر ، بالطبع ، ببعض هذا التين ونتلذذ به ولا يفوتنا ان نتندر حول الحكاية ، وبعد عودة هذا الرفيق الى الحزب ، لم يتوقف تواتر سلال التين ، بل صار تينها أجود وصارت المواد السرّية المخفية تحت التين أكثر أهمية .

وعندما طلبنا الاستقلال في منظمة حزبية خاصة بالفلسطينيين ، وجدنا ممانعة صارمة من الامين العام ، ميشيل عفلق ، وعدد كبير من أعضاء القيادة . كان هؤلاء مفرطي الحساسية ازاء شبهة الإقليمية ، او القطرية ، كما يسمون التوجه للاهتمام بشؤون قطر عربي واحد لوحده ، وقد عدّوا دعوتنا للاستقلال دعوة الى القطرية . وكان الممانعون ينطلقون من اعتقادهم بأن قضية فلسطين هي قضية العرب كلهم ، فلم يجيزوا للفلسطينيين ان ينفردوا ، دون العرب الآخرين ، بمسؤوليات خاصة إزاءها . غير أننا وجدنا ، أيضاً ، مَنْ يدعم دعوتنا بين القادة . ثم إن الحركة الناشطة على الساحة الفلسطينية ما كان من الممكن ان تظل بغير تأثير في أي حال

من الاحوال . وقد عرفت ، حتى الآن ، كيف أن المؤتمر القومي الرابع للحزب تبنى قرار انشاء جبهة وطنية فلسطينية مستقلة عن الحكومات . فالواقع ان تأييد الجميع للقرار لم ينبع من دوافع متجانسة ، فمعظم الذين أيّدوه عدّوه دعوة لاستقلال العمل الفلسطيني عن الحكومات ، وحدها ، وليس عن الجمهور العربي ومنظماته السياسية الشعبية . وبعض المصوّتين لصالح القرار انطلقوا من دوافع براغماتية صرفة فعدّوا انشاء الجبهة الفلسطينية أداة لإبعاد الفلسطينيين عن الالتفاف حول عبد الناصر . لكن الأمر لم يخل من مصوتين فهموا الحاجة العميقة لإعادة بناء الكيان الوطني الفلسطيني الخاص وايدوا القرار من هذا المنطلق . وكان من السهل ان نقع دائماً بين البعثيين الذين نحاورهم في الأمر على مؤيدين لدعوتنا ، وإن ظل هؤلاء اقلية . وظل أملنا كبيراً بإمكانية توسيع نطاق هؤلاء المؤيدين يوماً بعد يوم . وكأفراد أعضاء في التنظيم البعثي ، وكذلك كمجموعة تعمل في الاتحاد العام للطلاب ، تصرف معظمنا منذ البداية على أساس ان يوم ظفرنا بمنظمة مستقلة قادم لا محالة ، وذلك دون ان نهمل أياً من واجباتنا الحزبية في المجالات الاخرى كافة ، بل دون ان نتخلى عن حرصنا على ان نظل متفوقين فيها ، وكان من شأن هذا ان عزز ثقة مؤيدينا بنا . وفي ظني انه لولا أن الاحداث العاصفة التي تلت وقوع الانفصال طغت على الاهتمام بدعوتنا لما تأجل البث بها طويلاً بعد المؤتمر القومي الرابع ، ففي ظل الوقع السريع للأحداث وازدياد حاجة الحزب لجهودنا على الساحة السورية ، وجدنا انفسنا مثقلين بالواجبات على هذه الساحة فضلاً عن الواجبات التي نتولاها على الساحة الفلسطينية . فبالاضافة الى الاعباء المضنية ، متعددة الوجوه ، والتي نضطلع بها في سياقٍ عملية اعادة التنظيم ، كانت هناك هذه النشاطات الأكثر اضناءً التي اقترنت بالانقسامات والخلافات بين البعثيين . لقد فرضت علينا الانقسامات صراعات أكلت الكثير من جهدنا وأثرت تأثيراً سلبياً على صلتنا بالساحة الفلسطينية ونشاطنا فيها .

وها أنا ذا اتذكر حادثة طريفة بمقدار ما هي مؤذية وقعت في سياق هذا

الصراع . فقد نظمنا رحلة اشترك فيها عدد من طالبات الجامعة وطلابها ، من اعضاء التنظيم البعثي وأصدقائهم . انطلقنا من دمشق وتوجهنا الى اللاذقية وغابات الفرنلق والراس البسيط وصلنفة على أن نمضي ثلاثة ايام . وكما يحدث في مثل هذه الرحلات ، غادرنا دمشق مع الفجر ، وكانت وقفتنا الأولى في حمص التي بلغناها في السادسة وتناولنا الافطار في إحدى مقاهيها . ثم توقفنا ، ثانية ، في طرطوس وزرنا جزيرة أرواد . وبعدها ، توقفنا في جبلة حيث رحّب بنا بعثيون سوريون من آل الخير واستضافونا في منزلهم . وبتنا ليلتنا الاولى في اللاذقية . ثم توجهنا مع الصباح الى الشمال فأمضينا النهار في الغابات متنقلين من موقع الى آخر وسط تلك الطبيعة التي لا حدود لسحرها . ووقّتنا وصولنا الى الرأس البسيط بحيث نشهد غروب الشمس ونسمر في الموقع وسط الطبيعة التي تتشكل هناك في واحد من اكثر مشاهدها فتنة . وبتنا ليلتنا الثانية في اللاذقية ، أيضاً ، ثم أخذنا طريق العودة عبر القدموس والمناظر المدهشة التي تكتنف هذا الطريق . ولما بلغنا حمص رتبنا الأمر بحيث نتناول العشاء في الميماس في متنزه قائم على نهر العاصي ، ثم عدنا الى دمشق مع إطلالة الفجر .

رحلة كهذه الرحلة كان من شأنها أن توفر فرصاً عديدة للمتعة والترويح عن النفس والحوارات الهادئة وتمكننا من اجتذاب الاصدقاء الى الانضمام للحزب ، لو ان الجو السائد بين الرفاق كان طبيعياً . لكن الذي حدث بالفعل كان عكس هذا تماماً ، فبدل المتع ، لم ننل إلا الغمّ ، وبدل الحوارات الهادئة لم نتخاطب إلا متصايحين او متنابذين ، وبدل أن نجتذب الأصدقاء فقد نفّرناهم .

انقسم المشتركون الى كتل تمثل التيارات المتصارعة داخل حركة البعث ، وتجمع الذين كنّا نعدهم بعثيين ناصريين في كتلة فيما تجمع الذين نطلق عليهم صفة القطريين في كتلة أخرى . ووجدنا أنفسنا ، نحن الواقعين بين التيارين الملتزمين بالولاء للقيادة القومية ، منعزلين في كتلة ثالثة . وبرز من كل كتلة هتّاف ومغنّ ومطلق تشنيعات . وتبارت الكتل ،

عبر الهتافات والأغاني والتشنيعات الصريحة او الملغزة ، في اظهار المواقف المتمايزة وتسفيه مواقف الآخرين . كان حمدان حسين حمدان ، وهو ابن صياد السمك الطبري محسوباً وقتها على كتلة القطريين ، وكانت في صوته حلاوة استغلتها كتلته فجعلته مغنيها . وقد اختار حمدان الألحان الشائعة فادّاها محوّراً في كلماتها لتعكس موقف كتلته او تسخر منّا . واتذكر أن حمدان دأب على ترديد أغنية «ما لِي جلد ما لي ، عَ فرقة الغالي ، يا شاغلين بالي ، لا تشغلوا بالي!» ، رامزاً بالغالي الى عبد الناصر ومحوراً اللحن ليسخر من المتفجعين على فراقه . وكان سامي قنديل ، وهو من كتلتنا ، يفتقر الى حلاوة الصوت التي لحمدان ، الا أنه كان الأقدر على توظيف الأغاني للهزء من الآخرين ، فكلما انطلق حمدان في اغنية وكاد يسيطر على المستمعين ، كان سامي يتدخل فيشرع في اغنية اخرى ، يردّ بها على حمدان ويكيل للجماعة المناوئة الصاع صاعين . وكان هذا وأمثاله من مظاهر السلوك الاستفزازي يستتبع المشاحنات ويملأ وقتنا بالمنغّصات .

ولم ينته غمّ الرحلة عند هذا الحد ، بل امتدّ بعد ذلك عبر تبادل التهم بين المتنابذين وما استتبعه من استقصاءات وتحقيقات طويلة .

كنّا جميعاً ما نزال اعضاء في تنظيم واحد . وكان النظام الداخلي للحزب يحظر التكتل داخل التنظيم ويبيح للقيادة فصل أي عضو تثبت عليه تهمة التكتل . وشاء الطرف الموصوف بالقطري ان يستغل وقائع الرحلة ليستخلص منها دليلاً على اننا متكتلون فيضغط على القيادة كي تفصلنا من الحزب . وكانت قيادة التنظيم موزعة ، آنذاك ، بين القوميين والقطريين مناصفة ، اذا استثنينا محمد خليفة الذي لم يكن قد حسم موقفه بعد . وكان لمحمد صديق من اعضاء التنظيم يحبه ويؤثره هو عبدالله الصباح . وكان هذا الأخير قد غدا شديد التعصب للقطريين بمقدار ما غدا مبغضاً لعبد الناصر . وفي محاولة من عبدالله هذا لاستمالة محمد الى صفه ، عرض وقائع مشاحناتنا في الرحلة على نحو يظهر ان الأعضاء المحتفظين بالولاء للقيادة القومية تصرفوا ككتلة مستقلة وعادوا رفاقهم

الآخرين . ولأن محمد حزبي منضبط ، أو قل حرفيّ ، متشبث بالنظام الداخلي ، فقد طلب من عبدالله ان يكتب رأيه لقيادة التنظيم بدل الثرثرة في المجالس الخاصة . فاستجاب عبدالله لهذا الطلب وكتب تقريراً مفصلاً ، فكان لا بدّ من تشكيل لجنة للتحقيق في الوقائع التي أوردها كاتب التقرير . وقد تشكلت اللجنة فضمت عضواً من هذا الطرف وعضواً من الطرف الآخر وأنيطت رئاستها بالعضو الوحيد غير المصطف من اعضاء القيادة وهو محمد خليفة . وتحوّل التحقيق الى حكاية طويلة ، وانشغلت اللجنة لبضعة اسابيع به ، واستقتل كل طرف في محاولته لإدانة الطرف الآخر واثبات تهمة التكتل عليه . أما ما حسم الأمر فهو الخطأ الذي وقع عبد الله فيه في بداية تقريره ، ذلك ان المطالب باثبات تهمة التكتل علينا استهلّ تقريره بالعبارة التالية : «من دمشق الى حمص ، لم يحدث شيء» . وقد تشبثنا ، نحن ، بهذه العبارة ومدلولها ، واقنعنا محمد المتردد بأن عبارة مثل هذه لا يكتبها الا شخص كلّف مسبقاً بمراقبة ما يجري فانتبه الى أن الساعتين اللتين استغرقتهما الرحلة ، بين دمشق وحمص ، لم تشهدا ما يستحق الذكر . فمن الذي كلّف عبد الله بالمراقبة إن لم يكن التكتل الذي تثبت الوقائع الأخرى انه متورط فيه . وبميل محمد الى الأخذ برأينا ، اختل التوازن المتحقق في قيادة التنظيم لصالحنا ، وتهيّب الآخرون من متابعة الخصومة ، فخرج منهم من التنظيم مَنْ خرج واستكان الآخرون ، وأكسبتنا عبارة «من دمشق الى حمص ..» جولة مهمة ، فصرنا نردد هذه العبارة في كل مرة نواجه فيها مأزقاً ونتوخى الخروج منه ، واشتهر أمر كاتب العبارة فصار من شأن اي راغب في استفزازه بسهولة ان يواجهه بها .

ومع استغراقنا الشديد في الهموم الداخلية للحزب وغرقنا في الحياة السياسية السورية ومعارضة معظم اعضاء القيادة القومية لتخصيص تنظيم للفلسطينيين ، لم يغب هذا الهدف عن بالنا ولم نهمل المطالبة به في أي وقت . وكان هذا الموضوع يشكل جانباً من حواراتنا حين نلتقي خارج إطار الهيئات الحزبية التي تجمعنا بأبناء الأقطار الأخرى من البعثيين . ثم

جاءت بعض الحاجات العملية لتعزز موقفنا وتساعدنا على تحقيق بعض الخطوات باتجاه مطلبنا .

بدأ الأمر ببروز الحاجة الى تشكيل لجنة حزبية تشرف على شؤون الساحة الفلسطينية بالذات بعد أن اتسعت نشاطات الفلسطينيين في سورية وغيرها من البلدان وكثرت تنظيماتهم وظهر أنهم مرشحون للعب دور متزايد الأهمية في الحياة العربية العامة . وقتها ، لم تعد اللجان المشكلة للإشراف على عمل اتحاد الطلاب أو رابطة المعلمين أو رابطة موظفي الاونروا تفي بالغرض ، فتأسست لجنة حزبية عليا تشرف على الشؤون الفلسطينية عامة وتتولى إعداد الدراسات ووضع التوصيات التي يسترشد الحزب كلّه بها في عمله في مجال قضية فلسطين . وصارت هذه اللجنة تابعة للقيادة القومية مباشرة . كنت انا قبل ذلك عضواً في اللجنة المشرفة على عمل الاتحاد وفي الأخرى المشرفة على عمل رابطة المعلمين ، وصرت عضواً في اللجنة العامة التي كان مسؤولها الأعلى عضو القيادة القومية الفلسطيني خالد اليشرطي المقيم في لبنان ومسؤولها الفعلي محمد بصل . وقد لعبت هذه اللجنة دوراً تزايدت أهميته بمضيّ الوقت في تثبيت وجود مركز فلسطيني متخصص داخل الحزب واستقطاب عمل الأعضاء الفلسطينيين فيه على اختلاف مواقع اقامتهم في البلاد العربية ، وليس في سورية وحدها .

قدم محمد بصل الذي تردد اسمه كثيراً في هذا الحديث ، وهو الذي يكبرني بسنين قليلة ، الى دمشق لاجئاً اليها مع اسرته من صفد ، وكان ثاني أكبر أخوته العشرة . في صفد ، كان راعي هذه الاسرة صاحب دكان يعيل اسرته من دخلها ويتطلع الى تعليم اولاده وتأمين مستقبل افضل لهم . فلما أُرغمت الاسرة على الهجرة ، فقدت مورد عيشها وصار عليها ، كغيرها من الأسر المماثلة ، أن تتدبر أمرها كي تنهض من جديد وسط الخراب المفاجىء . واتبعت الاسرة الأسلوب الذي اتبعته أسر فلسطينية كثيرة ، فتوقف ابنها الأكبر ، أحمد ، عن متابعة دراسته وعمل سائقاً ، كما توقفت عن متابعة الدراسة الابنة الكبيرة ، واسمها عربية ، واشتغلت

معلمة في مدرسة للأونروا . وبهذا ، تمكنت اسرة محمد من النهوض من الخراب الذي حل في العام ١٩٤٨ ، وأكمل أبناؤها الآخرون ، ذكوراً واناثاً ، التعليم . وحصل محمد على علامات جيّدة في الشهادة الثانوية فأهله هذا للانتساب الى كلية العلوم حيث درس الرياضيات والفيزياء ، وكان ذلك في معمعات العمل ضد ديكتاتورية الشيشكلي ، واجتذب البعثيون محمد الى صفوفهم فصار واحداً من نشطائهم المعروفين في الجامعة . وبعد تخرجه في الجامعة ، بحث الفلسطيني الذي جاء دوره لإعالة الأسرة عن عمل ذي دخل طيب فظفر بوظيفة مدرس في احدى ثانويات ليبيا ، ووجد نفسه وهو ما يزال في مقتبل شبابه في واحة «سبها» ، بعيداً ، وسط الصحراء . ولم يقصر البعثي المتحمس نشاطه على التدريس ، بل عمل على تأسيس خليّة للحزب . وبعد سنتين ، اكتشفت السلطات الليبية تنظيماً سرياً للبعث وقادت اعضاءه الليبيين للمعتقلات ، وكان محمد وغيره من البعثيين غير الليبيين ، وبينهم الفلسطيني يسار العسكري ، في دمشق في الاجازة ، عندما كشف التنظيم ، فصار من الطبيعي ألا يعود الى حيث تنتظره أجهزة الأمن ، فبقي في سورية ، وحصل على وظيفة معلم في مدرسة اعدادية تابعة للأونروا ، وواصل نشاطه الحزبي عبر التنظيم السري الذي كان عضواً في قيادته . وقد تولّى محمد عبئاً كبيراً في عملية اعادة بناء التنظيم السوري للحزب ، فضلاً عن أعبائه الكثيرة على الساحة الفلسطينية . ولما قام هذا التنظيم وتشكلت هيئاته من جديد ، تولّى محمد ، على ما اتذكر ، رئاسة لجنة الرقابة الحزبية في القطر السوري ، وهي لجنة كانت ، وقتها ، واسعة الصلاحيات قوية النفوذ ، فتحققت لرئيسها مكانة كبيرة في الحزب . ثم جاء عمل محمد في لجنة فلسطين ، وكان هو الموجه الفعلي لعملها فتوفر له مزيد من الصلاحيات وتوسعت صلاته بقادة الحزب من مختلف المستويات . وكانت لمحمد حتى ذلك الوقت منزلة خاصة عند أهم اثنين في قيادة الحزب ، ميشيل عفلق وصلاح البيطار . وقد استفادت لجنة فلسطين من مكانة محمد الخاصة كما استفادت من الوضع المتميز للبعثيين الفلسطينيين كلهم ، ففرضت نفسها

لجنة موجهة للعمل الفلسطيني للحزب ، وليس مجرد هيئة استشارية .

ولأمر ما ، وجدني محمد بصل ، كما سبق ان ذكرت لك ، شخصاً يمكن الركون اليه ، وما كدنا نتعارف حتى صرت واحداً من الذين يلتقون به يومياً ، في ظروف العمل العام وفي الظروف الخاصة . وعبر العمل المشترك ، في الحزب ، وفي الفرع ، توثقت علاقتي بمحمد وزادها وثوقاً تقارب الأمزجة في كثير من الشؤون الخاصة . وكان هذا البعثي الفلسطيني يفوقني خبرة ومعرفة تمتد علاقاته المتنوعة في ساحات اوسع من التي ألفتها أنا ، وقد استفدت من هذا كله ومن حرصه على توفير فرص الخبرة لي وزيادة حظي من المعرفة وتوسيع علاقاتي في أكثر من مجال .

كنت أمضي نهاراتي في متابعة المشاغل التي أتولاها ؛ أغادر مسكني في السابعة والنصف لابدأ عملي في المدرسة في الثامنة صباحاً وأبقى فيها حتى منتصف النهار حين يحل وقت استراحة الغداء التي استغلها ، غالباً ، في الجري لأداء مهام عاجلة او الذهاب الى الجامعة ومتابعة محاضرة مهمة . وفي الثانية بعد الظهر ، أكون في المدرسة من جديد وآتابع العمل حتى الثالثة والنصف ، حين يبدأ الوقت الذي اوزعه بين واجباتي في التنظيم الحزبي وفي «الطليعة الطلابية التقدمية» التي شكلها الحزب في الجامعة والمدارس الثانوية وطلب منا أن ننضم إليها جنباً إلى جنب مع الطلبة البعثيين السوريين واصدقائهم ، ثم اتوجه بعد ذلك الى مقرّ الفرع حيث الأعباء الكثيرة التي أتولاها بصفتي عضواً في قيادته ، والمواعيد الكثيرة التي اعقدها لتصريف شتى المهام الأخرى .

كنت اتوجه الى مقرّ الفرع في وقت مبكر من كل مساء وأبقى فيه أربع او خمس ساعات . وهناك ، كانت تنعقد حلقات الجدل اليومي التي تناقش شتى الشؤون العامة . ولأن الساحة السياسية كانت تموج بالصراعات وتتميز بالتطورات السريعة ، فإن حواراتنا كانت ، دوما ، ساخنة . ولم تفتقر هذه الحوارات أبداً الى الموضوعات التي تجعل الجدل حادّاً وصاخباً . كان هناك موضوع الانفصال والتباينات العديدة بين مؤيديه

ومعارضيه ، بين الداعين الى عودة الوحدة دون شروط والداعين الى تقييد عودتها بشروط تتوفر فيها الديمقراطية والتكافؤ بين الاقطار الداخلة فيها . وكانت هناك ، أيضاً ، الاجراءات المتعاقبة لحكم الانفصال والتبدلات المتواترة داخل الحكم والصراعات الظاهرة والخفيّة بين ناسه وانعكاسات ذلك كله على احوال البلد وردود فعل مختلف القوى ازاءه . كانت نيّة جماعة الانفصال في الغاء المكتسبات الاقتصادية والاجتماعية التي تحققت في عهد الوحدة واضحة ، ولكن اجراءاتهم في هذا المجال كان مقدراً لها أن تصطدم بمعارضة قوية يتولاها الوحدويون على اختلاف تياراتهم وينخرط فيها بعض مَنْ أيدوا الانفصال ذاته وخصوصاً الشيوعيون . وقد ألغى عهد الانفصال تأميم البنوك والشركات الصناعية الكبيرة وشرع في إعداد الخطط لإلغاء قانون الاصلاح الزراعي وتبديل قوانين العمل ، فاهاج القوى المعارضة والغالبية الكبيرة من الجمهور وحفزها على النشاط ضده . وكانت هناك الصراعات بين عسكر العهد وسياسييه ، بين الراغبين في الهيمنة بوسائل ديكتاتورية والمتطلعين لإقامة نظام برلماني ديمقراطي ، وكذلك الصراعات داخل كل جانب ، بين متضاربي الطموحات والتطلعات من العسكريين المتنفذين انفسهم وبين مختلف الكتل والقوى السياسية متعددة المصالح . وفي سياق هذه الصراعات ، المتعددة والمتداخلة ، كانت وقائع جديدة تقع في كل يوم تقريباً وتشغل حواراتنا وتجتذبنا الى الانخراط في دوامتها وتحفزنا على النشاط . وقد تأسس لدينا انطباع راسخ بأن عهد الانفصال غير مستقر وغير قابل للاستمرار ، فكنا نتعامل معه بوصفه عهداً عابراً لن يلبث أن يتبدل . وكان هذا يحفزنا على مزيد من النشاط ويدفع جلّ حواراتنا نحو استشراف المستقبل ومحاولة استقراء معالم البديل القادم .

وإذا كان الفلسطينيون قد وقفوا بأغلبيتهم الساحقة ضد الانفصال ، وإذا كان النشطاء منهم قد انخرطوا بعزيمة قوية في مقاومة اجراءاته ، فانهم قد اختلفوا بشأن المستقبل . لم يتعلق الامر ، هنا ، بالاختلاف حول طبيعة الوحدة المأمولة ولا حول طبيعة الديمقراطية المطلوبة ، بل تعدى هذا وذاك

إلى الاختلاف حول طبيعة المساهمة الفلسطينية في الحياة العامة . وفيما بقي القوميون العرب من الفلسطينيين عند موقفهم القائم على أساس عروبة معركة تحرير فلسطين ، راح الموقف الآخر الداعي الى إبراز الشخصية الفلسطينية يتعزز ويكتسب مزيداً من المناصرين . وكانت أماسي المقرّ المحتشد ، عادة ، بزواره تشهد الجدل بين ممثلي التيارين والآخرين ممن يقفون بينهما أو على أطرافهما . وكانت تلك ، بالنسبة لي ، مدرسة تعلمت فيها الجدل في السياسة . وكنت ، كما ينبغي أن أصارحك ، معدوداً بين المتميزين في هذا الجدل . وقد اشتهرت بأني واحد من ذوي الألسنة الحادّة في التشنيع على الخصوم . وتميز سلوكي بمفارقة لم اتمكن من التخلص منها الا بعد انقضاء سنوات عديدة ، ذلك أني كنت ، على العموم ، جمّ التهذيب حين يتعلق الأمر بالعلاقات الشخصية واللياقات الاجتماعية الخاصة ، أما في الشأن السياسي فكنت ، بوجيز العبارة ، قليل التهذيب . وكان يطيب لي حين انخرط في الجدل أن أداهم محاوريّ مداهمة ، فلا أراعي احداً ، ولا أجامل ، ولا اقيم وزناً لأي حسابات . خاصمت دعاة الوحدة الفورية بمقدار ما خاصمت الانفصاليين ، وخاصمت ، أيضاً ، أصحاب شعار الوحدة العربية هي طريق تحرير فلسطين مثلما خاصمت اصحاب الشعار المغاير : التحرير طريق الوحدة ، وتبنيت الرأي الذي يقول إن الوحدة والتحرير عمليتان متكاملتان وان العلاقة بينهما ديالكتيكية . ولكني هاجمت اصحاب هذا الرأي بدعوى انهم لا يتقنون التصرف على أساسه . وشنّعت على الذين يروجون لفكرة المستبد العادل ويرون ان عبد الناصر هو هذا المستبد العادل ، مثلما شنّعت ، أيضاً ، على الذين يتصورون الديمقراطية انفلاتاً لا تقيده روابط ولا تحدده حدود . وتبنيت الرأي الذي يقوم على أساس ان الديمقراطية مرتبطة بمدى التطور الاجتماعي ، وان شنّعت على اصحابه بأنه لا يجيدون قراءة مجريات هذا التطور واستخلاص مدلولاته . وكنت أجدني في خصومة مع الذين يدعون لاستقلال العمل الفلسطيني عن العمل العربي والآخرين الذين يطالبون بذوبان الوطني الفلسطيني في القومي العربي لاتبنى الموقف الذي يرى

أصحابه ان على الفلسطينيين ان يتولوا زِمام المبادرة في عملية تحرير وطنهم دون ان يعني هذا ان العرب الآخرين مُعْفون من أعباء العملية . وقد تتصور بهذا أني كنت انساناً وسطياً أو واحداً من الذين يولّفون بين الأفكار المتباينة ، إلا أني كنت في واقع الأمر أقلّ شبهاً بالوسطيين مما انا بالمتطرفين ، بل اني كنت ، بمعنى من المعاني ، متطرفاً ، اتحمس للفكرة التي احملها اشدّ الحماس وآبى ان أقرّ بصواب غيرها واستقتل في سبيل تعميمها او قل فرضها على الآخرين . وعليّ أن أقرّ بأن سلوكي في هذا المجال لم يكن يتسم بالحدّة وحدها ، بل بالفظاظة ، أيضاً . ومن اسوأ مظاهر هذا السلوك ان نفور الآخرين من طريقتي في عرض ما أُومن به ما كان يحنقني ، بل كان ، في أغلب الأحيان ، يستهويني لأني استدل منه على اني شخص متميز واقارن نفسي بأصحاب الدعوات الكبيرة في التاريخ من الذين نفر الناس من دعواتهم في البداية ثم استجابوا لها بعد ذلك ، وأمنّي نفسي بأن مَنْ لا يفهمني اليوم سوف يفهمني غداً ويقرّ بألمعيّتي!

وما أن كانت ساعات المساء الاولى تنقضي ، حتى يكون الجدل قد أمضّ كل المشتركين فيه ، اتعبهم ، وذلك ، في الغالب ، دون ان يتوصلوا الى التفاهم النهائي حول أي شيء . عندها ، كنّا نتفرق الى جماعات تضم كل واحدة منها الأصحاب المتجانسين . وحين يتوفر طقس ملائم ، وخصوصاً في الأماسي الدافئة ، كانت جماعتنا تتوجه من مقر الفرع سيراً على الأقدام الى ساحة الأمويين . هناك ، في زاوية الساحة من الناحية المقابلة لمبنى وزارة الدفاع ، أقام رجل اسمه أبو أحمد ما يشبه مقهى رصيفياً . وكان هذا المقهى يضمّ دكة خشبية ، يضع ابو احمد عليها ما يلزم لإعداد الشاي والقهوة ، وينثر حولها كراسي متواضعة . وكان رواد هذا المقهى اصنافاً من الناس الذين يشغلهم شأن ما عن النوم المبكر فيجيئون الى المكان يستروحون النسائم المنعشة ويقضون الوقت بأقلّ كلفة . كان بين رواد هذا المقهى امثالنا من المهمومين بالسياسة والشؤون العامة ، كما كان منهم باحثون عن مكان منعزل يدخنون فيه ما لا يستطيعون تدخينه في الأماكن العامة . وكانت جماعتنا تتحلق في ركن من الرصيف يبعدها عن

صخب الحشاشين ويهيىء لها أن تتداول ما يطيب لها من الأحاديث بعيداً عن أعين الفضوليين والمراقبين وآذانهم . وقد الف ابو احمد ان يخصّ جماعتنا بمعاملة متميزة . فالرجل الذي الجأه افتقاره لرأسمال الى هذا النوع من الترزق وجعله مضطراً لأن يغض النظر عما يفعله بعض الزوار مما هو مخالف للقانون كان يجد في تردد جماعة المتعلمين على مقهاه ما يضفي على المكان الاحترام الذي يفتقر إليه بدونهم ، فكان يبذل قصارى جهده كي لا يزعج خلوتنا أي مزعج ، فيذبّ عنا المتطفلين ، وينبهنا الى وجود المخبرين حين يؤمّ أحدهم المكان ، ولا يلح علينا لتكرار طلبات الشاي والقهوة حين نجلس ساعات مديدة دون أن يطلب الواحد منّا سوى كوب واحد . وكان أبو أحمد ، نفسه ، لا يجيء الى ركننا إلا حين نطلبه نحن ، ولا يذكرنا بضرورة دفع الحساب الا حين نبادر نحن إلى ذلك ، ولا يحملنا على مغادرة المكان حتى لو استمرت قعدتنا فيه الى وقت متأخر . وعلى كثرة ما ترددنا على هذا المكان ، لم نعرف عن الرجل الا اسمه ، أما هو فلم يبد عليه انه معني حتى بمعرفة أسمائنا . وكان في هذا كله ما جعل مقهى الرصيف محط راحتنا المسائية كل يوم ، كلّما أسعف الطقس .

أما حين لا يكون الطقس مسعفاً ، أو حين يحول طارىء دون توجهنا الى الساحة التي تقوم فيها دار الاذاعة والتلفزيون بجانب وزارة الدفاع ، كأن تكون هناك اضطرابات ساخنة في البلد او استنفارات عسكرية ، فكنا نلتقي في منزل واحد منّا ، وغالباً ما يكون ذلك منزل محمد بصل ، في بستان الحجر . هناك ، كان محمد وأهله يوفرون لنا جواً طيباً للسهر ، كما كان بإمكان بعض الصديقات اللواتي يترددن في الذهاب الى مقهى الرصيف ان ينضممن الى السهرة . وفي سهرات المنزل ، كان الاهتمام بالشؤون الثقافية يخترق اهتمامنا المزمن بالشأن السياسي . فكنا نستمع الى الموسيقى والأغاني ونقرأ الشعر ونتحاور حول ذلك كله . كان محمد يقتني كمية محترمة من الاسطوانات والأشرطة ، فكنا نتعرف عنده على عالم الموسيقى الكلاسيكية الذي نجهل عنه الكثير ، وكان هو يترجم لنا الشروح المطبوعة على أغلفة الاسطوانات فنرانا وقد صرنا من المتبحرين في

معرفة غوامض هذا العالم الساحر . وكنّا نستمع خصوصاً الى اغاني فيروز والرحبانيين ، نستعيد قديمهم ، ونتابع جديدهم ، ونتحمس لما يقومون به من تجديد للفلكلور ونرى فيه مستقبل الموسيقى العربية الذي تتوخاه . كما كان محمد حريصاً على اقتناء دواوين الشعراء المعاصرين ، وخصوصاً الحديثين منهم . وكان يجتذبنا السياسي من شعر عمر ابو ريشة ، والغزلي من شعر نزار قباني . أما بدر شاكر السيّاب فصار الساحر الذي يهيمن على جلساتنا الثقافية هذه فيطلق اخيلتنا على أمدائها الواسعة فنستشرف شواطىء الخليج ونتمايل مع النخيل في بساتين العراق ، ونهيم مع الغيوم وننشط لإيقاع المطر ونستحضر جيكور وغوامضها ولا ينتهي إعجابنا بهذا كلّه . وكنّا في هذه الجلسات نتداول آخر ما ينتجه الشعراء البعثيون ، فنثور مع ثوران يوسف الخطيب ، ونحلق مع سليمان العيسى في اجواء الوطن الكبير ، ونطرب لايقاعات احمد عبد المعطي حجازي وهو يحثّ الثوّار على ان لا يترددوا في الدوس فوق وجوه احبائهم على ان يذكروهم بعد النصر ، حين لا يكون من ذلك بدّ . وفي غضون ذلك ، كنّا نتمتع بالضيافة غير المهملة التي توفرها لنا سيّدة الدار ، ام احمد ، او ام حميد كما الفنا أن نناديها . كانت هذه المرأة التي مات زوجها قبل سنوات والتي ترعى اسرة لها هذا العدد الكبير من البنات والأبناء لا تتوقف عن العمل في المنزل ، لا في النهار ولا في الليل . وكان لضيوف محمد منزلة خاصة في قلب الأم ، فهي تخصهم بالمودة وتفرح حين تمتعهم بأجود ما تعدّ من مأكولات وتغض النظر عن هذا الكحول الذي حرّمه الله والذي يشربونه بحضورها هي المؤمنة . ولا شك في أن أم حميد كانت تدرك ان لابنها واصحابه شأنهم الذي يميزهم عن اللاهين من مجايليهم ، شأناً يشبه في يقينها أن يكون رسالة عليا غامضة يتولونها هم ويعرفونها وإن كانت هي نفسها لا تعرف ابعادها . وكانت أم حميد تدرك تميز ابنها بالذات وسط هؤلاء المتميزين الذين يؤمّون داره فيزيدها هذا إعجاباً بالابن المتمتع بالمكانة الخاصة كما يزيدها حرصاً على الاحتفاظ باصحابه حوله وتوفير كل ما تقدر على توفيره مما يجتذبهم ويسعدهم . وكان في هذا شيء مما يرضي كل

واحد منّا ويوفر له التعويض الملائم عن شيء افتقده او يفتقده في محيطه العائلي . ولذا ، فقد محضنا ام حميد مودة خاصة وانطبع اسمها وحضورها في ذاكرة كل واحد منا ووجدانه . وعندما صدرت الترجمة العربية لكتاب «الأم» لمكسيم غوركي وقرأناها ، تذكرنا ام حميد وقارنّاها بأم غوركي الطيبة ، الحادبة ، الباسلة ، التي نذرت نفسها ووقتها لخدمة الثوار حتى قبل ان تتعرف على طبيعة قضيتهم .

شيء آخر مهم كنّا نفعله في لقاءاتنا المسائية ، وذلك هو تبادل الآراء والمعلومات حول الكتب التي نقرأها ، وتبادل الكتب ذاتها ثم مناقشة محتوياتها بعد أن نقرأها . لقد شجعني هذا على التوجه الى حقل جديد عليّ في المطالعة ، فانصرفت الى قراءة الكتب السياسية والفكرية . كنت أشتري من هذه الكتب ما أقدر على شرائه ، وأستعير غيرها من مكتبة محمد العامرة بهذا النوع من الكتب او من مكتبات الاصدقاء الآخرين ، والتهمها التهاماً . كان من الطبيعي ، وأنا في اول عهدي بعضوية حزب قومي ، ان اهتم بقراءة كتب المؤلفين القوميين . وقد قرأت من هذه ، بالفعل ، الكثير ، حتى كتب زكي الارسوزي ذات الصبغة القومية المتعالية والمثقلة بالفذلكات اللغوية الجافة قرأتها . ثم عرفت ، بتشجيع من زملاء اللقاءات ، وأخصهم محمد ، الكتب الماركسية ؛ واتذكر ان اول ما قرأته منها ، أو ما بقي في ذاكرتي مما قرأته ، هو كتاب كارل ماركس المتميز «١٨ بروميير» الذي استهواني فألفت أن اعيد قراءته كلما وجدتني بازاء أحوال عامة مضطربة ومتردية . اما لينين ، فكان اول ما قرأته له هو الكتاب الذي دفع محمد اليّ به ، وهو كتاب « من هم أصدقاء الشعب» . وقد صرت ، بعد ذلك ، ابحث عن كتب لينين فلا أقرأها فحسب ، بل أخصص أوقاتاً انصرف فيها الى دراستها ثم أدلّ على الأقران بترديد ما استخلصه لنفسي من مضامينها .

في بعض اللقاءات ، كنّا نستضيف زواراً طارئين ، وغالباً ما يكون هؤلاء من قادة الحزب ، أو كتّاباً ، او فنانين من أقطار عربية متعددة قدموا الى دمشق لشأن او لآخر ، او من المحاضرين في شتى الشؤون الذين يستضيفهم

الفرع للتحدث أمام أعضائه . بوجود هؤلاء ، كان الحديث يتركز حول الشأن الذي يختص به كل واحد منهم . وقد كان وجودهم فرصة تتهيأ لي كي اشارك في حوارت معمّقة وأظهر أمام الحاضرين الشأو الذي قطعته في المطالعة والآراء التي أظن أني ابتكرتها وأني أدهش مستمعي بعرضها واكتسب إعجابهم . في مثل هذه اللقاءات ، تعرفت على قادة في ميادين السياسة والفكر ، من لبنان والاردن والعراق ومن السودان ومصر والمغرب العربي فتهيأ لي ان اراكم معلومات كثيرة وأوسّع دائرة معارفي ، في الوقت ذاته .

لقد هيأ لي هذا كلّه وضعاً يندر أن يتوفر لمن كان في مثل سني من الذين لم يخوضوا التجربة ذاتها . فقد أتيح لي ، وأنا ما ازال في السنوات الأولى من عقدي الثالث ، أن أعرف عدداً كبيراً من صناع السياسة وقادة الفكر في البلد والبلدان العربية الأخرى وان اتابع مجرى الحركة الثقافية فيها . وصرت ، في هذه السن المبكرة ، جليساً لناس النخب ، وصار لي صدامات مع كثير منهم . ولم يكن أمراً قليل الشأن أن اجدني ، أنا المعلم الشاب الطالب في الجامعة الذي لم يتخرج بعد ، وقد صرت ذا دالة على نجم سياسي كصلاح البيطار أو شاعر مشهور كيوسف الخطيب ، أو أمين لسرّ القيادة القطرية كحمود الشوفي ، أو عضو متنفذ في القيادة في العراق كعلي صالح السعدي ، او أديب ذي اسم لامع كصدقي اسماعيل ، او قائد مغربي شعبيّ كبير كمحمد البصري أو عبد الرحمن اليوسفي ، أو رئيس محترم للاتحاد العام للعمال كخالد الحكيم . ولا كان قليلاً أن اعتاد على التصرف مع هؤلاء وامثالهم بندية واتعامل معهم دون تهيّب! لقد كان في هذا ما لا يمكن نكرانه من المزايا التي حظيت بها انا الشاب المتطلّع الى التميّز والمحتاج اليه تعويضاً عما عانيته من حرمان . غير أن هذا التميز ، على ايجابيته ، في بعض وجوهه ، اقترن ، في وجوهه الأخرى ، بتأثيرات ضارة تركت بصماتها على شخصيتي الى وقت مديد . فهذه الشخصية ، الحادة في الاساس ، اكتست بحدّة اضافية ، مبعثها هذا النوع من الغرور الذي لا يقر المسكون به بوجوده ، وصرت اتصرف مع مَنْ اعرف ومَنْ لا

اعرف من الناس بنوع من التعالي البغيض ، وأصرّ على ان يدرك هؤلاء اني اعرف ما يعرفون واكثر واحيط بما لا يحيطون به من اسرار وافتي بفتاوى قاطعة واتعصب لها حتى حين يكون جلسائي من كبار المختصين في الشأن الذي اتنطح للافتاء فيه ، ثم لا اقيم وزناً لما يشعر الآخرون به ازائي . وكان مما يزيد في غروري المستبطن ، وبالتالي في غلظة تصرفاتي ، اني كثيراً ما جهرت بفتاوى يتضح لي ولغيري انها صائبة ، في مواجهة فتاوى يدلي بها ذوو مقامات رفيعة ويتضح انها خاطئة .

في ذلك الوقت ، توثقت معرفتي باثنين من رفاق التنظيم البعثي ، فصار لكل منهما تأثير على مجرى حياتي .

أول الاثنين هو نافع ع . أُحجم عن ذكر اسمه الصريح لأن أحواله تبدلت كلية ولم أعد أعرف شيئاً عنه ، وقد يسوؤه أن أذكر ، الآن ، ما كان من أمره في تلك الأوقات . ينحدر نافع من أسرة كان أفرادها عبيداً عند بعض الأسياد الفلسطينيين ، في العهد العثماني ، وظلوا كذلك الى أن حررتهم القوانين من العبودية دون أن تحررهم من الفقر . وقد جاهد أبو نافع جهاداً يصعب وصف قسوته كي يوفر لهذا الابن فرصة التعليم . وكان الابن ، كما ينبغي أن يقال ، نابهاً ، كما كان مجتهداً ، فاستطاع أن يجتاز مرحلة التعليم الثانوي بنجاح ويحصل على درجة متفوقة . وفي غضون ذلك ، اجتذب التنظيم السري لحزب البعث في الضفة الغربية التلميذ المتفوق . وما أن ظفر هذا التلميذ بالشهادة الثانوية حتى كان قد صار واحداً من نشطاء هذا التنظيم في الحقل المدرسيّ . وقد عمل نافع لبعض الوقت مدرساً في احدى مدارس الضفة الغربية ، ثم اشتد توقه الى مواصلة التعليم ، فغامر بالمجيء الى دمشق منذ صار التعليم في جامعتها مجانياً ، وأمل في ان يجد في دمشق عملاً يمكنه من الانفاق على نفسه خلال السنوات الاربع التي سيمضيها في قسم اللغة العربية في كلية الآداب . وتميزت شخصية هذا الفتى بجاذبية خاصة جعلته محبباً لدى كل مَنْ عرفه . وكان في قامة نافع الرشيقة وتقاطيع وجهه المتسقة وسواد لونه الصافي صفاء مدهشاً وصوته المعجون بالمودة وعينيه المشعتين بالذكاء

والتفهم ما يعزز الجاذبية التي يتمتع بها ويجعل له حضوراً قوياً في اي مجلس ينضم إليه . وكان نافع ، الى هذا ، جمّ التهذيب ، دون تصنع ، ظاهر المرح ، دون خفّة ، سريع المبادرة الى خدمة الآخرين والاهتمام بشؤونهم ، دون تبذل . وقد تعود نافع الاقتصاد في كل شيء ؛ فهو يقوم بما ينبغي عمله دون افراط ، ويقول ما يستلزم الموقف قوله دون امعان في الثرثرة ، يستوي في ذلك ان يتناول حديثه شؤوناً خاصة أو شؤوناً عامة . وكان الفتى كتوماً بمقدار ما كان أميناً ، وذلك دون أن يكون متزمتاً ؛ وبين جميع مَنْ عرفتُ ، كان نافع أصلحهم للائتمان على الأسرار واقدرهم على صيانتها . أما حين يتعلق الأمر بالإصغاء فإن نافع كان مستمعاً صبوراً ، فضلاً عن أنه متفهم ؛ وكان فيه هذا الشيء الخاص الذي يتحلى به عدد قليل من الناس فقط ، والذي يشجعك على ان تبوح له بما تختزن من هموم فلا تحسّ بالحرج ، فيخفف عنك بمجرد اصغائه إليك ومواساته لك ، او يشير عليك بما قد يزيل أسباب المعاناة . وعلى نضوب موارده المالية وعوزه الشديد ، كان نافع أنوفاً وكانت انفته تدفعه الى اخفاء ضائقته ؛ فقد يمضي اليوم ، أو الأيام ، دون قرش في جيبه ودون أن يظفر بوجبة ملائمة ، فلا يشكو ولا يظهر عليه أن لديه ما يشكو منه . جلب نافع معه من الضفة بذلة واحدة وبنطالين وعدداً قليلاً من القمصان وحذاء واحداً يسعى به في الصيف والشتاء . بالرغم من ذلك ، ما كانت العين تقع على نافع في اي وقت من الاوقات إلا وملابسه في اتم نظافتها وأناقتها ، كان يغسلها ويكويها بنفسه ولا يضنّ بالوقت اللازم لابقائها صالحة . وبالإجمال ، كان في نافع ، في سلوكه وطباعه ، الكثير مما افتقده في نفسي .

عندما تعرفت على نافع ، كان قد خسر منذ مدة عمل وكيل معلم وتعذر عليه الحصول على عمل آخر واستنفد مدخراته وساءت احواله مما اقتضى ان يهتم التنظيم الحزبي بشأنه . وكان هذا التنظيم افقر من أن يعيل نافع وان اظهر الجميع حرصهم على ان يتمكن هذا العضو النشيط من متابعة تعليمه في الجامعة . وقد تمكن التنظيم من أن يوفر لنافع بعض الدعم شهراً وآخر دون ان يدبر له حلاً دائماً . في غضون ذلك ، توثقت

علاقتي بنافع واجتذبتني اليه مزاياه العديدة ، ثم حدث ان قررت ، من جانبي ، ان اترك الحجرة التي اقيم فيها عند ملفينا . وكما سبق ان رويت لك ، فعلت هذا لأن تدخل العجوز في شؤوني الشخصية ازداد حتى شكل قيداً على حركتي ولأن اقامتي في حيّ القصور كانت تبعدني عن مراكز النشاطات المتعددة التي اتولاها . وهكذا ، توجب أن أبحث عن سكن جديد اقرب الى هذه المراكز . هنا ، اقترح محمد بصل ، المهتم بشأن نافع بحكم صداقته له وبحكم مسؤوليته التنظيمية ، أيضاً ، ان أشرك نافع في سكني الجديد . كان لدي دخل منتظم هو راتبي من الاونروا ، وكان اهلي قد جددوا رفضهم أي اسهام مني في ميزانية الاسرة ، فكنت ، اذن ، قادراً على مساعدة هذا الصديق ، دون عناء . وقد اقتضى اقتراح محمد ان أتولى انا دفع اجرة المسكن وما يقترن به من نفقات اخرى فيتمكن نافع من متابعة الدراسة دون ان اتكلف انا تضحية لا اقدر عليها . ولما كان نافع شديد الحساسية ازاء الإثقال على الآخرين فقد تواطأت مع محمد على ايهام نافع بأن التنظيم هو الذي يدفع حصته من نفقات سكننا المشترك .

سكنّا ، نافع وأنا ، في منزل في حيّ الشعلان غير بعيد من حديقة السبكي ، وبهذا أقمت في نقطة تتوسط المسافات بين مقرّ الفرع والمدرسة التي اعمل فيها والجامعة . كان المنزل من الطراز القديم وهو مكون من طابقين صغيرين . وكان اصحاب المنزل يشغلون طابقه الأول ويؤجرون ثلاث حجرات يضمها الطابق الثاني . وقد شغلت مع نافع أكبر هذه الحجرات ، وكان رفيق بعثي قد شغل حجرة قبلنا ، وهو الذي دلّنا على المنزل ، واستدرجنا رفيقاً آخر ، اردنياً ، لاستئجار الحجرة الثالثة ، فاقفلنا الطابق على ما يفترض أن يحتويه من أسرار الحزب . هنا ، اختلف الأمر عن منزل ملفينا . فقد وجدت نفسي مقيماً مع اسرة كبيرة العدد كثيرة الصخب . كان أبو الياس ربُّ هذه الأسرة شرطياً أمضى في الخدمة اربعين سنة متصلة قبل ان يتقاعد . وقد تزوج أبو الياس في شبابه امرأة أنجبت نصف دزينة من البنات والبنين . وبعد وفاة الزوجة الاولى ، تزوج ابو الياس ثانية وصار أولاده تسعة . ولم يكن للشرطي من مورد يعيل به هذه الأسرة

الكبيرة الا راتبه التقاعدي الضئيل وأجرة الحجرات الثلاث . وكان هذا الرجل الذي شهد في حياته سنين صاخبة قد انتهى الى استمراء السكينة ولم يعد له مما يشغل باله سوى انتظار النهاية ، فيما أوكل شؤون المنزل والاولاد الى زوجته أم جورج . وكانت أم جورج هذه على النقيض من زوجها في كل شيء إلا في حبّها له . كانت الزوجة التي تصغر زوجها بما لا يقلّ عن عشرين سنة شعلة دائمة الاتقاد ، تصحو مع أول الضوء فتحضر ما يحتاجه الاولاد للتوجه الى مدارسهم ثم تهيىء النرجيلة لزوجها وترتب قعدته عند مدخل المنزل . وحين يخلو المنزل من الاولاد ويستسلم أبو الياس لدخان النرجيلة ، كانت ام جورج تجد الوقت لاتمام أعمال المنزل الكثيرة ، تنظف حجرات الطابق الثاني ثم تنصرف الى مطبخها في الطابق الأول فلا ينتصف النهار إلا وقد أنجز كل شيء على أحسن ما يرام وتوشح المنزل ، أسفله وعاليه ، بالنظافة . عندها ، يجيء وقت الاعمال الأخرى ، الغسيل ، ورفو الملابس وكيها وما الى ذلك مما تنجزه ام جورج قبل عودة الاولاد من المدارس . وفي الأماسي ، تشرف أم جورج بنفسها على دروس الأولاد وتتأكد من اتمامهم للواجبات المدرسية وحفظهم للدروس . كل هذا تؤديه ام جورج ، وتكرر أداءه ، يومياً ، دون ان تتذمر أو تفقد مرحها أو يبهت اهتمامها بحاجات زوجها ومزاجه ، ودون ان تضايق أياً من مستأجري الحجرات .

وقد وجد نافع الوسيلة الأنجع والأكثر ملاءمة لطبعه لإقامة أحسن العلاقات مع أهل المنزل ، اذ تطوّع بمساعدة الاولاد في دروسهم واجتذبني للمشاركة في هذه المهمة ، فاسعد هذا أم جورج سعادة لا حدود لها ، وحملها على أن تضاعف الاهتمام بحجرتنا وتخصنا ، بين وقت وآخر ، بشيء من الأطباق التي تعدها ، ولا تني عن الإشادة بأريحيتنا وطيب أخلاقنا .

ولأمر ما ، كان ابو الياس ، الذي لا تستهويه السياسة عادة ، مولعاً بعبد الناصر ، حتى لقد اطلق اسم جمال على واحدة من بناته بعد ان طال انتظاره لذكر يسميه بهذا الاسم . لم يكن هذا تعصباً من الشرطي المتقاعد

لأحد ضد أحد ، ولا انحيازاً لجهة ضد أخرى ، ولا انجذاباً الى منهج ضد سواه ، بل كان ، كما يقول ابو الياس نفسه ، حبّاً خالصاً للقائد الجريء الذي عمل على أن يرفع رأس الشعب عالياً . وحين كان صالون المنزل الذي هو مدخله ، أيضاً ، يضمنا جميعاً ونحن ندرّس الاولاد ، كان أبو الياس يتركنا لحالنا ويجلس مع نرجليته بجانب الراديو ويلتقط نشرات الاخبار ، وما كان يهمه من هذه إلا الأخبار المتعلقة بعبد الناصر ، واغلب الظن انه ما كان يستمع الى غيرها . وكثيراً ما حاولنا أن نستدرج هذا المتعلق بعبد الناصر الى المناقشة مؤملين أن نستقصي سر هذا التعلق ، فلم ننجح في اخراجه عن صمته . وكل ما أمكن أن نسمعه من آراء الرجل عبارة ألف أن يرددها لنفسه بعد استماعه لخبر عن عبد الناصر : «اذا لم يفلح هو فلن يفلح زعيم غيره» .

مصاحبتي لنافع أفادتني في مجالات عدة . فقد نمّى نافع لدي عادات الاهتمام بنظافة ملابسي واناقتها ، انا الذي كنت اعتمد على ملفينا ثم صرت ، بعدها ، شديد الاهمال لما يتعلق بالمظهر الخارجي . واستفدت استفادة عظيمة من قدرة نافع الخارقة على تنظيم الوقت ، هو الذي يعرف كيف يؤدي التزاماته الكثيرة بانتظام ودون تداخل . أما الفائدة ، او الفوائد ، الأعمق غوراً والأشد تأثيراً ، فجنيتها من احاديث نافع عن الضفة الغربية وناسها . وكان لدى نافع ، من هذه الناحية ، معين لا ينضب من الخبرات والمعارف . وقد اختزن سليل أسرة العبيد كنوزاً من الصور والوقائع والحكايات . وكان لدينا دائماً أوقات الاصباح التي لا يتوجب أن نهرول فيها الى العمل او الجامعة والأماسي المتأخرة التي تجمعنا قبل الانصراف الى النوم . فكنت استمع من نافع الى ما يوسع اطلاعي على أحوال الشعب الذي انتمي اليه والذي ابعدتني عنه دروب المنفى الإجبارية . وكان لسان صديقي ، الذي هو في العادة قليل الكلام ، ينطلق ببراعة ، ملبياً حاجتي للتعرف على أدق التفاصيل عن الحياة في فلسطين . وعبر أحاديث نافع ، عرفت عن شؤون سكان الضفة ، اللاجئين والمقيمين ، أكثر مما عرفت عبر أي مصدر آخر ، وأحطت بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية

والثقافية ، كما أحطت بدقائق الشؤون السياسية وما طرأ عليها من تطورات منذ اللجوء . وكان في ما يحكيه نافع شيء مختلف عما أحفظه من حكايا جدّي عبد المجيد . صحيح ان الجد حكى لنا الكثير وأمعن في تصوير الدقائق والتفاصيل ، الا ان حكايا الجد تلونت ، في الغالب ، برغبته في توجيه ولاءاتنا ومشاعرنا نحو هذا أو ضد ذاك ، وقد شاء الجدّ عبر حكاياه أن يبصّرنا بما ينبغي ان يكون عليه سلوكنا ومواقفنا . أما نافع ، بعلمانيته الراسخة وبصيرته النقادة ، فكان يقدم وصفة لما هو قائم بهدف تعميق معرفتي به ، وكان يخضع مشاهداته للنقد المتعمق فيمتّن ادواتي النقدية ، في الوقت ذاته . وقد تميّز نافع بشدة عنايته بالشعر الفلسطيني ، وهو يعرف المشاهير من الشعراء مثلما يعرف المغمورين ، ويحفظ تراجم حيواتهم والأدوار التي قاموا بها في الساحة الثقافية والساحة الوطنية ، كما يحفظ كمّاً هائلاً من انتاج الجميع . ومع نافع ، اتيح لي أن أعرف أشعار مطلق عبد الخالق وحسن البحيري وعبد الرحيم محمود وابراهيم طوقان وعبد الكريم الكرمي «أبو سلمى» وفدوى طوقان ومعين بسيسو وسلمى الخضرا الجيوسي وغيرهم من شعراء فلسطين ، مَنْ رحل منهم عن دنيانا وتمّت حكايته ومن لا يزال فيها وما تزال حكايته مفتوحة . وكان نافع متذوقاً للشعر العامودي دون ان يفتقر الى الذائقة التي تستطيب الجيّد من الشعر الحديث . وباهتمامه بالشأن السياسي والاجتماعي وعنايته بمتابعة التفاصيل في هذا المجال ، نبهني نافع الى ضرورة الاهتمام بدور كل شاعر في الحياة العامة وتأثيره في المجتمع . وكان نافع مفتوناً بعبد الرحيم محمود ، يكبر فيه دوره في الثورة وتضحيته بحياته في سبيل القضية الوطنية . وقد حملتني حكايات نافع عن هذا الشاعر على محبته قبل أن أكوّن رأيي حول أهمية شعره ذاته .

لقد أمضيت بصحبة نافع في سكننا المشترك سنه بكاملها ، وكانت صحبة لا تنسى .

والثاني ، بين الاثنين اللذين أحدثك عنهما ، كان أميل صبيح . وقد توثقت علاقتي به منذ ترفعت في الحزب الى مرتبة العضو العامل وصار هو

مسؤولاً عن الحلقة التي انضممت إليها . وقد سبق لك ان عرفت ان اميل قدم الى دمشق من غزة . وكانت أسرة أميل قد نزحت من يافا في العام ١٩٤٨ ، حين كان اميل ما يزال صبياً في مثل عمري ، وتوجهت الى المدينة الفلسطينية الجنوبية . في يافا ، كان أبو اميل نجاراً . وبعد اللجوء ، تسنى للنجار ، الذي ضمت أسرته ستَ بنات وابناً واحداً هو إميل ، حظ طيّب ، فتمكن من أن يعمل ويعيل أسرته . ثم انهت كبرى البنات تعليمها الثانوي وظفرت بوظيفة معلمة في وكالة الغوث ، ولم تلبث ان تبعتها بنت أخرى ظفرت بوظيفة سكرتيرة . وتمكنت الاسرة من اتاحة الفرصة أمام الصبي الوحيد فيها كي يتابع الدراسة الجامعية . وقد واءم التوجه الى دمشق الميل السياسي لإميل الذي كان قد انتسب الى حزب البعث وهو تلميذ في المدرسة الثانوية ، ومن هو البعثي الذي لا تهفو نفسه الى دمشق؟

الحلقة التي رأسها إميل ضمتني أنا وعبد الله الصباح «من دمشق الى حمص . . .» ، وثلاثة آخرين ، احدهم مراكشي ، هو مأمون العلوي والثاني اردني والثالث قطري . وقد أدى تقارب المفاهيم وزوايا النظر بيني وبين اميل الى تمتين صلتي به . ثم جاءت ازمة الانقسامات والصراعات الداخلية التي تعرض لها الحزب ، فوجدنا نفسينا ، أميل وأنا ، في صف واحد مندفعين بحميّة مشهودة في مواجهة الآخرين . وعزز صلتنا ، أكثر فأكثر ، كوننا نحن الاثنين ، فلسطينيين ، واتفاقنا في الرأي وكذلك في السعي من أجل إبراز الشخصية الفلسطينية وتشكيل منظمة خاصة بالأعضاء الفلسطينيين في الحزب . والواقع أن الظروف التي تبلورت فيها علاقتنا ببعضنا البعض اتاحت لي ولإميل ان نشكل ، مع آخرين ، شلّة متجانسة امتزجت فيها العلاقات الحزبية بعلاقات الصداقة مثلما امتزج في نشاطها ما هو عام بما هو شخصي وزالت كل أنواع الكلفة بين أفرادها .

لم تكن لإميل جاذبية نافع ، لا في المظهر ، ولا في الطباع ، ولا في ميادين المعرفة . الا ان اميل لم يخل من المزايا ؛ وقد تميز ، خصوصاً ، بنظرته الواقعية ، العملية ، للأمور ، في وقت اتسم فيه معظم البعثيين من

مجايليه بالرومانسية . وعندما كان هؤلاء البعثيون أميل الى الشؤون النظرية والانشغال بعظائم الأمور وكبريات القضايا والتعفف عن الاستغراق في الامور الصغيرة ، تميز اميل بحرصه على الانشغال بالشؤون اليومية وقدرته على استقصاء أدق التفاصيل واشغال الآخرين بها ساعات وساعات كلّما اقتضى الأمر . وكان لاميل ، وهو الحريص على قواعد الانضباط ، لسان حاد في تناوله لأخطاء الآخرين وانتقاده لما لا يروقه من سلوكهم اياً كانت درجة صلتهم به . وكان اميل اكثرنا اهتماماً بالتنبه للهفوات الصغيرة ، واشدنا تشبثاً بضرورة معالجتها ؛ وكان من شأنه ، مثلاً ، أن يقضي أياماً عدة في متابعة رفيق واحد تأخر عن تسديد اشتراكه الشهري ، الى أن يجيء بهذا الاشتراك ، ثم يمضي وقتاً آخر وهو يشرح لمن يقع عليهم في مجالسه ضخامة الخطأ المترتب على التأخر واهمية المنجز الذي حققه هو حين ارغم المتأخر على الانصياع للواجب . وكانت سلاطة لسان إميل اكثر ما جذبني إليه ، أنا الذي كنت ابزّه في طول اللسان .

أما أخصّ ما نفعني به إميل فهو المعلومات التفصيلية عن الفلسطينيين في قطاع غزة . كانت صلتي الشخصية بالقطاع قد توقفت منذ مغادرتي له مع الأسرة ومجيئنا الى دمشق في صيف العام ١٩٤٩ . وكانت المعلومات التي تنشرها وسائل الإعلام المتيسرة لنا في سورية عن القطاع شحيحة جداً . اما الكتب التي تتناول شؤون القطاع فلم يكن قد صدر منها شيء يذكر . وقد شكل القطاع منذ انقطاع صلته ببقية ارض فلسطين ومع اقفال الحدود بينه وبين مصر ما يشبه الجيتو الكبير المغلق على مَنْ فيه . فكان افتقارنا الي المعرفة بشؤون القطاع شديداً ؛ وقد مثل إميل بالنسبة لي مصدراً حياً للمعلومات التي اتوق لمعرفتها .

لم تكن اهتمامات إميل بالشأن الثقافي كثيرة ، اما في الشأن السياسي فكان واسع الاطلاع ، وهذا ما مكنني من معرفة التطورات التي شهدها قطاع غزّة منذ ١٩٤٨ ، بأدق تفاصيلها في بعض الحالات . واتضح ان اميل ساهم ، بنفسه ، في انشطة المقاومة الشعبية في الفترة التي تعرض القطاع فيها للاحتلال الاسرائيلي ، في العام ١٩٥٦-١٩٥٧ . فتسنى لي ان

اعرف تجربة الجبهة الوطنية التي تكونت آنذاك وضمّت معظم القوى السياسية السرية وبضمنها البعثيون والشيوعيون . والواقع أن تأثر اميل بهذه التجربة التي انخرط فيها في مطلع شبابه كان عميقاً ، وكان بين الاسباب التي جعلت هذا البعثي القادم من غزة من مؤيدي الدعوة لإبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية في الحزب ومقاومة ذوبانها ذوباناً تاماً في الاطار العربي القومي .

وتصادف أن كان إميل قد تعرف على عدد من أقربائي في القطاع ، وكان من هؤلاء صديق حميم لاميل هو عبد الله الحوراني ، وكان عبد الله ، وهو يدير مدرسة في خان يونس ، قد انتسب لحزب البعث وغدا عضواً في قيادة الحزب في القطاع ثم انتهى الى أن صار أميناً لسّر هذه القيادة . وتيسر لي ، بهذا ، أن أعرف من إميل ما يعرفه من أنباء آل الحوراني الذين لجأوا الى القطاع . ثم تيسر لي أن أحقق ، عبر إميل الذي يزور أهله في العطل الصيفية ، اول اتصال بأمي التي انفصلت عنها منذ عام ١٩٤٩ . وقد حقق هذا الاتصال فائدة فورية ، فأمي التي كان لها مراسلات متقطعة مع أخوالي في دمشق لم تعرف عني ، أنا ابنها ، الا ما يحكيه هؤلاء ، وقد صُوِّرتُ لها على أني الولد المشاكس ، ناكر الجميل ، الخارج على التقاليد ، المنصرف لمصاحبة الزعران ، الغارق في الموبقات ، فكان قلقها عليّ شديداً . فلما سافر اميل الى غزة وزار أمّي بناء على طلبي ليستقصي أحوالها ويحدثها عن احوالي ، فوجىء بطبيعة الأسئلة التي وجهتها إليه الأم الملتاعة وقباحة الصورة التي نقلت لها عنّي . ووجد اميل الفرصة ليتبسط في رواية ما يعرفه من تفاصيل وضعي . وقد حدثني اميل طويلاً عن مدى عنائه وهو يحاول اقناع أمي بأني شاب مستقيم . وقال اميل انه لم يفلح في تبديل الصورة الشائهة كليّة ، إلا أنه نجح في إثارة الشكوك في ذهن أمّي حول اعتقادها السابق بشأني ، وبقي عليه ان يتابع المحاولة في الزيارات التالية . شيء آخر حققه لي إميل ، فقد شكّل صلة وصل بيني وبين عبد الله الحوراني . والواقع اني حينما سمعت اسم عبد الله لاول مرة من اميل ، لم أعرف مَنْ هو المقصود ، بالضبط ، لأن بين

مجايليّ من آل الحوراني كثيرين يحملون هذا الاسم . فلما عاد أميل من سفرته الأولى ، حمل اليّ مزيداً من التفاصيل ، فعرفت أن الشخص المقصود هو عبد الله ، أصغر ابناء الحاج عبد الهادي ، أي الفتى الذي يكبرني بسنين قليلة والذي استشهد اخواه الاثنان معاً في عام ١٩٤٨ حين كانا مع جماعة من مجاهدي المسمية ذهبت لنجدة قرية بيت دراس التي هاجمها اليهود ثم اشتبكت مع قافلة عسكرية معادية . وكانت قصة استشهاد الأخوين معاً ، وقد سبق لي أن رويت لك تفاصيلها ، قد دخلت في موروث القرية بوصفها واحدة من اعظم مفاخرها ، وكان حضورها في ذهني قد بقي حيّاً مع توالي السنين وتبدل الأحوال ، فسرني جداً أن أجدد الصلة بأخ الشهيدين بعد مضيّ دزينة من السنين على افتراقنا ، كما سرني أن أعرف أن هذا الفتى اختار الطريق السياسي الذي اخترته أنا ، وتعزز اعتقادي بصواب اختياري . وقد رويت قصة بطولة آل عبد الهادي لاميل حين اتضح لي أنه لم يسمع بها ، متعمداً أن ازيد أعجابه بعبد الله ، قريبي ، هو المعجب به بدون هذه القصة .

ومع توثق علاقتي باميل ، وتوسع نشاطات التنظيم وبروز الحاجة لوجود مقرات له دون توفر المال لاستئجارها ، نبتت فكرة ان نستأجر ، اميل وأنا ، شقة مستقلة تكون مسكناً لنا ومقراً للتنظيم . ثم ازدادت اهمية هذه الفكرة منذ استجابت القيادة القطرية الجديدة لمطلب الأعضاء الفلسطينيين بأن تكون لهم منظمة حزبية خاصة بهم . تم ذلك ، على ما أتذكر ، في أواخر عام ١٩٦٢ ، أو أوائل ١٩٦٣ . وكانت الاستجابة لمطلبنا جزئية ، اذ ان القيادة لم تجرؤ على منحنا صفة المنظمة المستقلة خشية أن تتعرض لتهمة القطرية ، ولكنها وافقت على جمع بعثيي دمشق الفلسطينيين في فرقة واحدة وأتبعت هذه الفرقة لشعبة حيّ الميدان باعتباره اقرب احياء المدينة الى مخيم اليرموك . وهكذا ، صارت لنا فرقتنا دون ان نستقل عن التنظيم السوري ، وصار اميل الذي بقي مسؤولاً عن حلقتي عضواً في قيادة هذه الفرقة . واذ لم يعد نافع ع . بحاجة الى معونتي ، هو الذي تدبر أمر معيشته بنفسه ، فقد نفذنا الفكرة التي استحوذت علينا ، واستأجرنا أنا

وإميل شقة من ثلاث حجرات صغيرة في بناء حديث في شارع جديد، كان آنذاك قيد الانشاء، قريباً من جامع صلاح الدين في حيّ الأكراد، او ركن الدين وفق تسميته الجديدة. وتصادف أن محمد بصل انتقل بأسرته، في ذلك الوقت، إلى منزل في الشارع ذاته. وتقاسم منزل محمد الفسيح وشقتنا الصغيرة نشاطات العمل الحزبي وما يقترن بها. وتميزت شقتنا التي لا يعرفها إلا عدد محدود من الاصدقاء بأنها صارت مأوى نخفي فيه أشياء الحزب السرية وأعضاء الحزب الذين تشتد مطاردة أجهزة الأمن لهم. وفي هذا الوضع الجديد، أتيح لي أن أطلع على نشاطات الفرقة كلّها وأعرف المزيد من أسرار الحزب. وكان سكني في هذه الشقة فرصة اخرى عززت ذلك الاقتران بين الشأن الشخصي والشأن العام في حياتي وخلطت الحدود بينهما.

١٤ رسبت في الامتحانات فتذرعت بانشغالي بثورة اليمن

تعاقبت الاضطرابات في عهد الانفصال في سورية بوتيرة سريعة ، حتى ليمكن القول إن يوماً واحداً من أيام العهد الذي استغرق ثمانية عشر شهراً لم يشهد هدوءاً تاماً . كانت أسباب الاضطراب عديدة ، وكذلك ساحاته . فالقوى التي تحالفت لفكّ وحدة مصر وسورية لم تكن متجانسة ، والقوى التي تصدّت للانفصاليين لم تكن متجانسة ، هي الأخرى . وهكذا شهدت البلاد ، في وقت واحد ، صراعات القوى داخل كل طرف مثلما شهدت صراعات الطرفين مع بعضهما البعض والتداخل المعقّد بين النوعين .

وكان على الانفصاليين ، انسجاماً مع الذريعة التي اتخذوها لفكّ الوحدة ، ان يعيدوا الحياة الديمقراطية الى سورية فيبيحوا الحرية للصحافة والنشاط الحزبيّ المتعدد والعمل النقابي . وقد فعلوا ، حقاً ، شيئاً من هذا ، فجرت الانتخابات البرلمانية التي حدثتك عنها ، وعاودت الأحزاب القديمة النشاط ، وأخذت النقابات زمام المبادرة ، وصدرت صحف كثيرة . غير أن

هذا ، حين يستمر الى النهاية ، كان من شأنه أن يطيح بالانفصاليين أنفسهم قبل أن يطيح بأي جهة أخرى ، لأنهم كانوا مبغوضين من الأغلبية . وهكذا ، اضطرب سلوك الانفصاليين في الحكم اضطراباً شديداً ، وجهر بعض هؤلاء بالدعوة الى التراجع عن الاجراءات الديمقراطية ، ومارس المتنفذون منهم ممارسات ديكتاتورية سافرة فازاحوا حكومات وجاءوا بغيرها ، وسجنوا رئيس الجمهورية المنتخب ، وحوّلوا البرلمان الى مهزلة ثم جمّدوا عمله ، ووجهوا الجيش وقوى الأمن لقمع التحركات المعارضة ، وأطلقوا النار على المتظاهرين في الشوارع ، في المدن والريف ، فافقدهم هذا تأييد كثيرين ممن التفوا في البداية حولهم وناصروا حركتهم لسبب او لآخر ، وانتقل هؤلاء الى صفوف المعارضة فزادوها كثرة وإن زادوها بلبلة في الوقت ذاته .

وتوزع المعارضون الوحدويون بين ناصريين مقسمين على أحزاب ومنظمات وكتل عديدة ، كبيرة وصغيرة ، تطالب ، جميعها ، بعودة الوحدة فوراً وتختلف على الكثير مما عدا ذلك ، وبعثيين يحاولون عقلنة التيار الوحدوي ودفعه نحو المطالبة بتأسيس وحدة مدروسة فيما هم معرضون للهجمات من الأطراف الأخرى كافة ، الانفصالية والناصرية . وضمت المعارضة ناساً لم يجعلوا مسألة عودة الوحدة بين مشاغلهم ، وقدظنوا أن بإمكانهم تخطّي هذه المسألة والدفع باتجاه إعادة بناء حياة سياسية متقدمة في سورية . وكان من بين هؤلاء ، الشيوعيون والكثير من المتمركسين القدماء والجدد . هؤلاء دفعتهم طبيعتهم الى معارضة سياسات حكم الانفصال الداخلية ومقاومة تطاوله على المكتسبات المتحققة للجمهور في عهد الوحدة ، فيما دفعتهم معارضتهم نظام عبد الناصر الى تأييد اجراءات الانفصاليين كلما تعلق الأمر بتعزيز انفصال سورية عن مصر .

وبمضي الوقت ، فقدت سلطة الانفصال هيبتها ، ليس بفعل معارضة المعارضين ، وحدهم ، بل بفعل الصراعات التي اتقدت في صفوف الانفصاليين أنفسهم والإجراءات العديدة القبيحة التي نجمت عن هذه الصراعات ، أيضاً . وازداد وضع الانفصاليين صعوبة حين لجأوا الى المسّ

بالمكتسبات المتحققة، فهذا الأمر بالذات أسهم في تمزيق صفوفهم والجأ كثيرين من مؤيديهم الى الخندق المعارض. فالغاء التأميمات، مثلاً، ومحاولات تبديل قانون الاصلاح الزراعي وقوانين العمل، وما الى ذلك من اجراءاتٍ كتّلت غالبية سكان البلاد ضد عهد الانفصال وعززت سمته بوصفه عهداً غير شعبي واشعلت موجات متلاحقة من النشاطات المعارضة ضده.

في معمعات الصراع المحتدم، المتداخل ومتعدد الوجوه، والآخذ بالاحتداد يوماً وراء يوم، تبلورت على ساحة العمل السياسي اربعة تيارات رئيسة: الأول هو تيار انفصالي يدعمه المتنفذون في قيادة الجيش وكبار ملاك المصانع والارض وتؤيده شراذم من السياسيين والمثقفين الذين انبتّت جذورهم عن قوى نشأوا فيها في السابق وحملتهم نوازع وصولية صرفة على تأييد العهد القادم. والثاني تيار يؤيد الانفصال بدافع بغضه لنظام عبد الناصر ليس غير، لكنه يرفض أن يعيد الانفصاليون الرجعيون البلاد الى الوراء؛ وكان المنشقون عن حزب البعث، الذين التفوا حول زعامة أكرم الحوراني وأمثاله، وكذلك الشيوعيون ومَنْ يماثلهم هم أبرز ممثلي هذا التيار. والثالث تيار الناصريين الذين غدوت تعرف الكثير عن أحوالهم، وهم الذين كانوا قادرين على إلهاب العواطف وحمل ناسهم على التظاهر والتصدي لإجراءات الانفصاليين وعاجزين عن تحويل تحركاتهم الى حركة منتظمة الايقاع في اتجاه يحقق هدفهم. اما التيار الرابع فهو الذي مثله حزب البعث وأنصاره، فقد اتخذ الحزب سياسة متوازنة، واضحة في رفضها للانفصال مثلما هي واضحة في موقفها من سلبيات عهد الوحدة، وصريحة في دعوتها الى إعادة بناء الوحدة بخطوات مدروسة مثلما هي صريحة في تشبثها بمكتسبات عهد الوحدة. وبهذه السياسة وفي هديها، أعاد الحزب بناء تنظيمه السابق واجتذب إليه غالبية البعثيين المدنيين والعسكريين كما اجتذب عناصر جديدة، وشكل قوة حسنة التنظيم جيدة الإعداد واخذ يشقّ طريقه بثبات ليحتلّ في النهاية صدارة الساحة السياسية الفاعلة.

بكلمات أخرى : عارض الناصريون والبعثيون الانفصال ، كل منهم على طريقته . فتمكن الناصريون من الهيمنة على جمهور واسع غير محدد المعالم ، فكانوا قادرين على احداث الكثير من الصخب وتحقيق الحضور الواضح في أي مكان ، دون ان تكون لهم الفعالية التي تعادل هذا الحضور . واستقطب البعثيون نخبة من الوطنيين التقدميين ، وهؤلاء اهتموا بتنظيم أنفسهم بحيث يحقق نشاطهم الفعالية اللازمة لتوجيه الجمهور . واذا كان الناصريون قد شكلوا غالبية عددية ظاهرة بين الوحدويين فقد شكّل البعثيون أمتن القوى الفاعلة على كل صعيد . وبمضي الوقت ، تآكلت الأغلبية العددية ونبتت القوى المستندة الى أساس متين .

إذن ، رسم البعث ، في حينه ، طريقاً ، بدا لي انه الأوضح بين الطرق العديدة التي تسعى القوى السياسية لشقّها . وتجندت منظمات البعث للعمل ليل نهار لتوسيع الطريق وتعبيده . واعتاد ناس الحزب على تذوق المكاسب الصغيرة وتعلموا أن مراكمتها هي وحدها التي تؤدي الى الانجازات الكبيرة . كان بامكان الناصريين أن يلهبوا عواطف مخيم بحاله ويخرجوا ناسه في مظاهرة صاخبة ، دون ان يكون هذا في متناولنا نحن البعثيين . ولكننا كنّا نجد في تشكل خليّة جديدة لنا في المخيّم عملاً أبقى من المظاهرة واكثر فاعلية ، وكنّا نعد نجاحنا في تنظيم رحلة للطلاب أو إعداد ندوة للحوار الهادىء ، أو استقطاب مئة شخص للاستماع لمحاضرة مكاسب لا نترفع عن بذل اقصى الجهود من اجل الظفر بها . انطلق الناصريون من اعتقادهم بأن الجمهور السوري وحدوي وهو بالتالي معهم دون غيرهم ، وركنوا الى هذا الاعتقاد ، فأهملوا النشاطات الدؤوبة المثابرة التي تتوخى اقناع الناس وليس استخلاص قناعاتهم . أما التنظيم البعثي فانشغل بالعمل المثابر وتعميم القناعات وترسيخها . كان السباق بين الناصريين والبعثيين على اكتساب تأييد الجمهور اشبه بالسباق بين الأرنب والسلحفاة ، وانت تعرف مَنْ الذي فاز في النهاية! لا يعني هذا القول ان البعثيين سلكوا طريقاً صحيحة ، على الدوام ، أو أن الناصريين ضلوا الطريق التي اختاروا السير عليها ، اذ ما اكثر ما أخطأ البعثيون ، آنذاك ،

وفيما بعد، وما أشدّ ما اندفع ناس منهم في الطرق المتعجلة او آثروا الركاكة في الفكر وفي العمل وما أكثر ما حقق الناصريون من نجاحات باهرة وما أكثر ما كان بينهم مناضلون دؤوبون ومثابرون وبعيدو النظر! إلا أن اجمال الوضعين، وأنا اعرضهما بهذا الايجاز الشديد، يظهر غلبة لمنهج بعينه هنا وغلبة لمنهج آخر هناك، وهذا هو ما اردت قوله.

وقد يجدر ان أنوه، هنا، بالدور الذي لعبته جريدة «البعث» في هذا المجال. فقد أسهمت هذه الجريدة، التي عاودت الصدور جريدة أسبوعية يرأس صلاح البيطار تحريرها، في بلورة معالم الطريق الذي يشقه الحزب واجتذاب العديد من الناس للسير عليه. ولعلّي لا أبالغ ان قلت لك ان أعداداً كبيرة من المدنيين والعسكريين في البلاد كانت تنتظر موعد صدور العدد الجديد من الجريدة بتشوق كبير ثم تتشرب موادّه وتنصرف الى دراستها والتحاور بشأنها طيلة أيام الأسبوع. وقد شهدت بنفسي كيف تحول مقرّ الجريدة، في وسط البلد، خلف مقهى الحجاز، الى ملتقى دائب النشاط يؤمه أصحاب الفعاليات السياسية والثقافية ويتداولون فيه شتى الشؤون. كنت دائب التردد على هذا المقر. وكان محمد بصل، لصيق الصلة آنذاك بصلاح البيطار، قد غدا في عداد هيئة التحرير، في موقع يجعله اقرب إلى أن يكون نائباً لرئيس التحرير. ومحمد هو الذي اجتذبني، في البداية، الى المقر، ثم ألفت زيارته، وتعرفت فيه على عدد كبير آخر من نجوم السياسة والفكر ومسؤولي الحزب والأحزاب الأخرى. وكان محمد وغيره من المحررين الذين ألفوا وجودي بينهم يوكلون اليّ بعض المهام، كاعادة كتابة مادة أو تصحيح لغتها وإيجاز مادة أخرى أو تطويع صياغتها لتخدم خط الحزب السياسي، وكنت اسعد بهذا سعادة كبيرة.

وها أنا ذا أتذكر المرة التي قدمت فيها الى الجريدة مظاهرة ناصرية هدفها تدمير المقر. أراد هؤلاء المتظاهرون تدمير مقر جريدة الحزب احتجاجاً على مقال كتبه صلاح البيطار ودعا فيه الى الوحدة الاتحادية بدل الوحدة الاندماجية التي ينشدونها. آنذاك، كنا في المقرّ حشداً كبيراً من البعثيين وانصارهم، ورأينا المظاهرة وهي مقبلة من ناحية مقهى الحجاز، ثم جاء من

أنبأنا بهدفها . وقد فاجأنا ان يستهدف الناصريون حلفاءهم على هذا النحو الذي لن يخدم إلا الانفصاليين ، وساءنا ذلك كثيراً ، وتحفزنا للاشتباك مع المتظاهرين واستخدمنا الهاتف أو أرسلنا المراسيل لاستدعاء جماعات البعثيين من مختلف أنحاء المدينة لنجدة جريدتهم . وعندما أحاطت المظاهرة بالمبنى الذي شغل المقر طابقه الثاني ، أدركنا من معاينة العدد القليل اننا قادرون على مقاومة المتظاهرين وتفريقهم بالقوة حتى قبل وصول النجدات ، وشرعنا بالتحرك للهبوط نحوهم . الا ان صلاح البيطار فاجأنا باصراره على التريث . خرج هذا القائد من حجرة مكتبه وسد باب الخروج بقامته ودعانا للتذرع بالصبر . يومها ، قال البيطار ان الناصريين حلفاء لنا ، فإن اخطأوا فلا يجوز ان نقابل الخطأ بمثله كما لا يجوز بأي حال من الأحوال ان ننجر الى الاشتباك معهم . وانتقى البيطار من الموجودين الذين عدهم الأعقل والأهدأ ، وكان منهم ، ممن لا ازال أتذكره ، عبد الكريم زهور والدكتور جمال الاتاسي ، وطلب منهم الهبوط الى الشارع ومحاورة المسؤولين عن المظاهرة ، فيما أمر الآخرين بالتزام الهدوء والكفّ حتى عن الرد على الهتافات المعادية . ومن مكتبه ، اجرى البيطار ما وجده مناسباً من الاتصالات الهاتفية مع القادة الناصريين وراح يحاورهم داعياً اياهم الى كفّ الاذى والحيلولة دون وقوع الاشتباك البغيض . وفي غضون ذلك ، وصلت جماعات النجدة تباعاً ، واختلط ناسها بالمتظاهرين ، وشهد الشارع جدلاً صاخباً بين انصار الوحدة الاتحادية المدروسة وانصار الوحدة الفورية الاندماجية . ثم انتهى الأمر كلّه بارتداد المتظاهرين دون ان يطال مقر الجريدة سوى صدى الهتافات المعادية وأحجار قليلة قذفها استفزازيون تعذرت السيطرة على عواطفهم .

اما الاشتباكات الفعلية ، في تلك الفترة ، فهي التي راحت تتوالى بين البعثيين والناصريين ، من جهة ، وأجهزة أمن السلطة حين تكون السلطة مسيطرة عليها ، من جهة أخرى . كان من شأن أي إجراء رجعي يتخذه الانفصاليون أن يستتبع قيام مظاهرات معارضة . وكانت المظاهرات العامة تقوم ، أيضاً ، في المناسبات المرتبطة بالذكريات الوطنية ، المبهجة او المحزنة ،

وما أكثرها! وهناك مظاهرات كانت تقوم بغير ما سبب ظاهر أو مباشر، مظاهرات يطلقها السخط المتراكم ويحفز عليها استعداد الجمهور الدائم للمواجهة. وقد أثّر ما كان يقع في الشارع على الجيش؛ صحيح أن قادة الجيش الانفصاليين سرّحوا وشرّدوا عدداً من ضباط الجيش الناصريين من مختلف الرتب وأن عهد الوحدة سبقهم الى تسريح عدد من الضباط البعثيين، غير أن هذا لم يعن أن الجيش خلا من هؤلاء، ولم يمنع ضباطاً آخرين من الانضمام الى هذا الفريق او ذاك. وانتقلت صراعات الشارع الى الجيش، وتواترت فيه حركات التمرد ومحاولات الانقلاب. ونجم عن هذا كلّه اعتقالات طالت كثيرين من المدنيين والعسكريين، ومحاكمات كثيرة تحولت الى منابر يستخدمها المتهمون للدعاية لبرامجهم السياسية. وتنوعت ردود فعل الحكام الانفصاليين، فكان منهم المتهيّب من المواجهة والحاثّ على التشدد في القمع والمتردد بين الحالتين. وانتهى الأمر بأن اكتظت السجون والمعتقلات بنشطاء المعارضين من كل لون، فالتقى في السجن الواحد، في الفترة الواحدة، بعثيون وناصريون وديمقراطيون مستقلون، مدنيون وعسكريون. وزاد هذا في تعميم القناعة العامة بأن عهد الانفصال ليس سوى عهد مؤقت.

وقد جعلت كثرة الاضطرابات وتواترها المتسارع الدراسة تضطرب في المدارس والجامعات. وتقصّد الناصريون تعطيل الدراسة في إطار مسعاهم للحيلولة دون استقرار الاوضاع وظناً منهم أن تعطيلها يقصّر عمر عهد الانفصال. وكان من بين أكثر هتافات الناصريين شيوعاً هذا الهتاف الذي يرددونه بإيقاع جذّاب: «لا دراسة ولا تدريس إلا بعودة الرئيس»، اي بعودة عبد الناصر. وما أكثر الايام التي لم يتوجه فيها احد الى المدارس او التي توقفت فيها الدراسة وانطلق التلاميذ الى الشوارع! أما الهتاف للوحدة والحرية فكان يتردد في كل مكان. وقد هيأت لي اضرابات المدارس أوقاتاً أطول للانصراف الى الشؤون العامة الأحب الى نفسي من التدريس. وفي تلك الفترة، كثر تواجدي في الجامعة حيث يتجمع الطلبة المنتمون لمختلف التيارات السياسية فيتحاورون وينظمون النشاطات. كما كثر تواجدي في

مقر الفرع الذي تحول الى قاعدة لعمل الطلاب الفلسطينيين من بعثيين وناصريين وغيرهم .

كان البعثيون قد فقدوا ، كما سبق لك أن عرفت ، أغلبيتهم في قيادة الفرع ، ولم يعد لهم من يمثلهم في هذه القيادة إلا أنا ، وذلك لصالح القوميين العرب . ولأن خسارة البعثيين وقعت عندما كانوا مشتتين ومشغولين بالصراعات الداخلية في حركتهم ، فإن انتظام الحياة الحزبية من جديد وانجلاء الصراع الداخلي عن إعادة اللحمة بين معظم البعثيين الفلسطينيين اوجبا أن ينصرف هؤلاء للعمل من أجل تعزيز مكانتهم في الفرع واستعادة الأغلبية في قيادته . وقد وُضعت من أجل تحقيق هذا الهدف خطة توجب عليّ في سياقها أن أعمل كل ما من شأنه أن يحرج القوميين العرب في قيادة الفرع ويظهرهم بمظهر الفاشلين . وقد اتبعت سلوكاً مماحكاً قوامه ارغام القوميين العرب الثمانية في الهيئة الإدارية للفرع على اتخاذ أي قرار بالتصويت ، أياً كانت درجة أهمية الموضوع المطروح للبحث ، حتى لو تعلق الامر بتنظيم مباراة في كرة الطاولة . كان هذا السلوك متعباً لي وللزملاء الثمانية ، ولكنه مكّن البعثيين من اظهار القوميين العرب بمظهر العاجز عن اقناع شخص واحد . وقد تنبه رئيس هيئتنا الإدارية ، داود رحمة ، الى ما نتوخاه من المماحكة ، فكان يعمد الى اطالة امد الحوار في الاجتماعات ، بأمل ان يقنعني فنتوصل الى القرار بالإجماع . وتنبهت انا الى ما يتوخاه الرئيس فكنت أرفض أن أقتنع! وأدى ذلك إلى أن تستمر اجتماعاتنا ، في بعض الاحيان ، حتى الصباح دون ان يصدر عنها الكثير مما هو مهم . وكنا نترقب موعد الانتخابات الجديدة ، فيما نواصل تسجيل النقاط ضد القوميين العرب ، وقد تعزز أملنا باستعادة الاغلبية . وواظب لطفي غنطوس على المجيء من القاهرة الى دمشق ، وكان يحثنا على الاهتمام باستعادة السيطرة على الفرع لكي تبقى للبعثيين الأغلبية في قيادة الاتحاد العام ، ويشاركنا في رسم الخطط اللازمة لتحقيق هذا الهدف .

في غضون ذلك ، بقي شيء ما ، قوي التأثير ، يجذبني الى الجورة

وناسها . فرحت استغل ما يتيسر من وقت لأزور المكان وأواصل حواراتي فيه مع رواده . كان صاحب الجورة ، ابو وليد ، يظهر تفهماً خاصاً لمواقف البعثيين ، دون ان يتخلى عن التصريح بأنه ناصري ، وكان من رأيه ان لا فرق بين البعثيين والناصريين إلا ما يحدثه اختلاف الأمزجة والتنافس على مواقع قيادة الشارع بين قادة الجانبين . وكان الرجل ، الذي يسكن أكرم الحوراني بجوار مصبغته ويتعامل معه بصفته زبوناً مهماً ، قد صار على صلة بجماعة أكرم . وقد أبدت الجماعة حرصاً خاصاً على اجتذاب الكوّا الفلسطيني . وكان من شأن هذا أن يفعل فعله في الرجل الذي يوليه زعيم كأكرم الحوراني عنايته الخاصة لو لم يكن إيمانه بالوحدة راسخاً ولو لم يكن الاذى الذي الحقته مواقف اكرم الحوراني بالوحدة والوحدويين شديد السفور . وقد ظل أبو وليد قادراً على مواجهة جماعة أكرم بمعارضته لهم وانتقاده لمسلكهم الانفصالي ، دون أن يثير سخطهم الشخصي عليه أو يدفعهم لقطع صلتهم به . وبحكم صلة ابي وليد بالجماعة ، كنت أجد في الجورة كل ما يصدر عنها من نشريات ، بما في ذلك النشرات الداخلية المعدّة لاطلاع أعضاء تنظيمهم ، وحدهم .

أما الحاج نجدت الذي لم يتبدل ودّه العميق لي ، فإن تواتر الاحداث السريع واضطرابها المتصل وتداخل المواقع الشديد فيها ، أفقده شيئاً من اتزان موقفه وشحذ نبرته في الجدل فصار أميلَ الى الحدّة . كان هذا الرجل على اطلاع واف على النشاط الذي يقوم به أخوه واصدقاؤه المؤيدون للانفصال وما يعدّونه من خطط ومؤامرات لاستغلال الظروف من اجل زيادة ثرواتهم وما يقومون به في هذا المجال من تهريب لأموالهم خارج البلاد وما يقترن بسلوكهم كله من مظاهر الفساد والافساد البغيضة ؛ وكان ، في الوقت ذاته ، يخشى أن تعود الوحدة فتختل علاقات سورية من جديد بالاردن والسعودية ودول الخليج الأخرى فتتجمد العلاقات التجارية مع هذه البلدان وتنسد أمامه ، هو ، من جديد فرص العمل الذي انفتحت أبوابه مرة أخرى بوقوع الانفصال . وكان الحاج ، في واقع الأمر ، موزع المشاعر بين احتقاره للانفصاليين وخشيته من عودة الوحدة . وهذا الإنسان

الذي تلونت حياته كثيراً وتراوحت بين استقرار لا يطول واضطراب يحمل إليه الفقر لم يكن قادراً على الثقة بأحد من السياسيين او بأي من الاحزاب. لم يأبه الحاج بدعوة حزب البعث الى الوحدة المشروطة، وكان يجزم بأن البعث لو استلم الحكم فسوف يسلك كغيره من الاحزاب فيستأثر بالسلطة ويتقاسم أفراده منافعها او يتعاركون حولها دون أن يجلب للبلد افضل مما جلبه غيره. وكان هذا الصديق يظهر تفهماً متحفظاً لانجذابي، أنا، الى الحزب ولا يعترض على نشاطي، لكنه ما فتئ يتنبأ لي بأني سأكتشف، في يوم من الأيام، صواب ما يقوله هو بشأن الحزب وسيردعني ضميري عن الاستمرار في الحماس له. اما الناصريون، على مختلف تياراتهم ومنظماتهم، فإن الحاج كان ضدهم جميعاً، وكان لا يجيء على ذكر أي من هؤلاء الا مقروناً بالسخط. والحاج، في موقفه من الناصريين، كان يصدر من منطق خاص، فهو يحترم عبد الناصر ويرى أن هذا الزعيم حاول أن يفعل الكثير لصالح العرب الا ان اتباعه هم الذين أفسدوا محاولاته وحوّلوا البلاد إلى سجن تقمع فيه الحريات ومزرعة يتناهبون خيراتها مستغلين اسم الزعيم ومكانته الشعبية الكبيرة ومتسترين بها على انتهازيتهم وحقاراتهم. واذا كان الحاج قد صار اميل الى الحدّة في أحاديثه كلّها، فإنه كان شديد الحدّة في حالتين، حين يتحدث عن اخيه وجماعته أو حين يتحدث عن الناصريين. وكثيراً ما كان الحاج يختم حديثه عن أي من هؤلاء ببصقة ثم يلجأ الى علبة تبغه ويلفّ السيجارة وهو ظاهر الانفعال.

وحدهما، مصطفى ومحمد، البقالان الاخوان، ظلاّ سعيدين بالانفصال سعادة يتفننان في اظهارها. وقد ألف هذان الدمشقيان ان يتناولا عبد الناصر بأقذع القول ويشنعا عليه وعلى مَنْ يواليه اقبح تشنيع. وكان هذان التاجران يصوّران الأمر وكأن شعب سورية كلّه كاره لعبد الناصر، أما المظاهرات التي تنادي بعودة الوحدة أو تهتف لعبد الناصر فهي، عندهما، من صنع الفلسطينيين و«الفلح»، أي الفلاحين، مظهرين، بهذا، أنهما لا يحسبان الفلاحين في عداد شعب سورية. وإذا

جوبه أي من الأخوين بوقائع تدحض رأيهما، اضطر الى التراجع واكتفى بالقول إن أهل دمشق، كلهم، ضد عبد الناصر ودمشق هي التي تمثل الوجه الحقيقي لسورية ومصالحها. وقد أمعن هذان البقالان في اظهار البغض لعبد الناصر والاستهانة بمشاعر المؤيدين له من رواد الجورة، واستخفهما الانشراح لغياب الوحدة، فلم يتورعا عن سلوك مسالك غريبة ومستفزّة. وأتذكر مرة توجّب فيها على أجير الجورة الناصري ان يحمل رزمة من الملابس المكوية الى اصحابها في منازلهم فمنعه انهمار المطر فأخذ يترقب لحظة انقطاعه ليذهب برزمته. وشاء البقال محمد ان يتفكّه، فجاء بصورة لعبد الناصر وفردها أمام مدخل الجورة، ثم قال للأجير: «اطمئن، سوف ينقطع المطر!»، رامياً بذلك الى القول إن صورة عبد الناصر تقطع الرزق. ولما انقطع المطر بعد حين، جلجل محمد بضحكته الرنانة وجاراه اخوه مصطفى، وأخذ الاثنان يرقصان، وهما يرددان مقاطع ملحنّة تسخر من الوحدة العربية والوحدويين. شخص آخر من رواد الجورة كان مؤيداً للانفصال، لكنه لم يكن سعيداً، لانه لم يبلغ حدّ الاطمئنان الى دوامه، ذلك هو سائق الضابط القومي السوري المتقاعد. هذا الفتى المسكون بالنزق الدائم كان لا يكفّ عن التصريح بأن العهد اللائق بسورية هو، وحده، العهد الذي يعيد للحزب السوري القومي اعتباره الكامل ويقتصّ من كل الذين ألحقوا الأذى بالحزب وأعضائه ويمكن الحزب من السيطرة على البلاد وتحقيق وحدة سورية الطبيعية. ولأن قادة الانفصال لم يعفوا عن قادة الحزب المسجونين او الملاحقين ولم يعيدوا ضباطه المسرّحين من الجيش الى الخدمة فإن السائق كان شديد السخط عليهم، وكان يتهمهم بالجبن والنفاق ويفسر احجامهم عن الافراج عن جماعته بالخوف من الشارع الناصري وممالأة اكرم الحوراني عدو السوريين القوميين القديم. لقد حمل هذا الفتى لأكرم الحوراني بغضاً فاق بغضه لأي شخص آخر، وظل يردد أمام رواد الجورة انه رأى بعينيه بين اوراق معلمه وثيقة تثبت أن الحوراني انتسب في مطلع شبابه الى الحزب السوري القومي ثم طرد من الحزب لأنه خانه، ولا بدّ ان يجيء اليوم الذي ينتقم الحزب فيه من هذا الخائن

ويحاسبه على ما الحقه به من اذى .

أما الأجير ، حسن ، الفتى الفلسطيني الذي حل محلّي في العمل في الجورة ، فكان اشدّ الجميع حماساً لعبد الناصر ، وما فتئ يرى في عبد الناصر زعيماً عبقرياً وقائداً منزهاً عن الأخطاء . وكان حسن هذا ، الذي يرفض أن يقرّ بأن من الممكن ان يخطئ الزعيم ، يخرج عن طوره ويبدو مستعداً للعراك إذا أشير لأي من أخطاء الزعيم . وإذا جوبه حسن بما وقع من سلبيات ظاهرة في عهد الوحدة ، فانه كان ينسب السلبيات إلى بطانة الزعيم ويبرئه من المسؤولية ازاء وقوعها او حتى المعرفة بها . أما حين يجابه الفتى بما أقرّ به عبد الناصر نفسه من اخطاء ، فانه كان يردد عبارة لا يزيد عليها شيئاً : «لا اعرف لماذا يقول الرئيس هذا ، الا انه غير صحيح» . ولم يكن حسن مستعداً للتجاوب مع أي إنسان لا يجاريه مجاراة كاملة في تنزيه عبد الناصر عن الأخطاء ، وقد اعتاد حسن أن يبلغ أقصى درجات الحدّة عندما اتحدث انا ، فأنا ، عنده ، انفصالي خطير ، أتستر بالدعوة للوحدة وأنسب لعبد الناصر عدداً من الايجابيات لكي أسيطر على المستمعين لي فأتمكن من إقناعهم حين أتحدث عن السلبيات . وكان حسن يغلظ لي دائماً في القول ويصل إلى حد السفاهة البغيضة ويأبى أن يظهر أي لين إزائي . وكثيراً ما كان هذا الفتى ينذرني بمجيء يوم تعود فيه الوحدة ويستعيد عبد الناصر سلطته فادفع الثمن . بالرغم من ذلك ، كنت آخذ هذا الفتى على قد عقله ، كما يقال ، وقد انتهيت الى التعفف عن الانجرار الى استفزازاته . كان بعيداً عن ذهني ان الوم حسن على حماسته لعبد الناصر أو أدينه بسبب ذلك . كما كان بعيداً عن طبعي ، انا الذي يحيطني معظم رواد الجورة باحترام خاص ، أن اصل في كلامي او سلوكي الى الحدّ من السفاهة الذي يجرني هو إليه . وصار هذا ، بالذات ، هو أكثر ما يغيظ حسن من سلوكي ويؤجج حنقه عليّ . فقد صار يرى في تعففي تكبراً وفي تجنبي إيذاءه استهانة به ، فيزداد افحاشاً في الكلام ولا يسكت إلا حين ينهره الآخرون فيرغمونه على السكوت ارغاماً ، ويظل يتحين الفرص الجديدة لمعاودة الهجوم .

في ذلك العام، لم أُولِ دراستي الجامعية أي اهتمام يذكر، فقد استغرقتني المشاغل الأخرى الكثيرة وانضاف إليها أن الدراسة ذاتها لم تنتظم لا في الجامعة ولا في سواها. والواقع أني لم أنتبه الى أن موعد الامتحانات قد اقترب إلا حين قدمت سميّة من عمان.

جاءت الفتاة التي تركتني قبل ذلك غاضبة، وهي ما تزال تحمل توقها المزمن لحملي على الانصراف الى شؤوني الخاصة والكف عن تبديد الوقت والجهد في العمل العام. وبهذا، تجدد نزاعنا القديم، وتعذر التفاهم. وانقضت أسابيع الامتحانات ونحن في نكد مستحكم. كنت، بلا شك، أحبّ هذه الفتاة الطيبة، المجتهدة، الأنيقة، ذات الرشاقة المتميزة والاطلالة الجميلة، المفعمة بالنوايا الحسنة تجاهي. وكنت آمل أن ننهي الدراسة، معاً، ثم نجد وسيلة لجمع مصيرينا في مسار واحد. بل إني كنت على استعداد للانتقال الى عمان اذا تعذر تدبير انتقالها هي الى دمشق حتى نعيش معاً. غير ان ملاحظات فتاتي المتكررة على سلوكي، أنا المقتنع تماماً بصوابه، مسّت وتراً حساساً فيّ. لم يكن الامر أمر الملاحظات ذاتها ولا كان أمر تشبثها بتكرارها، إذ لو أن الأمر اقتصر على هذا لامكن أن أعدّه دليلاً على فرط اهتمامها بي وعمق حبّها لي. إن ما ضايقني بالذات هو رفضها أي نقاش من جانبي حول رغبتها في إبعادي عن العمل العام، رفضها أن تأخذ أسبابي بعين الاعتبار وتقرّ بحقيّ في ان اسلك وفق قناعتي. لم تتح لي سمية فرصة واحدة للتبسّط في شرح وجهة نظري؛ لم تطلب مني ذلك، ولم تستمع لي حين كنت ابادر اليه. لقد آثرت أسلوب المطالبة بما تريد عبر العبارات القصيرة التي تضمنها ضيقها بسلكي، ليس اكثر، فعددت هذا اعتداء منها على استقلالي الذي تكبدت الكثير من أجل تحقيقه. ولأني لم اكن مستعداً لتعديل سلوكي، على أي نحو من الانحاء، فقد ركبني العناد. تصورت أن على سمية، إن كانت تحبني حقاً، كما احبها، ان تقبلني كما انا. بل ان عنادي حملني على فلسفة الأمر كلّه بما يلائمني ووضع نظرية كاملة حول ما هو صادق وما هو غير صادق، ما هو أصيل وما هو غير اصيل في الحبّ. وكان قوام

هذه النظرية أن الفتاة عرفتني كما أنا ، في سلوكي هذا الذي تعترض عليه ، ولم تعرفني في أي حالة أخرى ، فإذا كانت قد احبتني فعلاً فلا بدّ أن يقترن الحبّ بقبولها لسلوكي ، أما وأنها تعترض عليه ، فهذا يعني ان حبها لي غير صادق وغير أصيل . واستخلصت ، في ضوء هذه النظرية ، أن مَنْ تحبّه سميّة ليس أنا الشخص الموجود بما له وما عليه ، بل الشخص الذي ترسمه في مخيلتها وتريد مني ان اكونه ، ان اتبدل لكي اتطابق معه . ووقف عنادي إزاء عنادها ، وأمعنت هي في العناد فتشبثت أنا بنظريتي . وعندما حان موعد عودتها الى عمان ، كانت قد وضعتني ، من جديد ، أمام انذار مجلجل : «إما أنا وإما السياسة» ، وتوقعتْ أن تجد الإجابة الحاسمة حين تجيء اليّ في المرّة القادمة .

ولما اعلنت نتائج الامتحانات ، خابرت سمية ، ونقلت اليها نبأ نجاحها هي في معظم المواد ، واستفهمت عن موعد قدومها لامتحانات الدورة الثانية ، ثم تعمدت ان اقطع المكالمة قبل ان أجيب على أسئلتها الملحاحة بشأن نتائجي ، ذلك لأني كنت قد رسبت في معظم المواد ، فلم اجرؤ على أن ابلغ هذه النتيجة إليها .

صدمني الرسوب ، بالرغم من اني توقعته قبل الاعلان عن النتائج . وازاء خشيتي من ان اخسر عاماً جامعياً بكامله ، عزمت على تخصيص وقت كاف للدراسة في الصيف كي اتدارك الأمر في دورة الامتحانات الثانية . الا اني رحت أرجىء انفاذ هذا العزم يوماً وراء يوم ، متعللاً بتكاثر المشاغل في ذلك الصيف الذي تواترت فيه الاحداث على نحو لم يفسح لي مجال الانصراف الى الشأن الشخصي . وعندما اقترب موعد الامتحانات دون أن ألقي نظرة واحدة على مواد الدراسة ، منّيت نفسي بأن اتفرغ لها أثناء شهر الامتحانات ذاته . ولأن سمية ستكون في دمشق في هذا الشهر فإن وجودها سيساعدني ، وسأبرهن لها على اني قادر على الجمع بين العام والخاص . والحقيقة ان سميّة جاءت بالفعل وتجنبت أن تجعل من تقصيري في الدراسة سبباً للمناكفة الدائمة ، بل حثتني على تدارك ما فات ، مرجئة الجدل حول مسلكي كله الى ما بعد الامتحانات .

وقد قمت ، بصحبة سميّة ، بما استطعت القيام به ، وأدّيت امتحانين جيدين ، ثم وقع ما ليس في حسباني او حسبانها فقلب حساباتي وصرفني عن المتابعة .

ففي السادس والعشرين من أيلول / سبتمبر ١٩٦٢ ، قامت الثورة في اليمن ، واسقط الثوار نظام الإمامة وأعلنوا الجمهورية ، وتبع ذلك ما تبعه مما تعرف من الاحداث الكبيرة . وقد أثّر هذا تأثيراً قوياً على مجرى الحياة العامة في سورية التي بدا انشغال ناسها باحداث اليمن قريباً من انشغال اليمنيين أنفسهم بها . ولم أعد ، بعد ، قادراً على الاستنكاف عن اداء الواجبات العامة المستجدة ولا بقي في إمكاني أن أجاري رغبة سمية . ولا بدّ ان هذه الفتاة التي حملت نفسها على الصبر لبعض الوقت قد ادركت ، هذه المرة ، على نحو حاسم ، ان الشأن العام هو وحده الذي يجتذبني ، كما لا بدّ أنها ، هي التي لم تعد تراني الا لماما بالرغم من أنها مددت فترة إقامتها في دمشق خصيصاً من أجلي ، قد استاءت اشدّ الاستياء . والمدهش ان سمية التي كانت تكثر ، في السابق ، من توجيه الملاحظات ، التزمت ، هذه المرة ، الصمت التام ، ثم رحلت قبل ان تفوه بكلمة واحدة .

وقعت ، اذن ، الثورة الجمهورية في اليمن ، وأيّدها عبد الناصر على الفور وجنّد امكانيات مصر لحمايتها ، وايدها البعثيون واستبشروا بها خيراً . وقد اشّر هذا كلّه على بداية المرحلة التي أخذ عبد الناصر يستعيد فيها مكانته بعد هزّة الانفصال وأظهر أن الحركة القومية العربية التقدمية ما تزال قادرة على استعادة زمام المبادرة ، وفهم جميع الذين يعنيهم الأمر ان الكفّة آخذة بالميلان لصالح هذه الحركة .

في ذلك الوقت ، كانت الخصومة بين التيارات القومية ، وبضمنها الناصري والبعثي ، وبين نظام عبد الكريم قاسم في العراق ، المدعوم من الشيوعيين ، قد بلغت ذروتها . كان القوميون يأخذون على نظام قاسم إقليميته ويتهمونه بمعاداة الوحدة العربية ويحرضون الناس ضده على هذا الاساس . وعلى ما بينهم من خلافات عديدة في سورية وغيرها ، تعاون

البعثيون والناصريون في العراق، مثلما تعاونوا على نحو أو آخر في سورية ذاتها. وبقيام الثورة اليمنية ووجود بعثيين وناصريين في عداد القائمين بها، ارتفعت معنويات البعثيين الى الأوج، وتوفر عامل جديد لتعزيز التعاون بينهم وبين الناصريين في سورية والعراق. وبالاجمال، ساد الاعتقاد بأن سقوط النظامين العراقي والسوري، لصالح تحالف بعثي ناصري قد غدا مسألة وقت ليس إلا.

في هذه الظروف المؤاتية، بدأ البعثيون في سورية يجنون ثمرة الجهود التي بذلوها منذ اعادوا تنظيم انفسهم، وشهد نشاطهم انطلاقة جديدة متّنت حضورهم في الحياة السياسية في البلاد. وقد ترتب على هذا ان زادت الاعباء وكثرت المهام الموكولة الينا. وكان بضمن ذلك أن اشتد تواتر المظاهرات التي نقوم بها في الشوارع ونصطدم خلالها مع قوات الامن. لم تكن الصدامات مستبعدة قبل ذلك، الا انها صارت منذ الحدث اليمني اشد: جمهور اعظم جرأة وثقة بنفسه في مواجهة حرّاس السلطة الذين فقدوا الإحساس بالثقة بسلطتهم فتدنت معنوياتهم؛ وقوى سياسية تؤمن بأن فرصتها قد حانت وتتظاهر لإثبات الوجود وتأكيد القوة؛ وسلطة تدرك ان فرصتها موليّة فتسعى لتمديد أجل نهايتها او تبديل هذه النهاية او تخفيف وقعها. صارت المظاهرات تقوم في الليل فضلاً عن النهار، وتستهدف مشاغلة قوى النظام واستفزازها وترويعها فضلاً عن كسر هيبتها. واذا كان البعثيون والناصريون قد استنفروا اقصى قواهم للمواجهة فقد استنفرت السلطة من جانبها كل ما لديها من قوى. وانتشرت ظاهرة المظاهرات الطيارة على أوسع نطاق، يتظاهر مئات من الناس في أمكنة كثيرة متباعدة ويشتبكون مع قوات الشرطة قبل أن تتم هذه تجمعها ثم يتفرقون ليظهروا في أماكن أخرى ويعاودوا الاشتباكات. كنّا ندعى للتواجد في نقطة معينة في البلد في وقت جرى تحديده بدقة، وما أن نجتمع حتى تنفرد اليافطات المعدة مسبقاً وتنطلق الهتافات فيجتمع ناس المكان حولنا. وعندما تقدم وحدات الشرطة، كنّا نبادر الى رجمها بالحجارة او نشتبك معها بالأيدي اشتباكات قصيرة مع الحرص على عدم

تمكين الشرطة من القيام باعتقالات ، ثم نتفرق بهدي إشارة متفق عليها لنلتقي من جديد في نقطة أخرى .

وفي واحدة من هذه المظاهرات ، وكان تجمعنا قد التأم قرب مقرّ رابطة الطلاب المغاربة غير بعيد من حديقة السبكي ، اعتقلت الشرطة ثلاثة من أصدقائنا . كانت الطالبة البحرانية فوزية الدلال بين الثلاثة ، اما الآخران فهما حميد بصل ، أخو محمد ، وطالب آخر اسمه موسى الإمام ، وكلاهما فلسطيني . وقد سيق الثلاثة الى سجن القلعة في وسط المدينة واخضعوا لتحقيق فوري . فزعمت فوزية التي لا ينقصها الذكاء او الجرأة انها كانت في طريقها الى الرابطة للالتقاء باحد الزملاء لشأن يتعلق بدراستها حين فوجئت بالقاء القبض عليها . وتظاهرت الفتاة ذات الخبرة الطويلة في العمل السري بالبراءة التامة واستنكرت أن تعتقلها الشرطة هي الفتاة الغريبة عن البلد ، وطلبت ان يخلى سبيلها فوراً . وقد أفرج عن فوزية في الليلة ذاتها التي اعتقلت فيها . اما الطالبان الفلسطينيان فإن الشرطة ابقتهما في السجن بضعة ايام اخرى ، ثم اقدمت السلطة على خطوة غير مسبوقة في الحياة السياسية السورية ، اذ قامت بابعاد الطالبين عن البلد وقذفت بهما ، عنوة ، خارج الحدود ، باتجاه الأردن . وأذهلنا هذا الاجراء الغريب نحن الذين لم نألف التمييز بين فلسطيني وسوري . وأثار الاجراء سخطاً شاملاً في الأوساط الطلابية على اختلاف تياراتها ، واستنكرته قوى سياسية كثيرة بما فيها قوى تؤيد الانفصال . وكان أن تحول إبعاد السلطات للطالبين الفلسطينيين الى حافز جديد لمظاهرات جديدة تطالب بإعادتهما . وفي الاردن ، الذي وُجد الطالبان فجأة داخل حدوده ، لم يبد هذا الاجراء السوري مفهوماً للسلطات . وكانت هذه السلطات تضيق بالمشاغبين من مواطنيها الفلسطينيين ولم يكن لديها ما يحملها على الترحيب بمشاغبين آخرين تلقيهم اليها سلطات بلد آخر . ولا بدّ أن السلطات الاردنية تحسبت من أن يصير الأمر سابقة فيزيد من همومها مع الفلسطينيين ، فأظهرت معارضتها للإبعاد . وبالرغم من هذه المعارضة وازدياد استنكار الشارع السوري للإبعاد ، فان عودة حميد وموسى من

السجن في الاردن الى دمشق لم تتحقق الى أن تولى البعث السلطة في سورية فاستعادهما ، واحتفلنا بعودتهما احتفالاً مجلجلاً . لكن ، بعد حادث الإبعاد ، هذا ، لم يقدم عهد الانفصال على إبعاد أحد بالرغم من تهديدات سلطاته بأنها ستبعد المشاغبين من الفلسطينيين . والمثير للانتباه ، في هذا الحادث ، ان السلطات التي تتكتم في العادة حين يتعلق الأمر بما تقدم عليه من اجراءات القمع ، قد تعمدت أن تذيع بياناً رسمياً حول إبعاد الطالبين الفلسطينيين وتتوعد بإبعاد المزيد . ولم يكن للإعلان عن الإبعاد سوى تفسير واحد ، إذ إنه جاء في سياق محاولة السلطات للايحاء بأن الذين يعارضون الانفصال وينشطون في مقاومته هم الفلسطينيون ، وحدهم ، في حين ان السوريين راضون به . والحقيقة أن المزاج الفلسطيني الغالب كان ، حقاً ، ضد الانفصال ، وأن المنتمين من الفلسطينيين للأحزاب والتنظيمات الوحدوية كانوا بين النشطاء في مقاومة السلطة . إلا أن هذا لا يعني أن الفلسطينيين كانوا ، كلهم ، ضد الانفصال او نشطاء في مقاومته ، كما ان هذا لا يطمس الحقيقة الماثلة وهي أن غالبية السوريين ، وبضمنهم ناس ايدوا الانفصال في البداية ، قد ايدت المعارضة التي يقف البعثيون والناصريون في طليعة صفوفها .

ومهما يكن من أمر ، فإن ازدياد نشاطات المعارضة حدّة وجرأة وجد أصداءه الفورية في الجيش ، فازداد تواتر التمردات العسكرية ، وانضم عسكريون وحدويون كثيرون الى النشاطات العلنية ، فازداد ، بالتالي ، عدد المعتقلين او المسرّحين او الملاحقين في الجيش وعم السخط معظم الوحدات ، ووهنت مقدرة القيادة العسكرية في مجال السيطرة على جيشها .

في هذه الاثناء ، واصلنا نحن البعثيين الفلسطينيين ، مطالبتنا بتعزيز وضعنا باعتبارنا منظمة مستقلة داخل الحزب ، وكنّا نطمح الى ان تقرّ القيادة القومية بوجود قطر فلسطيني وتشكيل منظمة حزبية قطرية تضمّ البعثيين الفلسطينيين أيا كان مكان تواجدهم . ومن جانبها ، واصلت القيادة القومية ، وخصوصاً امينها العام ميشيل عفلق ، معارضتها لهذا

الطموح الذي رأت فيه نزعة غير مقبولة نحو القطرية ، او الإقليمية . ولم نكن قد ظفرنا ، بعد ، بفرزنا ، في دمشق ، في فرقة خاصة ، حين عرفنا ان منظمة الحزب في غزة وكل اعضائها ، بالطبع ، من الفلسطينيين ، تطالب بالشيء ذاته ، وان فلسطينيين بعثيين آخرين في أماكن أخرى متفرقة ، في القاهرة ، ولبنان ، والكويت ، يتطلعون الى الهدف ذاته . وكان بإمكان هؤلاء الطلبة ان ينسقوا جهودهم بصورة غير رسمية خلال اللقاءات التي تجمعهم في اطار نشاطات الاتحاد العام للطلاب . ثم ان لجنة فلسطين المشكّلة في دمشق لعبت دوراً مهماً في هذا المجال ، تم ذلك من خلال الدراسات والتوصيات التي تبلورها اللجنة وتضعها في تصرف القيادة ، بالإضافة الى المطالبة المباشرة الصريحة . وقد انتهى هذا كله بما شكله من ضغط على المعارضين وبما اجتذبه من تأييد ، الى أن توافق القيادة القومية على عقد لقاء يضم ممثلين عن الأعضاء الفلسطينيين في الحزب في اكثر من بلد . لم تشأ القيادة أن تسمّي هذا اللقاء مؤتمراً ولم تقبل ، بالتالي ، ان يختار المندوبون إليه بالانتخاب ، بل احتفظت لنفسها بحق تسمية المندوبين ، معطية للّقاء ، بهذا ، طابعاً استشارياً وحارمة ناسه من أي صلاحيات تنظيمية . وبعد التشاور مع لجنة فلسطين وقيادة التنظيم في قطاع غزة والمعنيين الآخرين بالأمر ، تقرر ان ينعقد اللقاء في بيروت . فبدأنا ، في دمشق ، فور تلقينا قرار القيادة بعقد اللقاء ، الاستعداد له ، مصممين على أن نجعله من الناحية العملية مؤتمراً لفلسطينيّي حزب البعث .

هنا ، تحولت لجنة فلسطين الى خلية للدراسة . وقد أعددنا دراسة وافية حول القضية الفلسطينية ، ودور الشعب الفلسطيني فيها . وكان أهم ما ركزت عليه الدراسة ، مما لا أزال أتذكره ، ضرورة التمييز بين حزب البعث ، بوصفه حزباً سياسياً ذا لون واحد وأهداف من طبيعة طبقية ، والحركة الوطنية الفلسطينية المتنامية التي تتشكل من تيارات كثيرة وتتخصص في العمل لتحرير الوطن المغتصب . وفي المناقشات التي بلورت هذ الدراسة ، وضعنا اليد على جملة من الافكار التي ستصير منذ ذلك الوقت هادية

لسلوكي في الشأن الفلسطيني . فإلى تعمق القناعة بأهمية التكامل بين العمل الوطني الفلسطيني والعمل القومي العربي ، برزت القناعة بضرورة التوجه الى حصر اسرائيل ضمن امكانياتها وعدم اتاحة الفرصة لها كي تتوسع . لقد تلمسنا منذ ذلك الوقت المبكر مخاطر السياسات المزايدة التي ترفع شعار القضاء على اسرائيل ، واقتنعنا بأهمية اتباع سياسة عقلانية توائم الظروف والامكانيات المتوفرة فعلاً ، كما لمسنا ، منذ ذلك الوقت ، أيضاً ، الاهمية الاستثنائية لابراز الشخصية الوطنية الفلسطينية وبناء الكيان الفلسطيني الخاص وتأثيره المتوخى في المجالين العربي والدولي . وقد أنهينا الدراسة بقائمة من المقترحات ؛ وكان ابرزها دعوة الحزب الى تبنّي العمل لتشكيل جبهة وطنية فلسطينية تضم قوى الحركة الوطنية الفلسطينية كافة ، وفي عدادها البعثيون الفلسطينيون ، ويدعمها الحزب بإمكانياته القومية دون أن يتدخل في شؤونها الداخلية ، والعمل على إبراز الشخصية الوطنية الفلسطينية وتأييد كل ما من شأنه أن يدعم اعادة بناء الكيان الوطني الفلسطيني الذي دمرته كارثة ١٩٤٨ . واقترحت اللجنة قائمة بأسماء الأعضاء الذين يمثلون بعثيي سورية في اللقاء المرتقب . وكنت واحداً منهم ، وكان منهم ، ممن لا ازال أتذكر أسماءهم ، محمد بصل واميل صبيح وعمر خليفة المغرم بالشؤون النظرية ، كما كان منهم كمال الخالدي الحائز حديثاً على دبلوم الدراسات الاجتماعية من جامعة القاهرة والمتردد حتى ذلك الوقت بشأن دعوتنا الى التميز الفلسطيني في إطار الحزب .

ولأن الفلسطينيين كانوا ممنوعين من دخول لبنان إلا بعد سلسلة من الاجراءات المعقدة التي يصعب علينا اتمامها ، فلم يكن بمقدور أي منّا أن يسافر الى بيروت بصورة شرعية . وقد حاولت قيادة الحزب ان تحصل لنا على الإذن الخاص الذي يمكننا من دخول لبنان والذي ينبغي ان يوقعه وزير الداخلية اللبناني شخصياً ، فلم تفلح في الحصول عليه . عندها ، تقرر ان ندخل لبنان تهريباً . وقد اصدرت قيادة الحزب تعليماتها الى منظمة حمص ومنظمة لبنان كي تعدّا الترتيبات اللازمة لتهريبنا عبر الحدود

وتأمين اقامتنا في العاصمة اللبنانية . وهيأنا انفسنا للسفر الوشيك ، وانتقلنا الى حمص . الا ان امراً لم يكن في الحسبان ، ولم اعد اتذكر تفاصيله ، افسد الترتيبات المعدة لعبورنا الحدود ففشلنا في عبورها . لكن اللقاء الموعود انعقد بالرغم من غيابنا عنه نحن الدّاعين إليه . وقد حضر هذا اللقاء بعثيون فلسطينيون من لبنان وغزة والاردن والكويت ، وشكّلت الدراسة والمقترحات التي اعددنا في دمشق اساس مداولاته ، وانتهى الأمر بأن تبنى الحاضرون المقترحات التي قدمناها .

بعد ذلك بوقت قصير ، اي في شباط / فبراير ١٩٦٢ ، انعقد المؤتمر القومي الخامس للحزب ، وكان هذا هو المؤتمر الاول الذي ينعقد بعد الانفصال ، وهو الذي بلور شؤون الحزب التنظيمية وخطه السياسي وأكد تعافي الحزب من الأزمة التي تعرض لها بعد وقوع الانفصال . انعقد المؤتمر في حمص ، سراً ، بالطبع ، ولم أكن في عداد المندوبين اليه لكنني تابعت مجرياته بدقة من خلال صلتي الحميمة بعدد من المندوبين . لقد شهد هذا المؤتمر حضوراً كثيفاً للبعثيين العراقيين ، فضلاً عن السوريين . وشكّل الشأن الفلسطيني واحداً من محاور الاهتمام في المؤتمر ، ليس بسبب ضغوطنا ، وحدها ، بل لأن هذا الشأن كان يفرض نفسه على اهتمامات العاملين في السياسة في البلدان العربية كلها ، وخصوصاً منها تلك التي يتواجد فيها الفلسطينيون . وكان السعي الى ابراز الشخصية الفلسطينية وإعادة بناء الكيان الوطني الفلسطيني قد تحول من دعوات متفرقة تظهر هنا أو هناك ويجهر بها هذا او ذاك الى حركة متزايدة الحضور والفاعلية ، بحيث لا يملك أحد أن يتجاهلها .

وفي المحصلة ، تبنى المؤتمر القومي الخاص لحزب البعث ما طالب به اللقاء البعثي الفلسطيني في بيروت ، فأكد على قرار المؤتمر الرابع بالعمل على انشاء جبهة وطنية فلسطينية وأوجب على الحزب تأييدها . وبهذا ، سجل المؤتمران القوميان ، الرابع والخامس ، في تاريخ حزب البعث ، موقفاً رائداً سبق الحزب فيه المنظمات العربية القومية الرئيسية الأخرى . أما بالنسبة لنا نحن البعثيين الفلسطينيين فقد مثّل القرار مكسباً كبيراً شعرنا

أننا حققناه بثباتنا في المطالبة بتميز الفلسطينيين والقضية الفلسطينية . وقد سلّحنا القرار بالسند الشرعي في الحزب لمتابعة جهدنا في هذا الاتجاه . وإن يكن هذا السعي بالذات هو الذي عرّضنا لبغض الكثيرين من البعثيين . كنّا سعداء بما انجزناه وقد عددناه خطوة متقدمة في الاتجاه الصحيح ، اما مبغضونا فاتهمونا بالإقليمية ، وتشبثوا بمعارضة مطالبتنا بالتميّز في منظمة حزبية مستقلة .

وبعد أن أنهى المؤتمر أعماله في حمص ، وفي جوّ التفاؤل العميق الذي عززه نجاح عمل المؤتمر ، جاء الكثير من اعضائه غير السوريين الى دمشق ، وكان بين هؤلاء عدد كبير من العراقيين . ولأن معظم المندوبين العراقيين الى المؤتمر كانوا في عداد من أيّدوا دعوتنا الى الجبهة الوطنية الفلسطينية وتحمسوا لها ، فقد حرص محمد بصل على جمعهم بنشطاء البعثيين الفلسطينيين في دمشق . وهكذا تهيأ لي أن أتعرف على علي صالح السعدي وكريم شنتاف وهاني الفكيكي وطالب شبيب وحمدي عبد المجيد وفيصل الخيزران وكثيرين آخرين من الذين يقودون منظمة الحزب في العراق والذين انتخب عدد منهم أعضاء في القيادة القومية الجديدة للحزب ، وحققوا للعراق حضوراً كبيراً في هذه القيادة . ومع هؤلاء ، ضمتني لقاءات كثيرة ، انعقد بعضها في منزل محمد أو في المنازل التي يقيمون فيها ، وانعقد بعضها الآخر في أماكن عامة أبهج هؤلاء أن يتمكنوا من السمر فيها بعد أن طال بهم الأمر في العمل سراً تحت الارض في العراق . والواقع اني سعدت بمعرفتي بهؤلاء البعثيين المفعمين بالحماس . إلا أن سعادتي بهم شابها شيء لم يكن له عندي في ذلك الوقت تأثير حاسم ، لكنه لم يكن أيضاً بغير تأثير ، فقد لاحظت خلال الحوارات المديدة التي أدرتها معهم انهم مسكونون ببغض شديد للشيوعيين وتوق هائل للانتقام منهم . لم تكن لي في ذلك الوقت أي صلة خاصة بالشيوعيين ، وكنت مثل البعثيين ، آخذ على الشيوعيين الكثير من مواقفهم كما كنت اعدّ تأييدهم للعهد الانفصالي خطأ وقعوا فيه دون مبرر معقول ، لكنني لم ابلغ حدّ احتساب الشيوعيين في عداد الاعداء . وقد

حاججت محاوريّ العراقيين طويلاً في هذه النقطة ، وإن ظللت عاجزاً عن تليين روح العداء المستحكمة في نفوسهم ضد الشيوعيين . ولا بدّ ان تشبثي بالمحاججة قد لفت نظر الرفاق العراقيين الذين لم يتوقعوا ان يجدوا في الحزب مَنْ يدعوهم لتخفيف بغضهم لأعدائه . أما أنا ، فقد تشكّل عندي ، منذ ذلك الوقت ، شيء ما ضد هذه العداوة ، شيء ليس بالضبط قلقاً أو ريبة ، ولكنه ، على كل حال ، سلبي ، وان لم يمنعني ، في حينه ، من الاستمتاع بالصحبة الجديدة المتوفرة لي والاستمتاع بما اكتشفته من تقارب في وجهات النظر في شؤون اخرى كثيرة .

وأيا كان أمر هواجسي هذه . فإن المؤتمر القومي الخامس أعطى دفعة جديدة فعّالة لعمل حزب البعث ؛ فقد حسم مسألة الافتراق الكامل بين الحزب المتطلّع لوحدة عربية مدروسة ومشروطة بتوفر الأسس التي يرى البعثيون انها تضمن استمرارها وبين الذين انفصلوا عن الحزب فأيدوا الانفصال أو انضموا الى دعاة الوحدة الفورية من الناصريين . كما أعطى المؤتمر دفعة مماثلة لعمل الحزب على الساحة الفلسطينية . وكان في عداد القيادة القومية التي انتخبها المؤتمر الفلسطيني خالد اليشرطي ، وهو أول فلسطيني يدخل هذه القيادة بهذه الصفة ، اذا تذكرنا ان الفلسطيني عبد الله الريماوي ظفر بعضوية القيادة القومية في الخمسينات بوصفه ممثلاً لحزب البعث في الاردن . وقد تميز اليشرطي ، الذي كان بين نجوم لقاء بيروت الفلسطيني ، بتأييده لتوجهنا الى التميز ، فظفرنا ، بوجوده في القيادة القومية ، بدعم جديد لهذا التوجه .

ومضت الأيام ، مفعمة بالأحداث ، ونحن غارقون فيها حتى الآذان . واستمر الحزب في تعزيز مكانته ، في الشارع ، وفي المنظمات الجماهيرية والنقابية ، وفي الجيش . واتبع الحزب سياسة صبورة مع الناصريين ، سياسة قوامها البحث عما هو مشترك معهم وحملهم على التعاون . وبدا لكل ذي بصيرة في البلاد ان راية المستقبل منعقدة للبعثيين والناصريين ، وهذه حقيقة ادركها الانتهازيون ، أيضاً ، والمترددون بين تأييد الانفصال وتأييد التوجه الوحدوي ، مما حمل كثيرين منهم على الالتحاق بالركب

قبل فوات الأوان . فكان ان شهدت حركة الانتساب للبعث او للمنظمات الناصرية تزايداً لم يسبق له مثيل .

وفي يوم ، كنّا متجهين فيه لعقد اجتماع للجنة فلسطين في منزل محمد بصل ، وقبل أن نبلغ المنزل ، انفرد محمد بي ، وكان قد عاد لتوّه من لقاء مع صلاح البيطار ، وسألني هذا السؤال : «كيف سيكون رد فعلك لو أن الجيش قام بانقلاب ونجح في اقصاء الانفصاليين ثم دعا قيادة الحزب الى استلام السلطة؟» . ولأن أمراً كهذا الامر كان بين ما يرد في البال في ظروف تلك الفترة ، فقد كان جوابي حاضراً : «يتوقف الأمر على طبيعة العسكريين الذين يقومون بالانقلاب ، هل هم اعضاء في الحزب ام لا ، وهل يقومون بالانقلاب تنفيذاً لخطة وضعها الحزب ، ام بمبادرة منهم ، وعلى مدى ولائهم للحزب واستعدادهم للانصياع لاوامر قيادته ، هل نحن إزاء ثورة يشكل العسكريون رأس حربتها أم إزاء مغامرة لعسكريين يبحثون عن جمهور يؤيدهم؟» . ورحت ، في ما بقي من الطريق الى المنزل ، أقلّب الاحتمالات .

ولم أدرك وقتها ان حديثنا كان يدور حول حدث قد تم إعداده بالفعل .

١٥ يتفقـــون علـى الوحــــــدة ويتقــاتــلـــون فـــي الشــوارع

لا بد أن ما وقع في العراق وما تبعه في سورية ، في العام ١٩٦٣ ، معروف لديك باجماله ان لم يكن بتفاصيله . ففي الثامن من شباط / فبراير ، الموافق للرابع عشر من رمضان ، شهد عبد الكريم قاسم وعدد من كبار معاونيه نهايتهم الفاجعة في بغداد وسقط نظامه ، وصار الضابط الناصري المستقل المتحالف مع البعثيين ، عبد السلام عارف ، رئيساً للنظام الجديد في العراق ، وبرز البعثيون سادة لهذا النظام ، وتشكلت حكومة ضمت غالبية ظاهرة من البعثيين المدنيين والعسكريين ، وكان بينهم عدد من أقطاب الحزب الذين سبق أن تعرفت عليهم في دمشق ، فأسعدني ذلك .

كان هذا حدثاً ضخماً بدا معه ان المنطقة كلها على وشك الدخول في مرحلة جديدة وأن حزب البعث مرشح لان يتصدر الزعامة في هذه المرحلة ويسمها بطابعه ويوجه أحداثها . وكان لأنباء بغداد وقع الصاعقة في دمشق وليس أقل من ذلك ، وقد تنوعت ، بالطبع ، ردود الفعل ، دون أن

يفتقر أي منها الى الاهتمام الشديد بما يجري في البلد الجار. اجج الحدث حماس البعثيين المنتظمين في الحزب واجتذب الى تنظيمهم أعداداً اخرى ممن ترددوا في العودة اليه قبل ذلك. وسواء تم الامر نتيجة التعاطف مع الرفاق السابقين والاقتناع بأن نهجهم هو الأصوب، أو نتيجة النفاق والرغبة في الالتحاق بالركب الظافر، فإن هؤلاء، بمعظمهم، أعلنوا مواقف مؤيدة لما وصف بثورة شباط او ثورة رمضان. وسعد الناصريون بسقوط مناوئهم العنيد، قاسم، وعهده، واستبشروا خيراً بالتطورات الجديدة، خصوصاً لأن اقرانهم العراقيين شاركوا في الحدث وايّدوه وتولّى بعضهم بعض مواقع المسؤولية في النظام الجديد، وخصوصاً، ايضاً، لأن مجلس قيادة الثورة الذي أعلن عن تشكيله في العراق، تبنى سياسة وحدوية وندّد بالانفصال السوري. وأحس الانفصاليون بأن الدائرة استكملت دورتها ضدهم، فتبلبلت صفوفهم واضطربت مواقفهم، دون أن يدل أي منها إلا على الخور.

وفوق الجميع، وأكثر من الجميع، كانت فرحة البعثيين السوريين شاملة. وقد بادر ميشيل عفلق وصلاح البيطار الى عقد مؤتمر صحافي في بيروت وتحدثا فيه مِنْ موقع مَنْ تولّى المسؤولية لتوّه، فأكد حديثهما هوية العهد العراقي الجديد كعهد بعثيّ السمة بالأساس ودور الحزب كحزب يتقدم الصفوف في العراق ويتطلع الى دور مماثل في سورية في وقت قريب. ووسع البعثيون السوريون نشاطاتهم وزادت تحركاتهم فاعلية، واشتدت جرأتهم على السلطة، واظهرت ردود فعل السلطة أنها تهابهم بالفعل.

وأنا اتذكر أن المظاهرات التي نظمها الحزب في سورية بعد حركة شباط - رمضان العراقية صارت يومية، وأن حشود المشاركين فيها أخذت بالتزايد مع توطد أركان العهد الجديد في العراق. وكان هدف المظاهرات تحشيد المؤيدين للحدث العراقي واظهار الحزب قوةً مؤيدة من الشارع وقادرة على تولي زمام الأمور في سورية. ومن هذه المظاهرات، تحتفظ ذاكرتي بتفاصيل واحدة نظمها الحزب بحيث تنطلق من الجامع الأموي في دمشق. يومها،

تلقينا التعليمات بالتواجد في الجامع الكبير وقت صلاة الجمعة وأداء الصلاة فيه ثم الشروع في المظاهرة فور انتهاء الصلاة . ولم أعرف مَنْ الذي ابتكر فكرة تظاهر البعثيين ، وهم غير متدينين ، انطلاقاً من الجامع ، ولم تعجبني الفكرة ، لكنني توجهت الى الجامع المألوف لي ، التزاماً مني بالتعليمات ، وأخذت مكاني في صفوف المصلين التي انتظم فيها مئات البعثيين ممن أعرفهم أو أعرف وجوههم ، ومنهم ناس لم يسبق لهم أن ترددوا على جامع أو عرفوا كيف تؤدى صلاة الجماعة فيه . وما أن انتهت مراسم الصلاة ، وقبل أن يغادر الإمام المحراب ، حتى فوجىء الجمهور ، في هذا المكان الوادع ، بالهتافات التي أطلقتها مئات الحناجر . وتصادف ان موقعي كان قريباً من عبد القادر قدورة ، الرفيق الدمشقي المشهور بيننا بقوة حنجرته والذي ألفنا وجوده كواحد من أجهر الهتافين صوتاً في مظاهراتنا السابقة . وقد صدح عبد القادر يومها بصوت لم يكن جهيراً فحسب ، بل كان مفعماً بالحنان ايضاً ، وفاجأني ، انا نفسي ، بما لم أتوقعه من بعثيّ حين هتف : «المجد والخلود لشهداء الاسلام على ابواب وزارة الدفاع في بغداد» ، موحياً للجمهور ، بهذا ، ان البعثيين الذين فقدوا حياتهم اثناء اقتحامهم لمبنى الوزارة في بغداد هم من شهداء الإسلام . وكانت المعركة التي دارت على ابواب وزارة الدفاع ، حيث تحصّن قاسم ضد الثائرين عليه ، قد تمتعت بشهرة خاصة بين المعارك الدامية العديدة التي اقترنت بالحدث العراقي كلّه . وقد اثار هذا الهتاف استغرابي ، فإلى عدم تطابق مضمون الهتاف مع الواقع ، شممت فيه رائحة نفاق للمصلين لا تستسيغه مثاليتي أنا الذي يعدّ البعث حركة علمانية ويأبى أن يظهر بغير هذا المظهر . وعندما أبديت هذه الملاحظة لعبد القادر ، ردّ عليّ على عجل : «اترك مثاليتك ، وتعلم كيف تخاطب الجمهور باللغة التي تؤثر فيه!» ، ثم كرر الهتاف ذاته بصوت أجهر وعاطفة اعمق . وعندما شئت ان امضي قدماً في المحاجة ، قال عبد القادر : «هل تريدني ان اهتف في الجامع الاموي لشهداء الاشتراكية وأجزم للناس بأنهم ملحدون حتى يرضى ضميرك؟!» ، ثم ابتسم ابتسامة تقول : ألم أفحمك؟ وصدح بالهتاف من

جديد ، واشار لي بحركة مشجعة كي أكرره مع الذين يكررونه وراءه ، فكان أن صمتُّ مغلوباً على امري . ولما أجهش أحد المحيطين بعبد القادر بالبكاء تأثراً منه بمصير «شهداء الإسلام» البعثيين ، وجّه لي الرفيق العارف باللغة الملائمة غمزة سافرة من موقعه على كتفيّ احد المعجبين به ، داعياً إياي كي أعاين بنفسي تأثير هتافه على الناس . وكنّا قد اقتربنا من باب الخروج الغربي المفضي الى سوق المسكية فالحميدية ، وزحمنا الجمع الخارج للتظاهر .

وصارت جرأة البعثيين على التظاهر انطلاقاً من الجامع حديث البلد في ذلك اليوم . وسواء جرى الحديث من موقع الإعجاب والتأييد أو موقع السخط والاعتراض ، فإن الجميع استخلصوا العبرة الوحيدة الملائمة لواقع الحال : البعثيون قادمون .

وأنت تعرف أن ما تنبأ الناس بقرب وقوعه قد وقع ، بالفعل ، بعد شهر واحد من حركة بغداد ، شهر واحد بالضبط ، ففي الثامن من آذار / مارس ، وكان شهر رمضان قد انقضى وأنهى الناس احتفالاتهم بعيد الفطر ، أنبأت اذاعة دمشق مستمعيها في الصباح الباكر بقيام ثورة وحدوية واسقاط عهد الانفصال .

كنت مع إميل في المنزل حيث استيقظنا على أنباء الراديو التي أيقظت الناس من حولنا وأججت صخبهم . وقد تعجلنا الذهاب الى منزل محمد بصل القريب منّا لنستجلي الصورة ونتابع الأنباء في منزل يتسنى لنا فيه الاطلاع على التفاصيل التي يشتد فضولنا لمعرفتها . كان محمد حسب تقديرنا له وخبرتنا به ، من العارفين بالتفاصيل ، ولم يكن يضنّ علينا بها . وقد ذكّرت محمد بالسؤال الذي وجهه لي قبل أسابيع بشأن احتمال قيام الجيش بحركة ، فأقرّ بأنه ، حين وجه لي هذا السؤال ، كان قد عرف للتو أن قيادة الحزب اتخذت قرارها باطلاق يد الضباط البعثيين في العراق وسورية لتنفيذ التحركات التي قضوا زمناً طويلاً في الاعداد لها .

حركة آذار / مارس السورية ، هذه ، قام بها تحالف ضمّ ضباطاً بعثيين

وناصريين واستقطب تأييد كل من ساءهم عهد الانفصال . وكان الضباط البعثيون ، الذين تشرف عليهم لجنة سرية سميت «لجنة الضباط» ، على صلة بقيادة الحزب ، كما كان الضباط الناصريون على صلة بقيادات منظماتهم العديدة التي نشأت في عهد الانفصال . والحقيقة أن نظرة عاجلة على القائمين بالحركة كانت ستظهر أن معظمهم من الناصريين وأن هؤلاء يشكلون التيار الاقوى . غير ان هذا لم يكن صحيحاً إلا من حيث المظهر ، فقط . أما في الواقع فقد تميز الضباط البعثيون بنقطتي قوة حاسمتين ، فقد كان تنظيمهم السري أحكم واشد تناسقاً بين اعضائه ، وكانوا هم ، اثناء التحضير للحركة ، قد توزعوا الأدوار وكلفوا أعداداً منهم بالتقرب من منظمات الضباط الناصريين المتفرقة والعمل على توجيه نشاطاتها وفق الخطط التي تضعها لجنة الضباط البعثية . وهكذا ، لما أتمت الحركة سيطرتها على المواقع الرئيسية في العاصمة وعلى الاذاعة ، احتشد عدد كبير من الضباط في مبنى وزارة الدفاع والأركان العامة وتوهم الناصريون ان غالبية هؤلاء هم من أنصارهم . وفيما أخذ الضباط المحتشدون في هذا الموقع القيادي يتجادلون حول الخطوات التالية اللازمة لأحكام السيطرة على البلد وفيما تعمد البعثيون المعلنون وغير المعلنين أن يطيلوا أمد النقاش ، انصرفت لجنة الضباط ، بهدوء وتكتم وحزم ، الى توجيه الضباط البعثيين الذين تعرفهم كلهّم نحو السيطرة على الوحدات العسكرية المنشورة في كل مكان . واختارت اللجنة لهذه المهمة أكفأ الضباط وأقدرهم على المبادرة ، وما أن انقضى اليومان الأولان حتى عمّم البعثيون سيطرتهم في كل مكان . وقد جرى ذلك كله وسط حماس الشارع الشديد للحركة الجديدة واندفاع الناس الى تأييدها دون تمحيص في التفاصيل . أما الناصريون ، وقد ركنوا الى ما ظنوه أغلبية متحققة لهم ، فإنهم آثروا التحشد في مبنى القيادة بأمل ان يفرضوا رأيهم في صنع القرارات الهامة وأهملوا الوحدات وعدّوا اندفاعة الشارع لتأييد الحركة تأييداً لهم هم بالذات .

انقضى اذن يومان وثالث في الجدل المديد الذي شهدته مكاتب وزارة

الدفاع بشأن تشكيل الهيئات التي ستتولى مسؤولية البلد وتدير سياسته : المجلس الوطني لقيادة الثورة ، والحكومة ، ورئاسة المؤسسات العسكرية والمدنية البارزة . وقد ناور الضباط البعثيون بأكفأ ما استطاعوا حتى يكسبوا الوقت قبل البتّ بأي شيء ، وكان هذا هو الوقت الذي احتاجوا اليه ليبدلوا اوضاع الوحدات العسكرية وليتم استنفار الجهاز الحزبي البعثي المدني بكامل قوته وحشده ليكون مستعداً إزاء أي مفاجآت . فلّما تم للبعثيين تحقيق أقصى ما يمكن تحقيقه على هذا الصعيد ، وقوى مركز ضباطهم المشتركين في الجدل ، اخذ هؤلاء يضعون مطالبهم الحقيقية بشأن التدابير الكبيرة ، واحداً بعد الآخر ، وهم واثقون من مقدرتهم على تنفيذها .

ولم تلبث الحصيلة أن تجلّت في النتائج التي فاجأت غير المطلعين على حقيقة الوضع . وفيما كانت غالبية الجمهور تظن أنها إزاء حركة ناصرية يؤيدها البعثيون وتتوقع تشكيل هيئات يسيطر عليها الناصريون ، فوجىء المتتبعون بتشكيل مجلس قيادة ثورة يضم اركان حزب البعث المدنيين والعسكريين ويشكل البعثيون وأنصارهم أغلبية منه . ثم اتخذ هذا المجلس قراراته الاولى ، فعين الضابط البعثي لؤي الاتاسي ، بعد ترفيعه الى رتبة لواء ، رئيساً للدولة ، وكلف صلاح البيطار بتشكيل الحكومة . لقد ضمّ المجلس عدداً من أقطاب الناصريين ، وأوكلت لعدد من ضباطهم مناصب عالية في قيادة الجيش ، إلا أن هذا لم يبلغ الحد الذي يجعل لهم تأثيراً على قرارات المجلس او سيطرة على الجيش .

وفي الجوّ ذاته ، وفي ظل توزع ميزان القوى الجديد على هذا النحو ، شكل صلاح البيطار الحكومة الجديدة ، فضمّ اليها وزيرين اثنين من كل تنظيم من التنظيمات الناصرية الاربعة ، وجعل واحداً من هؤلاء ، وهو نهاد القاسم ، نائباً لرئيس الوزراء . ولم تكن هذه أكثر من ترضية شكلية ، ما دامت الصلاحيات التشريعية وصلاحيات رسم السياسة العليا واتخاذ القرارات الحاسمة منوطة بمجلس قيادة الثورة ، وما دام البعثيون يسيطرون فعلياً على قيادات الوحدات في الجيش .

وقد عرفنا ، خلال متابعتنا للتفاصيل وسعينا لاستكناه خلفيات الصورة المعلنة ، أن الناصريين كانوا حانقين ، إلا أن خياراتهم كانت قد ضاقت فلم يبق أمامهم الا واحد من احتمالين : ان ينتقلوا فوراً الى المعارضة فيعطوا للبعثيين المسيطرين سبباً وجيهاً لضربهم ، او يقبلوا بما قسم لهم ، على ضآلته بالقياس لتقديرهم لقوتهم ، وبأمل أن يستفيدوا من مواقعهم في أجهزة الدولة وقوتهم المفترضة في الشارع ويعملوا على تعديل الصورة لصالحهم . ومنذ قبل الناصريون الاشتراك في عمل المجلس والحكومة ، أدرك البعثيون أن شركاءهم في السلطة عازمون على المناكفة مصممون على الاستمرار في المواجهة وتحسبوا لذلك .

والواقع أن الناصريين المنطلقين من الإحساس بالغبن والظن بأنهم كانوا ضحية خديعة ماكرة والمتوهمين بأن لهم في الشارع قوة حاسمة لم يتأخروا في انفاذ عزمهم على المجابهة ضد شركائهم ، بل شرعوا على الفور في تجميع قواهم في الجيش ، وملأوا الشارع بالمظاهرات التي تهتف لهم ولعبد الناصر وتندد ، صراحة او ضمناً ، بالبعثيين وتدعو الى الوحدة الاندماجية الفورية مع مصر ، مخالفين خطة البعثيين الداعية الى وحدة اتحادية مدروسة . وقد اتسمت مخاصمة الناصريين للبعثيين بالحدّة من أول الأمر ، وكشف الناصريون عن رغبة تكاد تكون سافرة بالاستفراد بالسلطة دون البعثيين . ولم يكن عمل الناصريين في هذا الاتجاه بغير ركائز تعزز أملهم بالفوز ؛ فشعبية عبد الناصر التي ظلت قوية في سورية اثناء عهد الانفصال استعادت ألقها الكامل بعد سقوط هذا العهد . وقد استند ناصريو سورية ، اساساً ، الى هذه الشعبية ، فلم يعلنوا غير مطلب واحد هو مطلب إعادة الوحدة وعودة عبد الناصر الى حكم البلاد . ودعمهم في هذا إعلام نافذ وناشط وقوي التأثير ، اذ تجندت في خدمتهم اذاعات مصر القوية كلها ، وهي التي كانت ما تزال تحتفظ باسم الجهورية العربية المتحدة ، الجذاب ، وصحف مصر واسعة الانتشار ، والصحف العديدة التي اصدروها هم في سورية . ولأن حدود قوى البعثيين لم تكن قد ظهرت بوضوح ، ولأن الاجهزة الحكومية ، وبضمنها الأمنية ، كانت ما تزال تضم عدداً كبيراً من

الناصريين بالرغم من اجراءات عهد الانفصال ، فقد حظي هؤلاء ، أيضاً ، بدعم ظاهر وخفيّ من أنصارهم في هذه الأجهزة ، بما فيها أجهزة يديرها مسؤولون بعثيون .

بكلمات أخرى ، شهد عهد آذار / مارس منذ بدايته ازدواجية في السلطة وتداخلاً في مواقع القوى وفوضى هائلة ناجمة عن هذا وذاك ، مما لم يسبق له مثيل في تاريخ البلاد . وكان من المألوف ، مثلاً ، ان يتحدى ناصريون معروفون اجراءات السلطة ويخرقوا النظام ، فاذا طلبتهم الاجهزة المختصة لجأوا الى مكاتب الوزراء والمسؤولين الناصريين واحتموا بها . كما كان من المألوف ان يكلف جهاز حكومي من قبل رئيسه البعثي بمراقبة الناصريين او بالتضييق على نشاطاتهم فيقوم مسؤول في الجهاز بابلاغ الناصريين بما أعدّ لهم ويوجه جهازه للتستر عليهم .

في مواجهة هذا الوضع ، لم يكن البعثيون بغير حول ، فقد كانوا واثقين من متانة وضعهم في الجيش . ومع قوة الحضور الناصري في الشارع ، لم يكن البعثيون بغير سند شعبي . وكان خيار التعاون مع القوى المناهضة للناصرية في البلد ، وبضمنها قوى يسارية ، مفتوحاً أمام البعثيين ، بل إن بعض هذه القوى كان يبادر الى اسناد البعثيين دون أن يطلب منه ذلك . واذا لم يكن البعثيون قد تحالفوا رسمياً مع قوى أيّدت الانفصال ، فقد عمدوا الى بعض التدابير التي ترغم الناصريين على التفكير باحتمال أن يفعلوا ذلك . يضاف الى هذا ان وجود بعثيي العراق في السلطة ، في البلد الجار ، وفّر سنداً اضافياً لبعثيي سورية ، سنداً غير قليل الاهمية ، في واقع الامر . وقد سبق لبعثيي العراق أن أعلنوا سياسة وحدوية فكسبوا سمعة طيبة في أوساط الجمهور الوحدوي ، وبضمنها الناصرية ، في سورية . وبعد حركة آذار / مارس السورية واعادة فتح ملف الوحدة بين سورية ومصر ودعوة بعثيي سورية لدراسة سبل إعادتها على أسس جديدة ، أعلن بعثيو العراق رغبتهم في الانضمام الى هذه الوحدة واقامة دولة من ثلاثة اقطار ، فعنى هذا على الفور زيادة في وزن البعثيين الاجمالي . وما كان بمقدور الناصريين ان يجهروا بمعارضة وحدة ثلاثية

ويتشبثوا في الوقت ذاته بقصر الوحدة على قطرين . وقد حاول الناصريون السوريون ، كما حاول عبد الناصر ذاته ، ان يقيموا ، في دعايتهم الرسمية ، تمييزاً بين بعثيي سورية وبعثيي العراق ، فراحوا يمتدحون بعث العراق ويشيدون بمواقفه ويركزون هجومهم على بعث سورية ويتهمونه بالتلكؤ في اعادة الوحدة . وقد تصرف بعثيو العراق بذكاء ، فثبتوا ما يخصهم من مديح في دعاية الناصريين وأكدوا ، في الوقت ذاته ، على مساندتهم لرفاقهم في سورية . وفي سياق عملهم لدعم الرفاق السوريين ، أقام بعثيو العراق صلات ناشطة مع القاهرة ، فكثرت وفودهم اليها ، ووسعوا المؤيدين لدعوتهم للوحدة الثلاثية بدل الثنائية ، وحاولوا ، ما وسعهم الامر ، تليين موقف القاهرة ضد بعثيي سورية . وفي هذا السياق ، زار علي صالح السعدي القاهرة ، بوصفه نائباً لرئيس الوزراء في العراق ، وحظي فيها بحفاوة وتكريم واسعين ، وأكثر من زياراته لدمشق وواصل هو وغيره من القادة البعثيين العراقيين ، المقيم منهم في بغداد ، او المقيم في دمشق بحكم عضويته في القيادة القومية ، اظهار المساندة للرفاق السوريين . ودخل البعثيون العراقيون في حوارات مستفيضة مع القادة الناصريين لتليين عدائهم للبعثيين او لإحراجهم أمام جمهورهم ، اذا تعذّر تليين العداء .

ولمواجهة الناصريين في الشارع بعد أن اشتطوا في تهييجه ، ولعدم ثقة البعثيين بولاء الاجهزة الحكومية التام لسلطتهم الجديدة ، نشأت الحاجة للاعتماد على التنظيم الحزبي بوصفه قوة أساسية في هذه المواجهة . وتعززت ، في هذا السياق وبتأثيره ، فكرة انشاء الحرس القومي في سورية ، على غرار الحرس القومي الذي انشأه البعثيون في العراق . وهنا ، جاء دورنا ، نحن اعضاء الحزب ، لننخرط في واحدة من أشق المواجهات واوجعها وادماها واكثرها ارهاقاً للوجدان .

هنا . تقتضي الدقة أن أذكر لك أن فكرة تسليح الجهاز الحزبي في سورية برزت وجرى تنفيذها على نطاق محدود قبل مجيء البعثيين الى السلطة . بدأ ذلك لمواجهة تنكيل الانفصاليين وأنصارهم بالبعثيين ، مما ألجأ بعض البعثيين الى اقتناء السلاح . ولما تولى البعثيون السلطة في العراق ،

بادر هؤلاء الى انجاد رفاقهم في سورية ، فأرسلوا شحنة من الاسلحة الفردية التي وجدت طريقها الى التنظيم الحزبي . وكانت حصة فرقتنا الفلسطينية من هذه الأسلحة أربع عشرة قطعة ، وأنا أتذكرها مثلما أتذكر الحقيبتين الكبيرتين اللتين حوتا هذه القطع مع ذخيرتها : بنادق رشاشة من طراز «ستيرلنغ» صغيرة الحجم ، وسبعة مسدسات من طراز «براوننغ» وكمية وافرة من الطلقات من عيار ٩ ملم . اتذكرها جيداً لأن الاسلحة حفظت في الشقة التي أسكنها أنا وأميل وأنيطت بنا مسؤولية التصرف بها حين تدعو الحاجة . وقد كان وجود السلاح في شقتنا سراً خطيراً توجب علينا ، اميل وانا ، أن نصونه ونتحمل تبعاته . ووفر لنا الاشتراك في صيانة السر الاحساس بالتميز ووثق علاقتنا المشتركة . أما التدريب على هذه الأسلحة فكان يجري بطريقة متعجلة . وقد تلقيت أنا تدريباً على المسدس ثم انيطت بي مهمة تدريب بعض الأعضاء عليه . وكانت قيادة الفرقة تنتقي من بين أعضائها وانصارها أولئك الذين تتوسم فيهم القدرة على استخدام السلاح وصيانة السر ثم تحيلهم لي ولأمثالي من المكلفين بتدريبهم عليه . وكنت أجيء بهؤلاء فرادى واختلي بالواحد منهم في حجرة مغلقة ، وأعلّمه كيف يتعامل مع هذه الأداة الحربية ، الى أن يتقن فكها وتركيبها . ولم نسلم الأسلحة وقتها لمن تدربوا عليها لكنهم عرفوا انها ستكون بحوزتهم حين ينشأ أي ظرف يقتضي استخدامها .

وعندما اتخذت القيادة قرارها بتشكيل الحرس القومي ، كان الجوّ ، اذن ، مهيئاً لتنفيذ القرار . وقد انيطت المهمة كلّها بالجهاز الحزبي . وكان بين أسباب ذلك أن معظم الضباط البعثيين عارضوا فكرة تسليح المدنيين أو استهانوا بها . وقد انشئت وحدات الحرس القومي بالتوازي مع وحدات التنظيم الحزبي . فشكلت كل شعبة حزبية كتيبة من الحرس القومي ، وضمت الكتيبة عدداً من السرايا موازياً للفرق التي تضمها الشعبة . واحتاج إعداد التشكيلات الى بعض الوقت خصوصاً لأن الأمر لم يجر بغير معارضة وأن عقبات كثيرة واجهت العمل الذي تولّى معظمه افراد يتلمسون طريقهم تلمّساً دون خبرة مسبقة يعتد بها في هذا المجال . وفي

البداية ، شكّلت وحدات الحرس على الورق . وأبلغ الى كل عضو او نصير موقعه في التشكيل ، وأفهم أن عليه الالتحاق به عندما يدعى إلى ذلك . ثم أخذت قيادات الوحدات تبحث عن مقرات لها في الأحياء ، ووزعت عناوين المقرات على الأعضاء وطولبوا بحفظها كونها سراً من الأسرار الحزبية . وكانت النيّة متجهة الى وضع الخطط لتدريب الأعضاء وتظهير التشكيلات الورقية على أرض الواقع . ولكن ، لم يكن أي من هذا قد تحقق ، حيث توجب على الأعضاء أن يلتحقوا بالمقرات فجأة بتأثير تصاعد العنف في الصراع الذي اشتد بين البعثيين والناصريين . وهكذا ، اقتضى الأمر أن يجري التدريب داخل المقراتِ ذاتها وأن يتم على عجل أثناء تولي الحرس القومي للمهام التي تولاها فعلاً .

كان تصاعد الصراع بين فريقي الحكم قد خلق في البلاد جواً فيه كل مظاهر الحرب الأهلية ولم يبق إلاّ أن يظهر السلاح لاستيفاء هذه المظاهر . وكان في هذا الجوّ ، كما في أي حرب أهلية ، الكثير مما هو غريب ومتناقض . فالقابضون على قمة السلطة الذينِ يشكلون الأغلبية في هيئاتها ، وهم البعثيون ، ينظمون دفاعاتهم سراً ويحرصون على تجنب استخدام الجيش او أجهزة الأمن ضد مناوئيهم . والناصريون المناوئون ، هؤلاء ، يقودهم اعضاء في الحكومة أو مسؤولون آخرون كبار في الدولة ، وينظمون المظاهرات الصاخبة وأشكال الهجوم الاخرى على شركائهم في الحكم ، ويمعنون في استخدام العنف ، يفعلون ذلك في مكاتبهم الرسمية ويستقبلون قادة الشغب في هذه المكاتب ويعاملونهم معاملة الأبطال . كان الناصري جهاد ضاحي . وهو قومي عربي قديم ارتبط اسمه ببعض العمليات العنيفة التي نفذتها الحركة في تاريخها واشتهر بمشاركته في احدى المحاولات التي جرت لاغتيال اديب الشيشكلي ، وزيراً في الحكومة ؛ وكان يجيء الى الوزارة وهو يحمل بدل المسدس مسدسين ظاهرين ، حتى سماه الناس جهاد أبو فردين ، أي مسدسين . وكان هذا الوزير لا يفعل شيئاً في وزارته اكثر من استقبال أنصاره المشتركين في الصراع مع البعثيين وحثهم على المضيّ في الشغب ضد الحكومة

وتطمينهم بأنه سيوفر لهم الحماية . وكان البعثي منصور الاطرش ، ابن بطل المقاومة الوطنية في سوريا ضد الاستعمار الفرنسي ، سلطان الاطرش ، عضواً في مجلس قيادة الثورة ووزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل . وكان لمنصور نفوذ واسع ، في الحزب ، وفي الدولة ، وفي الشارع حيث يحظى بالتأييد والدعم من اوساط تقليدية واخرى ثورية ويتمتع عند الفريقين بسمعة راسخة . هذا الوزير كان يتنقل وهو يلبس فوق بذلته المدينية عباءة يخفي تحتها بندقية رشاشة لا تفارقه . وكان هذا الوزير يختار مرافقيه ، المسلّحين مثله ، من بين أنصاره الشخصيين ويأبى أن يرافقه رجال الأمن الموكلون رسمياً بحمايته . وقد سألت منصور الاطرش بنفسي عن سرّ إيثاره لهذا الوضع ، فأثار السؤال حميته وأجابني بنبرة مَنْ يخطب في جمهور : «يريدها الناصريون حرباً علنية فليتفضلوا! سوف يعرفون اننا لسنا جبناء . في سيارتي صندوقا ذخيرة ومعي انا ومرافقي هذه الرشاشات . واذا هاجمونا فلن ينالوا أياً منا ما دام في حوزتنا طلقة واحدة . سنقاومهم بأنفسنا ، ولن نعطيهم الفرصة ليقولوا ان البعثيين استعانوا عليهم بقوة السلطة . يقولون : الشارع؟ ليكن! ان لنا في الشارع باعاً طويلاً ، مثل الآخرين» . لقد بدا أبو ثائر ، وهذه هي كنية ابن قائد الثورة السورية الوطنية الكبرى ، مخلصاً لقناعته هذه ، وكان مفهومه للشجاعة مطابقاً لها .

وهناك ، بالطبع ، أسباب أخرى ، أكثر وجاهة ، جعلت البعثيين يتجنبون استخدام قوة السلطة ضد الناصريين . فالبعثيون الذين يحملون ، بالأساس ، دعوة الوحدة العربية ويضعونها في مقدمة أهدافهم الكبرى أعادوا بناء تنظيمهم في سورية وسط الخلافات التي عصفت بتياراتهم وفي مواجهة الذين تنكروا لوحدة مصر وسورية ، فتميزوا بتشبثهم باعادة الوحدة وإن قرنوا عودتها بعدد من الشروط . ولو أن هؤلاء البعثيين بادروا الى الفتك بالناصريين لفقدوا جزءاً من مصداقيتهم في هذا المجال . وقد وقف عدد من زعماء الحزب ، ممن عادوا للتنظيم المتجدد ، ضد الاصطدام بالناصريين . وكان بين هؤلاء كثيرون من ذوي الأسماء التي تتمتع باحترام كبير ، ومنهم كثيرون كانوا أعضاء في هيئات الدولة او في قيادة الحزب العليا او فيها

جميعها . واتذكر من هؤلاء ، ممن تعرفت عليهم شخصياً واستمعت مباشرة الى آرائهم ، الدكتور جمال الاتاسي الذي صار وزيراً للاعلام ، وعبد الكريم زهور وزير الاقتصاد ، واديب النحوي . ثم ان البعثيين ، بمن فيهم الراغبون في الدخول في المواجهة مع الناصريين ، تجنبوا استخدام الجيش في هذه المواجهة لأن القوى كلّها كانت ما تزال ممثلة في هذا الجيش ولانهم لا يريدون المجازفة بتعريضه للانقسام وهم الذين أخذوا بتعميم السيطرة البعثية على الجيش اولاً بأول ، وأملوا بأن يتحقق لهم ذلك بهدوء . أما أجهزة الأمن الحكومية ، وقد سبق لي ان حدثتك عن حالها ، فما كان من شأن البعثيين أن يركنوا الى ولائها . يضاف الى كل ما تقدم ان البعثيين ادركوا ان ضربهم للناصريين سيستتبع قطع الجسر الذي مدّوه بينهم وبين عبد الناصر وسيتسبب في كل ما ينجم عن ذلك من مخاطر داخلية وخارجية .

وهكذا ، بقي الشارع هو الميدان الرئيسي للمواجهة ، واستمر اعتماد الحزب على تنظيمه قوة رئيسية فيه . وقد تموجت جولات الصراع ، شدة وليناً ، مع تموجات العمل المعقد الجاري تحت عنوان اقامة الوحدة الثلاثية . وكان عبد الناصر ، الخاضع ، بدوره ، لتأثيرات معقدة ومتباينة ، قد أعلن موافقته على التفاوض مع وفدين يمثلان سورية والعراق بهدف صياغة أسس هذه الوحدة . وقد شكّل العراق وفده بيسر نسبي ، أما سورية فاقترن تشكيل وفدها بجولة صراع حادة ادخلت البلاد ، الحكم والشارع ، في دوامة لم يكن الخروج منها يسيراً على أحد . أقام الناصريون حساباتهم للمفاوضات على أساس أن الأمر في مصر محسوم لهم وانه محسوم في العراق للبعثيين فشاءوا أن يستأثروا بالأغلبية في الوفد السوري لتكون لهم الغلبة في المفاوضات الثلاثية . ولتحقيق الغاية ذاتها ، لصالحهم ، تشبث بعثيو سورية بأن تكون لهم الأغلبية في وفدها . طالب الناصريون بأن تكون رئاسة الوفد لنهاد قاسم وان تتمثل التنظيمات المشاركة في الحكومة بعضوين لكل تنظيم . ولما كان الناصريون موزعين على أربعة تنظيمات فقد عنى هذا أن يمثلهم في الوفد ثمانية أعضاء وأن يتمثل البعث بعضوين

اثنين . وقد رفض البعثيون ، بالطبع ، تشكيل الوفد على هذا الأساس ، وأصروا على أن يعكس الوفد نسب التمثيل الموجودة ، فعلاً ، في هيئات الدولة فيرأس رئيس الحكومة صلاح البيطار الوفد وتكون للبعثيين أغلبية ظاهرة بين أعضائه . ولكي يدعم الناصريون مطلبهم ، زادوا مظاهراتهم في الشارع ، وصاروا يدفعون جمهورهم الى التحدي بمناسبة وبدون مناسبة ، وزاد سلوكهم عدوانية تجاه البعثيين . ولكي يكسر البعثيون شوكة الناصريين ، وضعوا الجهاز الحزبي في حالة استنفار دائم وبذلوا ما في وسعهم من جهد لتعزيز حضورهم في الشارع .

واذا كان الجانب البعثي قد توسل عموماً بالصبر متوخياً الظفر بأطول ما يمكن من الوقت لإحكام السيطرة البعثية على أجهزة الدولة ، فقد ظهر في هذا الجانب ، بمستوياته القيادية والقاعدية ، كثيرون ضاقوا باستفزازات الناصريين وتحفزوا للمواجهة . ولكن الغلبة في صنع القرار بقيت بيد طويلي البال . وها أنا أتذكر حالة دمشق في تلك الأيام التي احتدم الجدل فيها حول تشكيل الوفد . كان مركز المدينة يضج بالمظاهرات الصاخبة وقد حرص الناصريون على جعلها شبه دائمة ، فيما يراقب البعثيون الموقف بعيون يقظة ويوجهون جهدهم الرئيسي لتعزيز تنظيمهم المدني والعسكري ويسجلون النقاط ، الواحدة تلو الأخرى ، ضد الناصريين الذين ارهقوا الشارع بشغبهم . وكان المتظاهرون الناصريون ، وقد أخذوا بكثرتهم في الشارع ، يشتطون في الاستفزاز ، يجهرون بالهتافات المعادية صراحة للبعثيين ، ويظهرون أسلحتهم ويطلقون النار في استعراض ، لا فائدة كبيرة منه ، للقوة ، ويتحرشون بناس الأمن ، ويعتدون على مَنْ يقعون عليه من البعثيين . وكان الراديو يقطع برامجه العادية ليذيع البلاغات التي يصدرها وزير الداخلية البعثي العميد أمين الحافظ بوصفه نائب الحاكم العرفي والتي يذكر فيها الجمهور بأن احكام القانون العرفي ما تزال سارية في البلاد ، وهي تحظر التظاهر ، ويدعوا المتظاهرين الى التفرق . وكان هؤلاء يسمعون البلاغات التي تذيعها ، بالاضافة الى الإذاعة ، مكبرات صوت مركبة على سيارات الشرطة المتجولة ، فلا يكون رد فعلهم إلا الإمعان في

الاستفزاز والهتاف ضد وزير الداخلية .

وكنّا ، نحن البعثيين ، نشهد ما يجري ، نرى ونسمع ، ونتحرق شوقاً الى المجابهة ، فتمنعنا عن ذلك التعليمات الصارمة التي توالي قيادة الحزب التأكيد عليها ، فنغتاظ ولكننا نتذرع بالصبر .

ولما تعذّر ، في غضون ذلك كله ، تشكيل الوفد بالتفاهم مع القيادات الناصرية ، أمام تشبث هذه القيادات بمطلبها ، لجأ البعثيون الى تشكيله بقرار من مجلس الوزراء جرى تمريره بالتصويت ، وقد صوتت الأغلبية للتشكيلة التي اقترحها الحزب ، فعين صلاح البيطار رئيساً للوفد وسمّي عدد من أركان الحزب المدنيين والعسكريين ، وبينهم أمينه العام ميشيل عفلق ، اعضاء فيه ، وضمّ الوفد ، كما شاء البعثيون ، أقلية من الناصريين . وتحدد موعد اللقاء المرتقب في القاهرة ، في نيسان / ابريل ١٩٦٣ . وحبسنا أنفاسنا ، نحن الذين وضعنا الحزب في وضع استنفار دائم وأوجب علينا أن نجتمع في أماكن بعينها ، بانتظار ما ستفضي اليه الأحداث من تطورات ، وسط الفوضى التي تعم البلد .

وقد شهدت الأيام القليلة التي أعقبت الإعلان عن تشكيل الوفد هدوءاً مشوباً بالحذر والتوجس . وقد أمر الأعضاء والأنصار التابعون لفرقتنا الفلسطينية بالتواجد في أماكن ثلاثة حددت لهم ، وكانت شقتنا في ركن الدين واحدة من هذه الاماكن . ورحنا ، إميل وأنا ، نتابع دقائق التطورات عبر محمد بصل ، نترقبه حين يجيء الى منزله ونغمره بالأسئلة . ويبدو ان الناصريين انصرفوا في تلك الايام لدراسة الموقف . وقبل يوم واحد من الموعد المحدد لسفر الوفد ، انتهى الناصريون الى قرار رفضوا بموجبه تشكيلة الوفد على النحو الذي قرره مجلس الوزراء ، وتشبثوا بالتشكيلة التي سبق ان اقترحوها . ووجه الناصريون انذاراً للبيطار فابلغوا اليه انهم لن يشاركوا في الوفد ما لم يعد تشكيله وفق رغبتهم وتوكل رئاسته لنهاد القاسم .

كنت عند محمد بصل الذي جاء الى منزله لتناول العشاء عندما دق جرس الهاتف ، وطلب منه أن يتوجه الى مقر للحزب ، غير مطروق كثيراً ،

في حيّ المزرعة حيث سينعقد اجتماع طارىء لما يسمّى في الحزب مجلس القيادة الموسّع . كان هذا المجلس يدعى عادة للتداول في الأمور الجليلة ، وهو يضمّ السوريين من أعضاء القيادتين القومية والقطرية ، والبعثيين من أعضاء مجلس قيادة الثورة والوزراء ورؤساء الأجهزة الحكومية ، وكذلك رؤساء الاجهزة الحزبية الكبيرة . ولما كان محمد رئيساً للجنة الانضباط الحزبي في سورية فقد كان عضواً في المجلس الموسع ، هذا . وقد حملني الفضول على التوجه مع محمد الى المقر الذي انعقد الاجتماع فيه . وهناك ، التأم جمع عدد كبير من أركان الدولة والحزب وبدأت المداولات الحامية . وقد انتظرت مع الذين انتظروا طيلة تلك الساعات المفعمة بالتوتر التي استغرقها الاجتماع ، الى ان انفضّ قرابة منتصف الليل . ليلتها ، عرفت أن المجلس ناقش أحوال البلد وتلقى اقتراحات شتى لمعالجة الموقف الطارىء . وقد تمحورت الآراء حول ثلاثة اقتراحات : الاول دافع عنه ، ممن اتذكر اسماءهم ، عبد الكريم زهور فدعا الى الاقرار بأن الناصريين يؤثرون على اغلبية الجمهور ، وطالب الحزب بأن يتصرف في ضوء هذه الحقيقة ولو ادى ذلك الى ترك زمام القيادة كلّه لهم ؛ والثاني مثله رئيس الدولة لؤي الأتاسي ، وقد اقترح تأجيل سفر الوفد وتأجيل المفاوضات بالتالي ، ودعوة قادة الناصريين في سورية الى معاودة الحوار من جديد الى ان يمكن ايجاد تسوية مقبولة ؛ اما الاقتراح الثالث فإن العميد امين الحافظ هو الذي عرضه . كان الحافظ شديد الغيظ من سلوك الناصريين وغير حريص على استرضائهم بأي حال من الاحوال . وقد اشتهر الحافظ ، قبل ذلك ، بدعوته إلى ضرب الناصريين بالقوة وكان يصنفهم في مرتبة الغوغاء . وقد سبق لهذا الضابط البعثي أن اصطدم مع الناصريين بيديه ، حدث ذلك أكثر من مرة عندما كان يتجول في المحافظات بوصفه وزيراً للداخلية فيلقاه الناصريون بمظاهرات معادية فيترك سيارته وينخرط في مواجهتهم بجسده المتين . وكان الحافظ قليل العناية بالاعتبارات التي يعنى بها المحترفون والبارعون من العاملين في السياسة ، كان يأخذ الامور ببساطة وبمنطق لا يخالطه التعقيد ولا الفذلكات . وقد اقترح الحافظ ان تظل تشكيلة الوفد

على حالتها التي أقرتها الحكومة ، فاذا استنكف الناصريون عن المشاركة فيه فبامكان البيطار وبقية اعضاء الوفد أن يسافروا غداً الى القاهرة دونهم . وطالب الحافظ بأن يتوجه البيطار فور انتهاء الاجتماع الى قادة الناصريين ويخيرهم بين واحد من أمرين ، لا ثالث لهما : أن يقبلوا الأمر الواقع ، او يتعرضوا للاعتقال فوراً . وتعهد الحافظ بأن تتولى أجهزة وزارة الداخلية ، وحدها ، اعتقال كافة قادة الناصريين قبل ان تشرق الشمس ، اذا ظلوا على عنادهم . وعندما جوبه الحافظ بما يمكن ان يكون عليه رد فعل عبد الناصر ، قال بأسلوبه المعهود : «بسيطة ، يذهب الوفد الى القاهرة ويقول لعبد الناصر انت قمت بانقلاب وحكمت مصر وقبلناك ممثلاً لها ونحن قمنا بانقلاب وحكمنا سورية وعليك ان تقبلنا ممثلين لها!» ، ثم يخيّره بين قبول التفاوض على اساس الامر الواقع او اقفال ملفّ الوحدة الى أن تتبدل الاحوال .

والذي حصل ان الاجتماع القيادي الموسع تبنى مضمون اقتراح أمين الحافظ فأشر ذلك ، بالنسبة لنا نحن الذين تلقينا النبأ ، على غلبة الميل الى المواجهة لدى قيادة الحزب . والذي حصل ، بعد ذلك ، أن القرار المتشدد فعل فعله على الجانب الآخر ، وبدا ان هذا الجانب استخلص مغزى القرار بصورة صحيحة ، فسافر الوفد بتشكيلته المقررة ، في اليوم التالي .

والمدهش أن هذا القرار الذي اتخذ قرابة منتصف الليل من قبل اجتماع سرّي قد وصل الى الاذاعة الاسرائيلية ، وقد بثته هذه الإذاعة في أولى نشراتها الإخبارية ، في السادسة والنصف صباحاً . لقد اذهلت هذه الواقعة ، في حينها ، الذين يعنيهم الامر كلّهم . وأجريت التحقيقات بهدف معرفة الطريقة التي تسرب فيها نبأ اتخاذ القرار الى اسرائيل ، وطال امد التحقيقات دون ان تتوصل الى نتيجة . ثم تواترت احداث اكبر فطوت الاهتمام بهذه المسألة . وما كان احد يعرف وقتها ان الجاسوس الاسرائيلي ، كوهين ، يعيش في دمشق باسم محمد أمين ثابت ويقيم فيها علاقات مع اصناف شتى من الناس ويفتح شقته الفخمة ، المجهّزة بالمتع العديدة ، الى ساعة متأخرة من الليل ويستقبل فيها العديد من الثرثارين . واذا جاز لي أن اخرج ، هذه المرة ، عن النهج الذي ألتزمه في حديثي

إليك ، فأستبق الوقائع التي سيجيء أوان الحديث عنها فيما بعد ، فاني ادعوك لتصور شلّة من المبتهجين بالقرار وقد توجهت ، بعد الاجتماع ، الى مطعم «أبو كمال» ولهجت هناك ، دون تحفظ ، بما وقع في الاجتماع ، فالتقط النبأ واحد ممن يترددون على الشقة المثيرة فحملته الرغبة في التباهي بمعرفة أسرار الجهات العليا على التوجه الى هناك وأعجله الأمل بإتمام السهرة مع صحبة مبهجة ، وما أن أقبل على الجماعة التي استنفدت لوك كل ما لديها من أنباء قديمة ، حتى هتف : «الا تحبون أن تعرفوا ما حصل . . .» .

وأيا كان الأمر ، فقد دارت محادثات القاهرة ، كما عرف ذلك الرأي العام في حينه ، ووفق ما اكدته الروايات التي استمعت إليها مباشرة من عدد ممن شاركوا فيها ، في جوّ سممته الشكوك والتهم المتبادلة والأحقاد وخشية كل طرف من أن يعاود تجربة التعاون مع الطرف الآخر فلا يحصد الا الخيبة . واستخلص البعثيون في الوفدين السوري والعراقي أن عبد الناصر لا يريد لهذه المحادثات أن تصل الى اتفاق ، ورأوا انه يتوخى اطالة أمدها بأمل أن يتمكن ناصريو سورية من الاستئثار بالسلطة فيها دون البعثيين . وفي مقابل ذلك ، تعمد البعثيون احراج عبد الناصر ومحاصرته كي لا يتملص من ابرام الاتفاق الذي يتباحثون بشأنه . وقد وقع في هذا الجوّ ميثاق السابع عشر من نيسان / ابريل ، الذي لا بد انك تعرفه . وقبل ان يغادر الوفدان الزائران القاهرة ، نقلت إذاعاتها الى الرأي العام نبأ الاتفاق على العمل لإقامة وحدة ثلاثية تضم مصر وسورية والعراق ، واغفلت ما يتصل بذلك من الشروط والتحوّطات التي ينطوي عليها هذا الاتفاق .

وما أن اذيع النبأ حتى فاضت شوارع دمشق بالمتظاهرين . وتكدست الجموع في مركز المدينة فملأت الشارع الممتد بين البنك المركزي وسوق الحميدية . وقتها ، لم يخرج الناصريون ، وحدهم ، الى الشارع ، بل خرج البعثيون أيضاً ، وضم الحشد أعداداً كبيرة من الناس الذين لا ينتمون لأي من الطرفين . والحقيقة أن الجمهور المتطلع الى عودة الوحدة ظن ان قلوب المتخاصمين قد تصافت حقاً في القاهرة وأنه على وشك الظفر بالمنجز

العظيم ، فخرج للتظاهر تعبيراً عن الابتهاج . لكن سلوك الاطراف الحزبية في المظاهرات وشى ، على التو ، بأنها لا تأخذ الامر على هذا المحمل . فالبعثيون اعتبروا التوصل للاتفاق برهاناً على تغلب قياداتهم على تردد عبد الناصر ومناوراته ، فخرجوا بدافع استعراض القوة واظهار حضورهم الكبير في الشارع . والناصريون وجدوا في الاتفاق اعلاناً عن قرب عودة عبد الناصر الى حكم البلاد وعزز ذلك املهم بدنوّ الموعد الذي يترقبونه لكي ينتقموا من البعثيين . وهكذا ، شهد الشارع المكتظ بالناس جماعات البعثيين وهي تهتف بنبرة مجلجلة : بعثيّة! بعثيّة! ، بعثيّة! تردد الكلمة بإيقاع يذكر بإيقاع الطبول التي كانت في الحروب الماضية تتقدم صفوف المقاتلين المتجهين لمنازلة أعدائهم ؛ وشهد ، أيضاً ، في مقابل ذلك ، جماعات الناصريين وهي تردد بنبرة ليست أقل جلجلة : ناصر! ناصر! ناصر! وبايقاع ليس أقلّ استفزازاً ولا أضعف تعبيراً عن الاستعداد للعراك .

كنت مع اميل في المنزل حين أذيع النبأ ، وكان في زيارتنا آخرون ، فهبطنا جميعنا الى الشارع فور استماعنا إليه . وبعد حديث قصير مع محمد بصل المتجه الى مقر القيادة ، ركبت جماعتنا أول باص متجه إلى وسط البلد ، دون أن نعتزم القيام بعمل بعينه . وعندما بلغنا ساحة السبع بحرات ، وكان الجمهور آخذاً في التجمع فيها ، غادرنا الباص واندمجنا بالحشد . وَهَدتْنا الهتافات الى جماعة بعثية ، فانضممنا إليها ، ثم لم يلبث أن بدأ السير على إيقاع الهتاف . وكنّا قد صرنا قريبين من جسر فكتوريا في موقع يمكن أن نرى منه مبنى إدارة الأمن العام ، حين اقتربت جماعة ناصرية من جماعتنا . وكما كان يحدث على امتداد المظاهرة كلها ، تقابل الهتافان : «بعثية» ازاء «ناصر» . كنّا أسيري هوس الايقاع الذي تزمجز به حناجرنا مثلما كانوا هم اسيري هوس ايقاعهم . ولا بد أن العيون المترامقة كانت تتبادل العراك . وفجأة وقع ما أجّج غيظنا ، إذ اندفعت الجماعة الناصرية ، آخذة الطريق بالعرض ومبلبلة الصفوف ، نحو جماعتنا ، ووقف هتّاف ناصري على كتفيّ زميل له وسط الجماعة المداهمة ، وهو يردد بهوس محموم : «ناصر!» ويرسل نحونا نظرات غاضبة يدعمها باشارات من

يديه طالباً منّا ان نردد الاسم وراءه . وكان من الطبيعي ، في الجوّ الذي اصفه لك ، ان يتمثل رد جماعتنا في الامعان في ترديد الهتاف الأثير «بعثية» . وبدا الأمر كأنه تبادل حقيقي للقذائف وإن جرى ذلك بالكلمات . وردت نظرات البعثيين وكذلك حركات ايديهم على مستفزيهم بما يظهر بوضوح استهانتهم بهم . فازدادت لمعة الحقد في عيني الهتّاف المنتصب على كتف زميله ، واشتد تعارك العيون ، وعكس الهياج الزائد في الإيقاعين ما يعتمل في النفوس من مشاعر متنابذة . وعلى هذا النحو ، سارت الجماعتان اللتان امتزج طرفاهما ببعضهما مسافة اخرى مدفوعة بحركة الجمهور ، دون ان تغيب قامة الهتّاف الحانق عن أعيننا . كان التدافع الذي تفرضه الحركة على الطول والعرض يقرب هذا الهتاف منا تارة ويبعده تارة اخرى ، فبدا كأنه المقاتل الذي يصول ويجول ، فيكرّ ويفرّ ، دون ان يتخلى عن نيته في الهجوم . وحين صرنا ازاء مبنى الامن العام تماماً ، اي في المكان المجاور لمبنى رئاسة مجلس الوزراء ووزارة الداخلية ، القى الهتاف بقامته من علٍ على رفيق في جماعتنا ، واحاط رأس الرفيق بذراع متمكنة ، وشدّ رقبتهً ، ووضع على الرقبة موس حادة النصل وانذره بالذبح ان لم يهتف لعبد الناصر . تم الانقضاض بغتة وبسرعة هائلة ، فلم نتمكن من الحيلولة دون وقوع رفيقنا في اسر مهدده .

لم تكن تلك هي حادثة الاعتداء الوحيدة التي وقعت أثناء المظاهرة . فقد تكرر الاعتداء على بعثيين في غير مكان ، على امتداد الشارع الطويل ، ووقعت اشتباكات ، واستفرد ناصريون ببعثيين في شوارع جانبية واوسعوهم ضرباً واهانات . وأباح الناصريون لأنفسهم ، في هذه المناسبة ، الذهاب بعيداً في استعراضهم للقوة ، وظهرت الاسلحة الفردية ، دون تحفظ ، ولعلع الرصاص الذي قد يتستر مطلقوه بادعاء الرغبة في التعبير عن الابتهاج ، دون أن يلغي الطبيعة الانذارية للعلعة صوت السلاح غير المرخص في الشارع .

لقد امكن تطويق الحوادث دون وقوع ضحايا ، الا ان انباءها وصلت الى علم المسؤولين . وكان من هؤلاء ، كما تعرف ، ناس يضيقون بالناصريين

وسلوكهم ويتحينون الفرص لوضع حد لتجاوزاتهم . وانا اتذكر ان المظاهرة كانت في أوج زخمها وصخبها حين طافت مكبرات الصوت المحمولة على سيارات الشرطة ونقلت الى المتظاهرين بلاغاً صادراً للتوّ عن العميد أمين الحافظ . هذا البلاغ ابتدأ بتذكير المواطنين ، كالعادة ، بأن احكام قانون الطوارىء ما تزال سارية وان التظاهر ما يزال ممنوعاً ، ثم انبأ المواطنين بأن التعليمات صدرت الى قوات الأمن بتفريق المتظاهرين واعتقال المشاغبين منهم . وكانت تلك هي المرة الاولى التي تقوم فيها وزارة الداخلية ، منذ الثامن من آذار / مارس ، باعتقال الناصريين بمبادرة مصممة مسبقاً . صحيح ان الاعتقالات لم تطل اياً من طاقم الصف القيادي في التنظيمات الناصرية ، إلا أنها تسببت في إحداث أزمة داخل الحكومة . وصحيح ، أيضاً ، أن معظم الذين اعتقلوا يومها احتجزوا لبضع ساعات ، فقط ، ثم أطلق سراحهم ، إلا أن الناصريين عدّوا ما جرى إنذاراً لهم ، صريحاً ، واستخدموه في دعايتهم كونه مؤشراً على ان البعثيين غير مخلصين لاتفاق الوحدة الثلاثية .

واذا كانت صدامات البعثيين والناصريين في الشوارع ظلت بعد ذلك محدودة ، فإن صدامات أعنف وأوسع وقعت في المدارس والجامعة وأماكن العمل . بعض هذه الصدامات جرى تلقائياً بتأثير أسباب طارئة ؛ أما بعضها الآخر فجرى بتدبير مسبق من هذا الطرف او ذاك . ولم تعد الرغبة في إظهار القوة هي ، وحدها ، التي تدفع الى التصادم ، بل تطورت الامور فوشت بوجود نوايا التصفية على الجانبين .

وأنا أتذكر ، بوضوح ، ما جرى في جامعة دمشق . ففي هذا الموقع ذي الاهمية الخاصة في حياة البلاد والتأشير على اتجاه الرياح السياسية ، بلغ التنافس بين البعثيين والناصريين الذروة ، وجهد كل طرف ليثبت انه المتمتع بالسيطرة . وكانت الجامعة ما تزال تتمتع بالحرمة التي لا تجيز لقوات الامن ان تدخلها والتي تجعل التدخل الحكومي في ما يجري داخلها أمراً مستنكراً . وهكذا ، انحصر الصراع بين طلبة الطرفين ، دون تدخل من قوات الحكومة . وفي يوم مشهود من أيام هذا الصراع ، اشتبك

البعثيون والناصريون في قتال سافر ، شكّلت باحات الجامعة وممراتها واروقة كلياتها ميدانه الفسيح .

بدأ الأمر عندما تلقى البعثيون معلومات تفيد بأن الجماعات الناصرية تحضر نفسها لتلقين الطلبة البعثيين درساً وكسر شوكتهم في الجامعة . وقد أكدت المعلومات ، كما أبلغت إلينا في المنظمة الحزبية ، أن الناصريين هيأوا أنفسهم وجهزوا الأدوات اللازمة لضرب البعثيين واخراجهم من الجامعة وحرمانهم من القيام بأي نشاط سياسي فيها . ولإحباط ذلك ، قرر البعثيون القيام بضربة استباقية . وأعدت خطة تفصيلية لمفاجأة الناصريين بضربة تكسر شوكتهم وتخرجهم ، هم ، من الجامعة . وتلقت المنظمات الحزبية المعنية بالأمر التعليمات اللازمة المتعلقة بكلٍ واحدة منها . ووزعت التعليمات التفصيلية على الطلاب البعثيين ، تماماً كما يجري الأمر في الإعداد للمعارك الحربية . وعرف كل بعثي موقعه والمهمة الموكولة إليه في اليوم الموعود .

وفي صباح ذلك اليوم ، وهو ذاته اليوم الذي توقع البعثيون أن يهاجمهم الناصريون فيه ، جاء البعثيون الى الجامعة مبكرين ، وتوزعوا في أرجائها وفق الخطة على نحو يجعل كل شبر فيها تحت رقابتهم . وتزود كل بعثي بعصا من العصيّ التي اعدت للاستخدام هذا اليوم . وقد روعي في إعداد العصيّ أن تكون متينة وسهلة الاستخدام وأن يسمح حجمها باخفائها في اكمام السترات وتحت الملابس العادية . وفي خطوة قصد منها تحميل الناصريين مسؤولية الاشتباك أمام الرأي العام الطالبي ، توجه عدد من قادة الطلاب البعثيين الى عميد الجامعة ، الدكتور احمد السمان ، وأبلغوا إليه ما انتهى الى علمهم عن تحضيرات الناصريين . واستدعى العميد بعض قادة الطلاب الناصريين ، فانكر هؤلاء التهمة انكاراً باتاً . وكان البعثيون قد توقعوا هذه الإنكار ، فاقتادوا العميد ومعه المنكرون الى مكان بعينه في طرف الحرم الجامعي في جانب مهمل من الباحة السفلية لنادي الطلاب ، وجعلوا العميد يرى بنفسه السلاسل الحديدية والرفوش والعصيّ المخبأة في زاوية معزولة ، وقالوا إن الناصريين خزنوا هذه الأدوات مسبقاً . هنا ، نشأ

جدل جعله الظرف محتدماً . وحاول الدكتور السمان ، هذا الرجل المبغض للعنف والحريص على موازنة موقعه بين المتنابذين ، على أن يهدىء الخواطر . غير أن محاولة العميد ضاعت سدى وسط تأجج الأحقاد المتبادلة المخزونة والمستجدة ، فلم يستمع أحد الى نداءاته . ولا بدّ أن البعثيين العازمين على اتمام ضربتهم قد تعمدوا في هذا الجدل أن يستثيروا الناصريين بأكثر مما هم مستثارون في الأساس . وانتهى الامر بأن التقط طالب ناصري مستفز رفشاً من الكومة ووجه ضربة الى الطالب البعثي الاردني ، علي نعيم ، الذي كان يجادله . وكانت تلك ضربة قوية حطّ فيها جرف الرفش على ظهر علي ، فاطلق هذا صرخة دوت في جوّ الترقب الذي يلّف الانحاء ، فانفلتت الاحقاد واشتعل القتال في الحلقة المحيطة بالعميد ، ثم امتد فشمل كل مكان .

في هذه المعركة ، أنيطت بنا ، نحن أعضاء الفرقة الفلسطينية وأنصارها ، مهمة القتال في الممر الفسيح الممتد بين نادي الطلاب والباحة الخلفية لكلية الطب والموازي للجدران الشمالية لكليتي الحقوق والعلوم . وكنّا قد فعلنا ما فعله غيرنا من الموكلين بالقتال فاحتللنا الممر المخصص لنا منذ مجيئنا الى الجامعة ورحنا ننتظر إشارة البدء . وكنت انا اقف بجوار نافع ع . امام مدخل كلية العلوم من هذه الناحية حين صدرت الإشارة المرتقبة ، فصار علينا ، حسب التعليمات ، أن نبحث عن طلبة الطرف الآخر ونوسعهم ضرباً ونرغمهم على مغادرة الحرم الجامعي كلّه . وكأنما قدر لي ، لحسن الحظ ، ألا تتلوث يداي في هذه المعركة التي ندمت فيما بعد على مجرد وجودي فيها ، فمضى وقت طويل دون أن يبرز أمامي أي ناصري أعرفه ، ودون أن أشتبه بأحد ، وتسنى لي ولنافع أن نرقب ما يجري حولنا ونسمع نداءات القتال وصرخات التوجع ، دون ان نحتاج لإطلاق نداء أو إيلام احد .

كانت مفاجأة الناصريين كاملة ، فاجأهم وجود هذا الحشد من البعثيين ووقوفه على أهبة الاستعداد ، كما فاجأهم معرفة البعثيين بالأماكن التي خزنوا أدواتهم القتالية فيها وحرمانهم بالتالي من استخدامها . وأظهرت

العصيّ التي جاء بها البعثيون فعاليتها التامة وكانت جولة ساعة أو نحو ذلك انجلى بعدها الموقف عن تفوق سافر للجانب البعثي وسيطر البعثيون سيطرة كاملة على الباحات والممرات التي خلت إلا منهم ، ولم يبق عليهم الا مطاردة من التجأ من خصومهم الى المباني . وكان عدد من الناصريين ، عدد كبير في واقع الأمر ، قد لجأ الى مبنى المكتبة القريب من بوابة الحرم الجامعي الرئيسية أو توارى عن الانظار هنا او هناك في أماكن متفرقة . وقد تولت جماعات من البعثيين المستثارين البحث عن المتوارين . فانقضت ساعتان أخريان تعاقبت فيهما الاشتباكات المتفرقة وصرخات الألم . وغالباً ما كان كل اشتباك ينتهي بإلقاء الجماعة البعثية القبض على واحد أو أكثر من المتوارين واقتيادهم الى خارج البوابة في مشهد كنت أراه من موقعي الذي لم أفارقه فتخامرني أحاسيس لا يجمعها جامع بأي شيء يمكن الافتخار به .

وفجأة ، برز أمامي تماماً ، على مقربة خطوات قليلة ، الطالب الشاعر عمر كتمتو . لم يكن هذا ناصرياً أعرفه ، فحسب ، بل كان من نشطاء الناصريين ، أيضاً . ولكنه لم يكن ، فقط ، صديقاً لي ، بل كان ، ايضاً ، ابناً لعائلة فلسطينية صديقة ، ألفت أن أزورها وأسامر ناسها وآكل من زادها ، والفت هي ان تعدني واحداً من أبنائها . تسلل عمر من مدخل كلية العلوم الذي اقف انا ونافع ازاءه ، فلما وقع نظره عليّ هتف ، ربما من حلاوة الروح ، كما يقال : «فيصل!» ، وفرد ذراعيه والقى نفسه عليّ واحتضنني . ما أصعب وصف اضطراب المشاعر في تلك اللحظات! لقد عزّت الدموع التي تعرف انت انها جفت في مآقيّ منذ زمن بعيد ، وما كان أحوجني إليها في الموقف الذي وجدتني فيه! وأدرك نافع الموقف دون أي شروح ، فتصرف بأريحية اسعفتني وأعادت لي القدرة على التفكير المتزن . كان عمر معي ومع نافع في مأمن ، الا ان مشكلته لم تحلّ بسبب ذلك ، فهو ، على صغر سنّه ، معروف من قبل معظم البعثيين وليس من السهل ان ينفذ بسلامة من حلقاتهم التي تتوزع أرجاء الجامعة . وكان علينا أن نهتدي الى تدبير يريح ضمائرنا . وتصادف في تلك اللحظة ان اقترب عمر

خليفة من موقفنا ، وانتهى الأمر بأن شكلنا نحن الثلاثة ، عمر خليفة ونافع وأنا ، بأذرعنا مظلة لحماية عمر ، ثم قدناه على هذه الصورة الى البوابة متحملين مسؤولية حمايته ومقدمين الشروح اللازمة لكل جماعة من جماعات البعثيين الذين مررنا بهم . ولم يكن الموقف يأذن لنا بأن نقدم الشرح الصحيح ، اذ لم يكن ثمة مجال للمشاعر الشخصية الطيبة في ذلك الجوّ ، فرحنا نردد عبارة واحدة أمام معترضينا : «عمر منّا وفينا» . ولم ندرك ، إلا بعد حين ، كم أخطأنا ، ذلك ان العبارة بلغت مسامع الناصريين أيضاً ، ورآنا كثيرون منهم ونحن نخرج عمر من المعمعة مظللاً بأذرعنا ، فاستخلصوا من ذلك أن عمر شخص مشبوه ، وكلفه الامر الكثير من العنت مع حركة القوميين العرب التي ينتمي إليها .

أمكن ، إذن ، معالجة مشكلة المتوارين المتفرقين ، على نحو أو آخر ، وبقيت مشكلة العدد الكبير من الناصريين المحتشدين في المكتبة . العقلاء من البعثيين رأوا ضرورة الاكتفاء بما وقع ومالوا الى معاملة ناصريي المكتبة بتسامح ودعوا الى افساح المجال لهم كي يخرجوا منها بسلام . غير أن البعثيين لم يكونوا كلهم عقلاء في ذلك الظرف . وقد وجد بينهم مَنْ طالب باقتحام المكتبة واخراج الناصريين منها بالقوة وايصالهم الى البوابة مع الضرب والإهانات . وأتذكر من هؤلاء الآخيرين بعثياً أردنياً ، نسيت لحسن حظه اسمه . لم يكن هذا المنتسب الى الجامعة اكثر كثيراً من بدوي تكمن روح الانتقام تحت ملابسه المدينية وتمتزج الروح العشائرية بمشاعره القومية . هذا البعثي اندفع في قتال الناصريين منذ البداية بحمية بزّ بها الجميع ، فعارك كما يعارك ثور هائج ، وصال وجال ، بعصاه ، وبذراعيه وساقيه ، وناطح برأسه ، وتنقل من موقع الى آخر . وقد حدث لهذا الشاب أن تلقى ضربة شجّت جلد رأسه واسالت الدم على جبينه ، فاحتفظ بالدم الذي كان يبرق تحت أشعة الشمس ، وقدمه للجميع دليلاً يؤكد حقه في الثأر من الذي ضربه ، وادعى بأنه يعرف ضاربه ، ومضى هنا وهناك مطارداً الناصريين بزعم أنه يبحث عنه . ولمّا احتدم الجدل بين البعثيين بشأن المجتمعين في المكتبة ، انضمّ مدمّي الجبين الى المطالبين

بمعاملتهم بعنف ، وبدا جاهزاً ليكون في طليعة المقتحمين . فلما تغلب رأي العقلاء وتقرر أن يخرج الناصريون من المكتبة في رتل يوصلهم الى البوابة دون أن يتعرض لهم أحد بالضرب ، اهتاج المطالب بثأره وجمع حوله عدداً من المتشددين وأعلن هؤلاء انهم عازمون على مخالفة الأوامر التي تلزمهم بالهدوء ، واخذوا يتنططون ويهزون العصيّ ويهزجون بدعوات الانتقام . وصار من المتعذر أن يتأمن الطريق للخارجين من المكتبة بوجود هؤلاء ، ما لم يجازف البعثيون بوقوع اشتباك يقاتل فيه بعضهم بعضاً . فتعقدت المشكلة ، واشتعل الجدل من جديد ، ودخل فيه مزيد من البعثيين الذين انضموا الى الحشد أمام المكتبة بعد أن فرغوا من مهامهم في الأماكن الأخرى . وامكن في النهاية تهدئة الجميع ، بالتي هي احسن ، أو بغيرها ، إلا ملتمع الجبين هذا . ولكن الفتى الذي بقي المهتاج الوحيد في الحشد خفف مطالبه فحصرها في ممارسة حقّه في الانتقام من الناصري الذي شج رأسه مصراً على أنه يعرفه ويتوقع وجوده مع الموجودين في المكتبة . واجاز العقلاء لمدمي الجبين ذلك ، استهانة منهم بالمطلب وحسماً للشر وأملاً في الانتهاء من المشكلة . واصطف البعثيون في صفّين متقابلين شكلوا بهما ممراً يعبره الخارجون من المكتبة . ووقف طالب الثأر متحفزاً ، وصابر نفسه الى ان مرّ بضعة طلاب ، ثم هتف وهو يشير الى احد الخارجين : «هذا هو الذي شجني» ، واندفع نحو غريمه المفترض بجسده وعصاه ، وكاد يشرع في ضربه لو لم يتضح بشهادة بعثيين موثوقين ان الطالب المستهدف غير ناصري وغير منتم الى أية جهة . بالرغم من ذلك ، بقي طالب الثأر على تحفزه وترددت صرخته «هذا هو الذي شجني» اكثر من مرة ، واتضح في كل مرة أن المستهدف بريء ، حتى تحولت الصرخة الى باعث على الضحك ، وصار مدميّ الجبين ذاته يضحك في كل مرة يكشف فيها رفاقه حيلته .

شاعت أنباء القتال الذي جرى في الجامعة في أنحاء البلاد كلّها وتناقلتها وكالات الأنباء . ونشرت صحف اليوم التالي تقارير مهوّلة عنها . وقد استرعى انتباهي أن مؤسسة الرقابة على الصحف لم تتدخل إلا في

أضيق الحدود لمنع الصحف الناصرية من نشر رواياتها المهولة ، فاستخلصت ما تبينت لي صحته الكاملة في ما بعد ، وأدركت أن البعثيين أرادوا تعميم المغزى الذي توخوه من معركة الجامعة على اوسع نطاق واشدّه اخافة لخصومهم . وفي الوحدات العسكرية ، احتفل الضباط البعثيون بما عدّوه نصراً حققه رفاقهم الطلاب . وتعززت ثقة البعثيين بقدراتهم ، وضعف بينهم مركز الذين يدعون للتفاهم مع الناصريين . أما الناصريون فاختزنوا مزيداً من الحقد والضغينة ، وانكروا ان يكونوا قد اعدوا لهجوم مسبق على البعثيين ، وأشاعوا أن معظم الذين هاجموهم في الجامعة كانوا من رجال الامن المتخفين بزيّ الطلاب ، وعممت إذاعات القاهرة وصحفها الاشاعة ووصفت المهاجمين بأنهم فاشيست . ولم يعد بامكان أي تعقل ، على أي جانب ، ان يحول دون استشراء العداء بين الجانبين المشاركين في حكومة واحدة والمقبلين ، حسب اتفاق ١٧ نيسان / ابريل ، على الدخول في وحدة مع مصر والعراق .

هذا الاتفاق ذاته كان امره عجيباً ، وقعه اطرافه على مضض ، وبقي كل طرف يستثمر الوقائع ، او يفتعلها ، ليثبت ان الطرف الآخر غير مخلص له ولا عازم على تنفيذه . كان معظم البعثيين متشبثاً بالاعتقاد بأن عبد الناصر لا يريد وحدة ثنائية او ثلاثية ولا يرغب في العودة الى حكم سورية التي اتعبته . وكان هؤلاء يفسرون دعم عبد الناصر للمظاهرات الناصرية في سورية على أساس ان الرجل يستخدم الموالين له من اجل استفزاز البعثيين حتى يجيء التراجع عن الاتفاق من قبلهم وليس من قبله ، فلا يتحمل هو امام الجمهور مسؤولية عدم قيام الوحدة . اما الناصريون فكانوا يعتقدون بأن البعثيين يناورون في مسألة الوحدة ليضللوا الجمهور ويرون ان البعثيين ماضون في تعزيز مواقعهم في سورية والعراق بهدف الاستئثار بالسلطة الكاملة فيهما .

وما كان من شأن اتفاق هذا هو شأن اطرافه أن يصمد . ثم لم يلبث ان جاءت من مصر اشارة مهمة التقطها البعثيون وتفننوا في دراسة مغزاها . ففي زاويته الاسبوعية «بصراحة» في «الاهرام» ، كتب محمد حسنين

هيكل مقالته الشهيرة «إني أعترض» ، وبسط فيها الاسباب التي تحمله على الاعتراض على اعادة الوحدة . وكان هيكل معدوداً ناطقاً غير رسمي باسم عبد الناصر ، وكان قرّاؤه في بلاد العرب يتعاملون مع ما يكتبه على أساس انه التعبير الصحيح عن سياسة عبد الناصر . وهكذا فسر البعثيون المقال على اساس انه اعلان مصري عن رفض تنفيذ اتفاق الوحدة ، وتعاملوا معه على هذا الاساس .

١٦ تورطت باتهام عفلق ثم عزّ عليّ التراجع

عشت ، اذن ، في دوامة ، بل دوامات متداخلة . وما فتأت مشاغلي تزداد ويشتد انخراطي فيها . وما كان أي من هذه المشاغل سهلاً أو خالياً من المتاعب . وظل وقتي موزعاً بين الجامعة وحواراتها والمشاحنات المتواترة فيها ، والفرع وجهودنا لاستعادة السيطرة على قيادته ، والتنظيم الحزبي وما أوكلت اليّ فيه من مهام جديدة يقتضيني أداؤها التنقل بين احياء المدينة والمخيمات القريبة او البعيدة منها ، وذلك فضلاً عن المدرسة التي أحرص على انتظام عملي فيها واتجنب أن اتعرّض الى أي اتهام بالتقصير . أما شلّة الاماسي فقد تطور امرها ، تركها ناس وانضم اليها سواهم ، وتأكدت السمة السياسية كأبرز السمات التي تميزها عن غيرها من الشلل ، وصارت لقاءاتها تنعقد ، غالباً ، في منزل محمد ، في وقت متأخر في المساء وتتوزع اهتماماتها بين المسارات الخاصة التي تتناول شؤون الحزب والبلد ، والقراءة ، والاستماع الى الموسيقى ، والرقص وما الى ذلك . وتميزت هذه الشلة ، أيضاً ، بانضمام عدد من الشابات النشيطات اليها . وكانت فوزية

الدلال قد صارت عضوة مواظبة في الشلة ، وانضمت اليها البعثية النشيطة الهام حمارنة واختها ادمة التي يقترن حضورها دائماً بالفرح والطيبة ، وانجذبت اليها فتيات اخريات منهن مَنْ واظبت على الحضور ومنهن مَنْ كانت تحضر بين وقت وآخر . وقد ألفت هذه الشلّة ، بالذات ، أن تتندر عليّ بتهمة تعجلي في القيام بما اتولاه من انشطة ، فاطلقت علي لقب «أبو عجقة» ، وصرت انادى به ، يستخدمه بعضهم تودداً ، ويستخدمه بعضهم تظرفاً ، ويقذفني به سواهم بدافع السخرية ، حسب الاحوال .

وبين جديد مشاغلي ، كانت المساهمة المواظبة في جريدة «البعث» . هذه الجريدة التي عرفت قبل ذلك انها اسبوعية تحولت بعد مجيء الحزب الى السلطة الى يومية ، وقد نقلت من مقرها السابق وشغلت الشقة التي كانت تشغلها جريدة «الايام» الموقوفة عن الصدور . ولأن صلاح البيطار لم يعد لديه الوقت للإشراف الكامل على عمل الجريدة ، فقد آلت رئاسة التحرير ، عملياً ، الى محمد بصل ، دون ان يكفّ البيطار عن متابعة عملها . ثم جاء وقت لم يعد محمد فيه قادراً على تخصيص الوقت اللازم لرئاسة التحرير ، فتولى هذه المهمة عبد المحسن ابو ميزر . وكان هذا البعثي الخليلي من سكان القدس ، المتخرج من كلية الحقوق في جامعة القاهرة ، يعمل في الكويت ، فاستدعى منها خصيصاً لتولي هذه المهمة الرفيعة وبدا سعيداً بها . وكنت ، قبل مجيء رئيس التحرير الجديد قد حققت لنفسي ، بمساعدة محمد ، وضع محرر مساهم متطوع ، ثم عرض عليّ التفرغ فآثرت ، مدفوعاً بنوازع مثالية صرفة ، الا احمّل الحزب عبء دفع راتب لي . ثم جعلت من هذا مبدأ ، فأبيت الاستجابة لأي من عروض التفرغ الاخرى . وآثرت ان استمر في العمل مع الاونروا فاحصل على راتبي منها ، بالرغم من الارهاق الشديد الذي يسببه لي الجمع بين أعمال عدّة . ولم اكن وحدي من البعثيين الفلسطينيين الذي فعل ذلك ، فقد تطوع للعمل في الجريدة ، أيضاً ، فتحي موسى الذي كان على ابواب التخرج من كلية الطب ، وعمر خليفة الذي كان طالباً في كلية العلوم . وانتهى امرنا في الجريدة ، قبل مجيء عبد المحسن ، الى ان صرنا مسؤولين

عن تحرير المواد التي تتصل بالشأن الفلسطيني . فلما جاء عبد المحسن لم يحبّنا ولم نحبّه ، بل تنافرت طباعنا مع طبعه . وقد اظهر هو ضيقاً واضحاً بوجودنا الى جانبه ، وكان اشدّ ما يضايقه منّا طريقتنا المستقلة في التفكير وحرصنا على التعامل مع الأفكار المعارضة بغير تزمت وإباؤنا ان نتصرف ازاء المسؤولين كمعلمين نرضخ لتعليماتهم واعتيادنا أن نتعامل مع كبار القادة ، كما هو الشأن مع الناس العاديين ، دون تهيب . وكان من شأن التنافر في الطباع والاختلاف البيّن في اساليب العمل والتعامل ان يؤدي الى اقصائنا عن الجريدة لو أتيح لعبد المحسن أن يستخدم صلاحياته بوصفه رئيساً للتحرير .

وفي احدى زيارات صلاح البيطار للجريدة ، اقترحت عليه ، بحضور عبد المحسن ، ان يلتقط مصور الجريدة له ، هو رئيس الوزراء ، صورة بزيّ الحرس القومي لتنشر كنوع من الدعاية له وللحرس في مواجهة الدعاية المضادة التي تروّج أن أجهزة الحكومة تضيق بمنافسة الحرس القومي لها . وقد وافق البيطار وذهب مع المصور الذي جال معه جولة في الشارع والتقط له عدة صور . وظهرت في اليوم التالي صورة للبيطار وهو يدقق في اوراق شخصية لصاحب سيارة عابرة . وقد اظهرت الصورة ، التي التقطت على عجل ، فوهة البندقية الرشاشة التي حملها البيطار وكأنها مصوبة الى رأس صاحب السيارة ، كما ظهرت التقطيبة التي تلازم وجه البيطار بأجلى قبحها . وعلى عكس المتوخى ، اطلقت الصورة بعد نشرها حملة تشنيع قاسية على البيطار ، وأعادت صحف لبنانية ناصرية وصحف مصرية نشرها تحت عناوين مثيرة كان منها هذا العنوان : «البيطار يهدد المواطنين بسلاحه في الشوارع» . ونشأت أزمة ، وشاء عبد المحسن ان يتنصل من مسؤوليته في عدم اختيار اللقطة المناسبة للنشر ، فاعاد الى الاذهان أني انا صاحب الاقتراح وادعى أنه اعتمد عليّ في اختيار اللقطة المناسبة للنشر . وخشيت ان يستغل عبد المحسن هذه الواقعة فيقدمني كبش فداء لاطفاء غضب البيطار ، فترصدت قدوم رئيس الوزراء في الزيارة التالية ، ولما عرفت انه وصل الى مكتب عبد المحسن اقتحمت المكتب واعدت مناقشة الموضوع

امامه من أوله ، ودافعت عن صواب اقتراحي ، ثم بينت اني غادرت الجريدة بينما كان الرئيس ما يزال في الشارع لالتقاط الصور ، ولم اعرف من الذي اختار هذه الصورة بالذات . ولأن البيطار كان على ثقة من اني لست من النوع الذي يتهيب ازاء تحمل المسؤولية عن الخطأ ، فقد صدقني واعلن ذلك بوضوح . وكان في إعلانه هذا تكذيب صريح لرواية عبد المحسن ، ثم طلب البيطار طيّ الموضوع .

هنا ، ازدادت خشيتي من ان يقصيني عبد المحسن عن الجريدة في اول فرصة سانحة ، ونقلت هواجسي لفتحي وعمر . وانتهى الأمر بأن استصدرنا قراراً حزبياً يوكل إلينا مسؤولية تحرير صفحة فلسطين في الجريدة ، وتوخينا ان يتبلغ عبد المحسن القرار بصيغة تعني أننا لسنا خاضعين لسلطته . وقبل عبد المحسن الوضع الجديد ، ولكنّه ظل يناكفنا كلما تسنّى له ذلك ، وصار يشدد المناكفة او يخففها حسب تقديره لمكانته في الحزب دون ان يبلغ بها حدّ القطيعة معنا . وفزنا باستقلال كامل في تحرير الصفحة ، وأفسحنا المجال فيها لنشر الآراء المعارضة والمناقشات الحرّة . وتوخينا ان نستدرج الناصريين الى حوارات علنية ، فظفرنا ببعض المساهمات وحققنا في هذا المجال نجاحات قد تكون محدودة الا أنها بدت متميزة وسط التزمت العام .

وها أنا اتذكر قصة لا ادري كيف اصفها ، تتصل بمسألة نشر الآراء المعارضة في صفحتنا تلك . فقد حمل اليّ البريد مقالة طويلة تحمل توقيعاً لا أعرف صاحبه ، وقد أرفق صاحب التوقيع مقالته برسالة يقول فيها إنه ناصري وإنه يريد أن يمتحن صدقنا وان كان يظن ، مسبقاً ، أننا لن نجرؤ على نشر المقالة . كانت المقالة طويلة في حجم دراسة ، وكانت قاسية في انتقادها لمواقف البعثيين ، ولكنها احتوت على كل ما يردده الناصريون في هذا المجال . وقررنا أن نقبل التحدي ، فنشرنا المقالة ، نشرناها على حلقات ، وارفقناها بمناقشتنا للآراء الواردة فيها . فأذهل هذا كثيرين من اصدقائنا وخصومنا ، وعددناه نحن نجاحاً لخطتنا في استدراج الناصريين الى الحوار ، وفرحنا به . وبعد نشر آخر الحلقات ، فوجئت برجل لا أعرفه وهو يدخل

مكتبي ، متهيباً ، ومتردداً ، وقد اكتست سحنته بهموم ثقيلة . حيّاني الزائر بنبرة خافتة ، وتأكد من أنني الشخص الذي يقصده ، ثم جلس قبالتي ، واطرق رأسه . فلما ادركت حالة زائري ، دعوته بنبرة مشجعة الى الكلام ، وطلبت له القهوة قبل ان يطلبها وقدمت له سيجارة وابديت له اني عازم على الاصغاء اليه أياً كانت حكايته . ولما امكن ان ينطلق الرجل ، بدأ بالقول : «لا أعرف كيف أبدأ الحكاية» ، ثم واجهني بعينين جالت فيهما شتى أنواع المشاعر . وبعد ذلك ، بدا على الرجل أنه حزم أمره ، أخرج علبة سجائره وقدم لي واحدة واشعل واحدة لنفسه ، وسحب نفساً عميقاً فاض بعده الدخان من فمه ، ثم اتبعه بفيض كلامه .

أرسل هذا الرجل مقالته لنا ، وانتظر شهراً كاملاً فلما لم تظهر المقالة في الصفحة أيقن أننا لا نجرؤ على نشرها فتأكد له صواب ما توقعه وكفّ عن الترقب . لكن ، قبل ان يمضي وقت على استقراره الى يقينه بشأننا ، جاء الى منزل هذا الرجل من حمله الى إحدى دوائر الأمن ، وهناك تعرض للتحقيق معه بشأن المواقف التي تفصح عنها المقالة ، لم يقل لي إن كان قد تعرض الى التعذيب ولم يجب على سؤالي بهذا الصدد ، لكن نبرته وهو يتحدث عن التحقيق اكدت ان معاناته مع المحقق لم تكن سهلة . وعندما سألته عما اذا كانوا قد استبقوه عندهم بعد التحقيق قال بصوت واهن : «لا» . ولو أن الرجل قال «نعم» لكانت أرحم من تلك الـ «لا» التي أطلقها . فالرجل الذي عرف أن أمره انكشف لناس الأمن وأنه موضوع قيد مراقبتهم سكنته الهواجس وتحسب من العواقب الأوخم فلم يهدأ له بال منذ ذلك الحين ، لم ينعم ، على حدّ تعبيره ، بطعام أو شراب ، ولم ينم مرة واحدة نوماً هادئاً ، ولم يخرج من داره مرة إلا ظن أنها الأخيرة ، ولا اقام في داره ليلة الا وهو يتوقع ان يداهموه ، وانتهى به الامر الى الفرار من البلد ، تدبر زيارة لبعض اقاربه في الكويت وذهب اليهم ، وحاول هناك ان يجد عملاً او يحصل على اذن بالاقامة عندما انتهى الأمد المقرر لزيارته في تأشيرة الدخول ، فلم يفلح لا في هذا ولا في ذاك . وبوثيقة السفر الممنوحة للاجئين الفلسطينيين في سورية ، لم يتمكن الرجل من الحصول على اي

اذن لدخول اي بلد آخر ، وهكذا ، وجد نفسه مضطراً للعودة الى دمشق ليجد في انتظاره هذه المفاجأة التي بلبلته تماماً وهو ان الجريدة تقوم بنشر مقالته على حلقات .

لم تذهل الحكاية صاحبها ، وحده ، بل أذهلتني أنا ، أيضاً . وعلى كثرة محاولاتي للعثور على تفسير لما وقع ، لم أتوصل الى يقين . ولم أقع بين من اعرف من المسؤولين على من هو مستعد لشرح الامر لي . ومهما يكن من أمر ، فإن نشرنا لهذه المقالة كان آخر ما قمنا به في مجال افساح المجال للرأي الآخر ، ذلك ان أحداث الصراع الذي يعصف بالبلد عصفت ، أيضاً ، بنوايانا الطيبة فأودت بها .

وبين اشياء اخرى تناولتها صفحتنا في الجريدة او كتبناها لصفحات غير صفحتنا ، كانت سلسلة تحقيقات عن عمل الاونروا بين الفلسطينيين . فتحنا على الاونروا ناراً حامية وفضحنا ما عددناه سلبيات في عملها بين اللاجئين . هذه التحقيقات كنت انا الذي يكتبها ، وكانت تنشر ، مثلها مثل مواد الجريدة الأخرى كلّها ، بغير توقيع . وكانت تثير لغطاً واهتماماً كبيرين بين موظفي الاونروا والناس الذين يتلقون خدماتها ويشكون من قصورها . وكان الاهتمام بتحقيقاتنا يحثنا على مزيد من الكتابة ويشجعنا على التشدد في اطلاق النار . واكثر من الجميع كان المسؤولون الاجانب في الوكالة الدولية مفرطي الحساسية إزاء ما تنشره اجهزة الاعلام . خصوصاً إزاء ما تنشر جريدة الحزب الحاكم . وقد اشتد استياء هؤلاء من تحقيقاتنا وحملهم الاستياء على تقصي ما يكمن وراء التحقيقات من نوايا ومعرفة ما اذا كانت تلك حملة ينظمها الحزب الحاكم ضد الاونروا او نزوة محرر . وعرف هؤلاء اني ، انا الموظف في الاونروا ، كاتب المقالات ، وجمعوا معلومات أوفر حولي ، حتى اذا توفر لهم ما يمكن ان يتهموني به ، وضعوا الملف كله امام مفوض الاونروا في سوريا ، فاستدعاني هذا الى مقابلته .

لم اعد اتذكر اسم الرجل ، غير أني اتذكر هيئته بوضوح ، القامة المديدة

الرشيقة ، والوجه الثعلبي الذي ترتسم التعابير عليه وتتعاقب بالتطابق الكامل مع ما تقتضيه آداب السلوك المتحفظ ، والعينين اللتين تقتحماني بمثابرة دون ان يبدو على صاحبهما انه يتعمد ذلك ، والشعر الاشقر الذي خالطه البياض فصار له لون شمع العسل ، واليدين اللتين ترتفعان مع بداية كل فقرة جديدة في الحديث فتمسدا هذا الشعر ، والهندام الأنيق ، وكل ما هو من هذا القبيل مما يوحي بأن صاحبه يعيش حياة رغيدة ويملك ثقة عالية بالنفس ويتقن التحكم في ردود فعله ويعرف كيف يظهر منها ما يلائم المقام ويخفي غيره . وقد صحبني في هذه المقابلة مدير التعليم عبد المنعم حسن ، الرجل الذي لا أكفّ عن الاعجاب بوطنيته وحرصه على عدم ايذاء أحد . كان مدير التعليم قد استقبلني في مكتبه قبل ذهابنا ، معاً ، الى مقابلة المفوض ، وقد شرح لي سبب استدعائي وعرفني بالتهم التي ساواجه بها ونصحني بأن اتصرف بهدوء فادافع عن نفسي دون ان استفز مَنْ يملك ان يطردني من الوظيفة . وكانت هذه نصيحة ثمينة حقاً ولازمة ، فأنا ، في العادة ، شديد الحساسية ضد الاتهام ، وكثيراً ما اواجه متهمي بفظاظة أيا كانت منازلهم . ولم تتوقف معونة هذا الانسان الطيب لي عند هذا الحدّ ، فهو الذي تولى الترجمة بيني وبين المفوض ، فتولى بالتالي تنقية حديثي من الشطط والاستفزاز اللذين شاباه .

التهمة الاولى التي واجهني بها المفوض كانت الانتماء لمنظمة سياسية وتولّي منصب قيادي فيها ، في وقت يحظر فيه نظام الموظفين على العاملين في الاونروا القيام بأي نشاط سياسي ، وكان المفوض يشير بهذا الى صلتي بفرع الاتحاد وعضويتي في لجنته الإدارية . وكانت هذه تهمة يسهل عليّ دحضها . فقد سبق لنا نحن منتسبي الفرع من موظفي الاونروا ان درسنا هذا الموضوع ووصلنا الى القناعة بأن الانتساب لمنظمة طالبية لا يتعارض مع نظام موظفي الوكالة الدولية . والحقيقة اني لم اتوقع أن يواجهني مسؤول فطن ، كالمفوض ، بتهمة باطلة ، فاستخلصت انه انما عمد الى ذلك كي يبيعني واحدة فتهن يقظتي فاقع في التالية . واجبت بنبرة مَنْ لم يفطن الى تكتيك محدثه ، وأفضت في شرح ما أراه من فارق بين المنظمة

الطالبية والمنظمات السياسية ، ثم لفتّ نظر المفوض الى ما تعمد ان يقول انه يجهله ، وذكرت له ان نظام الفرع ، الذي هو جمعية مرخصة وفق قانون الجمعيات ، يحظر على الاعضاء العمل في السياسة ، فالفرع ، بهذا ، بمنطق نظامه الداخلي ذاته ، لا يعدّ منظمة سياسية ، فلا أساس ، من حيث المبدأ ، للتهمة الموجهة لي . وكنت ، وأنا اتمسك بالمادة من نظام الفرع التي يلزمنا بها قانون الجمعيات ، انما اتمسك بما كنّا نشكو منه من مواد هذا القانون . ولكي لا يظن المفوض أني هيّاب ازاء اتهامي بالعمل في السياسة بالاطلاق ، اضفت ، بعد ان طوى هو نفسه التهمة ، أني كنت سأنضم للفرع حتى لو لم يتضمن نظامه هذه المادة ، وعرضت ، في تفسير ذلك ، ما أراه من حق للفلسطيني في أن يعمل على أي صعيد من شأنه ان يصون كيانه الوطني ويمكنه من تحسين ظروف حياته ويحسن فرصه للعودة الى وطنه الذي ابعد عنه بالقوة . وأمعنت في الشرح ، لا لشيء الا لأظهر للمفوض اني لست من الذين يؤخذون بسهولة ، فذكرته بأن قرارات الامم المتحدة ، كلها ، تنطلق من الاعتراف بالكيان الوطني الفلسطيني ، وتقرّ للاجئين بحق العودة الى وطنهم ، وان ميثاق الامم المتحدة ذاته يبيح للشعوب التي اغتصبت حقوقها أن تستخدم ما يلزم من الوسائل المشروعة لاستعادة هذه الحقوق . ثم ضمنت حديثي بجملة أردت أن أعيد بها الكرة الى هذا الذي يتهمني ، فقلت : «لا اظن ان السيد المفوض يرى في قيام منظمة للطلاب الفلسطينيين وسيلة غير مشروعة؟!» . وقد اغفل الرجل التوقف عند سؤالي الأخير وانتقل الى التهمة التالية ، وكان حديثه قد بدا يشي باعجابه بقدرتي على المرافعة . فتح المفوض موضوع التحقيقات الصحافية ، وكان الملف الموضوع امامه ينتفخ بها ، فواجهني بالملف ، ثم سألني ان كنت اقرّ بأني كاتب هذه التحقيقات . هنا ، اتبعت الخطة التي انتويت اتباعها قبل ان ادخل الحجرة : ان لا اتورط بأي كذبة وأن لا اتورط ، أيضاً ، بأي اقرار . وعلى هذا ، واجهت السؤال باستيضاح تعمدت ان انطق به بنبرة تبدو بريئة : «هل في انظمة الاونروا ما يمنع موظفيها من انتقاد سلبياتها؟» . فعرض المفوض ان يجيب على سؤالي بعد ان اجيب

انا على سؤاله ، فتشبثت بحقي في ان احصل على الايضاح الذي طلبته ، وقلت له : «لا أظن انك ستتعسف فترغمني على الاقرار بما يعرضني للعقوبة دون أن أعرف ذلك ، ما دام في وسعي ، على كل حال ، الإنكار» . هنا داهمت وجه المفوض ابتسامة لم يتعمد منعها ، ووجه حديثه لمدير التعليم : «انه يمسك بي قبل ان امسك به ، هذا الفتى!» . ثم شرع في تقديم ايضاحه ، بدأ بالقول ان المسؤولية يحددها نوع النقد الموجه لعمل الاونروا ، هل هو تجنٍ ام أنه يتطرق لوقائع قائمة فعلاً . هذه البداية ادخلتنا ، نحن الثلاثة ، في حديثٍ طويل حول خدمات الاونروا وشؤونها ، هذه المرة ، ولم يعد الحديث مرتبطاً ، بعد ، بالتهمة التي استدعيت لاواجه التحقيق بشأنها . نسي المفوض التهمة ، او تناساها . وعندما ودعني ، كان قد اطلق عبارات كثيرة عبر بها عن اعجابه بملاحظاتي التي ابديتها امامه على عمل الاونروا وتقديره لما سماه ذكائي الحاد . ونجوت .

بعد ذلك ، لم استدع من قبل المفوض مرة اخرى ، حتى بعد ان صرت اكتب مقالات سياسية اوقعها باسمي الصريح .

اما الجامعة ، فإن صلتي بدراستي فيها انقطعت او كادت تنقطع كلية ، امام زخم المشاغل والدوامات التي تلفني ، واذا كنت اذهب الى الجامعة بين وقت وآخر فمن اجل متابعة شؤون الفرع ، أو الالتقاء بالطلاب في سياق عملنا لتوسيع التأييد لمرشحي الحزب في الانتخابات القادمة ، فكان نادي الطلاب هو المكان الذي اقصده اكثر من غيره كلما زرت الجامعة . اما المرات القليلة التي قصدت فيها قاعة محاضرات ، فمن اجل ان استمع الى محاضرة تجتذبني شخصياً ، وغالباً ما كان ذلك من اجل الاستماع الى الدكتور عبد الكريم اليافي .

لقد احتفظ نادي الطلاب بميزته بوصفه المكان العام الذي تدور فيه المناقشات السياسية بين مختلف الاطراف وتتطرق لاكثر المواضيع حساسية ، دون تهيّب . هنا ، كان بالامكان قول اي شيء والاستماع الى شتى الآراء . كنّا نسميه «هايد بارك» الجامعة ، وكان كل متحدث يتمتع

فيه بحرية كاملة في التعبير عن آرائه . ولم تكن الرهبة من السلطة قد أكلت جرأة الطلاب على الافصاح عن مواقفهم بصراحة ، ولا كانت اجهزة الأمن قد وجدت بعد الوسائل القادرة على ازهاق حرية التعبير . وكان الجدل يدور بمنتهى العمق ، يسترسل هادئاً ، او يتموج بصخب ، حسب الاحوال ، دون أن تغيب الصراحة عنه في أي حال . وانا اتذكر دهشة البعثيين العراقيين الذين توافدت اعداد كبيرة منهم الى دمشق حين كانوا يشهدون جدلنا مع الخصوم في النادي . لقد الف الذين جاءوا من بغداد جواً آخر ، استبعد فيه الحوار وساد العنف ، فكانت عيونهم تكاد تفارق محاجرها حين يروننا ، نحن رفاقهم في العقيدة ، ونحن نستمع الى ما يقذفنا به الناصريون والشيوعيون من اتهامات فلا ننقضّ عليهم ولا نتعارك معهم ، بل نتسلح بالهدوء ونواجه الحجة بالحجة والواقعة بالواقعة التي تدحضها . اما دهشتنا ازاء سلوك العراقيين من رفاقنا فلم تكن اقلّ من دهشتهم ازاء سلوكنا . ولست انسى ما اصابني في المرة الاولى التي خرجت فيها في مظاهرة بعثية شارك فيها عراقيون كثيرون ، لقد فاجأني هؤلاء بهتافات لم نألفها ولم نسمع بها من قبل ، ولو اجزت لنفسي ان أهمل ما يفرضه الذوق المتأدب فأعدت عليك ما هتف به هؤلاء في وصفهم للناصريين او للشيوعيين ، لأحسستَ بالتقزز كما احسستُ به انا في ذلك اليوم ، ولما أجاز معظم الرقابات العربية على المطبوعات طبع ما أنقله . ويكفي أن اعيد عليك اذن واحداً من الهتافات التي يمكن ايرادها دون مجافاة شديدة للذوق ، انه ذلك الهتاف الذي ردده الرفاق العراقيون فأرعب سامعيه ، وهم يحضّون السلطة البعثية على الانتقام من خصومها : «اعدم! اعدم! جيش وشعب ويّاك يا مجلس الثورة!» ؛ لقد رددوا هذا الهتاف وامثاله بهوس شنيع ، فرجوناهم ، مائة مرة ، أن يكفّوا عن ترديدها ، فلم تخرجهم رجاءاتنا من الهوس الذي استحوذ عليهم ، ثم لم نتمكن من كم أفواههم الا عندما بيّنا لهم بصراحة ان الزعيق بكلامٍ كهذا الكلام يسيء الينا امام جمهور دمشق ، وانذرناهم انذاراً حاسماً بأننا سنفضّ المظاهرة . كان معظم هؤلاء يرى في مراعاتنا لمشاعر الجمهور خوراً لا يليق

بالثوريين ، كما كان يرى في محاولاتنا لتليين عداء الخصوم لنا مضيعة للوقت واهداراً للجهد في غير محله . وفي دخائلهم ، كان معظم هؤلاء يعتقد بأن رفاقه في دمشق هيّابون خرعون يؤثرون الحكي الفارغ على العمل المفيد . وكانت الشجاعة في أذهان هؤلاء مقترنة بالقوة الجسدية ، والقوة الجسدية ، عندهم ، سمة ثورية . وعندهم ان على الثوري الذي وهب هذه السمة ان يستخدمها وخصوصاً ضد الخصوم . وكثيراً ما اقتضى الأمر تدخلنا بحزم شديد لفض العراكات التي يباشرها ضيوفنا العراقيون مع جلسائنا ممن يختلفون معنا في الرأي ، وحتى عندما قرر التنظيم الحزبي الاشتباك مع الناصريين في الواقعة التي حدثتك عنها ، حرصت قيادة التنظيم على استبعاد الرفاق العراقيين عن المشاركة . كان المطلوب هو كسر شوكة الناصريين وثنيهم عن استخدام العنف الذي بدأوه ، ولو تدخل ضيوفنا العراقيون لازهقت أرواح كثيرة في ذلك اليوم ، وقد فرح هؤلاء يومها لمجرد ان الاشتباك وقع ، لكن دهشتهم لم تتوقف عند حد حين رأونا في الايام التالية ونحن نجلس مع مَنْ عاركناهم ونستأنف الحوار .

وأما في مقرّ الفرع ، فقد واصلت المماحكة مع زملاء الهيئة الادارية القوميين العرب الثمانية . وقد انعكس احتدام الصدامات بين البعثيين والناصريين على العلاقات داخل الفرع ، غير أن تأثيراتها هنا لم تبلغ ، أبداً ، حدّ التصادم بالعنف . واللافت للنظر أن الذين تصادموا فعلاً خارج الفرع ، احتفظوا ، هم أنفسهم ، في داخله بالصلات المألوفة بينهم . صحيح ان هذه الصلات شابها التوتر والبغض المتبادل ، الا ان الطرفين حرصا على الاحتفاظ بما هو ضروري منها . وكان موجعاً لي وطريفاً في وجعه ان اجتمع في المساء مع الاشخاص ذاتهم الذين اصطدمت معهم في النهار وان يتصرف كل منّا وكأن شيئاً لم يكن . وقد اخذ وضع البعثيين في الفرع ، بالرغم من كل شيء ، يتعزز ؛ تم ذلك في المقام الاول بسبب كثرتهم فيه وثمرة للنشاط الدؤوب الذي بذلوه لتوسيع نفوذهم . انضاف الى هذين السببين ضيق طلاب كثيرين بمسلك الناصريين واستفزازاتهم وامعانهم في التشبث بالولاء لعبد الناصر كفرد ، هذا الولاء الذي كاد يتحول الى عبادة ،

وايثارهم ما يتصل بسمعة عبد الناصر الشخصية ومكانته على الوحدة ذاتها . وساعد على ذلك ان القوميين العرب نظروا الى كل مَنْ ينتقد عبد الناصر بقليل او كثير على أنه عدّو لهم وتعاملوا معه على هذا الاساس . ثم إن وضع البعثيين في روابط الطلبة العرب الاخرى الموجودة في دمشق بقي موطّداً وبقي الناصريون اقليات فيها . وقد حملنا هذا الوضع على الحرص على تمتين العلاقة مع هذه الروابط ، فكان لهذا تأثيره البيّن في تعزيز وضعنا في المنظمة الفلسطينية .

وبالنسبة للمخيمات ، اقتضت الخطة التي وضعها التنظيم الفلسطيني في الحزب أن نكسر حلقة السيطرة السياسية الناصرية عليها بأي ثمن وندحض الرأي السائد بأن المخيمات مقفلة للناصريين وحدهم . كنّا نرى انه جرى خلط بين تعلّق الجمهور الفلسطيني بالوحدة وتقديره الأكيد لدور عبد الناصر في مواجهة الاستعمار واسرائيل ، وبين مقدار التعلق الحقيقي لهذا الجمهور بالزعيم الفرد وولائه للمنظمات التي تتقرب اليه باسم الزعيم . وانطلقنا في دعايتنا ونشاطنا في المخيمات من حقيقة ان التعلق بالوحدة والتقدير الصحيح لعبد الناصر أمران مشروعان ، وهما يستندان ، خصوصاً في الساحة الفلسطينية ، الى دوافع وحاجات عميقة . وركزنا هجومنا على مسلك الناصريين بوصفه المسلك القائم على عبادة الفرد والمنفر للناس من الوحدة . كما ركزنا على اظهار الوجه الوحدوي للحزب والأولوية التي يوليها لقضية فلسطين . واستندنا الى العناصر البعثية السابقة في المخيمات ، فاعدنا الصلة بالذين كانوا بعثيين قبل الوحدة . واتبعنا في هذا المجال معايير غير متشددة ، حيث استفدنا من الذين رغبوا في العودة الى الحزب عن قناعة والذين نشدوا هذه العودة بدوافع انتهازية ، نتيجة الخوف من السلطة او طمعاً في المنافع .

ففي مخيّم اليرموك ، على سبيل المثال ، وقعنا على رجل مسنّ كان قد انتسب الى الحزب في الخمسينات ، ثم انقطعت صلته به لسبب أو لآخر . هذا الرجل هو أبو جهاد النقيب ، وهو قريب لصاحب الجورة ، سمير ، وهو ، ايضاً ، واحد من اوائل الذين سكنوا المخيم عند انشائه . كان ابو جهاد ،

حين اكتشفناه ، قد صار مختاراً لحيّه في المخيم ، وتكونت له مصالح تجعله حريصاً على موالاة السلطة . وقد ابدى الرجل ، منذ اول اتصال لنا به ، استعداده للتعاون معنا نحن الجيل الجديد من شباب الحزب ، كما سمّانا الرجل المقبل على الستين ، ووضع الرجل نفسه «في خدمة الطيبين» كما قال لنا ، عمر خليفة ومحمد عطية وأنا ، فصرنا نجيء الى منزله الواقع قرب بوابة المخيم ونلتقي بالناس الذين يدعوهم هو من أجل الاستماع الينا او نذهب ، بصحبته ، وتدبيره المسبق ، الى منازل الآخرين . وكان عارف الزفري ، وهو بين اوائل الفلسطينيين الذين انتموا الى الحزب في الخمسينات ، وهو ، أيضاً ، واحد من ابرز نشطاء الحزب قبل الوحدة ، ما يزال خارج التنظيم لسبب اجهله . بالرغم من ذلك ، احتفظ عارف بصلاته القديمة مع قادة الحزب ومع الذين يعرفهم من اعضائه ، وتصرّف ، على العموم ، كبعثي متمسك بارتباطه بالحزب . وقد اتصلنا بعارف ، ففاجأنا الرفيق القديم بالادعاء بأنه اقام تنظيماً بعثياً بين الفلسطينيين دون علم التنظيم السري الذي انتمينا اليه ، وقال انه احتفظ لنفسه ، وحده ، بمفتاح الصلة بالتنظيم الذي أنشأه واخفى وجوده عن الحزبيين الآخرين لكي لا يقوم نفر عدّد اسماءهم من هؤلاء بافساد الشبّان الذين اجتذبهم هو الى عقيدة البعث . وقد أدركنا ان في ادعاء عارف مبالغة ، الا اننا كنّا بحاجة الى نشاطه وصلاته الواسعة وخصوصاً في هذا المخيم ، فقبلنا المساومة التي عرضها علينا عارف ووافقنا على ما طلبه حين تشبث بأن يظل تنظيمه المفترض مجهولاً من قبلنا وان يظل هو صلة الوصل الوحيدة بيننا وبين اعضائه . وفي المحصلة ، كسبنا النشاط الجمّ الذي يقوم به عارف ليل نهار واكتسبنا عدداً من افراد شلّته واصدقائه الذين تبين انهم هم اعضاء في ما يسميه هو تنظيماً .

ووقعنا في مخيم خان الشيح ومخيم خان ذا النون على حالات اخرى مسعفة ، وكذلك في مخيم جرمانا الناشىء ، حيث وجدنا بعثيين سابقين لم نكن نعرفهم من قبل ، كما وجدنا راغبين في التعاون مع الحزب ، لسبب أو لآخر .

وبهذا ، وبما يماثله ، توفرت لنا بعض قواعد الارتكاز في المخيمات وتوسعنا في تشكيل حلقات الانصار وأولينا مسؤولياتها الى القادرين على تربية الأنصار من رفاق التنظيم الاصليين . وكان من نصيبي أن توليت الإشراف على حلقة أنصار في مخيم خان الشيح واخرى في خان ذا النون بالاضافة الى حلقتين في دمشق . وكان معظم الانصار من طلاب الجامعة والمعلمين في المدارس ، وإن وجد عدد قليل منهم من الموظفين والعمال وأجراء المهن .

وإذا راعينا ان الجو في المخيمات كان ، بالإجمال ، مناهضاً للحزب ، وكان يتحول الى جو معاد في اوقات التأزم ، يصير مفهوماً كيف أننا شققنا طريقنا بصعوبة بالغة . صحيح أن انتهازيين كثيرين أظهروا الولاء للحزب ، غير اننا ما كنّا لنؤخذ بمثل هذا الولاء . واذا كنا قد استفدنا من هؤلاء ، على نحو أو آخر ، فقد حرصنا على أن لا نمكنهم من الانتماء للتنظيم ، فكنا ننتقي الذين نختارهم لعضوية التنظيم معتمدين معايير صارمة ، مؤملين ان ننشىء نواة صلبة تصمد أمام الزعازع القائمة . هذا النوع من الجهد لم يوفر للحزب شعبية واسعة في المخيمات ، إلا انه اكسبه اعضاء اشداء . وعندما هبت العواصف الشديدة التي استهدفت الحزب بعد ذلك ، صمد هؤلاء في اقسى الظروف واشدها مضاضة على النفوس .

في غضون ذلك ، كان التنظيم الحزبي السوري يوالي توسعه . وقد حقق في مجال الانتشار خطوات فاقت ما حققناه على الساحة الفلسطينية بكثير . حدث هذا لأن المصاعب على الساحة السورية كانت أقل منها على الساحة الفلسطينية ، ولأن الرفاق السوريين الذين لم تصهرهم تجربة التنظيم السري الطويلة استخدموا معايير للعضوية ألين من التي استخدمناها . وقد عرّضنا هذا الوضع لضغوط تستهدف حملنا على تليين معاييرنا ، وكانت هذه ضغوطاً متنوعة ، فالقيادة ترسل الملاحظات ، والرفاق السوريون يباهوننا بمنجزاتهم ويأخذون علينا قصورنا عن بلوغ المدى الذي بلغوه ، والناس من رجال الامن الذين بدأوا يطوعون أنفسهم لخدمة البعثيين ويتفننون في اظهار الولاء للحكام الجدد يكثرون من التقارير التي

تظهرنا بمظهر المعزولين ، وينشطون من جانبهم فيلمون الانصار للسلطة بوسائلهم المعهودة التي لا تستسيغها ضمائرنا ويظهرون انفسهم بمظهر الحريص على شعبية الحزب اكثر منا . بالرغم من ذلك ، قررنا ان نواجه الضغوط وتشبثنا بمعاييرنا للعضوية ، فلم يعبر مصافينا الا مَنْ رأينا أنه يستحق ذلك فعلاً . إلا أننا ، على صعيد آخر ، توسعنا في عقد اللقاءات مع الذين يستجيبون لدعوتنا من الفلسطينيين ، كنّا نحضّر للقاء بحيث يجتذب اكبر عدد ممكن ، وننتقي المتحدثين في اللقاءات من بين ذوي الاسماء الجذابة والمكانة المرموقة في مقاييس الناس الذين نتوجه اليهم ، بصرف النظر عن مرتبتهم او درجة فعاليتهم في التنظيم الحزبي ذاته .

انني اتذكر وقائع تحضيراتنا لعقد لقاء من هذا النوع في مخيم خان الشيح ؛ اتذكر هذه الوقائع جيداً لأنه واحد من اللقاءات القليلة التي حضرنا لعقدها ثم لم تنعقد وتعرضنا بسببها لما يشبه الفضيحة .

كان لنا في المخيم الذي تسكنه بضعة آلاف نصير نسيت اسمه ينحدر من عشيرة صغيرة ويعمل آذناً في مدرسة المخيم الابتدائية . وكنت أنا ، الذي توجب عليّ في ذلك الوقت ان اعمل في هذه المدرسة ثلاثة ايام في الاسبوع ، مَنْ اجتذب هذا النصير الى الحزب . وكان معي في المدرسة ذاتها معلم بعثي آخر هو محمد عطية الذي يسكن في مخيم اليرموك . وقد فكرنا ، محمد وأنا ، في عمل شيء في المخيم ، وعرضنا الامر على التنظيم فتشكلت لجنة ضمتنا نحن الاثنين وانضم اليها عمر خليفة ، للإشراف على العمل . ولأن نصيرنا كان ذا سمعة طيبة في محيطه وكان لا يؤذي أحداً ولا يستفز أحداً ولا يتباهى بانتمائه الى الحزب الحاكم ، فقد قررت لجنتنا ان نعقد اللقاء الذي اقترحناه في داره حيث يمكن استيعاب عشرات الناس في فضاء ممتد أمام الدار ، واظهر هو استعداده لاستضافة الناس . ووقع اختيارنا على عبد الكريم زهور ليكون المتحدث في هذا اللقاء . كان زهور ، كما تعرف ، وزيراً للاقتصاد اقترن اسمه باجراءات تأميم البنوك التي حظيت بتأييد شعبي كبير . وكان هذا الرجل ، بغير هذا وقبله ، شخصية شهيرة في عالم السياسة ، فقد سبق ان كان عضواً في

مجلس النواب الشهير قبل الوحدة، نجح في الانتخابات يومها على قائمة الحزب التي تزعمها اكرم الحوراني في حماة. واختلف زهور مع الحوراني حين نحى هذه منحى انفصالياً، وانحاز زهور الى الحزب حين انشق الحوراني عنه. وكان المقال الاسبوعي الذي يكتبه زهور في «البعث» في عهد الانفصال بين اهم مقالات الجريدة التي يترقبها القراء، كما كان متحدثاً بارعاً يأسر سامعيه. ومع وجوده في الحزب ومركزه في قيادته وشهرته وزيراً بعثياً قديراً، تصدر زهور المجموعة الحزبية التي دعت الى التعاون مع الناصريين واشتهر بهذا الموقف. فكانت لزهور، إذن، كل الصفات التي تجعلنا نختاره للحديث في المخيم. وعندما قبل الرجل دعوتنا، اعتقدنا أننا وفرنا العدة اللازمة لكي يكون هذا اللقاء انجح اللقاءات التي نظمناها، واوعزنا الى نصيرنا كي يتوسع في الدعوات ويستدرج الى داره اكبر عدد من الناصريين، معتمدين على سمعة الوزير واحترامهم لموقفه منهم.

وفي الموعد المحدد، جئنا، ثلاثتنا، الى متحدثنا، في مكتبه في وزارة الاقتصاد لكي نصحبه في الرحلة الى مخيم خان الشيح. وقد تقصد زهور، الحريص اشد الحرص على السلوك الديمقراطي، ان لا يذهب الى اللقاء الذي ينظمه الحزب بسيارة الوزارة والا يصحبه الحراس الموكلون بحمايته؛ كانت تلك، في رأيه، مهمة حزبية فلا يجوز استخدام السيارة الحكومية في أدائها، وما دام اللقاء لقاء شعبياً فلا يجوز، ايضاً، المجيء اليه بصحبة الحراس. وما كان لأي منّا ان يعترض، ولا وجدنا من الضروري ان ننبه الوزير الى خطر الذهاب بدون حرّاس، لأننا لم نتوقع ان يتعرض هو، بالذات، لأي خطر. وانتهى الأمر بأن استأجرنا سيارة أجرة حملتنا الى المخيم، فلما صرنا بمحاذاة الدور الاولى على الطريق، وجدنا جماعة تضم عشرات الاشخاص واقفة في الانتظار، فظننا ان مضيفنا جمعهم من اجل استقبالنا فاستبشرنا خيراً. وبالرغم من أن المنزل الذي نقصده كان بعيداً عن مكان الجماعة، بحيث كان من الممكن ان يلوح الوزير لها بالتحية ونتابع المشوار في السيارة، فإن وزيرنا، الديمقراطي، رأى أن اللياقة

تقتضي أن نتوقف وننزل من السيارة ونتم المشوار مشياً بصحبة المستقبلين .
وقد نزل الرجل من السيارة ونزلنا وراءه ، وهو يبتسم للواقفين ازاءه ابتسامة امتنان عريضة ويحيّيهم بعبارات ودية . الا ان رد فعل هؤلاء اظهر للتوّ انهم لم يجيئوا للترحيب بل جاءوا للتعبير عن اعتراضهم على زيارة الوزير البعثي لمخيمهم ، غير آبهين بما له من سمعة توجب عليهم الاحتفاء به .
ومع أن التحيات الطلقة التي وجهها زهور لهؤلاء قد احدثت بعض التأثير في كبح مشاعرهم ، فإن هذا التأثير لم يستمر اكثر من لحظات معدودة ، ثم ما لبث أن انطلق أول الهتافات فكان تحية لعبد الناصر : «عبد الناصر يا جمال ، يا مقدام عروبتنا ...» . وقد ادركنا نحن الذين نصاحب الوزير مغزى هذا الهتاف وتوجسنا الشرّ . الا ان الوزير لم يحمل الهتاف على هذا المحمل ، بل عدّه فاتحة ملائمة ، فردد الهتاف مع مردديه وهو بادي الحبور ، وراح يلوح بيديه مع ايقاع الهتاف ، وطلب منا نحن الثلاثة ان نجاريه .
وأحدث هذا ايضاً بعض التأثير من جديد ، لكن لبضع لحظات اخرى ، ليس اكثر . وقد خطا الوزير في هذه اللحظات خطواته الاولى واشار للجماعة كي تتبعه . عندها ، اطلق احدهم هتافاً من نوع جديد ، معادياً صراحة للبعث : «لا بعثيّة ولا انفصال ...» . فردده البعض واحجم الذين كانوا ما زالوا تحت التأثير الايجابي لمسلك الوزير . واحدث الهتاف والانقسام بشأنه بلبلة في صفوف الجماعة التي كانت تبارينا على الجانبين فتكاد تحيط بنا إحاطة محكمة . وسحب زهور ابتسامته وحلت محلها جهامة ، واحتفظ بسيره الوئيد على الطريق ، ماداً نظره على المدى الفسيح دون ان يوجهه ناحية احد بعينه . ومع توالي الخطوات ، زاد تواتر الهتافات المعادية ، فاشتدت هواجسنا ، وازددنا التصاقاً بالوزير ، دون ان ندري ما الذي نستطيع ان نفعله . ولما بلغنا النقطة التي ينبغي ان ننعطف عندها شمالاً فنترك الطريق العام ونتجه الى منزل المضيف ، تقدم ناحية الوزير عدد من الشبان الذين بدا لنا انهم رؤوس المحرضين ، واحاطوا به مباعدين ما بيننا وبينه بفظاظة ، واطلقوا العنان لاكثر الهتافات جلجلة : «بدنا نحكي على المكشوف ، بعثية ما بدنا نشوف» . وكانت الفراغات بين الدور

قد اخذت تمتلئ بالناس من الرجال والنساء والاطفال ، يخرج واحدهم من داره ويستشرف الموكب بنظرة متفحصة ، ثم يخطو نحوه بخطى متئدة في البداية ، ثم يندمج في الحشد ، ويكبر الحشد ويكبر ، ويشتد الصخب ويتزايد الذين يرددون الهتافات . وقد لابت عيوننا تبحث بين الحشد عمن نعرف من انصارنا فوقعنا على بعضهم وارسلنا اليهم اشارات تحثهم على عمل شيء لانقاذ الموقف الذي تتزايد مخاطره في كل لحظة دون ان ندري ، نحن انفسنا ، ما الذي نتوقعه من بضعة اشخاص في مواجهة حشد تضخمت كتلته على هذا النحو . وتجرأ واحد من انصارنا فجهر بهتاف مؤيد للبعث . وبدا ان آخرين منهم على وشك ان يجاروه . وكان هذا ، كما ادركنا للتو ، مجرد حماقة ، فقد استفز الهتاف اليتيم الجمهور وأجج هياجه ، ولم يعد لدى المحرضين ما يراعونه من الاعتبارات التي لجمت انفجارهم حتى تلك اللحظة ، فما كاد صاحب الهتاف اليتيم يغلق فمه حتى تلقى حجراً اوقعه على الارض ، ثم اخذت قذائف الحجارة تنصب على انصارنا وتلاحقهم حين تفرقوا ، فيما صارت الهتافات هديراً متصلاً يملأ جوّ المخيم كلّه بالغضب .

في هذه اللحظات ، أقبلت كوكبة من رجال الشرطة ، كانوا الستة الذين يضمهم مخفر المخيم مع رئيسهم وكيل الضابط ، قدموا من مخفرهم باسلحتهم المشرعة ، وشقّوا طريقهم وسط الحشد الساخط حتى بلغوا موقعنا فا-حاطوا بالوزير ، وحده ، واستخلصوه من بين الجموع ومضوا به وهم يطوقونه بأذرعهم ، وساروا به ناحية مخفرهم ، غير آبهين بمن بقي وراءهم .

صمت الحشد ، وسكنت حركته في اللحظات التي اقتحم فيها الشرطة المسلحون الساحة . فلما اتضح لنا أن رجال الشرطة معنيون بحماية الوزير وحده وتأكد لنا ان الوزير ذاته اهملنا ، اغتنمنا الفرصة ، نحن الثلاثة ، وبحثنا عن النجاة ، ولم يكن امامنا الا منزل مضيفنا فاتجهنا نحوه باقصى ما اسعفتنا سيقاننا على الجري . واذ غادر الشرطة الحشد وتنبّه الساخطون الى حركتنا ، فقد تبعتنا قذائف الحجارة ، وجرى عشرات الاشخاص خلفنا بأمل اللحاق بنا ، وانفجر الكره المخزون ، هنافات وجلبة وحركات

منتظمة واخرى غير منتظمة . وانتهى الامر بأن وجدنا انفسنا محاصرين ، ومئات الاشخاص الساخطين يحيطون بالمنزل الذي لجأنا اليه .

يومها ، خبّأ الشرطة وزيرهم في المخفر ووقفوا باسلحتهم لحمايته فلم يتوجه أي من الناس ناحية المخفر . أما الغضب فانصبّ كلّه نحونا ، وانهالت قذائف الحجارة ناحيتنا من كل صوب . وتوزعتنا زوايا احدى الحجرات متجنبين القذائف التي تخترق نافذتها واسلمنا امرنا الى المقادير . كنّا نسمع نداءات المتداعين لاقتحام المنزل ونتوقع وصولهم في اي لحظة ولا نملك ان نفعل شيئاً سوى الاستسلام للمصير . وظل دبيب الحجارة على السطح والجدران يتوالى والقذائف التي تعبر النافذة تصطدم بالارض حاملة لنّا النذر المرعبة ، دون ان يدخل احد المنزل .

لماذا لم يقتحم الجمهور يومها مخبأنا فيفتك بنا؟ لقد فكرنا بذلك ، فلم نقع على تفسير يقيني . وكان من رأيي ان الاستقبال المعادي استهدف ، في المقام الاول ، اظهار موقف المخيم الموالي للناصريين وتعطيل عقد اللقاء ، ولم يستهدف ايقاع ضحايا . ولا بدّ ان منظمي الاستقبال كانوا يدركون مغبة وقوع ضحايا ويعرفون انهم ليسوا بمنجاة من انتقام البعثيين القادرين على الانتقام ، وانهم اكتفوا بتحقيق الهدفين اللذين توخوهما . ووافقني عمر على هذا الرأي ، واضاف ان مجيء عبد الكريم زهور ، بالذات ، حمل القيادة الناصرية على تنظيم هذا الاستقبال لتؤكد له ان الناصريين هم سادة الشارع ولتضغط عليه هو وأمثاله من المترددين بين البعثيين والناصريين كي يحسموا اختيارهم . اما محمد عطية ، ابن مخيم اليرموك ، والأعرف منّا بمزاج اهل المخيمات ، فقد قدم تفسيراً آخر . وقد بنى محمد تفسيره على اساس ان الجمهور حين يهتاج يفلت من أي حسابات ، واذا كان الناس قد ترددوا في اقتحام مخبئنا فلأنهم يظنون اننا مسلحون والمسألة تتعلق بالجرأة ، فلو جرؤ واحد ، فقط ، على تعريض نفسه لرصاصنا المفترض وتبعه ثان وثالث فسوف يقدم آخرون ، ولن ننجو . عرض محمد رأيه هذا ، ثم قال : «لن اموت بغير ثمن» ، وفاجأنا ، فعلاً ، اذ اتضح انه يحمل مسدساً ويملأ جيوبه بالطلقات ، وقد اشهر مسدسه ولقمه وظل

متحفزاً طيلة الوقت ، وعيناه تراوحان بين الباب والنافذة .

طال الحصار ، او هكذا شعرنا على مدى الساعة التي أمضيناها أسرى الرعب والهواجس ، ثم جاء الفرج ، جاء هديراً عاصفاً ملأ الارجاء باصوات الآليات العسكرية ، وهي تقتحم المخيم باقصى سرعتها .

كان سائق التاكسي الذي حملنا الى المخيم قد بقي ساكتاً إزاء الاستقبال الذي جوبهنا به ، ولم يغادر سيارته ؛ واذا لم يكن قد عاد من حيث أتى للتو فلأنه عرف أن بين الركاب وزيراً وخشي مغبّة العودة بدونه . فلما ظهرت قذائف الحجارة ، استشعر السائق الخطر وآثر ان يبتعد . وتنبّه بعض المتظاهرين لحركة السائق حين ادار سيارته ، فوجه قذائفه ناحيته . وكان ان كسر زجاج نافذة التاكسي واصيب وجه السائق بجرح غطاه بالدم ، قبل ان يتمكن الرجل من الفرار . وبوجهه المدمّى ، وصل السائق الى نقطة الشرطة العسكرية القائمة عند مفرق عرطوز، ونقل النبأ . والآليات التي سمعنا هديرها كانت هي مصفحات عسكرية بكاملها جاءت للنجدة وجاء معها المقدم احمد سويداني الضابط البعثي الذي كان ، آنذاك ، قائداً للشرطة العسكرية .

نقلنا منجدونا من مخبئنا الى مخفر الشرطة المدنية . حملتنا الى هناك سيارة جيب تحرسها مصفحة . كان الهدوء الذي يطوق المخيم شاملاً ، ولم يقع نظرنا على انسان واحد ، وان كنا متأكدين من أن مئات العيون ترقبنا . وعندما ولجنا المخفر ، وجه لنا شرطته المدنيون تحيات باهتة ولم يفطن أي منهم الى ضرورة تهنئتنا بالسلامة ، او فطنوا لذلك ولم يجرؤا على تقديم التهنئة هم الذين تركونا قبل قليل معرضين لخطر محقق . ثم جاء رئيس المخفر ، وهو ، وحده ، الذي حيّانا بعبارات مجلجلة ، ونوّه بشجاعتنا غير آبه بأن التنويه بها إنما يذكر تلقائياً باهماله : «مرحباً بالأشاوس ، أهلاً بالشجعان» ، رددها الوكيل المنافق ، واقتادنا الى الحجرة التي يجلس فيها الوزير والمقدم . وقد تلقانا المقدم بإهمال في البداية ، اما الوزير فرمانا بنظرة غاضبة ، ثم انصرف الاثنان لاتمام الحديث الذي قطعه دخولنا . كان المقدم

سويداني يعرض رأيه بوجوب معاقبة المشاغبين واقتياد المحرّضين الى السجن ، الا ان الوزير تشبث برأي عرضه بعبارة موجزة «الجمهور لا يعاقب» ، وظل يكرر العبارة . وشاء عمر ان يتدخل في الحديث ، وما كاد يفوه بكلمات لم تتم بها الجملة حتى اندفع الوزير في الكلام ، فاتضح سبب غضبه علينا . لقد عدّنا عبد الكريم زهور السبب في ما حصل ، ونسب الامر الى ما اسماه تقصيرنا في الاعداد للقاء . واشتط الرجل الحانق في الكلام ، فاتهمنا بأننا تواطأنا مع ناس بعينهم في قيادة الحزب ، وعملنا على استدراجه الى هذه المواجهة مع الناصريين لغرض الضغط عليه لعله يبدل موقفه المعروف من التعاون مع هؤلاء ؛ ثم انذرنا بأنه سيطلب اجراء تحقيق معنا ، وسيصر على معاقبتنا .

كان في هذه الاتهام مفاجأة كاملة لنا نحن الثلاثة ، كانت تلك مفاجأة سيئة ، وأسوأ منها كانت النبرة التي خاطبنا بها الوزير . لقد سبق ان لقيت زهور مرات عديدة قبل هذه ، كما سبق ان استمعت الى عدد من محاضراته في علم النفس في الجامعة ، فشاقتني طلاقة حديثه وسحرتني دماثته ومقدرته على قول أحدّ الآراء بأبلغ العبارات وأسلسها . أما في هذه المرة ، فقد تدفقت من فم الرجل عبارات ، القذائف ارحم منها وقعاً ، وقذفنا لسانه بالفاظ قد لا تسمعها في أعتق سوق في حماه . اما المقدم فقد استمع الى الوزير دون ان يظهر انه مفاجأ به فاستخلصنا انهما تحدثا في هذا الأمر قبل مجيئنا . وقد وجه الينا المقدم نظرة الراغب في معرفة ردنا على الاتهام . وانبريت انا للكلام منذ صار خطاب الوزير لنا مجرد شتائم . بدأتٍ بالمقارنة بين ما اعرفه من أدب عبد الكريم زهور وما اسمعه الآن ، جاعلاً المقارنة ذاتها اداتي للومه على شططه ، ثم بينت الاسباب التي حملتنا على اختياره هو بالذات ، عارضاً اياها بالتفصيل . وهنا ، تدخل المقدم الذي تلقى حديثي بانتباه شديد وقال للوزير : «انت ترى ، أنهم رفاق طيبون» . واذ كنت ما ازال مغتاظاً ، فلم اكتف بذلك ، بل واصلت الكلام ، وعرضت الطريقة التي نفهم بها الامور ، والاسلوب الذي نتبعه في عملنا في المخيمات والمجازفات التي نتعرض لها . ثم ختمت

كلامي بالتعريض ، صراحة ، برأي زهور وخفّته في توجيه الاتهام لنا . وقد اصغى زهور لحديثي ، مضطرباً في البداية ، الا انه استعاد السيطرة على نفسه مع استرسالي فيه . وعندما فرغت من الكلام ، نهض هو مفصحاً عن رغبته في المغادرة ، وقال وهو يوزع نظرة بيننا نحن الثلاثة : «أنا لم اجرّبكم من قبل ، التحقيق سيكشف الحقيقة» ، وغادر دون ان يخصنا بتحية أو وداع .

والذي حصل بعد ذلك أن زهور روى الحكاية في كل مكان ذهب اليه على نحو يديننا نحن الثلاثة ويدين مَنْ يفترض انهم وراءنا ويجنب الناصريين الملامة . وطلب زهور من قيادة الحزب اجراء التحقيق الذي توعدنا به . ولولا ان الاحداث تعاقبت بما طغى على الاهتمام بالحكاية ، ولولا ضعف موقف زهور عموماً في اوساط القيادة ، لكنا استدعينا فعلاً الى التحقيق ولأمكن أن يطالنا منه سوء ما ، ولو من باب المجاملة للوزير الغاضب علينا .

واللافت للنظر ان وسائل الاعلام الناصرية لم تأت على ذكر هذا الذي وقع في خان الشيح ، لا بقليل ولا بكثير . والمعروف ان الاعلام الناصري ، وأخص وسائله اذاعة صوت العرب ، كان يتابع كل ما يجري في سورية بأدق تفاصيله ويذيع اي واقعة تظهر معارضة الجمهور للسلطة البعثية ويهوّل من الوقائع إن لم يختلقها اختلاقاً . وعندما تجاهل هذا الإعلام واقعة صحيحة ، سافرة الدلالة في هذا المجال ، تأكد لي صواب ما استخلصته من أن هدف الاستقبال كان الضغط على الوزير المتردد ليس اكثر ، فلما جاء رد فعله على النحو الذي وصفته لك تجنب الناصريون التشهير به . ومهما يكن من أمر ، فإن هذه الحادثة تسببت في قطع صلتي الى الأبد بالرجل الذي احببته واحترمته والذي كان بين قليلين يشوقني حديثهم . ثم انه ، هو نفسه ، لم يلبث ان ترك الوزارة وشدد معارضته لسياسة الحزب وتراخت علاقته به ، ثم تضاءل نشاطه السياسي بعد حين .

على أي حال ، فإن عملنا في المخيمات ، أو قل : ان حماسنا لهذا

العمل ، لم يخفت بعد الحادث . كل ما في الأمر اننا صرنا اشدّ حذراً واكثر دقة في حساب خطواتنا ، وان أوهامنا بشأن النجاحات الكبيرة تضاءلت . وقد حسم الحادث ترددنا حول أمر كنا فكرنا به من قبل ، فلم نعد نصطحب في لقاءاتنا مع الفلسطينيين الا فلسطينيين او سوريين عارفين معرفة تفصيلية بالشأن الفلسطيني . وهكذا ، توفرت فرصة اكبر لرفيقنا الذي يكبرنا في العمر احمد مرعشلي ، وصار احمد ، بلباقته المشهودة في الحديث ، ومهابة هيئته التي تملأ العين ، وحرصه الدائم على الاناقة ، المتحدث الذي نعتمد عليه في معظم اللقاءات .

اما الحزب في سورية ، وكنّا على صلة بمنظماته التي ترتبط فرقتنا بها ونشاطه الذي نقوم بدور كبير فيه ، فقد اختلطت الامور فيه وشابها تعقيد شديد . صحيح ان غالبية الحزب كانت مجندة في العمل لتوطيد اركان سلطته الجديدة في البلاد ومواجهة الناصريين الذي شددوا الصراع معه . وصحيح ، أيضاً ، أن هذا وذاك أدى الى تضامن الحزبيين في ما بينهم في مواجهة المصاعب والمخاطر المحدقة بالجميع . كما انه صحيح ، الى هذا وذاك ، ان الاغلبية تصرفت من موقع الثقة بالنفس والايمان بقدرة جهاز الحزب المدني والعسكري على التصدي لخصومه ، غير أن أمر الحزب ، في ما عدا ذلك ، انطوى في داخله على عدد كبير من الخلافات والتباينات واشتمل على ظواهر عديدة تشي بعدم التجانس او تنم عن ضعف في الكفاءة اللازمة لمواجهة أعباء الحكم ومتطلبات بناء العهد الجديد . وقد امتزج تأثير اختلاف النوايا والتوجهات مع ضعف الكفاءة والقدرة على تنظيم شؤون الدولة مع الاضطرابات السياسية ، فاحدث بلبلة كبيرة على كل الصعد .

وقد ينبغي ان اذكر . في هذا السياق ، تأثير ما جرى في العراق على سمعة الحزب في سورية ، اذكره قبل أي شيء آخر لانه احدث تأثيراً عميقاً في هذا المجال او انه ، على الاقل ، بدا لي كذلك . فالبعثيون العراقيون الذين اسقطوا نظام قاسم بالقوة واعدموه مع عدد من زعماء نظامه في الساعات الاولى لبدء حركتهم ، لم يكتفوا بهذا المقدار من اراقة

الدم ، بل اندفعوا في معركة هوجاء استهدفت اهم القوى التي ايدت قاسم ، وسال دم الشيوعيين وانصارهم بسبب وبغير سبب وسقط ضحايا كثيرون . ومع أن الوحدات العسكرية الموالية للبعثيين او التي ايّدت حركتهم ضد قاسم ، وكذلك اجهزة الامن الحكومية المماثلة هي التي تولت العبء الاكبر في الحملة ضد معارضي الحركة البعثية ، فإن الدعاية المضادة تركزت ضد الحرس القومي والاعمال التي قام بها عناصره في هذا المجال ، اي انها تركزت ضد حزب البعث فاوقعته في تباين صارخ بين دعوته التقدمية وقمعه لقوة تقدمية ، ولطخت سمعته بالمسؤولية عن الدم الذي أريق ، وافسحت المجال لاتهام الحزب بالفاشية والرجعية والعمالة للامبريالية وما الى ذلك مما يطلقه الشيوعيون على خصومهم من اتهامات . لم يرق في سورية دم احد يوم استيلاء البعثيين والناصريين على السلطة . وفي الصراع بين هذين الطرفين ، حتى حين اقترن هذا الصراع بالعنف ، لم يقع ما تمكن مقارنته بما وقع في العراق . ومع ذلك ، وبالرغم منه ، فإن دفاع البعثيين السوريين عن رفاقهم في العراق حمل الأولين جانباً من المسؤولية عن سلوك رفاقهم . والحقيقة ان ردود الفعل داخل الحزب ازاء الفتك بخصوم البعث في العراق تفاوتت وتباين بعضها ازاء بعضها الآخر . فقد مالت غالبية الحزب في سورية ، ولنقل ان هذا برز في البداية على الاقل ، الى الانتصار لبعثيي العراق وتسويغ اعمالهم على اساس أن الشيوعيين في العراق تصدوا لمقاومة العهد الجديد . لكن الحزب لم يفتقر الى أصوات اعترضت على حمامات الدم ، استند البعض في اعتراضه الى دوافع مبدأية ، كما استند البعض الآخر الى دوافع براغماتية . البعض الاول رأى في الشيوعيين قوة تقدمية لا يجوز للحزب ان يستدرج الى احكام العداء معها . والبعض الآخر تحسب من انعكاس سلوك البعثيين ازاء الشيوعيين على مكانة البعثيين بين القوى التقدمية المحلية والعالمية . وكان هذا الموضوع ، بجوانبه كلّها ، بين الموضوعات التي تشغلنا وتؤجج الحوارات بيننا . وقد وجدتني بين البعثيين المعترضين ورحت اجهر باعتراضي بالصوت الجهور .

ثم ان مجيء البعث الى السلطة جرى قبل ان يتمّ الحزب عملية اعادة بناء تنظيمه في سوريا ، فتوجب عليه ان يواصل العملية فيما هو مستغرق في هموم السلطة ومصاعب العهد الجديد والصراعات الدائرة فيه . هذا الوضع نجمت عنه سمتان سلبيتان : قلّة التجانس في بنيان الحزب الذي اندفع كثير من الانتهازيين للانضمام إليه ، وعدم التوازن بين قوته التنظيمية المتحققة والاعباء المفروضة عليه . في هذا المجال ، تميزت المنظمة الحزبية الفلسطينية ، ان جاز حقاً اطلاق اسم منظمة على الفرقة ، بخبرتها القديمة المتأصلة وتشبثها في التشدد في شروط العضوية والتدقيق ، بالتالي ، في اختيار الاعضاء الجدد .

وفي هذا الوضع ، نشأ خلل في التوازن بين نفوذ الحزبيين العسكريين والآخرين المدنيين ، ثم اخذ هذا الخلل يتسع بمضي الايام . صحيح ان القوة المعنوية الراسخة لقيادة الحزب التاريخية ، وكلها من المدنيين ، لعبت دورها في الابقاء على شيء من التوازن وفرضت هيبة القيادة ، بمقدار أو بآخر ، على الجميع . لكن صحيح ، ايضاً ، ان البعثيين العسكريين هم الذين شكلوا رأس الحربة في عملية اسقاط عهد الانفصال ، وهم الذين اقاموا السند الذي يستند اليه الحزب لتوطيد سلطته وأدواتها . وما كان من الممكن ان يظل هذا كله بغير تأثير . فقد تولت عساكر الحزب ، على الفور ، مسؤوليات متعددة في الدولة ، فكان لهم حضور كبير في المجلس الوطني لقيادة الثورة وكان منهم رئيس الدولة وعدد من وزراء الحكومة النافذين ، وذلك فضلاً عن الجيش الذي اخذوا في السيطرة عليه . كانت قيادة الدولة قد انيطت بالمجلس الوطني لقيادة الثورة ، اما الحزب فكانت القيادة القومية وكذلك القيادة القطرية السورية هما اللتان تتوليان توجيهه . وكان من المفروض ان ينصاع الحزبيون كلّهم لتوجيهات قيادة الحزب ، الا ان «لجنة الضباط» ، وهي الهيئة القيادية لتنظيم الضباط البعثيين السري هي التي تولت ، عملياً ، توجيه هؤلاء ، وكانت ، في الحسابات الواقعية ، اوفر نفوذاً من أي هيئة اخرى . فإذا اضفت لهذا التعدد ما وجد من خلافات وتباينات مبدأية او مزاجية ، داخل كل هيئة على حدة ، صار بمقدورك ان

تتصور مقدار التداخل في الصلاحيات والتصارع بين الارادات وتعقيداته الكثيرة .

اضف الى ما تقدم كله ان الحزب جاء الى السلطة ، بمدنييه وعسكرييه ، ببرنامج اغلب بنوده شعارات عامة ، واشهرها ، كما تعرف ، الوحدة والحرية والاشتراكية . وهي شعارات لم يكن التثقيف الحزبي يغني مضامينها الا بالقليل جداً من التفاصيل . وهذا افسح المجال أمام الاجتهادات العديدة ، بما فيها الاجتهادات التي لا تتفق فعلاً مع الشعارات ، كما افسح المجال ، أيضاً ، للتخبط . لم تكن النوايا الطيبة غائبة ، ولا الرغبة في عمل ما هو مفيد . ان ما غاب هو الرؤية الواضحة والبرنامج الهادئ والموحد والقدرة على التعرف على متطلبات المستقبل . وها أنا اتذكر واحدة من اوائل النكت السياسية التي ألفت ان أروجها ، وهي نكت كنت استقيها من الوقائع التي اعانيها ولا اخترعها اختراعاً : كان محمد عمران احد كبار المتنفذين في لجنة الضباط في اجتماع للجنة الاقتصادية التي شكلها المجلس الوطني لقيادة الثورة ، وكان على اللجنة ان تقدم مشورتها حول الخطة الاقتصادية لتنمية البلاد ، والنكتة تقول ان عمران ابتدأ مداخلته في الاجتماع بالتأكيد على أنه يعتقد بأن طريق التطور الرأسمالي هو الأفضل والأنجع والاسرع ، ثم استدرك : لكننا في حزب اشتراكي ، وما دمنا اشتراكيين فان علينا ان نضع خطة اشتراكية!

كان من شأن غياب الرؤية الواضحة الموحدة وامتزاج تأثير هذا الغياب بتأثير الاحداث المضطربة والاجتهادات المتباينة ان يفسح المجال لنشوء الشلل والكتل المتعددة . ومع ميلان الكفّة لصالح نفوذ العسكر ، اخذت كل شلّة تبحث عن عسكريين يدعمونها . ومع حاجة العسكر للغطاء المدني ، راح العسكريون يبحثون عن شلل تلتف حولهم وينمونها ، كل حسب مقدرته ومقدار طموحه .

اريد ان اقول لك ، بعد هذا الاستطراد ، ان انشغالنا في العمل للحزب كلية واستغراقنا فيه لم يعفيانا من الانشغال بالمشاكل التي تتفاعل في

داخله ولم يبرئانا من عيوبها . وقد سبق لك ان عرفت اننا شكلنا منذ كنا في عداد شعبة الطلبة العرب في الجامعة شلة خاصة ضمت بعثيين فلسطينيين كما ضمت اردنيين ومغاربة ويمنيين . وقد اجتذبت هذه الشلة بعد عودة البعثيين السوريين الى الميدان عدداً منهم كما اجتذبت عدداً من البعثيين العراقيين ممن يترددون على سورية . وبمضي الوقت ، وبتأثير التطورات التي اشرت اليها ، تحولت الشلة التي التفت في البداية حول محمد بصل الى كتلة حزبية متميزة ، وصار لها زعماء آخرون ؛ كان منهم حمود الشوفي الذي صار أميناً لسر القيادة القطرية السورية ومحمود نوفل ونبيل شويري وخالد الحكيم ونذير النابلسي . أما العراقيون فكان منهم ، بين قادة الكتلة التي توسعت كثيراً ، علي صالح السعدي وهاني الفكيكي وحمدي عبد المجيد ، وكلهم اعضاء في قيادة العراق . هذا التكتل الذي راح يجاري الآخرين في البحث عن عسكر يسندونه ، دعم حكومة صلاح البيطار الاولى ، بالرغم من أن التكتل تميز بانفتاح أعضائه على الماركسية فيما كان البيطار بين أشدّ معارضي هذه الانفتاح . وهذا التكتل ايد في الفترة الاولى التشدد ضد الناصريين ، وذلك ، أيضاً ، بالرغم من أنه كان يعلن تشبثه بالوحدة العربية ويميز نفسه عن الماركسيين بدعوى انهم لا يولون اعتباراً للوحدة .

وقد وجدتني ، بحكم موقعي في التنظيم الفلسطيني الذي يشكل احد مرتكزات التكتل ، وصلتي الحميمة بمحمد بصل ، عضواً في هذا التكتل ، وكنت فيه نشيطاً وحاضراً ، أبداً ، للصدام مع منافسيه . وقد حظيت ، في هذا المجال ومنذ وقت مبكر ، بسمعة المصادم طويل اللسان وغير الهيّاب . وكنت ، بالفعل ، لا اكفّ عن التصادم ، هنا وهناك ، مع هذا او ذاك ، كما كنت ادور بلساني الطويل ، ليل نهار ، مشنعاً على الآخرين وراوياً الوقائع التي تخدم مواقف التكتل وتطال منافسيه . حتى ان لقب «المشيع اركان حرب» الذي اطلقه عليّ ، ذات مرة ، لطف غنطوس ، الذي كان على صلة بتكتلنا دون ان يضع فيه رجليه الاثنتين ، قد انتشر انتشاراً واسعاً بين اصحابي الذين يستخدمونه للتندر والآخرين الذين يستخدمونه للتشنيع

عليّ . والحقيقة ان دوري في خدمة التكتل وجرأتي في اداء الدور جعلت لي موقعاً أثيراً لدى زعمائه . ولما كان هؤلاء وقتها معدودين من النافذين في الحزب والدولة فقد وفر هذا لي حماية خاصة ، فشجعتني هذه الحماية على الامعان في الجرأة والتمتع بما توفره لي من سمعة بوصفي العضو العادي الشاب في الحزب الذي لا يهاب مواجهة اكبر القادة والمسؤولين والجهر بانتقاداته لهم في حضورهم .

ومنذ ذلك الوقت ، كنت اعدّ نفسي يسارياً ، واعتز بذلك ، واندب نفسي لمواجهة اليمين .

وأنا اتذكر من وقائع جرأتي المبكرة المرة التي هاجمت فيها الأمين العام للحزب ، ميشيل عفلق . كنا وقتها في اجتماع حزبي ضمّ اعضاء الشعبة التي تتبعها فرقتنا كلهم . وكانت حكاية الفتك بالشيوعيين في العراق وتفاخر بعض البعثيين بوقائعها توجج سخطي . وكان اعضاء تكتلنا من العراقيين قد ابلغوا الينا أنهم اعترضوا على ما حل بالشيوعيين الا ان اعتراضهم لم يحقق غرضه لأن البعثيين اليمينيين المؤيدين من الامين العام تشبثوا بضرورة الاجهاز على الشيوعيين . وكنت قبل الاجتماع قد قرأت تصريحات لعفلق عن الشيوعيين يسوغ فيها اعمال البعثيين ضدهم ، فهاجمت هذه التصريحات في الاجتماع ، ثم وجدتني مندفعاً في الهجوم بلا رويّة ، وبلغت حدّ الجهر بأني اعتقد «ان الرفيق الامين العام جاسوس امريكي» . وهنا ، استوقفني رئيس الاجتماع ، وكان هو الاردني كمال الفاخوري ، ظاناً أن في الأمر زلّة لسان او خطأ في التعبير ، ومستهولاً اياه حتى على هذا الاساس . كنت قد صرت اسير ما جهرت به ولم أعد قادراً على التراجع دون ان اعرض سمعتي للاهتزاز . وهكذا كررت العبارة ، وأمعنت في الشطط ، فطلبت ان يسجل رأيي هذا في محضر الاجتماع . فبهت الفاخوري وهو البعثي النموذجي الذي ينزه «الاستاذ ميشيل» عن أي عيب ، ولم يدر كيف يتصرف ، خصوصاً انه كان ، ايضاً ، يعرفني معرفة جيدة ويحبني ولا يريد ان أقع بمشكلة مع أمين الحزب العام . ولما تمالك كمال نفسه من جديد ، اكتفى بأن اعلن معارضته لرأيي في الاستاذ

وسخف هذا الرأي ورفض تسجيل رأيي في المحضر، ودعا الى ان نعدّ المسألة منتهية عند هذا الحد. لكن روح المكابرة التي يغذيها سخطي الشديد كانت قد استحوذت عليّ وانتهى الأمر. فتصديت لكمال، وذكرته بأن نظام الحزب الداخلي يبيح لأي عضو فيه أن يصرح بما يحمله من رأي ما دام يقوم بذلك داخل هيئات الحزب، فأنا لم أعْدُ ان مارست ما يبيحه لي النظام، ومن حقي أن يسجل رأيي. قلت هذا وانا سعيد بالبلبلة التي احدثتها بين المجتمعين كلّهم، وقد غطت سعادتي على خشيتي من العواقب فبقيت صامداً على مطلبي، فلم يجد الفاخوري بداً من رفع الجلسة. وبعد أيام، جاءني هذا الرجل الطيب وأسرّ لي ان الاستاذ راغب في ان يلتقي بي في خلوة بعيدة عن الرسميات. واذ كنت اخشى مقابلة الامين العام وجهاً لوجه بعد هذا الذي قلته فيه، فقد عزمت على التهرب من اللقاء المقترح، ولم أجد أنجع من الاحتماء، مرة أخرى، بالنظام الداخلي، فسألت الفاخوري عما اذا كان هذا استدعاء من الامين العام لي أم مجرد رغبة شخصية منه، فنفى الفاخوري، الذي يعرف ان الاستدعاء ينطوي على القسر، أن يكون الأمر استدعاء، فمكنني بنفيه من ان ارفض، وشاء ان يطمئنني فقال ان الاستاذ سمع الكثير عن نشاطاتي لصالح الحزب وقد ساءه ان اقع اسير اعتقاد خاطىء فشاء ان يلقاني ليناقشني حتى لا اتورط انا الشاب الواعد في توجيه الاتهامات الخطيرة بخفّة، ولكني، وقد وجدت الوسيلة للتهرب من المواجهة، تشبثت بالرفض. وقد تسألني عمّا اذا كنت اعتقد، حقاً، بأن ميشيل عفلق يستحق ما وضعته به، وسوف اجيبك بأن ذلك كان كلاماً انسقت الى قوله وأنا ساخط. ويبدو ان عدّتي التحليلية الضعيفة، آنذاك، لم تمكنني من ايجاد تفسير آخر لحماس عفلق لذبح الشيوعيين، أما بعد ذلك، وبالرغم مما يمكن لمثلي أن يأخذه على سلوك مؤسس حزب البعث وأمينه العام لسنوات عديدة، فإن التهمة لم تعد واردة. كان عفلق قومياً حتى النخاع، يكره الشيوعيين ويبث روح الكره لهم في حزب البعث ويعرض فلسفة كاملة يستند اليها موقفه، ولكن هذا لا يقتضي ان يكون الرجل

عميلاً للامبريالية .

ومهما يكن من أمر ، فإن الأحداث التي لم يلبث البلد ان تعرض لها طغت على هذه الواقعة وما هو اهمّ منها ، ونجوت الى حين من سخط الاستاذ وأنصاره عليّ .

١٧ ١٨ تموز / يوليو ١٩٦٣، الامتحان العسير

لن انسى هذا التاريخ ، الثامن عشر من تموز / يوليو ، ولن ينساه أحد من الذين شهدوه ، وقد مرت عقود وقد تمرّ عقود أخرى ، قبل أن يغيب عن ذاكرة الاجيال المتعاقبة . ففي هذا اليوم ، اي بعد انقضاء اربعة شهور على اشتراك البعثيين والناصريين في اسقاط عهد الانفصال ، اعطى الصراع المحتدم بينهم ، والذي لم ينجح العقلاء في وقفه ، ثمرته الدامية ، وسال الدم بمقدار لم تعرف سورية قبل ذلك مثله ، على كثرة ما شهدت من صراعات سياسية ، وكان بعض هذا الدم ، بل كان كثير منه ، دم فلسطينيين .

لست قادراً على تحديد الوقت الذي قرر فيه الناصريون الانقلاب على شركائهم البعثيين واقصاءهم عن السلطة والاستئثار بها ، ولم يستطع أي ممن استفهمت منهم عن هذا الأمر أن يحدد الوقت بدقة . اما النزاعات والصدامات التي انخرط الطرفان فيها ، بين آذار / مارس وتموز / يوليو ، فقد اختلطت فيها الظواهر التي يمكن نسبتها الى الرغبة في ممارسة الضغط من

كل طرف على الآخر ، مع الظواهر التي يمكن نسبتها الى الرغبة في الانفراد بالسلطة ، وضاعت الحدود او تداخلت بين النوعين .

جئت حتى الآن على ذكر عدد من هذه الظواهر ، ويستطيع أي راغب في التقصي ان يستعين بالمراجع المألوفة . وساقتصر في حديثي إليك على الوقائع التي عاينتها بنفسي ، مما لم يتسن الاطلاع عليه الا لعدد محدود من الناس ، واجتهاداتي الخاصة في تفسيرها .

كان من المنطقي بالنسبة لي ، حتى حين كنت تام الولاء لحزب البعث ، أن يسعى الناصريون لتعزيز مواقعهم في السلطة ويحاولوا فرض انفسهم قوة اولى بين القوى المشتركة فيها . أما ما لم يكن ، بالنسبة لي ، منطقياً ، حتى بعد ان ابتعدت عن البعث ، فهو توجيه الناصريين لرأس حربتهم نحو الحزب واستنفاد قوتهم في مجابهته وغياب حقيقة ميزان القوى عن حساباتهم وانتهاجهم ، بالتالي ، السياسة التي ابعدتهم هم عن السلطة وكبدتهم ضحايا وخسائر اخرى مريعة وآلت الى ان ينفرد البعث بالسلطة . لم يغفل الناصريون طبيعة ميزان القوى وحده ، بل اغفلوا ، أيضاً ، حقيقة أن البعث حزب تُهيئُه طبيعته للعمل من اجل الوحدة . أي ليكون حليفهم في العمل على بناء الوحدة من جديد . وباتباعهم سياسة الصدام مع الحزب ، لم يَعْدُ الناصريون ان اضعفوا التطلع الى الوحدة مع مصر في داخله ، واوجدوا او قوّا الجو الذي لاءم المتطلعين فيه الى اقامة دولة البعث الخالصة في سورية . وقد فشل الناصريون من الاستفادة من شعبيتهم الواسعة في الشارع ، وبدل ان يستخدموا هذه الشعبية بدأب في الضغط على البعثيين ، تعجلوا حسم الصراع بانقلاب عسكري ، فساقوا قواهم ، بايديهم ، الى الميدان الذي يبزّهم البعثيون فيه وضيعوا الميدان الذي كانت لهم فيه الغلبة .

والحقيقة ، استناداً لما أعرفه معرفة لا يتسلل اليها الشك ، ان قيادة حزب البعث والآخرين من البعثيين المعنيين بالأمر لم يستبعدوا أن يلجأ الناصريون الى تنظيم انقلاب عسكري ، بل توقعوا منذ الثامن من آذار /

مارس ان يقوموا بذلك . وقد دأبت القيادة البعثية على تحذير الحزبيين ، مدنيين وعسكريين ، من احتمال الانقلاب ، وطلبت منهم أن يشددوا اليقظة ازاء تحركات الناصريين داخل الجيش ويبلغوا اليها أي تحرك مهما ضؤلت قيمته . والذي اعرفه معرفة يقينية ، ايضاً ، ان المنظمات الناصرية كانت مخترقة على كل المستويات ، لصالح البعثيين ، سواء جرى الاختراق من قبل بعثيين دفعوا الى هذه المنظمات أو من قبل رجال الأمن ، او من قبل ناصريين بدلوا ولاءهم وعرضوا خدماتهم على البعثيين .

بدأ الاختراق قبل الثامن من آذار / مارس واستمر ، بعد ذلك ، وتوسع . وبهذا ، ظل بمقدور البعثيين ان يراقبوا ما يقوم الناصريون به من اعدادات ، بما في ذلك الاعدادات التي يعدها اصحابها شديدة السرّية .

احصى الناصريون قواهم في الجيش ، ووضعوا خطتهم للانقلاب في ضوء تقديرهم غير الصائب لميزان القوى ، اذ انهم بالغوا في تقدير قوتهم ولم يعرفوا قوة البعثيين على حقيقتها . كانت الخطة تقضي بتنظيم جماعة للناصريين في كل وحدة من الوحدات العسكرية المندوبة للقيام بالانقلاب او التي من اللازم ان تعلن التأييد الفوري له . وكان على هذه الجماعة ان تقوم في الوقت المحدد ، الذي توهم معدو الانقلاب انه سيفاجىء خصومهم ، باعتقال انصار البعث في وحدتهم والسيطرة عليها وتحريكها وفق التوجه المطلوب للسيطرة على مواقع بعينها في العاصمة او اعلان التأييد والتهيؤ في حالة استنفار لمواجهة أي طارىء . وشكل الناصريون قيادة عسكرية عليا لتنظيم العمل كله ، كما شكلوا قيادة مدنية وأعدوا جدولاً باسماء المرشحين للاشتراك في الحكومة الجديدة وتسلم المراكز العليا في الدولة فور نجاح الانقلاب العسكري . وكان قائد سلاح الاشارة الذي ينظم شتى انواع الاتصالات السلكية واللاسلكية داخل الجيش عقيداً فلسطينياً ناصرياً فاستفاد منظمو الانقلاب من وجود رجلهم على رأس هذا السلاح وتعزّز اعتقادهم بالقدرة على كتمان اتصالاتهم . ولم يجد الناصريون موالين لهم في سلاح الطيران بالعدد الذي يمكنهم من التخطيط للسيطرة عليه فتلقوا وعداً من القاهرة بأن الطيران المصري سيتدخل

لانجادهم ودعم انقلابهم وتجميد فاعلية الطيران السوري الذي توقعوا ان يتحرك ضدهم .

كنت ملماً باجمال بما يتم على الجانب الناصري من اعدادات ، وذلك من خلال الاحاديث التي يتداولها الذين احتك بهم من قادة الحزب امامي ، مما تجد قيادة الحزب ان من الضروري إبلاغه للاعضاء . وأتاح لي سكني مع اميل وصلتي الحميمة به ان اطلع على ما يعده الناصريون في معسكر المعظمية القريب من دمشق ، بالتفصيل . أما الاعدادات على الساحة الفلسطينية فقد ألممت بها ، أحياناً بإجمالها وأحياناً اخرى بتفاصيلها ، من خلال متابعتي المثابرة لما يجري على هذه الساحة . وقد وضع البعثيون خطتهم لتطويق الإعدادات الناصرية واحباط التحرك المرتقب . استندت الخطة ، في المقام الأول ، على مقدرة البعثيين على معرفة كل ما يعدّه الناصريون من خطط واجراءات . من هنا ، كان من الضروري متابعة اعدادات الناصريين أولاً بأول ، والتحقق من أن كل ما يقومون به هو قيد المراقبة الدقيقة . وهكذا ، انيط بالاعضاء البعثيين في الوحدات العسكرية أمر مراقبة الناصريين واستقصاء اخبارهم ونقلها الى القيادة ، وذلك فضلاً عن المراقبة الروتينية التي تقوم بها أجهزة الأمن وما توفره من معلومات . ولكي تؤمن القيادة حركة تدفق المعلومات ولا تقع ضحية أي تضليل تمارسه الأجهزة الأمنية غير الموثوق بها تماماً ، فقد نظمت أقنية ايصال المعلومات بحيث تمرّ عبر الاجهزة الحزبية الموثوقة ، وخصصت لكل جماعة حزبية في وحدة عسكرية منظمة مدنية يتصل بها العسكريون البعثيون ويتلقون ، أيضاً ، توجيهات قيادة الحزب عبرها . واختير لمهمة الايصال والتوصيل من الحزبيين اكثرهم تمتعاً بثقة القيادة واقدرهم على كتمان السر . وكان من نصيب فرقتنا الفلسطينية تنظيم التواصل مع جماعة الحزب في معسكر المعظمية ، وهذا ما تولاه اميل صبيح من جانب الفرقة مع رقيب اول بعثي من الجماعة .

كان الرقيب الاول يجيء الى شقتنا بالملابس المدنية بعد أن يتأكد من أن دخوله المبنى الذي تقوم فيه الشقة لا يلفت نظر احد . وكان لهذا

الرقيب وجه لا يمكن لأي مدقق فيه ان يستخلص أياً من المشاعر التي تختفي خلفه . وقد طلب من هذا الرقيب ان يفسّر سبب تردده على شقتنا ، لو تعرض للمساءلة حول ذلك ، بحاجته الى توسيط الحزبي القديم الذي يستقبله لتعيين ابنه في إحدى الوظائف .

في ذلك الوقت ، وجدنا انفسنا مستغرقين في موضوع آخر ستصير له صله بإعدادات الناصريين لانقلابهم . ولعلك ما تزال تتذكر حديثي السابق اليك عن كتيبة الاستطلاع التي تشكلت في سورية في الخمسينات ، وهي الكتيبة التي يقودها ضباط سوريون ويشكل الفلسطينيون قوامها ويتدربون فيها على القيام باعمال الاستطلاع . هذه الكتيبة التي انتسب اليها مئات من الشبان الفلسطينيين المتحمسين لاداء دور وطني صارت لها داخل الجيش مكانة متميزة بحكم تدريبها الخاص والعناية الزائدة التي تبذل في اختيار عناصرها وتثقيفهم .

وفي عهد الوحدة ، آل أمر هذه الكتيبة الى يد الرائد أكرم الصفدي ، وهو رجل مفتون بنفسه وبدوره في الجيش وبما يتصوره من دور له في الحياة الوطنية . ولما كان هذا الضابط شديد الحماس لعبد الناصر فضلاً عن حماسه لنفسه ، فقد ترك على الكتيبة التي طالت فترة قيادته لها بصمات تعكس الأمرين معاً : الولاء للزعيم الكبير والولاء لقائد الكتيبة . وفي ظل الجوّ العام السائد ، كان من السهل تنمية الولاء لعبد الناصر ، اما الولاء لنفسه فقد عمل هذا الرائد لبنائه كما يعمل الطموحون من امثاله ، اذ وفر لعناصر الكتيبة امتيازات لا تتوفر عادة للجنود ، ونمّى لديهم روح التميز وجعل ايديهم مطلقة في اتباع ما يعنّ لهم من نزوات . واضيفت العلاوات الاستثنائية الى الرواتب الشهرية المقررة ، وانبسطت يد قائد الكتيبة في منح المكافآت المالية والعينية وفي الترفيعات . وكان بامكان عناصر الكتيبة ان ينتشروا في المدينة ويتمتعوا بما يتوفر فيها من ملاذّ ويخالفوا الانظمة والقوانين ويتجرأوا على خرقها حين يطيب لاحد منهم ذلك فيجدوا الحماية لدى قائد كتيبتهم . وبالاجمال ، صار في هذه الكتيبة مئات الرجال المدربين تدريباً جيداً على فنون القتال والمتحلّين بالجرأة على اي

شيء ، والمتعصبين تعصباً شديداً لعبد الناصر والملتصقين التصاق مصلحة والتصاق اعجاب برائدهم . ولما وقع الانفصال ، فقدت الكتيبة تميزها وامتيازات ناسها ، دون ان تفقد الرغبة في استعادة ما فقدته . ولم يتسن لعهد الانفصال أن يحدث تبدلات كثيرة في بنية الكتيبة ، فظل معظم عناصرها السابقين فيها ، وبقي الرائد أكرم على صلة بهؤلاء ، واحتفظت هذه الوحدة بسمتها كوحدة ناصرية . أما في عهد آذار / مارس ، فقد اهتم البعثيون بهذه الكتيبة كما اهتموا بغيرها من الوحدات العسكرية ، وحاولوا أن يجتذبوها لتأييد حزبهم ، وانتدبوا لقيادتها ضابطاً فلسطينياً بعثياً كان ، آنذاك ، على ما اتذكر ، حديث العهد برتبة النقيب ، هو أحمد حجّو .

بذل احمد ، وهو من أصدقائي ، الكثير من الجهد كي يبدّل ولاء عناصر الكتيبة من عبد الناصر الى البعث ، وافلح في بعض الحالات ، إلا أن معظم الحالات استعصت عليه . لم يكن الجو ملائماً لجهود النقيب الجديد ، فالناصريون كانوا شركاء في الحكم وكانوا يمنون ناسهم بقرب عودة عبد الناصر الى سورية ، وكان في الجو ظواهر اخرى كثيرة تعزز ذلك . ولم يتمتع احمد بالامكانيات التي تصرف بها سلفه الناصري ، فلم يتسن له اجتذاب العناصر بالإغراء المادي ، ثم ان الوقت الذي امضاه احمد في محاولاته كان أقصر بكثير من أن يحقق نتائج كبيرة . بكلمات اخرى : تمسك معظم عناصر الكتيبة بولائهم الناصري ، وظل بامكان قائدهم السابق ، اكرم الصفدي ، ان «يمون» عليهم ويوجههم . وقد تصرف هؤلاء بوصفهم قوة ناصرية ، وآزروا تحركات الناصريين ضد البعثيين مؤازرة سافرة ، وكثيراً ما كانوا يتركون معسكرهم ، على مألوف عادتهم ، ليشتركوا في مظاهرات الشوارع ، وانتهى الأمر بالنقيب احمد الى ان اقترح على القيادة تسريح مئات العناصر الناصرية منها .

عرفنا في الفرقة الحزبية الفلسطينية ولجنة فلسطين ما انتهى اليه رأي النقيب حجو ، ورأينا انه تعجل في اصدار حكمه . وكنّا ، على العموم ، دعاة مسلك مغاير قوامه طول النفس ، فقدمنا لقيادة الحزب دراسة حول حالة الكتيبة ، وهي دراسة أسهمت انا في وضع بنودها ثم توليت كتابتها

في صياغتها النهائية . واقترحنا أن يقتصر التسريح على عدد محدود من عتاة المحرضين ضد البعث . وحذرنا من ان تسريح مئات العناصر لا لشيء إلاّ لمجرد أن ولاءها موجه لعبد الناصر سيعدّ سابقة خطيرة وسيزيد من حقد المسرّحين على البعث ويدفعهم دفعاً لمؤازرة أي عنف يقوم به الناصريون .

وفي زحمة الاحداث ، اخذت القيادة باقتراح النقيب وأهملت اقتراحنا وتحذيراتنا . ولبنا ، هنا وهناك ، باحثين عمن لهم صلة بموضوع الكتيبة ، معترضين على التسريح ومجددين التحذير من مخاطره . ولا شك في ان مسعانا احدث بعض التأثير واجتذب انتباه بعض القادة الى ضرورة إعادة النظر في موضوع الكتيبة . غير ان الاحداث داهمت الجميع ووقع ما تنبأنا بوقوعه ، قبل أن يتوفر الوقت اللازم لعمل شيء مفيد .

في تلك الفترة ، جاءت سمية الى دمشق ، كعادتها في نهاية العام المدرسي ، وكانت الحياة الجامعية في سنتها الموشكة على الانقضاء قد تعرضت لاضطرابات متلاحقة ، فلم تنتظم الدراسة في الجامعة ، حتى بالنسبة للطلاب المداومين الا في أقل الاوقات . وبالرغم من وجودي في دمشق قرب الجامعة فإني لم أول دراستي فيها ما تستحقه من اهتمام . والشيء الوحيد الذي جذبني من نشاطات تلك السنة الجامعية فاستخلصت بعض الوقت للإسهام فيه كان البحث الميداني الذي اشرف عليه الدكتور اليافي وجند له النشطاء من طالبات القسم وطلابه والذي استهدف متابعة ظاهرة البغاء في مدينة دمشق . كان الموضوع في حدّ ذاته مشوقاً ، وقد انخرط فيه اكثر الطالبات والطلاب تقدمية وانفتاح ذهن ، فصار الامر اشدّ تشويقاً ، ووجدتني منخرطاً فيه . وقد تشكلت مجموعات عديدة للبحث واوكلت لكل منها واحدة من مهامه . وانضممت انا الى مجموعة التخطيط للبحث في بدايته ثم انضممت الى المجموعة التي توجب عليها استخلاص النتائج ودراستها ووضع التقرير النهائي عن البحث كله . وبهذا وذاك ، توثقت صلتي بالدكتور المشرف وبقيت على صلة بالمجموعات الأخرى كافة ، واتيح لي أن المّ بالحالة المبحوثة من

جوانبها كلّها ، حتى لقد صرت اعدّ نفسي خبيراً في هذا الموضوع وادلّ على الآخرين بمعرفتي العلمية بتفاصيله . أما شؤون الدراسة الأخرى فقد اهملتها اهمالاً تاماً ووجدت لنفسي العذر بكثرة المشاغل . ولم يكن من الصعب ان تكتشف سميّة إهمالي ، وحتى في الاسابيع التي امضتها سمية في دمشق ، لم يتسنّ لي ان أفرغ لها الا في اوقات قصيرة متباعدة . استغرقتني المشاغل المتزايدة التي غدوت تعرفها ، وزاد عليها أن الحزب ، في اعتماده على التنظيم وتحسبه للطوارىء ، عمد الى إبقاء الأعضاء في استنفار شبه دائم ، على طريقة الاستنفار في الجيش . وكانت الاستنفارات تحجزنا في مكان واحد نقبع فيه وننتظر التوجيهات التي قد تقتضيها الاحداث . وهكذا ، أدت سمية الامتحانات وحدها ، ورجعت الى عمان ، وقد بلغ سخطها عليّ تلك الذروة التي ليس فوقها ذروة اخرى . يقيناً اني كنت احبّ هذه الفتاة وافهم تطلعها الى حياة مستقرة ، غير اني كنت على يقين من عجزي عن مجاراتها . وكانت مشاعري ، في تلك الفترة ، حين يتعلق الأمر بسمية ، موزعة بين الاسف لقصوري عن ارضائها والتشبث بالمضيّ في طريقي . كان الاستغراق في الشأن العام يشكل التعويض الذي ظفرت به بعد الذي عانيته في حياتي الخاصة ، ولو لم يكن لديّ إلا هذا الدافع وحده لما تراجعت . وكان في الأمر ، الى هذا ، تلك الرومانسية التي تسم سلوك أمثالي ومشاعرهم وتفعل فعلها في رسم خطاهم ، فقد كنت أعدّ ما أقوم به في الشأن العام واجباً ، وطنياً ، أما الحب وما يفرضه من واجبات وما يقتضيه من سلوك فأمور شخصية . والثوري الرومانسي الذي كنته ، آنذاك ، كان يأبى ان ينصرف الى ما هو شخصي على حساب ما هو عام ، بل ان هذا الثوري كان يلتذ حين يضحّي بالشخصيّ ويتوهم ان مصير القضية التي ينتمي اليها مرهون بتضحيته .

ومهما يكن من أمر ، فإن تسارع الاحداث ، بعد سفر سميّة ، لم يترك لي فسحة للتأمل ؛ فقد اخذت مصادر المعلومات كلّها تؤكد على أن الناصريين حسموا أمرهم وهم على وشك القيام بانقلابهم . وكان الاعداد لهذا الانقلاب ، بين كل ما شهدته سورية حتى ذلك الوقت من اعدادات

مماثلة ، أقلّها سرية على الاطلاق . فكل مَنْ يعنيه الشأن العام في البلاد صار يعرف شيئاً قليلاً أو كثيراً ، ويتحدث عن الانقلاب الناصري المرتقب كما يتحدث عن مناسبة عامة قادمة . غير ان هذا الوضع لم يجعل الامور اسهل بالنسبة لنا في الحزب ، بل فرض علينا اعباء اضافية اخذت تتكاثر يوماً وراء يوم . وجاء يوم عرفت فيه القيادة البعثية ان الناصريين حددوا الثامن عشر من تموز / يوليو موعدا لحركتهم ، ثم لم يلبث ان عرفت القيادة ساعة الصفر ايضاً . واللافت للنظر ان اليوم الذي حدد للقيام بالانقلاب كان هو ذاته اليوم المحدد لسفر وفد سوري يرأسه اللواء لؤي الاتاسي ، رئيس الدولة ، الى القاهرة لاجراء مفاوضات بشأن تطبيق اتفاق الوحدة ، مع الرئيس عبد الناصر . وتعددت الاجتهادات في تفسير هذا التوافق ، فقيل ان الأمر تم صدفة ؛ وقيل ، أيضاً ، ان القاهرة حددت موعد استقبال الوفد على هذا النحو اسهاماً منها في تضليل البعثيين ؛ وتطرف البعث فقال إن السلطات المصرية كانت تعتزم معاملة اعضاء الوفد باعتبارهم رهائن .

إزاء اكتمال الصورة امام قيادة البعث ، طرح موضوع المواجهة ، كيف يتم احباط الانقلاب الذي تعرف القيادة تفاصيله . وقد شهدت اجتماعات القيادة البعثية مناقشات حامية حول هذا الموضوع ، وكان من المنطقي أن يتم اعتقال مدبري الانقلاب وتطويق انصارهم بصورة أو بأخرى وكشف الأمر للرأي العام والحيلولة دون اتمامه . وهذا هو الرأي الذي عرضه كثيرون في القيادة ، غير ان هذا الرأي جوبه باعتراضات بدت هي الأخرى منطقية ، إذ ان احباط الانقلاب قبل تحرك الانقلابيين لتنفيذه سوف يبقي المجال مفتوحاً لشتى التفسيرات المغرضة . وابسط ذلك أن ينكر الطرف الآخر وجود نية لديه على الانقلاب وأن يدعي أن البعثيين اختلقوا حكاية الانقلاب اختلاقاً كي ينفردوا بالسلطة وينكلوا بالناصريين . ولأن اعضاء القيادة البعثيين كانوا يحسبون حساب التأثير الطاغي للإعلام الناصري ، فقد اخذوا الاعتراض بعين الاعتبار الشديد ، وهنا قدم العميد أمين الحافظ اقتراحه المنسجم مع طبيعته تماماً : «ليتحرك الناصريون وسيجدوننا في مواجهتهم ، نحن لهم!» . وهذا هو الاقتراح الذي أخذ به في النهاية .

في صباح الثامن عشر من تموز / يوليو ١٩٦٣ ، كنت قد امضيت الليل مستنفراً في احد مقرات الحزب في المدينة مع الفرقة الحزبية ، ثم عن لنا ، اميل وأنا ، ان نعود الى المنزل . وكنّا هناك ، جالسين على الشرفة ، مع فنجانين من القهوة ، حين ابتدأت الحركة المرتقبة . لم اكن أعرف ، بالطبع ، ان الناصريين سيقومون بانقلابهم في هذا اليوم او هذه الساعة بالذات ، ولا كان اميل يعرف ذلك معرفة يقينية . لكن كلينا ، وقد كنا اسرى هواجس هذا الانقلاب ، ادركنا منذ تناهت الينا اصوات القذائف القادمة من ناحية ساحة الامويين ان الناصريين بدأوا حركتهم ، وكانت لدينا التعليمات التي توجه حركتنا حين يقع هذا الشيء ، فلم نضطرب ولم نفاجأ .

وضع الناصريون خطتهم على اساس البدء باحتلال مبنى وزارة الدفاع والاركان العامة للجيش والسيطرة على اجهزة الاتصال بالوحدات العسكرية ؛ ورسموا ان يترافق ذلك مع قيام الجماعات الموالية لهم في الوحدات القريبة من دمشق باعتقال البعثيين في هذه الوحدات والسيطرة عليها والتوجه بها للسيطرة على العاصمة . وقد انيطت مهمة الهجوم على الوزارة ، وهو الهجوم الذي تم في وضح النهار ، بالمقاتلين الفلسطينيين المسرحين من كتيبة الاستطلاع . كان الرائد أكرم الصفدي قد اجتذب هؤلاء وأوكل اليهم المهمة الخطرة لانهم اجرأ العناصر المشتركة في الانقلاب واكفؤها . وقد احضر الرائد عناصره الى المكان ووزعهم على البساتين المواجهة للمبنى ، ثم ركب سيارته الخاصة ، وغادر نقطة الحدود السورية باتجاه لبنان ، وبقي في سيارته في المنطقة المحايدة ، مترقباً النتائج التي توقع ان ينقلها الراديو ، حتى اذا اصابت الحركة الهدف عاد الى دمشق ليقطف الثمرة ، واذا فشلت اكمل المشوار الى بيروت ، ناجياً بنفسه .

وقد حدث فعلاً ان اندفع المقاتلون الفلسطينيون نحو مدخل وزارة الدفاع في اللحظة المقررة ، وواصلوا اندفاعتهم ببسالة شهد لهم بها خصومهم . وتمكن بعض هؤلاء من صعود الدرج الرخامي العريض الممتد امام الباب المفضي الى المبنى الرئيسي . غير ان رشاشات الكمائن التي اعدت

باحكام لمقاومة المهاجمين فاجأت هؤلاء بزخم نيرانها غير المتوقع وفتكت بهم وتمكنت من احباط الهجوم خلال دقائق وتركت عشرات الجثث ملقاة على الدرج وفي الباحة . ولم يتمكن احد من التراجع ، فوقع الناجون من الموت بين جريح واسير . أما داخل الوَحَدات المندوبة لدعم الهجوم فقد نفذ البعثيون خطتهم المضادة بنجاح كبير ، فاستبقوا تحرك الناصريين واعتقلوهم ثم تحركوا هم بالوحدات الى العاصمة لدعم سلطة حزب البعث . وفي البساتين ، تمت مطاردة جماعات الاحتياط التي تركها الناصريون هنا ، فقتل من ناسها من قتل واعتقل من اعتقل ولم ينج بجلده الا كل ذي حظ كبير . ولم تلبث أن اكتظت ساحات دمشق وشوارعها الرئيسية بالوحدات العسكرية التي قدمت من هنا وهناك بآلياتها مختلفة الحجوم وأسلحتها المتنوعة وهديرها المجلجل لتأكيد هيبة السلطة التي تفرد البعثيون بها منذ احباط الهجوم على وزارة الدفاع ، ومطاردة فلول الناصريين المدنيين والعسكريين الذين تحصنوا في هذا المكان أو ذاك .

وسط هذا كله ، اشتهر اسم أمين الحافظ . وقد روي لنا في الحزب ان العميد الحافظ هو الذي تولى بنفسه قيادة الدفاع عن الوزارة وشوهد ببذلة الميدان والبندقية في يده وهو يشارك شخصياً في رد الهجوم . واشتهر اللواء المدرع الذي يحمل الرقم خمسين بوصفه اكثر وحدات الجيش ولاء للبعث واقدرها في مجال حماية سلطته ، وكان هذا اللواء يشغل معسكراً فسيحاً قرب بلدة الكسوة ويستطيع ان يصل الى دمشق في غضون نصف ساعة .

أما الطيران المصري الموعود فلم يظهر له أثر ، واغلب الظن أن احباط الانقلاب خلال وقت قصير لم يبق لهذا الطيران فسحة للتدخل ، هذا إن كان قد اعدّ ، بالفعل ، من اجل ذلك .

وفيما كانت الاشتباكات ما تزال جارية والوَحَدات العسكرية تهدر وهي تعبر المدينة من اطرافها كلّها ، نفذنا من جانبنا التعليمات المبلغة لنا . وقد حملت انا وأميل ومن انضم الينا على الفور من أعضاء فرقتنا حقيبتي السلاح والذخيرة المخزونة عندنا وهبطنا الى الشارع باحثين عن سيارة تنقلنا

الى الدار الفسيحة المستأجرة في سوق ساروجة لتكون مقراً لكتيبة الحرس القومي التي ننتمي اليها . وقد طال وقوفنا في الشارع في انتظار تاكسي يَقبل نقلنا الى هناك ، ومرت تاكسيات عدة لم يقبل أي من سائقيها المهمة . هنا ، لجأ اميل الى استخدام المسدس ، فاشهره في وجه احد السائقين . كان السائق ، كما اتذكره الى الآن ، يرتعد وهو يقود سيارته في الشوارع التي خلت من المارة خلّواً شبه تام والتي لا يسمع فيها سوى دويّ القنابل وازيز الطلقات القادمة من جهة وزارة الدفاع وجهات اخرى متفرقة في المدينة ، ولا بدّ ان السائق كان خائفاً من هؤلاء الشبان المتعجلين ومسدسهم الذي يمنعه من النكوص وهو يتصور أن أي خلل في السواقة قد يكلفه حياته . أما المفارقة فظهرت حين وصلنا المقرّ فأصر أميل ، بحرفيته المعهودة ، على أن يدفع للسائق اجرة مضاعفة . كان الرجل ، دون شك ، قد اكتفى بالنجاة ولم يفكر بأي أجرة يأخذها من شبان وجّهوه بالسلاح ، غير أن اميل اصر على الدفع واخرج النقود . وما أعجب التعابير التي عكسها وجه السائق في ذلك الموقف ، بل ما أعجب اميل هذا الذي اصر على ان يكون «حقّانيّاً» في ظرف كذلك الظرف! «خيّي! الحق حق» ، قالها إميل بنبرته اليافاوية التي تشوبها النبرة الغزيّة ، والقى النقود في حجر السائق المذهول .

جئنا ، اذن ، الى مقرّ كتيبة الحرس القومي وجاء غيرنا من اعضاء الفرق الأخرى ، على عجل ، مثلنا ، واكتظ المقر بالوافدين اليه .

كان طالب الحقوق ، موسى بشارة ، وهو من جبل الدروز ، قد عين قائداً لهذه الكتيبة منذ وضعت التشكيلات على الورق ، وموسى صديق لي وهو من أعضاء التكتل الذي يضمني . وكان عمر خليفة قد عيّن نائباً لقائد الكتيبة . والواقع ان التعليمات المسبقة قضت بأن يتوجه اعضاء الكتيبة الى مقرها عند وقوع طارىء إلا أنها لم توضح ما الذي ينبغي عليهم أن يقوموا به بعد ذلك ، سوى انتظار الأوامر . ولم يكن في المقر هاتف ، ولا كان فيه من السلاح سوى القطع القليلة التي جلبتها الفرق اليه . وخلا المقر تقريباً من الاثاث . وقد انصرف جهد قيادة الكتيبة ، في المقام الاول ،

الى تنظيم حراسة للمقر ومراقبة المنطقة التي يقع فيها ، ثم باشرت جهودها لتوفير هاتف وتحديد اقنية للاتصال مع القيادة وجلب سلاح يكفي للاعضاء كلهم . في ما عدا ذلك ، تنوعت الاجتهادات حول ما ينبغي القيام به لحماية سلطة الحزب من الثورة المضادة . وعندما انتبه اعضاء الكتيبة الى البلاغات التي يذيعها الراديو والتي تشدد على حظر التجول ، وجدوا ما يشغلون وقتهم به ، فنظموا دوريات هدفها الاشراف على تطبيق هذا الحظر في منطقتهم .

اميل وانا قادنا اجتهاد ظنناه نبيهاً الى اعتلاء مئذنة في مسجد يقوم قرب المقرّ ، بحيث يمكننا ، من موقعنا على ذروة المئذنة ، أن نراقب الحيّ ونشاهد ، أيضاً ، معظم اقسام المدينة . وقد ارضانا هذا ، بل قل إنه امتعنا ، أيضاً ، أما مأساوية الوضع كله فلم تكن هي التي تشغل بالنا في ذلك الوقت . كنّا اسرى اعتقادنا بأن حزب البعث قد خطا الخطوة الاولى على طريق انجاز مشروعه الكبير : مشروع توحيد الأقطار العربية الممتدة بين جبال طوروس والمحيط الهندي وبين الخليج والمحيط الأطلسي واقامة دولة العرب الكبيرة الحرة الاشتراكية . وصور لنا هذا الاعتقاد أن ما نقوم به لحماية الخطوة المهددة هو عمل تاريخي فذّ . وفي مربضنا ونحن نشهد المدينة المرعوبة ، انتهينا الى الاعتقاد بأن مبادرات البعثيين لاحباط الانقلاب المضاد قد ادت غرضها ، وما علينا إلا التسلح باليقظة تحسّباً للمفاجآت . وبالرغم من كل شيء ، لم يفارقني حسّ النكتة ؛ لقد أثّرت في الصورة المفرودة امامي : شوارع المدينة وافضيتها الخالية ، وناسها المتجمعون في اكثر حجرات المنازل أمناً ، ورفاقنا المنتشرون في المنعطفات ، وآليات الوحدات العسكرية وهي تهدر هنا وهناك ، فقلت لأميل : «انظر! خلال شهور عديدة تنافسنا مع الناصريين في مجال السيطرة على الشارع ، وها أنت ترى ، لقد تحققت لنا هذه السيطرة في نهاية المطاف ، وهي سيطرة كاملة!» .

مضى يومان ، نهاران كاملان وليلتان ، ونحن في هذا المقرّ ومحيطه ، لا نعرف طعم الراحة ، ولا نذوق طعم النوم الا اذا اقتنصناه اقتناصاً . ولم

تفلح جهود قيادة الكتيبة في توفير هاتف او جلب سلاح جديد أو تدبير أمر التموين . وفي غضون ذلك ، عرفنا تفاصيل ما جرى على مداخل وزارة الدفاع . نقل هذه التفاصيل الينا بعض مَنْ زارنا من قادة الحزب ممن لم ينسوا وجودنا . وقد شُكل على الفور مجلس عرفي واصل الاجتماع بصورة مستمرة وراح يصدر الاحكام الفورية على الذين ألقي القبض عليهم من المسلحين المشاركين في الهجوم فيما تواصلت عملية البحث عن المتوارين من قادة الناصريين . ولم يكن لدى المجلس العرفي وقت للتدقيق في الحالات المعروضة عليه ، فاتبع قاعدة بسيطة ، اذ عدّ كل من قبض عليه وبيده السلاح ضالعاً في الهجوم . فانقسمت أحكام المجلس بين البراءة والإعدام ولا وسط بينهما . وكان الراديو يذيع بين وقت وآخر قوائم بأسماء من نفذ فيهم الحكم ، ولم نخطىء حين حزرنا ان بين هؤلاء نسبة كبيرة من الفلسطينيين ، وبعد كل قائمة ، كانت مناحات اخرى تعقد في المنازل التي عرف ناسها من الراديو ان عزيزاً عليهم قد اعدم . وكان من شأن هذا كله ان يجلل المدينة بالذعر ويضخّ في عروق المعارضين ما توخاه منفذو الاحكام الفورية من خوف ويفتت قدرتهم على المعارضة . وكنّا نحس بهذا كلّه ، ولكن ليس كما يحسّ به غيرنا ، ذلك انا ظللنا نعلّل النفس بأن الشدّة مطلوبة في هذه الظروف لإطفاء فورة الدم التي فجرها خصوم الحزب انفسهم . غير ان شيئاً ما ، شيئاً غامضاً وقادراً على ان يفعل فعله ببطء ، ترسب في اعماق نفسي وخلف فيها ما سيتشكل ، فيما بعد ، في سؤال كبير .

وها أنا ذا اتذكر واقعة من وقائع هذين اليومين ، توجب علي أن أواجه فيها موقفاً ما أزال اتمنى لو أني أعفيت من مواجهته . تلقت قيادة الكتيبة اخبارية تفيد بأن هناك تجمعاً معادياً انعقد عند احد المنازل في حيّ عين الكرش المجاور لحيّ سوق ساروجة ، فانتدبني موسى بشارة لاستطلاع الأمر ، فشكلت دورية انتقيت عناصرها ممن اثق بهم ، وتوجهنا الى ذلك المنزل . وهناك ، انفتح أمامنا مشهد جمع من الناس الحزانى يحيط بمبنى سكني ، فاخترقنا الجمع الذي ألجأه ظهورنا الى الوجوم التام ، وولجنا

مدخل المبنى لنجد ان سلّمه مكتظ بالناس الذين تنبعث منهم الاصوات النائحة . وما كدنا نصل باب المنزل حتى فاجأتنا سيدة لها هيئة نمرة هائجة ، وصرخت في وجوهنا : فاشيست!» ، وكادت تهجم علينا ، لو لم يتدخل مَنْ اوقفها ، ويتعاون زوار منزلها الذين اقتادوها الى الداخل فيما هي تسوطنا بأشنع الشتائم . وفي غضون ذلك ، تبرع من جاء اليّ وافهمني حقيقة الوضع . كان هذا هو منزل الفلسطيني العقيد شبيب قائد سلاح الإشارة ، وكان الراديو قد أبلغ الى اسرته نبأ تنفيذ حكم الاعدام فيه ، والمرأة التي واجهتنا كانت زوجته ، وانسحبت مع دوريتي مسربلين بمشاعر لا توصف . وفي الشارع ، حين لاحقتنا شتائم الزوجة من الشرفة ، لم أجرؤ على قول شيء او الاتيان بأي عمل ، بل واصلت الانسحاب ، مطرق الرأس ، وأنا أقول في داخلي : «أفهمك يا سيدتي ، فهل تستطيعين أن تفهميني؟» .

واخذت الانباء المهوّلة عن احداث هي في حد ذاتها هائلة تشيع وسط الجمهور الذي يحبسه منع التجول في المنازل فتلجم حركة الناس حتى بين حجرات منازلهم . وقد استقر في اذهان المحجوبين عن رؤية الصورة ومعرفة الوقائع على حقيقتها ان الجيش داهم مخيم اليرموك وفتك بناسه الفلسطينيين ودمر دورهم وسواهم بالأرض ، وإن الفلسطيني مطلوب اينما وجد بما هو مشبوه . كنّا نعرف حجم ما وقع ، وكان الراديو يذيع اسماء المطلوبين الرئيسيين ويحث على الابلاغ عنهم . وكانت الكتيبة تتلقى قوائم بأسماء المطلوبين كافة ، فلم نؤخذ بالتهويلات . إلا أنه بقي متعذراً علينا ونحن ، في مقرّنا ، مقطوعو الصلة بالناس ان نبين لهم الحقيقة ، فظلت الغلبة للإشاعات والتصورات المهولة ، تداولها الناس على أنها وقائع فتضاعف حجم المأساة في أذهانهم مئات المرات .

وقد حدث ان قمت بجولة ليلية مع موسى بشارة وعمر خليفة . انحدرنا من سوق ساروجة مع نزلة جوزة الحدباء الى المرجة . وهناك ، جلسنا على الأرض في هدأة الليل نستروح طراوة النسائم ونتخفف من أوجاع الجسد والروح . كان هذا في ليلتنا الثالثة في الكتيبة ، على ما أظن ، وكنّا

مستغرقين في الحديث الذي تبيحه الاستراحة المختلسة ، حين اجتذبت انتباهنا صرخة مدوية انطلقت على الجانب الآخر من ساحة المرجة . كان على هذا الجانب فندق متواضع تؤوي اليه جماعة من المومسات وانصاف المومسات اللواتي يتصيدن لقمة عيشهن في شوارع المنطقة والحانات المنتشرة فيها . والتي اطلقت الصرخة كانت واحدة من هؤلاء ، اشتد ضيقها بحظر التجول والعطلة الاجبارية فخرجت الى الساحة واطلقت عبارة فاحشة فحواها : ايها البعثيون ، اريد ان «اعمل» لأعيش! وقد اخرجتنا الصرخة المفاجئة من مسارتنا ، فنهضنا وتابعنا السير . ورأت المرأة حركتنا ، فكررت الزعيق بعبارات افحش وقرنته بحركات فاجرة من ساقيها . وقبل ان نهتدي الى ما يمكن عمله ، خرج رجل من الفندق وامسك بالمرأة وهمس لها بشيء ، فجمدت حركتها وكفت عن الزعيق ، ثم جرت ناحية الفندق .

كان لهذه الحادثة وقع كئيب علينا ، فسرنا صامتين دون ان يكون في بالنا هدف بعينه نتجه اليه . وكنّا نصعد طلعة السنجقدار حين استوقفنا حارسها الليلي وأبلغ الينا ان احد المطلوبين يختبىء في مبنى قريب عند امرأة عجوز ، قال الحارس انها فلسطينية . واذ وجدنا ما نقوم به لنتحرر من كآبتنا ، فقد شئنا ان نختبر مدى صدق رواية الحارس ، فذهبنا الى المبنى الذي اشار اليه ، وصعدنا الى الطابق الذي حدده ، فاذا نحن ازاء يافطة نحاسية تظهر ان المكان بانسيون ، او نزل ، فطرقنا الباب ، فلم يرد احد بالرغم من اننا سمعنا حركة غامضة في الداخل ، وطرقنا الباب ثانية وثالثة وعنفنا في الطرق ، وهتفنا معلنين عن صفتنا وأنذرنا بأننا سنقتحم الباب اقتحاماً إن لم يفتحه الذين في الداخل . وما كان اطرف وضعنا وابأسه ، موسى وعمر وانا ، بعد ان ثارت شكوكنا ، فعلاً ، وتوجسنا خطراً ، دون ان نعرف كيف نواجهه . واذ لم يكن أمامنا الا ان نقلّد ما نراه في الافلام ، فقد فعلنا ذلك ، وقفنا متباعدين ، وصوّبنا مسدساتنا ناحية الباب ، وكررنا الانذار بنبرة حازمة . ولما انفتح الباب ، اطلّ علينا وجه امرأة عجوز بدا ، في الضوء الباهت ، ان الدهر أكل عليه وشرب وتجشأ ، أيضاً ،

عدة مرات . وادركت للتو أني أعرف صاحبة هذا الوجه .

كنّا ازاء تلك القوادة التي سبق لي ان عرفتها حين كانت تعمل في المحلّ المرخص . ولعلك تعرف ان هذا المحل اقفل في عهد الوحدة وتفرق ناسه . ويبدو ان القوادة العتيقة احتازت ، بصورة أو بأخرى ، على هذا البانسيون فاستفادت من رخصته كمحل اقامة لتتابع عملها المألوف . لم يرعب ظهورنا على هذا النحو العجوز ولم يضطرب شيء فيها ، بل تلقتنا بتحية مبتسرة ثم اتبعتها بالسؤال التقليدي : ماذا تريدون؟ متعاملة معنا كما تتعامل مع أي من طالبي خدماتها . وعندما سألنا العجوز عما اذا كان في المنزل أحد غيرها ، أعطت اجابة حمالة اوجه وهي تتفحصنا بعينيها الكبيرتين ، فلما عرفت اننا ننوي التحقق من ذلك بانفسنا ، قالت : «عندي زوجي ، لا احد غيره ، وهو هناك ، نائم» . وشككنا في الرواية ، اذ مَن الذي يمكن ان يظل نائماً بعد هذا الخبط على الباب . وفي الحجرة التي أشارت العجوز اليها ، وجدنا سريراً رفعنا غطاءه فوجدنا تحت الغطاء رجلاً يرتعش ، وقد كاد الرعب يقطع أنفاسه . وقبل ان نتفوه نحن بشيء ، قالت هي ، مخاطبة رجلها بنبرة آمرة : «قم! هؤلاء ناس حكومة» .

كان الرجل ، الذي عدّه الحارس مطلوباً ، أجيراً في محل حلاقة قريب من النزل . ولا بدّ ان الرجل كان من موردي الزبائن للعجوز ، وفي ساعة اشتعال الاحداث ، كان هذا الرجل ، وهو فلسطيني ، في المحلّ ، وتعذر عليه ان يجد واسطة للذهاب الى مسكنه في مخيم اليرموك فالتجأ الى صاحبته العجوز ، وابقاه منع التجول عندها . وهناك سمع الرجل الحكايات المهوّلة ، وظن ان المخيم دُمّر وأن ناس الحكومة يلاحقون الفلسطينيين . ولما عرضنا على الرجل ان نؤمن ايصاله الى المخيّم ، وكنا مستعدين لذلك ، فعلاً ، تعويضاً عن الرعب الذي الحقناه به ، لم يقبل . كان واضحاً لنا أن الرجل لا يصدقنا .

لا تعني اشارتي الى الفارق بين الحجم الحقيقي والتهويل ان الحملة على الناصريين طالت المشتركين منهم في الانقلاب الفاشل او الذين لهم

صلة بالاعداد له ، وحدهم . فالواقع ان اقدام الناصريين على اشهار السلاح ضد البعثيين قد أدّى ، بين ما ادى اليه ، الى حسم اي تردد داخل الحزب بشأن المواجهة معهم . وقد صار زمام المبادرة في قيادة الحزب والدولة بيد العازمين على التخلص من الشراكة التي ابغضوها . ولعلك تتذكر ان حكومة صلاح البيطار استقالت يومها . ولعل بين اسباب الاستقالة تعذر استمرار حكومة فيها وزراء ناصريون فضلاً عمن فيها من بعثيين متعاطفين معهم . وقد كلّف الدكتور سامي الجندي بتشكيل حكومة جديدة ، الا ان العراقيل التي واجهت المكلف الجديد حملته على الاستقالة قبل تشكيلها ، وفي غضون ذلك ، صارت الكلمة للعسكر ولمن يجاريهم في تشددهم . وهكذا ، انتظمت حملة اعتقالات واسعة استهدفت نشطاء الناصريين في انحاء البلاد كلها ، وشملت ، بالطبع ، ابرياء كثيرين ذهبوا ضحية الشبهة او المعلومات المغلوطة .

وفي هذا السياق ، تعرض البعثيون الفلسطينيون لامتحان عسير ؛ فقادة الحزب وناسه في اجهزة الامن كانوا يعرفون ان للبعثيين الفلسطينيين صلات قديمة وواسعة مع الناصريين . والواقع ان مقتضيات التنافس في انتخابات اتحاد الطلاب الفلسطيني والمنظمات الطالبية الاخرى جعلتنا نحتفظ باسماء الطلاب الناصريين وعناوينهم ونعرف تفاصيل عديدة عن اوضاعهم ومراتبهم في تنظيماتهم . وهي معلومات تراكمت لدينا بمضيّ السنين وكانت ادق من المعلومات المختلطة التي تحويها ملفات اجهزة الامن . وفي اليوم الثالث لاستنفارنا ، جاء الى قيادة الكتيبة مبعوث ارسله النقيب محمد عركة «ابو رياض» قائد سرية مخابرات مختصة بشؤون الفلسطينيين ، وطلب الاختلاء بقادة الفرقة الفلسطينية فالتقاه عمر واميل . ولما خرج الاثنان من اللقاء الطويل ، بدا الاضطراب واضحاً على وجهيهما ، فمبعوث «ابو رياض» هذا جاء يطلب مساعدة الفرقة في القاء القبض على الناصريين ، وهو يريد ان تزوده الفرقة بالقوائم التي تحتفظ بها . لقد رفض اميل وعمر الطلب ، استكثرا ان تستثمر معلومات حصلنا عليها ايام الصلات الطيبة مع الناصريين في ايقاع الاذى بهم ، واستهولا ان تتحول

الفرقة الحزبية الى فرقة مرشدين للامن ، وتحسّبا ازاء السمعة السيئة التي ستلحق بها وتضر بعملها وسط الجمهور . غير أن الامر لم ينته عند هذا الحد ، فرجل المخابرات الذي اتضح انه هو نفسه بعثي ، والذي لا يجد غضاضة في أن يتعاون الرفاق مع بعضهم البعض ، خرج من اللقاء ساخطاً وهو يهدد ويتوعد ويتهم رفيقيه بالتستر على اعداء الحزب .

جمعنا عمر واميل وعرضا الأمر علينا ، ولم اتردد في الثناء على موقفهما وتشجيعهما للثبات عليه . هنا ، قد ينبغي أن أوضح لك أن موقفنا هذا لم ينبع من الدافع الاخلاقي وحده ولا من تهيبنا المزمن ازاء التعاون مع اجهزة الامن وحده ، بل نبع ، ايضاً ، من فهم سياسي كنّا ، على صغر اعمارنا وقلة تجربتنا ، نتشبث به . لقد نظرنا الى الصراع مع الناصريين على انه صراع فرض خطأ على حلفاء خندق واحد . وكنّا حين يتعلق الأمر بالناصريين الفلسطينيين لا ننسى دعوتنا الى اقامة الجبهة الوطنية الفلسطينية ، فبأي وجه سنقابل زملاءنا في الاتحاد الطالبي الموجود في الجبهة المفترضة اذا كنّا سنشي بهم . وقد بدت الفرقة بغالبية اعضائها موحدة حول هذا الموقف . لم يشذّ عن هذا الا الذين حسبوا حساب استياء اجهزة الأمن منّا وما قد يجرّه علينا من متاعب .

ووصل الامر الى القيادة القطرية للحزب ، فوجد فيها مَن يقدر موقفنا ويتفهمه كما وجد مَن يستهين باعتباراتنا . ثم تمّ التوصل الى تسوية ، وكان قوام هذه التسوية ان تستعلم المخابرات من قيادة الفرقة عمن تحتاج الى معرفة احواله من الناصريين وان تفضي قيادة الفرقة بتقييمها للمستعلَم عنه ، فتوضح ما اذا كان خطراً او غير خطر لتسترشد المخابرات بهذا التقييم . وبامكاني ان اقول لك الآن اننا ، وقد صار لنا هذا الحق ، أسهمنا في حماية عدد من الناصريين وحلنا دون تعرضهم للاذى ، وعملنا ما أمكن عمله لادخال الشأن السياسي في القرار الامني ، وكنا فخورين بهذا وذاك .

وأنا أتذكر حالة واحد من الناصريين الاردنيين المقيمين في دمشق .

وكان هذا ، وقد نسيت اسمه للاسف ، واحداً من أنصار عبد الله الريماوي المخلصين ، انتسب الى حزب البعث في الاردن وهو تلميذ في الثانوية ، ثم تسنى له ان يصير ضابطاً في الجيش الاردني فيبلغ فيه رتبة النقيب ، ثم اشترك في الانقلاب الفاشل الذي وقع في عام ١٩٥٧ ولجأ بعدها الى سورية وصار لاجئاً سياسياً . وعندما انشق الريماوي عن البعث وانتهج نهجاً ناصرياً ، تبعه النقيب وصار واحداً من مسؤولي تنظيم الريماوي ، وكان مصنفاً في اضابير الامن بصفاته هذه ، الضابط السابق الناصري ، وهي صفات وضعته في ظروف المواجهة مع الناصريين على قائمة المشبوهين المطلوب اعتقالهم ، ويبدو أن المكلفين باعتقاله فشلوا في العثور عليه ، فجاء ضابطهم الينا ليستفهم عنه بأمل ان يستخلص منا ما يساعد في العثور عليه . وقد قيل لهذا المستفهم ان المشتبه به ليس الا انساناً طيباً ووديعاً وانه انصرف ، منذ ترك الجيش ، الى شؤون الفكر والثقافة ومحاورة الآخرين وكان من دعاة التعاون بين حلفاء الخندق الواحد فمن المستبعد ان ينخرط في أي عنف ضد البعثيين . وكان بعض اعضاء الفرقة على صلة وثيقة بهذا المطلوب للاعتقال ، وقد خشي هؤلاء ان لا يأخذ طالبوه بتقييم الفرقة له ، فنشأت فكرة ان «نعتقله» نحن فنحميه الى أن تنجلي الغمة . وكلفت انا بأن احصل على موافقة قائد الكتيبة على الفكرة ، واستهوت الفكرة موسى بطرافتها فمنحنا موافقته بحماس ، وجئنا بالرجل الى مقرّ الكتيبة واحتفظنا به . وها انا استعيد صورة «معتقلنا» جالساً بيننا في احدى حجرات المقرّ ، ممتناً لاعتقالنا له ، ومصراً على أن يدير معنا حوارات مستفيضة حول أخطاء البعث وأخطاء الناصريين ، وأهمية متابعة البحث عما هو مشترك بينهم .

ومهما يكن من امر ، فقد تحسن وضعنا بعض الشيء في اليوم الثالث للأحداث ، جاء الهاتف ، وجاءت صناديق كثيرة فيها بنادق وذخائر كافية للجميع ، وجاء معها مدربون . أما بالنسبة للتموين فقد بقي على كل منّا ان يتدبر امره بنفسه . وفي اليوم ذاته ، أُذن للناس بالتجول لساعات معدودة محددة ، وابيح لنا ان نحصل على اجازات قصيرة . وسال الناس في

الشوارع فور الاذن لهم بالسير فيها ، حتى نحن ، الذين لم يحظر علينا التجول في أي وقت ، وجدنا انفسنا وسط سيل الناس ، فرحين بالتجول الطبيعي كأننا نرى شوارع المدينة لاول مرة ونتمتع بما نكتشفه فيها .

الا ان هذا الانفراج الذي كانت ساعاته المقررة له محدودة على كل حال ، لم يقدر له ان يستوفي هذه الساعات . فبينما كانت الشوارع مكتظة بالناس ، تجدد اطلاق النار ، فجأة ، وامتدّ هذه المرة فشمل كل مكان في المدينة . حدث ذلك بتأثير حادث غريب أتعبنا كثيراً ، وأتعب غيرنا مثلنا ، قبل أن نعرفه .

كان ميشيل عفلق ، حتى وقوع الانقلاب الناصري ، واحداً من المسؤولين الذين أبوا ان تتولى أجهزة الأمن الحكومية حراستهم . قبل الامين العام للحزب السيارة المخصصة له بوصفه عضواً في مجلس قيادة الثورة والسائق ، الا انه رفض الحراس . واذ لحظ الآخرون اهمية حراسة صاحب الموقع الاول في الحزب والرجل الذي تستهدفه دعايات الخصوم بتركيز خاص ، فقد حاوروه في ذلك وانتهى الأمر بأن وافق هو على ان يقيم احد الحزبيين الموثوقين في منزله فيكون بمثابة سكرتير شخصي وحارس للمنزل . وقد اختير لهذه المهمة حميد بصل ، اخو محمد ، لأنه متعدد الامكانيات وقادر على ان يقوم بمهام متعددة ، فضلاً عن انه نشيط وذكي وأنه حزبي قديم يعرف زوار الاستاذ ويتقن التعامل مع كل منهم حسب مكانته . وفي تلك الأيام التي اشتد فيها الخطر ، نقل عفلق للاقامة في مكان سري أمين ، أما حميد فقد لازم منزل الامين العام وتزود بكمية وافرة من الذخيرة وشدد يقظته . والحادث الذي أروي لك قصته بدأ بينما كان الاستاذ في القصر الجمهوري للمشاركة في اجتماع . وقتها ، جاءت الى حميد امرأة من الجيران وانبأته انها رأت اثنين من المسلحين يتسللان الى منزل طيني قائم في البستان المقابل للمبنى الذي تقع شقة الاستاذ فيه ، عند طرف حيّ الازبكية . وزعمت المرأة لحميد أنها رأت فوهة بندقية مصوبة نحو الشقة ، فما كان من حميد المسكون بهاجس الخطر الا أن ربض في الشرفة وصوّب بندقيته الرشاشة ناحية المنزل الطيني وأذن

لرصاصها أن يلعلع . وقد فاجأت الزخات التي اطلقها حميد بهدف ارهاب المسلحين المفترضين حراساً ثلاثة مواقع عسكرية قريبة من الشقة . هؤلاء الحراس ما كانوا يعرفون ان الشقة التي تخرج منها الزخات هي منزل الأمين العام للحزب الحاكم ، ثم ان الاوامر المبلغة اليهم كانت تلزمهم بالرد الفوري على أية نار تنطلق من أي مصدر مدني . وهكذا ، وجه الحراس اسلحتهم ناحية الشقة وامطروها بالرصاص . وقد ظن مسلحو المواقع الأخرى ، ونقاط الحراسة التي اقامها الجيش او الحرس القومي ، حين سمعوا لعلعة الرصاص ، ان اشتباكاً ما يجري على مقربة منهم ، فبادروا من جانبهم لاطلاق النار في الهواء بهدف اخلاء الشوارع من المتجولين فيها . وانداحت الاطلاقات حتى شملت المدينة كلها ، ولم تتمكن القيادة المجتمعة في القصر الجمهوري من معرفة السبب الذي فجّر الحالة كلّها ، وتحسبتْ من أن يكون في الأمر مفاجأة ، فشددت حالة الاستنفار حول الابنية الحساسة ، وقام الطيران بطلعات عاجلة لاستشراف الموقف والتدخل فيه اذا لزم الأمر . بكلمات قليلة : اختلط الحابل بالنابل وضاعت الطاسة ، كما يقولون .

في غضون ذلك ، ربضت مع اميل في المئذنة ، ورحنا نراقب ما يجري ونحن نتحاور بشأنه ، دون ان نستقر على رأي . فلما بدأ الطيران طلعاته وأخذ يطير على علو منخفض فوق البساتين المحيطة بوزارة الدفاع ، داهمتنا الهواجس . هنا ، عليّ أن أعترف بأني خفت ، هذه المرة ، انا الذي لم يعرف الخوف خلال المخاطر السابقة المماثلة كلّها . وهكذا هو الانسان ، يواجه الخطر الذي يعرفه دون مهابة ، ويرتعب امام المجهول ، واغلب الظن ان اميل خاف هو الآخر ، ولعله كان يبحث عن سبب لمداراة الخوف حين راح يستعرض الاحتمالات ويحثني على التفكير فيها . وفي حدود معرفتنا بالخلفيات ، انتهينا الى ان الامر قد يكون واحداً من احتمالين : محاولة انقلاب جديدة قامت بها قوى ليست في الحسبان استغلت صراع البعثيين والناصريين ، او تمرد من وحدات يسيطر عليها بعثيون غير راضين عن تصرفات قيادتهم . وقد ظللنا على هذه الحال الى ان توقف اطلاق النار ،

فجأة ، كما بدأ ، فعدنا الى الكتيبة لنفاجأ بالجو المرح الذي يسودها . كانت القيادة قد وضعت يدها على سبب الاضطراب ، واصدرت اوامرها للجميع بالكف عن اطلاق النار ، وكان الرفاق يتندرون بما حصل .

والحقيقة أن هذا الحادث أرعب الجمهور باكثر مما ارعبته محاولة الانقلاب ذاتها . ويبدو ان القيادة تنبهت الى ذلك ، فشاءت ان تحدث بعض الانفراج فأذنت بالتجول طيلة ساعات النهار ودعت اصحاب الحوانيت لفتحها وتقديم الخدمات للجمهور .

بعد ذلك ، بدأ عمل الكتيبة في الانتظام ، وصار بالامكان توزيع المهام على الاعضاء وتحديد المناوبات بحيث يتسنى لكل واحد أن يجد اوقات فراغ ينصرف فيها لشؤونه الخاصة به ويبيت في منزله اذا شاء . وقد بقيت المهام على ما كانت عليه منذ البداية ، حراسة المقرّ ، والدوريات ، ونقاط التفتيش ، ولم يكن اي منها من طبيعة شديدة الضرورة او مما يصعب الاستغناء عنه . كان الجيش قد تولى عبء احباط الانقلاب واخذت اجهزة الأمن التي اقصي الناصريون عن قياداتها زمام المبادرة في ملاحقة المطلوبين ، ولم يبق للحرس القومي الا قيمة رمزية يتشبث بها الذين يخشون ان يطغى دور العسكريين على دور المدنيين . واذ اخذت اوقات حظر التجول بالتناقص واقتصرت على ساعات محدودة بين آخر المساء واول الصباح ، فقد صار بالامكان الاتصال بالناس من جديد والتعرف على نبضهم ازاء الاحداث . والواقع اني عاودت التردد على جريدة «البعث» وصرت اكتب فيها باطراد اكثر من السابق . وقد زودني مدير ادارة الجريدة ، عبد الله خريس «ابو عوني» ، ببطاقة محرر فصارت هذه بمثابة اذن للتجول في أوقات الحظر ، وهيأت لي الفرصة للتردد على المقرات الرسمية . واراد ابو عوني ان يخصص لي راتباً شهرياً ، بل انه ادرج اسمي على جدول الرواتب لذلك الشهر دون ان يستشيرني ، وقد ابيت ان اقبض ما خصص لي مصراً على أن مساهمتي في الجريدة لا يجوز ان تكون مأجورة . وكثرت في تلك الفترة مرافقتي للصحافيين الذين وفدوا الى سورية من الخارج ، واستأنفت نشاطي المألوف في الفرع ، وفي الفرقة ، وعاودت عقد

اجتماعات حلقات الأنصار التي اتولى الاشراف عليها . وهكذا ، تنوعت المهام وتفاوتت اهميتها ، فانا ، في بعض الاحيان ، ذلك الصحافي الذي يقتحم مؤسسات الدولة ويقابل نجوم العمل السياسي والحزبي وكبار المسؤولين ويحاورهم ، وانا ، في احيان اخرى ، عنصر في كتيبة يحرس هذا الموقع او ذاك ويقف على حاجز للتفتيش فيقوم بأقل مما يتولاه جندي عادي .

وها أنا ذا اتذكر من وقائع تلك الفترة قيامي مع اثنين من عناصر الكتيبة بحراسة منزل ميشيل عفلق . لقد اوكلت الي هذه المهمة ثلاث ليال متوالية ، فكنت أذهب مع رفيقيّ في أول المساء ، ونأخذ موقعنا عند مدخل البناية التي تقع فيها شقة الأستاذ ، ونظل هناك ساهرين حتى الصباح ، لا ندخل المنزل ولا نلتقي باحد من ناسه . وقد لفت نظري أن ناس هذا المنزل لم يولونا اي اهتمام مع أننا متطوعون تطوعاً لحراستهم ، حتى الماء الذي نحتاجه للشرب كنّا نجيء به من لدن الجنود من حراس المواقع العسكرية المجاورة ، وكان هؤلاء يشفقون علينا فيشركونا في شايهم . واتذكر مرة توليت فيها الاشراف على حاجز في ساحة المزرعة ، وكان معي رفيقان ، أحدهما طالب جامعي قادم لتوّه من ريف اللاذقية . هذا الطالب اختار لنفسه مربضاً يخفيه عن العيون بدعوى ان هذا اكثر أمناً وأن بامكانه أن ينجدنا بسهولة لو تعرضنا للخطر ، وكان المربض شجرة تنتصب على الناحية الأخرى من الساحة ، توارى رفيقنا بين اغصانها ، وفي هدأة الليل التي تعقب توقف الحركة مع سريان حظر التجول ، سمعنا صوت طلقة في تلك الناحية ، ثم اكتشفنا ان رفيقنا اصيب بجرح بسيط في ظاهر يده . لم يكن الجرح مما يثير اي قلق او يحتاج لأي اسعاف ، بل كان اشبه بحكة مست الجلد وادمته بعض الشي . غير ان رفيقنا الجريح اصر على أنه بحاجة الى اسعاف ، وطرق باب منزل بعينه في الناحية ، ودخله طالباً المعونة ، ولم يلبث ان تبين لي ان الرفيق دبّر حكاية الطلقة والجرح ، خصيصاً كي يجد المسوغ لدخول هذا المنزل بالذات لأن فيه فتاة تعجبه ، وقد توسل بهذا التدبير لعله يظفر برؤيتها ويثير اهتمامها به . واتذكر مرة

رافقت فيها مراسل اذاعة لندن القادم من بيروت . كان هذا المراسل البريطاني معنياً باستقصاء طبيعة الحرس القومي والدور المنوط به ، وقد صحبته في زيارة الى منزل المقدم او العقيد ، آنذاك ، حمد عبيد ، وكان هذا الضابط البعثي قائداً لسلاح الهجّانة وانيطت به المسؤولية عن الحرس القومي وهو الذي صار وزيراً للدفاع في الحكومة الجديدة عندما اعاد صلاح البيطار تشكيلها بعد فشل او تفشيل د . سامي الجندي ، وبدا لي ان حمد عبيد تعمد ان يستقبل المراسل الاجنبي في منزله وليس في مقرّ قيادته تأكيداً منه على الطبيعة المدنية لعناصر الحرس القومي فسرني هذا . ثم صحبت المراسل ذاته في زيارته الى القصر الجمهوري في المهاجرين ، وكان في القصر ، الى جانب حراسه من الجيش والشرطة ، وحدة من وحدات الحرس القومي تمتعت بالمكوث في هذا المكان المريح وحظيت فيه بالعديد من المزايا التي لم تتوفر لسواها . وقد ضمت وحدة القصر ، هذه ، نسبة محسوسة من كبار البعثيين ، كبار السن والمرتبة الحزبية والمكانة الاجتماعية . وكان معظم هؤلاء ممن يتقن لغة اجنبية او اكثر ويطيب له مقابلة الصحفيين الاجانب . وحين استدرج المراسل البريطاني رفاقي الكبار للحديث عن مهام الحرس القومي ، طاب لهؤلاء المبالغة في تصوير حجمه ودوره واعبائه والمهام الموكولة إليه ، وظنوا انهم بهذا انما يعلون من شأن الحزب ، غير متنبهين الى ان ما يريده المراسل هو ، بالضبط ، البراهين التي تؤكد أن الحرس القومي جهاز بعثي ذو سلطة قاهرة ، فوق القانون . ولا انسى من هؤلاء رفيقاً دمشقياً كان صاحب اسم لامع فضلاً عن انه طبيب مرموق في العاصمة . هذا الطبيب ، المعتزّ باتقان الفرنسية ، برز أمام المراسل وهو يلبس بذلة ميدان ويتزنر بمسدس حربيّ ويحمل بندقية على كتفه ويعلق على صدره قنابل يدوية ويشيل جعبة مليئة بالطلقات . لقد ظن الرفيق المتحمس للحزب ان صورته هذه ستظهر ، بالدليل الحسّي ، أهمية الدور الذي يتولاه الحارس القومي ، ولم يفطن الى انه يقدم صورة مرعبة ، ليس إلا . والواقع ان المراسل البريطاني اهتم بهذا الشخص اكثر من غيره ، حتى انه ، وهو المراسل الاذاعي ، حرص على ان يلتقط للطبيب

المدجج بالسلاح صورة فوتوغرافية . وقد تعمد الطبيب ان يتخذ من اجل الصورة وضعاً خاصاً ، فاختار وضع المترصد ووجه نظرات مدققة نحو عدو موهوم ، فجاءت الصورة من النوع المضحك المبكي . وما كان لاحد ، على أي حال ، ان يظفر بصورة تسيء لسمعة الحرس القومي أسوأ من هذه الصورة .

هنا ، قد ينبغي أن أوكد على ما سبق ان أشرت اليه مجرد اشارة وهو ان الدور الذي لعبه الحرس القومي في تلك الأزمة ، مثله مثل ادواره في الأزمات اللاحقة ، لم يكن ذا بال حين يتعلق الأمر بالاجراءات الامنية في مواجهة خصوم الحزب . لقد اراد حزب البعث من وجود هذا الحرس غير الحكومي ان يظهر انه لا يستند الى قوة مؤسسات الدولة وحدها ، بل الى قوة انصاره المستعدين للتضحية من اجله ، أيضاً . اما على الجانب الآخر ، فقد نظر الى الحرس القومي كقوة وجدت لارهاب الخصوم ، ونسب اليه هؤلاء اعمالاً لم يقم بها ، او لم يقم بها بالحجم الذي رويت به . ولم تكن النظرة السلبية الى الحرس القومي مقصورة على خصوم الحزب ، فوحدات الجيش الموالية للبعث ذاتها نظرت باستخفاف لهؤلاء المدنيين المسلحين غير المدربين الذين يتوزعون في الشوارع بدون مهام واضحة ولا ينتج عن نشاطهم الا البلبلة ، وكان عسكر الحزب يرتابون في ان يتحقق شيء مفيد على يد الحرس القومي .

أما نحن اعضاء الحزب ، الذين اجتذبنا الدور المتوهم للحرس القومي في البداية ، فإننا لم نلبث ان شعرنا بالمسافة بين الوهم والواقع ، وقد اوهت ردود الفعل السلبية التي جوبهنا بها من الناس العاديين والاصدقاء اندفاعتنا الاولى . واغلب الظن ان تأثرنا بردود الفعل هذه ، مع اكتشافنا لضآلة الدور المنوط بنا ، كان من شأنه ان يتعمق على الفور لو لم تعمد الدعاية الموجهة ضد الحرس القومي الى المبالغة الشديدة وتنسب لنا جرائم لم يقم بها أي واحد منا ، ولا وقعت أصلاً ، ولا كان لأي منّا ان يقبل بها . لقد وفر لنا التهويل المسوّغ لكي نتماسك ازاء الدعاية المضادة ، ونكابر ، ونشعر براحة الضمير ، على قاعدة اننا لسنا ، حقيقة ، كما يصفوننا .

وهنا ، اتذكر مشاعرنا في المساء الذي ألقى فيه الرئيس جمال عبد الناصر خطابه المرتقب عشية الذكرى السنوية لثورة ٢٣ تموز / يوليو . لقد حلت هذه الذكرى بعد خمسة ايام ، فقط ، من وقوع الانقلاب الناصري الفاشل وما أحدثه من قلاقل وما استتبعه من دماء ، وفيها القى الرئيس واحداً من اشهر خطاباته ، أمام الجمهور المحتشد في ميدان التحرير في القاهرة وخصص الجانب الاكبر منه للحديث عن احداث سورية . وهذا الخطاب هو الذي الغى فيه عبد الناصر اتفاق ١٧ نيسان / ابريل الوحدوي واعلن شعاره الشهير : «لا وحدة مع حزب البعث الفاشي» . وفي هجومه على الحرس القومي وتحريضه للجمهور ضده ، نسب عبد الناصر للحرس جرائم السطو على ممتلكات المواطنين واعراضهم ، فضلاً عن جرائم القمع والارهاب واراقة الدماء . ووصف عبد الناصر اعضاء الحرس بانهم مرتزقة مأجورون ، وابلغ الى مستمعيه عبر الاذاعات التي تنقل الخطاب مباشرة ان البعث يدفع اجرة شهرية للحراس الذين جندهم من حثالة المجتمع ويطلق ايديهم في التسلط على ارزاق المواطنين وكراماتهم .

كنا قد تجمعنا في باحة المقر لنستمع الى هذا الخطاب ومع كل واحد منّا الشطيرة التي اشتراها او الطعام الذي جلبه من منزله لعشائه . وحملنا الوهم ، وربما ، أيضاً الحاجة الى استقرار الامور ، على الأمل بأن يعلو الرجل الكبير على الجراح وان يستخلص من فشل اللجوء الى السلاح بين حلفاء الخندق الواحد العبرة المناسبة فيدعو الى التهدئة ويحثّ على المصالحة والتعاون لانقاذ مشروع الوحدة ووقف حرب الاستنزاف البغيضة بين البعثيين والناصريين . فلك اذن ، ان تتصور أي مشاعر تلبستنا حين كرر الرجل عبارة «لا وحدة مع البعث الفاشي» ، ثم حين اخذت الشتائم الظالمة تنهال على رؤوسنا دون ان تستند الى وقائع صحيحة . وعليّ ان اصارحك بأن الحملة التي انخرط فيها الزعيم الكبير بنفسه احدثت في نفسي اثراً معاكساً لما توخاه ، وجعلتني ، انا الذي لا أكفّ عن انتقاد سلوك القيادة البعثية ، اعتقد أنها على حق وان الناصريين ، وحدهم ، هم المخطئون . وقد حملني الاستفزاز ، يومها ، على تعجل الذهاب الى

الجريدة . وهناك ، افرغت مشاعري الساخطة على عبد الناصر في مقال ما كان لي ان اكتب مثيلاً له في السوء لولا الحالة التي صرت اليها بتأثير الخطاب .

لقد شكلت احداث ١٨ تموز / يوليو ١٩٦٣ نقطة فاصلة في تاريخ سورية والمنطقة وانعكست تأثيراتها على كل صعيد ؛ فعلى الصعيد السوري الداخلي ، ابتدأ انفراد البعثيين بالسلطة منذ نجحوا في افشال محاولة الناصريين للانفراد بها . وبتوليهم المسؤولية الكاملة فيما هم محاطون باجواء معادية خطيرة ، وغرقهم في ما توجبه من اعباء وتفرض من مغريات ، انفتح المجال ، بكامل اتساعه ، امام صراعات الكتل والتيارات والافراد ، المدني من هؤلاء والعسكري ، داخل حزب البعث ، فخرجنا نحن الاعضاء من دوامة لنجد انفسنا في اخرى ، وظلت العواصف المتعاقبة تتوالى ، بلا توقف . وفي غضون ذلك ، استنفدت الجهود في الصراع على السلطة ، وتآكلت عزائم القواعد وضاقت قمة الهرم أولاً بأول ، وبنتيجة ذلك كلّه ، غابت الفرصة المتوفرة لاقامة الوحدة ، وامتدت الصراعات بين التيارين الوحدويين الرئيسيين ، البعثي والناصري ، فشملت البلاد العربية كلّها ، ودخل الجانبان في داحس وغبراء جديدة واستنزفا قواهما فيها . وعلى الصعيد الفلسطيني ، غاض أمل الفلسطينيين في تحقيق الوحدة العربية ، ونحّى معظم هؤلاء ما بنوه على هذا الامل من تطلعات تتصل بتحرير وطنهم فانفسح المجال أمام نمو القوى الفلسطينية الداعية الى الاعتماد على الذات . وان كان الخلاف بين البعثيين والناصريين قد جعل العملية كلّها صعبة وجعل القائمين بها لا ينجون من دوامة إلاّ لكي يقعوا في غيرها .

في هذا الجوّ ، لم تتيسر فرص كثيرة للوقوف مع الذات ومراجعة النفس . كان تواتر الأحداث يبقيني مندفعاً مع التيار الذي انتمي اليه . بالرغم من ذلك ومن قوة سطوته ، فإن ثقل الاحداث على الوجدان وضخامتها وشدة تواترها هي ، بالذات ، التي أذنت بانبثاق الاسئلة الكبيرة ، اسئلة المصير الشخصي والعام .

كتب صدرت للمؤلف

❑ الرواية

١- **المحاصرون** ، دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٣ .

٢- **بير الشوم** ، بيروت : دار الكلمة ، ١٩٧٩ .

٣- **سمك اللجّة** ، دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٨٢ .

❑ الدراسات

١- **الفكر السياسي الفلسطيني ١٩٦٤-١٩٧٤ ، دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية** ، بيروت ، مركز الأبحاث م.ت.ف ١٩٨٠ .

٢- **العمل العربي المشترك واسرائيل ، الرفض والقبول ، ١٩٤٤-١٩٦٧** ، نيقوسيا : شرق برس ، ١٩٨٩ .

٣- **جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨** ، نيقوسيا ، شرق برس ، ١٩٩٠ .

❑ الشهادات

١- **دروب المنفى -١ ، الوطن في الذاكرة** ، دمشق : دار كنعان ١٩٩٤ .

٢- **دروب المنفى -٢ ، الصعود الى الصفر** ، عمان : دار سندباد ، ١٩٩٦

زمن الأسئلة

في هذا الجوّ، لم تتيسر فرص كثيرة للوقوف مع الذات ومراجعة النفس. كان تواتر الاحداث يقيني مندفعاً مع التيار الذي انتمي اليه، وبالرغم من ذلك، ومن قوة سطوته، فإن ثقل الاحداث على الوجدان وضخامتها وشدة تواترها هي، بالذات، التي أذنت بانبثاق الاسئلة الكبيرة، اسئلة المصير الشخصي والعام. إنه زمن انبثاق الأسئلة.

فيصل حوراني

لقد فاجأنا فيصل .. فقد مزج الوعي بالدهشة ومزج الدهشة بالوعي، فجاء المزيج غريباً عجيباً، ولكن صدق هذا المزيج اكسبه مذاقاً خاصاً، وقدمه فيصل لأذواق النقاد ليروا فيه رأيهم؛ لقد امتد بالدهشة حتى بلغت حدود الوعي، وسلط عين الوعي على الدهشة لتكشف اعماق هذه البحيرة التي تشد الناس اليها فيسبحون فيها، وترك الناس حيارى : أين تبلغ حدود الدهشة وأين تبدأ حدود الوعي؟!

د. عبد الرحمن ياغي



ص.ب ٩١٠٢٨٩ عمان ١١١٩١ الاردن هاتف: ٥٥٣٣١١٢ (٩٦٢٦) فاكس: ٥٥٣٣١١٨ (٩٦٢٦)